د. عائض القرني

مجالس الأدب



العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله

مجالس الأدب./ عائض بن عبدالله القرني.- الرياض، ١٤٣٠هـ

٥٦٢ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٦-٥٩٣-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. الأدب العربي - مجموعات ٢- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ٦٨٨٥ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٦٨٨٥ / ١٤٣٠

ردمك: ٦-٥٩٣-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر العبيكان Obeikan **للنشر**

الرياض-شارع العليا العام-جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com



obeikandl.com

obeikandl.com

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

سرعة البداهة ٧
خشبة الموت ١٥
شعر السجون ٢٥
الشعر والكرم ٣٥
قصائد قتلت أصحابها ٤٥
قصائد سارت بها الركبان ٥٥
املؤوا فمه درًّا ٦٧
مدائح نبوية ٧٧
علوّ الهمة ٨٧
المنظومات ٩٥
العلماء والشعر ١٠٥
الرجاء ١١٥
الشيب والهرم ١٢٣
الفرج بعد الشدة ١٣١
الوطن ١٤١
الوقت ١٤٩
ساعة الصفر ١٥٩
الصديق ١٦٩
العلم ١٧٧
العيون في الشعر ١٨٧
قصة وقصيدة ١٩٧

obeikandi.com

كلمة الحب ٢٠٧
الجليس الصالح ٢١٧
الحكمة ٢٢٧
المجد ٢٣٧
بر الوالدين ٢٤٧
محمد إقبال ٢٥٥
النهاية ٢٦٥
الشعر والزهد ٢٧٥
البخل ٢٨٥
الفراقيات ٢٩٣
الوعظ ٣٠٧
الكتاب ٣٢٥
العدو الصديق ٣٣٧
الناجح محسود ٣٥١
أهل العزم ٣٦٥
شمس الشعر ٣٨١
المتنبي في الميزان ٣٩٧
حكم ودرر ٤١١
الكلمة الأخيرة ٤٢٥
زائر الليل ٤٣٩
الرأي قبل الشجاعة ٤٥٣
شعر الشكوى ٤٦٩
ليل الشعراء ٤٨٣
مقابلة مع المتنبي ٤٩٧
الشعر والعيون ٥٢٥
المتنبي والخروج على النص ٥٣٩
عمر الفتى الثاني ٥٥٣

obeikandi.com

سرعة البداهة

سـرعة البداهة في الرجل موهبة من الله عزّ وجلّ يمنحها من يشاء، وخاصة إذا سُخِّرَت في الخير.

ومـن مواقف سرعـة البداهة ما ذكـره أهل الأدب أن أحد الشعراء دخـل على الأمير الْمُهَلَّبِي فـي العـراق، وكان الْمُهَلَّبِي الوزير مَهِيبًـا غَضُوبَاً عَبُوسـاً، فدخل عليه الشاعر وقـت المساء، وأراد أن يقول: كيف أمسيت أيها الأميرُ؟ فغلط الشاعر من الرهبة وخـوف الموقف، فقال: كيف أصبحت أيها الأمير؟ فقـال: هذا مساء أو صباح؟! فأطرق الشاعر قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

obeikandl.com

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي: مَاذَا الصَّبَاحُ؟ وَظَنَّ ذَاكَ مِزَاحَا
فَأَجَبْتُهُ: إِشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرَّنِي حَتَّى تَبَيَّنْتُ الْمَسَاءَ صَبَاحَا

وعلى هذا كانت أجوبة علي بن أبي طالب أبي الحسن، إذ يقولون: كان من أسرع الناس جوابًا؛ لسرعة بداهته. «**قَالَ لَهُ رَجُلٌ: لِمَاذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَاخْتَلَفُوا عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لأَنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَا وَأَمْثَالِي، وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ. قَالَ: أَنْتَ خَيْرُ النَّاسِ. فقَالَ: أَنَا فَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ وَدُونَ مَا تَقُولُ**». و«**قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةُ الشَّمْسِ يَوْمَاً. قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الأَرْضِ وَالْعَرْشِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ**». وأهل الأدب يذكرون أن أبا العلاء المعري ذهب إلى الشريف الرضي في مجلسه، وكان الشريف الرضي لا يحب المتنبي، والمتنبي هو شيخ أبي العلاء المعري، فوقف عنده، وذكر شعر المتنبي، فهوَّن الشريف الرضي شعر المتنبي ومن استشهاده ومن قوة شاعريته، فقال: أيها الأمير، لا تُهَوِّن من شعر المتنبي؛ لو لم يكن له إلا قصيدة:

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْهُ أَوَاهِلُ

لكفى.

قال الأمير: أخرجوه من مجلسي. فقال الناس للأمير الشريف الرضي: ما قال أبو العلاء سوءاً! قال: بلى، هو استشهد بهذه القصيدة مع العلم أن للمتنبي أحسن منها، لكن قصده آخر القصيدة، وهو قوله:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ

فانظر كيف استحضر القصيدة سريعاً، وانتزع هذا البيت؟! وهذا من أجمل الأبيات، فإذا ذمَّك إنسان قليل قدر، فهو دلالة على سمو قدرك، وارتفاع كعبك في المكارم.

ثم ذكروا أن أبا جعفر المنصور كان من الأذكياء وصاحب أدب، ذهب إلى مدينة الرسول ﷺ وهو ملك، فقال: من يطّلعنا على آثار الصحابة ﷺ، وعلى أسماء بيوت المهاجرين والأنصار؟ فأتوا بشيخ كبير - بالأجرة - مُطَوِّفٍ، وقال له أبو جعفر: أخبِرْنِي - فقط - باسم صاحب البيت، ولا تُكْثِر علي. وذلك لأنه لا يحتمل كثرة الكلام، فأخذه من الصباح إلى المساء، يقول: هذا بيت عمر ابن الخطاب، هذا بيت عثمان، هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت حسان بن ثابت ﷺ. ونسوا أن يعطوه الأجرة، وفي اليوم الثاني طلب الشيخ، فقال: ائتوني بالشيخ علي. فأتوا به، فأخذ يدل أبا جعفر ويصف له البيوت، حتى أتى إلى بيت الأحوص الأنصاري الشاعر، فقال: هذا- يا أمير المؤمنين- بيت الأحوص الأنصاري الشاعر الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أَتَعَزَّلُ أَثَرُ الْعِدَى وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ
إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنَّنِي قَسَماً إِلَيكَ مَعَ الصُدودِ لَأَميَلُ

فوجم أبو جعفر، وتعجب لماذا استشهد الرجل بهذه الأبيات؟ فقال: أكملوا القصيدة. فأكملوا القصيدة، فإذا في آخرها:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ الكَلامِ يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ

قال: ما أعطيتموه الأجرة؟ قالوا: لا. قال: الآن هو يطلب الأجرة في القصيدة والاستشهاد، وهذا من هذا.

ثم إن أبا تمام من أشهر الشعراء بلا شك ويأتي بعد المتنبي، وقف عند المعتصم ينشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَأْسِ نَقْضِي ذِمامَ الأَربُعِ الأَدراسِ

إلى أن يقول:

إِقْـدَامُ عَمْـرٍو فِـي سَمَاحَةِ حَاتَمٍ فِي حِلْمِ أَحْـنَـفَ فِي ذَكَـاءِ إِيَـاسِ

فقام الطبيب الكندي- وكان الفيلسوف وكان حاضراً- فقال: ما زدت على أن وصفت أمير المؤمنين بأجلاف العرب! فوجم قليلاً أبو تمام ثم وردَّ الأبيات:

لا تُـنْـكِـرُوا ضَـرْبِـي لَـهُ مَـنْ دُونَـهُ مَـثَـلاً شَـرُوداً فِـي الـنَّـدَا وَالْـبَـاسِ

فَـاللهُ قَـدْ ضَـرَبَ الأَقَـلَ لِـنُـورِهِ مَـثَـلاً مِـنَ الْـمِـشْـكَـاةِ وَالـنِّـبْـرَاسِ

فحُمِدَ فِعْلُهُ في ذلك، فقال الطبيب الفيلسوف: هذا لا يعيش طويلاً. وفعلاً مات أبو تمام وعمره (٤٦ سنة)؛ قال: لأن عقله يأكل جسمه. فدائماً الأذكياء تجد عندهم من الاندفاع، ومن حدة الخاطر، وجودة الرأي ما يؤثر على أجسامهم في الغالب.

وذكـروا- أيضاً- أن أحـد الوزراء كان في مجلس، فقـال لأحد الشعراء: من يُكمـل لـي بيت شعر يبـدأ بكلمة وينتهي بنفـس الكلمة؟ قالوا: أعطِنَـا الكلمة أيها الوزير. قال: سِمْسِمَة. فقال الشاعر الأول:

سِـمْـسِـمَـةٌ فِـي الْـعِـلْـمِ تُـحْـمَـدُ بِـهَـا وَاحْـمَـدْ لِـمَـنْ أَعْـطَـى وَلَـوْ سِـمْـسِـمَـةْ

أي: اطلـب علامة تُحمَد، وتشكر فيها في العلم، واحمد الله ﷻ ولو أعطاك سمسمة. وفي الآخر قال: ملأمة. فقال الثاني:

مَـلْأَمَـةُ الْـوَكْـسَـاءِ فِـي خِـدْرِهَـا أَلْأَمُ مِـنْ حُـرٍّ أَتَـى مَـلْأَمَـةْ

الملأمـة: الجارية الغبية في خدرهـا، أشد بخلاً وأشد ملأمة من الحر الذي يأتي ملأمة؛ أي: ما يُلام عليه من الأفعال الشنيعة:

وَالْـمَـحْ كَـمَـالَ الْـفَـضْـلِ حَـتَّـى تُـرَى قَـاضٍ يُـدِيـرُ الْـحُـكْـمَ فِـي الْـمَـحْـكَـمَـهْ

قال: ألجم. فقال:

أَلْـجِـمْ جِـمَـاحَ الـنَّـفْـسِ عَـنْ غَـيِّـهَـا فَـغَـيُّـهَـا يُـذْهِـبُ بِـالْـجُـمْـجُـمَـهْ

وهكـذا، وهذا من سرعة البداهة التي تحضـر لبعض الشعراء، وهي موهبة، فمن سخرها في الخير أُجِر على ذلك.

وقـرأت في (سفينة الأدب والتاريخ) أن أحـد الأعيان والوجهاء كان مشهوراً بـأكل الربا، وهـو يعرف: السحـت. وكان كذوباً، فدعـا أناساً مـن الأدباء وبعض الأعيان للغداء، وفُرِشت المائدة أمامهم، وجلس عندهم- وهو لا يتغدى- ويحدث لهم بقصص من الأوهام والخيالات والخرافات وهم يأكلون، فهم يرون أن أكلهم من الربا وهو يتكلم بالكذب، ثم صاح بأحد الأدباء، فقال: كيف أنتم يا فُلانُ؟ قال الأديب: سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت. وهذا في كتاب الله ﷻ يقوله ﷻ عن أعدائـه اليهـود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وهذا من سرعة البداهة التي لا تتأتى لكل أحد.

قـرأت أن أحد القـادة المشهورين مرَّ فـي مدينة بسـرداب، والسرداب مثل الشارع الضيق. وفي أحد جنبات السرداب جزار ولا يعلم أن القائد الشجاع سوف يمر، وكان قد ذبح شاة، وأراد أن يرمي ببقية الشاة، مثل: الكراع، والرأس. وعليها دم، ويريـد أن يرميهـا في الشارع، ولـم يعلم أن هذا القائد يمـر بموكبه في هذه اللحظـة، فمر، فرمى، فوقع بعضـ الدم على جسم هذا القائـد وعلى ثيابه وعلى عمامتـه، وكان بطاشاً ظلوماً غشومـاً، وأراد أن يبطش به، فقال أحد الأدباء وكان معه: أيها القائد، يقول أبو الطيب:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُـرَاقَ عَلَى جَوَانِبِـهِ الـدَّمُ

قال: عفوت عنه؛ لأجل هذا البيت. وهذه من قصيدة مشهورة لأبي الطيب، مطلعها:

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ عَرَضاً نَظَرتُ وَخِلتُ أَنّي أَسلَمُ

ومنها:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى في النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

إلى أن يقول:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُـرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

أي: إن المجد العالي يحتاج إلى نضال وإلى كفاح وإلى مدافعة، حتى إلى تضحيات بالغير؛ ليستقيم الأمر، لكن انظر إلى استشهاد هذا الأديب في هذه المناسبة، حتى أعتق هذا الجزار من القتل، أو من الأذى.

وذكر الإمام العلامة الكبير ابن حزم الظاهري، قال: كان أبي مُستشاراً في الديوان عند أحد ملوك الأندلس، قال: فأتى عدوّ له يراجع أبي في مسألة، فكتب خطاباً لأبي، وكتب في الخطاب- وهذا من قلة الحيلة وقلة الذكاء- قول أبي الطيب:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

فأنت تحتاج إلى هذا الوزير، وتريد أن تراجعه في أمر، فتكتب هذا البيت الذي مقصوده: إننا مضطرون لك وأنت عدو لنا، لكنا حملتنا الضرورة والحاجة لأن نصانعك، وما كان ينبغي أن نفعل ذلك. فمن ذكاء والد ابن حزم أن قلب اللفظ، فقال:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى صَدِيقاً لَهُ مَا مِنْ عَدَاوَتِهِ بُدُّ

أي: إنك كنت صديقاً قبل، لكنك اضطررتنا الآن، وأغضبتنا إلى أن نجعلك عدواً بالغصب والقوة. وهذا يفعله بعض الناس من الْهَوَج، بأن يستخدم بعض العبارات التي لا تجدي، وقد تكلفه روحه، أو تكلفه موقفه أو مصلحته، حتى إن الله عزوجل يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. أي: يختارون من العبارات اللينة الموفقة التي تدعو إلى الوفاق، وإلى المسامحة، أحسن من اختيار العبارات التي تُزعج.

ومـن هذا البـاب أن امرأة كانت مارَّةً في مجلس في الكوفة، وفيها قوم يظهر أنهـم مـن بني نُمير، فنظروا إليهـا، فالتفتت إليهم، فقالـت: قاتلكم الله يا نُمير، أنتـم لا أخذتـم بقول الله ﷻ ولا بقول جرير، فـالله ﷻ يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وجرير يقول:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْبَاً بَلَغْتَ وَلا كِلابَا

انظر لهـا كيف استخدمت الأمريـن، واستشهدت في الحـال المناسب بهذا الاستشهاد المناسب في وقته؟! وهذا من الذكاء المفرط.

ذكر الذهبي عن أبي مسـلم الخراساني القائد المشهور، وهو من القادة الكبـار، الذي نقل دولة بني أمية إلى بني العباس. وكان من الذكاء على نحو عجيب، قُتِل وَعُمرُه (٣٩ سـنة) كان يخطب بالنـاس في يوم الجمعة، وعليه عمامة سـوداء، فقام أحد الناس- وهذا طُفَيلِي متعجل- وقال في المسجد: لماذا تلبس السـواد، وقد نُهِينا عن لبس السـواد؟! والسواد هو شعار الدولة العباسـة، فالتفت أبو مسلم إلى الرجل وقال- وهو مرتجل وما قطع كلامه: حدثني فـلان، عن فلان، عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ». وقال: يا غلام، اضرب عنقه. فقتله أمام الناس وأتى بالحديث، فعجب الناس من سرعة بداهته، وحفظه للحديث وهو قائد عسكري وقائد سياسي، وأمر بالقتل في الحال!

ومن هذا الباب ينبغي- أيضاً- ألا تُستخدم سرعة البداهة في النيل من الناس والتعرض لهم والإضرار بهم؛ لأن من عنـده جرأة في الحديث أحياناً إذا لم يكن عنـده تقوى، ولم يكن عنـده وازع ديني أسرع بالكلام فيمـا يشتهي، ولذلك كانت سرعـة بداهة الأخيار والأبرار فيما يرفع وفيما يُقِيمُ، وأذكر من المعاصرين أحد العلماء، ذهب إلى دولة من الدول- وهي دولته، لكن منعته من الدخول فيها؛ لأمر سياسـي- فوصل المطار وأُمِر أن يُعاد مـن المطار، وأن يخرج خارج الوطن، فلما

رجع إلى أصحابه قالوا: كيف وجدت المدينة التي ذهبت إليها؟ قال: مُلِئَت حرساً شديداً وشُهُبَا. وهذا من أسلوب القرآن الكريم.

وعلى سبيل اختيار الألفاظ حدثني أحد الأدباء في الرياض أنه قرأ أن هتلر لما اتجهت جيوشه إلى بلغراد، متجهة إلى موسكو، وفي تلك المدة ألقى خطاباً عالمياً أُذِيع على العالم، فطلب أن تُختار له كلمة من الكتب السماوية: القرآن، أو الإنجيل، أو التوراة، تملأ الجو والمكان والزمان، وكان عندهم هناك أديب عراقي لاجئ في ألمانيا، فأتاه الخبر، فقال: أرى أن هتلر يبدأ خطابه الليلة بقوله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. هذا الكلام الذي يملأ الجو ويملأ المكان ويملأ الزمان، فبدأ بهذا الخطاب، ولذلك أسلوب القرآن عجيب، حتى الجن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. فهم ذهلوا وعجبوا، حتى الجن سمعوا هذا الكتاب، فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً. فإذا عُلِمَ هذا، فهذه بعض المواقف الشاعرية، وقد قرأت أن بعض الأدباء كان جالساً، فأقبل عالم- وبعض العلماء يرى عدم القيام، وهذا رأي من المذاهب - فقام الأديب له، فقال العالم: اجلس، لا يجوز القيام. وهذا على مذهبه، فقال الأديب الشاعر:

قِيَامِي - وَالإِلَهِ - إِلَيْكَ حَقٌّ ... وَتَرْكُ الْحَقِّ مَا لا يَسْتَقِيمُ
وَهَلْ رَجُلٌ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ ... يَرَاكَ تَسِيرُ إِلَيْهِ وَلا يَقُومُ

فانظر كيف حضر له مثل هذا المعنى، ومثل هذه الأبيات في هذا المكان، والمواقف في ذلك كثيرة ولكن السلف الصالح - ذَكَرُوا عنهم - أنهم ما كانوا يستخدمون مثل هذا؛ لأنهم يخشون أن يكون شيء من المباهاة، حتى يقول الحسن: أترك بعض الكلام؛ خشية الْعُجْب. أي: يترك بعض الاختيارات والاستشهادات؛ خشية من العجب. وبعضهم يتركه خشية من العين، فإن إياساً القاضي كان من أذكى الناس، ولذلك كان يُخشى عليه من العين؛ لتسديده في القضاء، وتسديده في الإجابة. ومن أكثر من كان يجيب شريك القاضي؛ قال له رجل: من عندنا خرج العلم. أي: من الكوفة. قال: ثم لم يعد إليكم أبداً.

خشبة الموت

عنـد الأدباء مصطلح اسمـه: خشبة الموت. وهـي النهايـة للإنسـان، أو الصلب لـه، أو القتل أمام الجماهير. وعادة ما يُفعل لمن كان ذا مكانة أو مشهـوراً أو زعيماً أو جواداً أو بطلاً، ومن سادة مَـنْ فُعِلَ به وصُلِبَ أمام العالم عبد الله بن الزبير «ابن حواري الرسول ﷺ، صلبه الحجاج الظالم، حتى مـرت أسماء بنـت أبي بكر «وكانـت عمياء، وأخبروها أن ابنها مصلوب، فقالت: «**أَمَا آنَ لِهَذَا الْفَارِسِ أَنْ يَتَرَجَّلَ**». ومر التاريخ برواياته على من صُلِبُـوا، ومن أشهرهم وأكثرهم اعتباراً في الأمة،

obeikandi.com

وذيوعـاً في التاريخ ابن بقية الوزير، وكان وزيـراً عباسياً ذا كرم ونجدة ومروءة، حتـى إنه تكفـل لمن يحفظ القرآن بجائزة ثمينة ببغـداد، وكان ينفق على العلماء ويُطعـم المساكين، ومرَّ جَدْبٌ في بغـداد وقحط، فأخذ الأضحية من ماله وجعلها لأهل بغداد، وقد آتاه الله مالاً، لكن ليس كل إنسان آتاه الله مالاً يكون جواداً، ولكن إذا اجتمـع الجود والمال فهـو الكمال، وهذا الذي حصل لابـن بقية، وكان الملك في تلك المدة عضد الدولة فن خسرو الديلمي، وكان باطشاً قوياً وهو من جبابرة الملوك، وهو المقصود الذي مدحه المتنبي بقوله في قصيدة طويلة:

فِـداً لـك مـن يُقصّـر عـن مَداكا ... فمـا مـلـكٌ إذَاً إلاَّ فِـدَاكَـا

أَرُوحُ وَقَـدْ خَتْمَتَ عَلَى فُـؤَادِي ... بِـحُـبّـكَ أَنْ يَـحُـلَّ بِـهِ سِـوَاكَا

إِذَا اشْـتَـبَـكَتْ دُمُـوعٌ فِـي خُـدُودٍ ... تَـبَـيَّـنَ مَـنْ بَـكَـى مِـمَّـنْ تَـبَـاكَى

عضـد الدولة مدحه المتنبي- أيضاً - فـي قصيدة أخرى، واسمه فَنَّ خسرو يقول:

فَـمَـا يُـسْـمَـى كَـفَـنـخُـسـرو مُسمّى ... وَلا يُـكْـنَـى كَـفَـنـخُـسـرو كَـانِـي

يقول: لا يسمّى بمثل اسمك أحد، ولا يُكنى بمثلك أحد.

الشاهـد أن هذا الملك غضب وأصابته الغيرة من الوزير ابن بقية؛ لما يمتاز به من كرم وجود وغيرهما من الصفات الطيبة، فاحتال عليه، حتى وضعوه للفيلة في بغداد وقُتِلَ وصُلِب، في ليل بطيء النجوم، ليلٍ صعب على أهل بغداد وعلى أهل العـراق، وجاء الخبر في الصباح مع الأذان: قُتِل ابن بقية مع الأذان وهو مصلوب عند بـاب الطاق. وبـاب الطاق مدخل بغـداد، وهناك خشبة المـوت صُلِب عليها ابـن الوزير مُسمّر اليدين ونصفه الأعلى عـارٍ، والرياح تلفح وجهه، وهو منتصب كأنـه علم وكأنه عمود، وجاء الخبر أبا الحسن الأنباري المحدث والمفسر الأديب فـي المسجـد، فقال لطلابه: قوموا بنـا؛ وفاءً للذمة وإعادة الحـق والخير لفاعله

ومسديه ابن بقية، فذهب ووقف أمام الجثمان وإذا بابن بقية على حاله، والناس مصطفون أمام ابن بقية، هذا يدعو وهذا يبكي وهذا يشير بيده وهذا يترحم عليه، وهذا ينظم قصيدة، فسَلَّمَ أبو الحسن الأنباري، والتفت إلى ابن بقية وهو مصلوب مقتول، فقال:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

فَحَوَّلَ السلبيات إلى إيجابيات والخسائر إلى أرباح، فقال: حتى موتك مميز، فما مت مثل الناس وما دفنوك، أي إنك رفضت أن تُدّفنَ إلا أن تكون علواً في الجو، مثل حياتك يوم أن كانت قوية مرتفعة عالية.

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ - حَوْلَكَ - حِينَ قَامُوا وُفُودٌ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلاتِ

كأنهم يريدون أن يأخذوا الصلات والأعطيات، مزدحمين، مثلما ازدحموا عند قصرك في حياتك.

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلاةِ

حَتَّى إن يديه لما كانتا مسمرتين يقول: كأنك أنت الآن تُحَيّينَا وتحتضننا وترحّب بنا.

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ؛ احْتِفَاءً كَمَدِّهِما إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

ويقول: هم ما دفنوك في التراب؛ لأن القبر لا يتسع لمكارمك، ولا لجودك.

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ يُوَارُوا فِيهِ تِلْكَ الْمَكْرُمَاتِ
أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا عَنِ الأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ

يقول: الرياح صارت أكفاناً لك، وَتُصَبّحُ عليك، وَتُمَسّي عليك بالخيرات، ثم يقول:

لِعِظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيتُ تُرْعَى بِحُرَّاسٍ وَحُفَّاظٍ تُقَاتِ

يقول: أنت عظيم مَهيب؛ حتى وأنت ميت يخافونك والعسكر حولك. إذ كان العسكر حوله، حتى لا ينزلوا جثمانه من على الخشبة. فسبحان الله! هؤلاء يحرسونك ويخافونك، حتى وأنت ميت.

وَتُوقَدُ حَوْلَكَ النِّيرَانُ لَيْلاً كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
وَمَا لَكَ تُرْبَةٌ فأقُولُ تُسقَى لأَنَّك نُصْبُ هَطْلِ الهَاطِلَاتِ

يقول: لو أنهم دفنوك في التراب لقلت: سقى الله ترابك الغيث. كيف لا تربة توارى فيها؟! لأنك نصب هطل الهاطلات، اقتربت من السحاب.

عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْدُو بِتَبْرِيكٍ غَوَادٍ رائحَاتِ

ثم يقول: والله إني مقصر في حقك. أو بعد هذه القصيدة تقصير يا ابن الأنباري؟!

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ قِيام حَقٍّ عَلَيْنَا بِالْحُقُوقِ الْوَاجِبَاتِ
مَلأْتُ الأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي وَنُحْتُ بِهَا خِلافَ النَّائِحَاتِ

إلى آخرها، وهي اثنان وعشرون بيتاً، وما قيل مثلها في المراثي، وفرّ بعد هذه القصيدة إلى ملك حلب، وأرسل عضد الدولة للبحث عن ابن الأنباري، فما وجدوا غير هذه القصيدة، فقال: اقرؤوا عليّ القصيدة - وعضد الدولة هو القاتل- فقرؤوا عليه هذه القصيدة، فسالت دموعه، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لوددت أني قُتِلت وَصُلِبْتُ، وقيلت فيّ هذه القصيدة. لأنها مما يخلده الدهر قوة وبلاغة وأداءً، هذه القصيدة التي يسميها:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقٌّ؛ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

وأَعْظَـمُ فَنٍّ أَثَّرَ فيه العرب هو فن الرثاء، وكتبوا فيه أحسن شيء، حتى يقول جرير: **لَوْ تَرَكَنِي الْفَرَزْدَقُ لَأَبْكَيْتُ الْعَجُوزَ عَلَى شَبَابِهَا.**

فما بكى العرب، مثلما بكوا الإنسان إذا مات، وبكوا الشيب إذا فقدوا الشباب، أو بكوا الشباب إذا دلف عليهم الشيب.

وأبـو تمام من المجيدين مـن شعراء العربية على الإطـلاق، ذلك أن محمد بـن حميد الطوسي البطـل كان مجاهداً فـي عهد المعتصم، جاهـد جهة الروم وحضر المعركة وقاد الجيش، وقال: احموا ظهري. فأخذ المسلمون يحمون ظهره وأخـذ يستبسـل في سبيل الله ويقاتـل وتتكسر السيوف في يده، وفـي الأخير أتته كتيبـة وشاكوه بالرماح، ولم يفر ولو خطوة، فوقع أسيراً بعدما أصبحت ثيابه كلها حمراء من الدم، فأتى الخبر أبا تمام فقال قصيدته، حتى إن المعتصم لما سمع قصيدته قال: ما مات من قيلت فيه هذه القصيدة، وما زال حياً. فقال أبو تمام:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ[1]

تُـوُفِّـيَـتِ الآمَـــالُ بَـعْـدَ مُـحَـمَّـدٍ ... وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفْرُ

أي: لا تتأملـوا شيئـاً، فقـد انتهـت الطلبـات؛ لأن محمـداً كان شجاعاً، ولم يعـد للمسافريـن رغبة في أن يسافروا لأحد يطلبـون الجود فقد توفي محمد، فلا تسافروا.

فَتًى كُلَّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ ... دَمًا ضَحِكَتْ عَنْهُ الأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

ثم يقول في المعركة:

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى ... لَهَا اللَّيْلُ إِلاَّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

(١) قوله: كذا. أطلقها مدوية في الفضاء، تملأ الزمان والمكان.

أي: فـي الجنــة. صارت حمراء بالدم وبعد ساعة مع الغروب وإذا هو في جنة النعيم، فنسأل الله أن يغفر لكل أموات المسلمين.

ثَوَى طَاهِرَ الأَرْدَانِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ غَـدَاةَ ثَـوَى إِلاَّ اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ

يقول: لما ثوى كل بقعة وكل أرض تقول: يا ليته دُفِن فِيَّ. ثم يقول:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ صَعْبَاً فَرَدَّهُ عَلَيْهِ حِفَاظُ الْمُرّ وَالْخُلُقُ الْوَعرُ
وَنَفْسٌ تَعَافُ الـذُّلَّ حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الكُفْرُ
فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْهَوْنِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا: مِنْ تَحْتُ أَخمصك الْحَشْرُ

أي: في المعركة. إلى أن يقول:

لَقَدْ مَاتَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

هــذه هي المراثي التي يقدمها العرب، حينمــا يرثون جواداً أو خَيّرَاً، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بعدما يقدم تاريخاً مجيداً من العمل الصالح، من الكرم ومن البر ومن الحلم ومن نفع الآخرين، فيكتسب هذا الثناء، حتى إن المتنبي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي، وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَه وخُضُوعُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا من أجمل ما قاله المتنبي في قصيدته التي يقول لأبي شجاع فيها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

ثم يقول في القصيدة:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

فهنا يقول: إن قيمة الإنسان وعمره الثاني، كما يقول ابن دريد:

وَإِنَّـمَـا الْـمَـرْءُ حَـدِيـثٌ بَـعْـدَهُ فَكنْ حَديثَاً حَسَنَاً لِمَنْ وَعَى

أنت - أصلاً - بعد موتك حديث، والله ﷻ لما أهلك أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]. أصبح أحاديث في الأماكن، فإما أن تكون له أحدوثة طيبة أو أحدوثة سيئة - أجاركم الله - فحاول أن يكون لك ذكر حسن عند جيرانك وإخوانك وأصدقائك؛ لأنه كما في الحديث الشريف: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**». ومن شهد له المؤمنون بالخير فهو خَيِّرٌ ومن شهدوا له بالسوء فهو سيئ، حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. هذا وهو نبي معصوم مرسل من عند الله ﷻ، يقول: يا ربِّ، أسألك أن يكون لي ذكر حسن عند الناس، فيذكرونني بالخير. لأنهم إذا ذكروك بالخير دعوا لك واحتفوا بك وصار لك وفي ذريتك تاريخ ومجد، وهذا يكسبه الإنسان بعمله الصالح وبعلمه النافع ببذله وعطائه وأخلاقه ورحابة صدره، وبمروءته وبشيمه، وما ذلك على الله بعزيز إذا وفق الله ﷻ العبد إلى ذلك.

نعود إلى المراثي التي رُثِيَ بها الناس، وهي كثيرة- على كل حال-ومن بعض المقطوعات التي قيلت في الرثاء:

يا لَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرَاً بِخَارِجَةٍ ... فَدَتْ عَلِيَّاً بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

ومثل سلم بن سعيد بن قتيبة أحد أحفاد قتيبة بن مسلم القائد المشهور حفيد قاضي خراسان، وكان كريماً جواداً منفقاً مبادراً، توفي فقال أحد الشعراء فيه:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلا مَغْرِبٌ إِلاَّ لَهُ فِيهِ مَادِحُ

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ ... عَلَى الأَرْضِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَاصِحُ

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَقَدْ كَانَ -أَحْيَانَاً- تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ

سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغُضْ ... فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ

إلى آخر ما قاله، وهي من أجمل ما قيل في هذا الأدب الذي ذكره هذا الشاعر المجيد من الشعراء.

ورُثِي الخلفاء والأئمة والعلماء، ومن أحسن ما قيل في ذلك الباب قيس بن عاصم سيد حلماء العرب، الذي وفد على رسول الله ﷺ، وفيما يُروى في السيرة أنهُ رضي الله عنه لما قال: «**أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِيناً تُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّت، وَيُدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ وَهُوَ عَمَلُكَ، يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَ الْعِزَّةِ ذِلَّةً وَمَعَ الْغِنَى فَقْراً وَمَعَ الْقُوَّةِ ضَعْفاً**». لما تُوُفِّي قيس يقول شاعر بني تيم:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ -قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ- وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً إِذَا زَارَ عَنْ قُرْبٍ بِلادَكَ سَلَّمَا
وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُوْتُهُ مَوْتَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

بالمناسبة لما توفي عبد الملك بن مروان حضر أبناؤه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. يقول ابن خلدون: «الناس على دين ملوكهم في الغالب وعلى دين خلفائهم». لأن مسيرة الوليد أنه كان معمارياً مهتماً بالعمار وهو الذي وسع المساجد، فاشتغل الناس بالعمار، وأما سليمان فكان مشتغلاً بالموائد، يحب الطعام والشراب كثيراً، فاشتغل الناس بالأكل والشراب، وأما هشام فكان صاحب دواب فغلا سعر الحيوانات والدواب في ذلك الوقت، وعمر بن عبد العزيز كان زاهداً ورعاً عالماً، فاشتغل الناس بالعلم وزهدوا بالدنيا، فالشاهد أنهم أتوا يدفنون عبد الملك، فقال هشام:

وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُوْتُهُ مَوْتَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

قال ابنه الوليد ولي العهد: كذبت- قاتلك الله- بل أبقى لك الله ما يسوؤك. يعني تعريضاً بأخيه ولي العهد. فقصدي من هذا أن المراثي قد تقدم في سجل الأموات، متى ما أحسن هذا الميت عمله، وبالمقابل فمنهم من يُسب وهو ميت، ولذلك ينبغي أن يكون الأدب رسالة حق، وأن يُقدم، لا رسالة لكسب عرض من الدنيا، ولا يكون فيه تزوير شهادة فيها مقت، إنما يكون الإنسان صادقاً في شعره

صادقـاً فـي قوله، صادقاً في كلامـه، أذكر أنَّ نزار قباني الشاعـر المعاصر قال يرثي أحد الزعماء لما مات، فقال فيه قصيدة من أجمل ما قيل:

فبُعدكَ لَـوْعَـةٌ وَرَوْضُـكَ أَخْضَـرُ ... وَذِكْرَاكَ عُصْفُورٌ مِنَ الْقَلْبِ يَنْقُرُ

مَلأْنَا لَكَ الأَقْدَاحَ- يَا مَنْ بحبّهِ- ... سَكِرْنَا كَمَا الصُّوفِيّ بِالْحُبِّ يَسْكُرُ

شَهِدْنَا وَفَكَّرْنَا وَشَابَتْ دُمُوعُنَا ... وَشَاخَتْ لَيَالِينَا وَمَا كُنْتَ تَحْضُرُ

تَأَخَّرْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوى -يَا حَبِيبَنَا- ... وَمَا كُنْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوَى تَتَأَخَّرُ

أُحِبُّكَ لا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبْوَتِي ... يُفَسِّـر مَـاذَا وَالْـهَـوَى لا يُفَسَّرُ



obeikandl.com

شعر السجون

أقدار من الله ﷻ يُقدِّرُها على بعض الناس، فيدخلون السجن، والسجن بيت الوحدة، فالإنسان في السجن لا هو ميت فيُنعى ولا هو حي فيُرجى، قد دخله زعماء وعلماء وأدباء وحكماء، كلٌّ عبَّر بطريقته، وأفضل من دخله يوسف عليه السلام فإنه من شدة الكرب في السجن يقول لمن معه: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: لا تنسنا من الشفاعة عند الملك؛ فإنا تعبنا من السجن. هذا هو معنى الكلام، فهذا من شدة السجن، والرسول ﷺ هُدِّدَ به من الكفار ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ويثبتوك، أي: يسجنوك.

وأذكـر أن البرامكة ممن نُكِب نَكْبة ساحقـة ماحقة في التاريخ العباسي، لما عـدا عليهم هارون الرشيد- سامَحَه الله- ووضعهم في السجن، حتى يقول يحيى ابـن خالد البرمكي (أحدهم) لمـا رأى السجان واقفاً عند الباب، وكانوا قبل في قصـور وفي نعيم، وكانت الدنيـا تحييهم، وكانت الجماهير تحتشد عندهم، وكان الذهب يُصبّ على أقدامهم، ثم وُضِع في غرفة مغلقة، فقال يتمثل بهذه الأبيات:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأَمْوَاتِ فِيهَا وَلا الأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمَاً لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا ... إِذا مَا تَحَدَّثَنا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنْ حَسُنَتْ كَانَتْ بَطِيئَاً مَجِيئُهَا ... وَإِنْ قَبُحَتْ لَمْ تَنْتَظِرْ وَأَتَتْ سعيا

فليس عندهم وكالات أنباء ولا مجلات ولا صحف ولا صديق ولا زيارة.

فهـذا مـن التشاؤم، ومثلَ هـذا التشاؤم ذكر الجاحظ في كتابـه (البغال) أن أحـد الأمـراء هنأه أهل بغداد، فقالوا: هنيئاً لك أنك في العراق أميرٌ. فقال: أنتم لا تعرفون الإمارة؛ هي صولات وجولات وفزعات، فإذا أتى البغل يرسله الخليفة بخبر، إما بعزل أو بنكال رجف قلبي حتى تبلغ القلوب الحناجر. فيقول هو في القصيدة:

إِذَا مَا بَرِيدُ الْحَيِّ أَقْبَلَ نَحْوَنَا ... لِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا
فَإِنْ كَانَ شَرَّاً سَارَ يَوْمَاً وَلَيْلَةً ... وَإِنْ كَانَ خَيْرَاً قَصَّدَ السَّيْرَ أَرْبَعَاً

ومثـل ذلك الزبيري في اليمـن؛ فإنه سُجِنَ يوم الثورة على إمام اليمن وخرج مـن السجن إلى باكستان، خرج منتصراً؛ فالزبيـري أديب مسلم صاحب رسالة، وله كلمات قوية في الأدب والشعر، حتى إنه يقول:

خَرَجْنَا مِنَ السِّجْنِ شُمَّ الأُنُوفِ ... كَمَا تَخْرُجُ الأُسْدُ مِنْ غَابِهَا
نَمُرُّ عَلَى شَفَرَاتِ السُّيُوفِ ... وَنَأْتِي الْمَنِيَّةَ مِنْ بَابِهَا

خرج مباشرة وركب من باب المندب؛ حتى لا يقبض عليه جنود الإمام وحراسه مرة ثانية، ثم وصل إلى باكستان، وقال في إذاعة باكستان يخاطب الشعب اليمني:

الشَّاعِرِيَّةُ فِي رَوَائِعِ سِحْرِهَا ... أَنْتَ الَّذِي سَوَّيْتَهَا وَصَنَعْتَهَا
أَنْتَ الَّذِي بِسَنَاكَ قَدْ عَطَّرْتَهَا ... وَأَشَعْتَهَا بَيْنَ الْوَرَى وَأَذَعْتَهَا
أَبْعَدْتَنِي عَنْ أُمَّةٍ أَنَا صَوْتُهَا الْـ ... ـعَالِي فَلَوْ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعْتَهَا
مَا قَالَ قَوْمِي: آهٍ؛ إِلاَّ جِئْتَنِي ... وَكَوَيْتَ أَحْشَائِي بِهَا وَلَسَعْتَهَا
عَذَّبْتَنِي وَصَهَرْتَنِي لِيَقُولَ عَنْـ ... ـكَ النَّاسُ هَذِي آيَةٌ أَبْدَعْتَهَا

وسُجن أبو العتاهية؛ ذلك أنه تاب إلى الله من أن يقول الشعر، فحلف المهدي الخليفة العباسي: لتشعرنّ. فقال: والله ما أقول الشعر. فقال: والله لتقولن الشعر. وذاك خليفة وملك، يقول ابن الوردي في مثله:

احْذَرِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ ... لا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَل

فقال: احبسوه. فقال: فدخلت الحبس فَدُهِشْتُ من خوف الحبس. ووجد شيخاً كبيراً في قصة طويلة، يقول في الحبس- وهي رسالة إلى الخليفة-:

أَمَا -وَاللهِ- إِنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ
إِلَى الدَّيَّانِ يَوْمَ الْحَشْرِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

وهذا يُذَكِّرُنِي بامرأة اعتدى عليها ابن الفرات الوزير العباسي؛ أخذ مزرعتها وأخذ بيتها ظلماً وبُهتاناً فشكته إلى الله، فقال: ادعِي في الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير تُستجاب فيه الدعوة، استهزاءً وسخرية، فأخذت هي الثلث الأخير شهراً، فسَلَّط الله عليه الخليفة، فقطع يده وأهانه وعزله، ومرَّت به وهو يُجلد بالسياط، فقالت: جزاك الله خيراً؛ جربنا الثلث الأخير ووجدناه أحسن ما يكون والدليل كما ترى. أصبح تحت السياط، ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ ... وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ... لِقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فأبو العتاهية سُجِنَ، يقول: انتظر؛ فسوف تأتيك الأمور. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فالأيام دُوَلٌ:

هِيَ الأَيَّامُ وَالْغِيَرُ ... وَأَمْرُ اللهِ يُنْتَظَرُ
أَتَيْأَسُ أَنْ تَرَى فَرَجاً؟! ... فَأَيْنَ اللهُ وَالْقَدَرُ؟!

فهو عز وجل سريع الفرج. وقد أنشدوا في ذلك كثيراً.

لكن مقصودي السجن، وما قال الشعراء فيه، وهو شعر السجون، وكيف تحدثوا في تلك المسألة التي يحل بها الإنسان؛ لأن عقارب الساعة تتوقف في السجن، وكأن الزمن يتوقف، وما ترى إلا الجدران أربعة، تنتهي أخبار الأهل والأسرة والآمال، تصبح الحياة ساكتة صامتة.

فهذا ابن الزبير سجن ابنَ الحنفية، وابن الزبير كان يُسمى: العائذ بالبيت. عائذ بالله عائذ بالبيت العتيق؛ لأنه تحصّن فيه من الحجّاج، حين نوى قتله في الفتنة المعروفة.

ابن الزبير سجن ابن الحنفية في سجن عارم، وسجن عارم هو غرفة اتخذها عبد الرحمن بن عوف سجناً لمولى له، سجنه أسبوعين في الغرفة فسُمِّي سجن عارم.

المهم أن ابن الزبير سجن ابن الحنفية في هذا السجن، فقال كثيّر عزة في ذلك، مخاطباً ابن الزبير:

تُحَدِّثُ مَنْ لاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِذٌ ... بَلِ الْعَائِذُ الْمَظْلُومُ فِي سِجْنِ عارِمِ

openkandil.com

يقول لابن الزبير: لا تغتر؛ لأنك سجنت محمد بن الحنفية (ابن علي)؛ كيف تحدّث الناس أنك عائذ بالبيت من الحجّاج، مع أن العائذ هو ابن الحنفية (ابن علي).

وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا جَمَالٌ لِأَهْلِهَا ... وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضَرْبَةِ لازِمِ
لِكُلِّ زَمَانٍ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَنْتَهِي ... وَيُصْبِحُ مَا لاقَيْتَ حُلْماً لحَالِمِ

والآن ذهبوا إلى الواحد الأحد؛ الساجن والمسجون والباطح والمبطوح والجالد والمجلود والقاتل والمقتول، حتى يحكم بينهم ﷻ في محكمة العدل الإلهية، يوم لا حاكم إلا الله، ولا قاضي إلا الله ﷻ.

ومن الملوك الأدباء المعتمد بن عباد صاحب الأدب وصاحب البيان، صاحب الشعر، صاحب إقبال الدولة، أخذه ابن تاشفين بعدما غلب عليه وسمله وسجنه في سجن أغمات، حتى إنه في أيام أبهة المُلك كانت زوجته نذرت أن تمشي على الكافور، فأمر أن يُطَيَّن لها طين ويُنبت بالكافور والمسك فتمشي عليه، وذلك من الأبهة والترف، وأُخِذ فيما بعد وسُجِن في سجن، وأتت بناته يوم العيد، وقد أصبحن فقيرات حسيرات ينسجن بالأجرة، فأتين يزرنه في السجن- وهو الملك نفسه والآن مسجون- ورأى من شق الباب وإذا ببناته فقيرات حسيرات حافيات، فكاد قلبه ينخلع، وقال قصيدة من ضمنها ما يخاطب فيه نفسه:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورَا ... فَزَارَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَات مَأْسُورَا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ بَالِيَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا
يَمْشِينَ فِي الطِّينِ وَالأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ... كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورَا

وهذه سنة الله ﷻ في تغير الأحوال، وخاصة على أهل الظلم، فإن الظلم- كما يقول ابن خلدون- مؤذن بخراب العُمران وهلاك الدول، انظر لهذا كيف تحول الحال إلى ذلك، وهذا حال الدنيا، حتى إن الحافظ ابن كثير ذكر الخلفاء؛ فتراك

تجـد الأميـن يُقتل ويقتله المأمـون، وابن المعتز يُغتال في ليلـة، والقاهر الخليفة العباسـي تُسمل عيناه فيصبح أعمى، ويُضـرب أحدهم بالدبابيس ويُقتل الوزراء، مثـل: ابن الجراح، وابـن أبي إسرائيل، وابن بقية الذي صُلِـب وقال فيه الأنباري: علـوٌّ في الحياة وفي الممات. قال ابن كثير: وهـذه هي حال الدنيا وتقلبها بأهلها. كما قال الأول:

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا ... أَبْكَتْ غَـدًا! قُبْحًا لَهَا مِنْ دَارِ

ولذلك، فإن أحد الشعراء لما رثى ابنه يقول:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ[1] وأنت تُرِيدُهَا ... صَـفْوًا مِـنَ الأَقْـذَارِ وَالأَكْـدَارِ
وَمُـكَـلِّـفُ الأَيَّـامِ غَـيْـرَ طِبَـاعِهَا ... مُـتَـطَـلِّـبٌ فِـي الْـمَـاءِ جَـذْوَةَ نَـارِ

فليس هناك ما يمكن أن يعود له الإنسان إلا الإيمان باللهﷻ، إلا الركون لهﷻ والتوكل عليه، فهذه من أخبار السجن.

وبعضهـم رحـب بالسجن وجعله نعمـة وحمد الله على ذلك، حتـى إن الإمام المـروزي سُجِنَ، فقالوا له: ما أخبارك في السجـن؟ قال: سقطت عني الحقوق- أي: حقـوق الإخـوان، من الزيـارة والعيادة والهديـة، فلا يُطالبك أحـد- ورأيت النواهب ومرت بي العجائب، وخبرت التجارب، وذقت المصائب.

حتـى إن بعضهـم يقول: «نعم السجن؛ فإنك فيه تراجـع نفسك، وينكسر فيه ظهر عُجْبِكَ، ويذهب كِبْرُك، وتتذكر بيت الوحدة وهو بيت القبر».

لأن السجـن أشبه شيء بالقبر، فهو حسـن لمن وجهه في ذلك، وممن سُجِن ابـن تيمية شيـخ الإسلام الحافظ أبو العباس، فإنه لمـا دخله اشتغل في المسائل الشرعيـة، ووضعوا دونه الباب، فقـال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ

(١) أي: الدنيا.

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. ثم قال: «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أنَّى سرت فهي معي؛ أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة وسجني خلوة». ثم قال: «المأسور من أسَرَهُ هواه». أي: إن المسجون من سجنه هواه، وليس المسجون من سُجِنَ بين الجدران، فهو قد حوّل السجن إلى مدرسة وإلى جامعة للتأليف والتسبيح والعبادة والذكر ومراجعة القرآن وتدبر الآيات البينات، وكان يكتب الرسائل ويرسلها من السجن إلى الآفاق، ويفتي المسلمين، حتى إن فتاويه جاءت في ثلاثين مجلداً أو أكثر، كُتِبَت في السجن، فأرسل علماً كثيراً.

ويقولون: إن أحد الشعراء الشعبيين سجنه أحد الأمراء، فقال:

أَنَا يَا كَرَى مِثْلَكْ حِبَّ الْعُلا شَجْعَان ... يِرَاهِمْ ابْرَاسِهْ مَا يْخَافَ الْيَمَانِيَّهْ
أَنَا بِعْتْ رَاسِي مِنْ امْحَمَّدْ وَلَدْ عَدْنَانْ ... قِبِضتْ الثَّمَنْ وَاللهْ يَشْهَدْ عَلَى النِّيَّهْ

فالناس مجمعون على أن السجن فيه هذا وذاك، فمن تقبل النكبة، مثل السجن بنفس ضيقة وبتشاؤم ضاقت عليه الدنيا وشعر أنه في أضيق من ثقب الإبرة، وأخذه العويل وأخذه الانهزام والإحباط والهم والغم، ومن أخذ السجن على أنه بيت للعبادة وبيت للخلوة وبيت لمراجعة النفس كان بعكس ذاك.

حتى إن الإمام أحمد- لما سُجِنَ (وعمره ٣٦سنة)- جعلها لمراجعة القرآن وذكره ﷻ وتلاوة كتابه وقيام الليل، حتى يقول الإمام أحمد: إنه لما سُجِنَ، سُجِنَ معه رجل عظيم اسمه عُجيف. قال: يا إمام أحمد، فيمَ سُجِنْتَ؟ قال: في السنّة؛ أقول لهم: القرآن غير مخلوق. فيقولون: مخلوق. قال: اصبر يا أحمد، أنا سُجِنْتُ في شُرب الخمر سبع مرات. يشرب ويُسجن ويبطحونه ويضربونه ويرجع ويشرب، فكان صامداً إلى آخر قطرة، قال الإمام أحمد: فشدَّ قلبي. أي: قوّاني. قال: ولما خرجت من السجن ذهبوا بي. ينقلونه إلى سجن آخر فلقيه أعرابي، فقال: أنت

أبـو عبـد الله؟ قال: نعم. قال: يا أبا عبد الله، اصبـر؛ إنما تُقتل بالسيف من هنا، وتدخل الجنة من هنا. قال: فربط على قلبي.

بعض الكلمـات مؤثرة، يقول أبو العتاهية: لما سُجِنْتُ فِي السجن سلمت على رجـل شيخ كبير فـي السن، أبيض الثوب أبيض اللحية، قلت: فيـمَ سُجِنْتَ أَنت؟ قـال: فيم سُجِنْتَ يا أبا العتاهية؟ قـال: قلت: حلفت ألا أقول شعراً وحلف المهدي الخليفة أن أقول الشعر. قال: سوف تقول الشعر وتخرج. قلت: وأنت، فيم سُجِنْتَ؟ قـال: أخفيـت فلان بن فلان بن علي أبي طالب. طالبـوه بالخلافة من بيت النبوة وطلبنـي الخليفة المهدي أن أُظهِـره، فحلفت بالله ما أخبر به. قلت: أنت ما تُخْبِرُ بـه؟ قال: والله ما أخبر به ولـو قتلوني، والله لو كان بين جلدي وعظمي ما أخبرت بـه. قلـت: وَلِمَ؟ قال: آتي يوم القيامة وخصمـي محمد ﷺ؟ لا، بل آتي وخصمي المهدي. قلت: لما قلت البيتين:

هِـيَ الأيَّـامُ والْـغِـيَـرُ وَأَمْـرُ اللهِ يُـنْـتَـظَـرُ
أَتَـيْـأَسُ أَنْ تَـرَى فَـرَجَـاً؟! فَـأَيْـنَ اللهُ وَالْـقَـدَرُ؟!

قال: قم بنا نصلّ ركعتين. قال: والله ما انتهينا من الركعتين وسلمنا إلا والباب يُفتـح، وإذا العسكـر يقولـون: المهدي يريدكم. قـال: فدخلنا عليه بالـدَّور. فدخل الشيخ، فقال له المهدي: تخبر بفلان عندك؟! قال: والله لو كان بين عظمي وجلدي مـا أخبـرت به. قال: وَلِمَ؟ قـال: تأتي خصمي أنت، ولا يأتـي خصمي محمد ﷺ. قـال: فقتلـه. وإني أرى الرأس مفصولاً عن الجثة. قـال: وأنت يا أبا العتاهية؟ قال: أنا أنشد الشعر.

فأنشد الشعر وانطلق، وهو يقول:

نُـحْ عَـلَـى نَـفْـسِـكَ – يَـا مِسْـ ـكِـيـنُ- إِن كُـنْـت تَـنُـوحُ
لَـتَـمُـوتَـنَّ وَإِنْ عُـمْـ ـمِـرْتَ مَـا عُـمِّـرَ نُـوحُ

لَطَـــفَ اللـــهُ بِنَـــا إِنْ نَ الْـخَـطَـايَـا لا تَـفُـوحُ
كُـــلُّ بَـــطَّـــاحٍ مِـــنَ الـنْـا سِ لَـــهُ يَـــوْمٌ بَـطُـوحُ

ومـات بعدها المهـدي، وكان هو يُعرض به في القصيـدة، فيقول: لو بطحتنا فسيأتيك يوم تُبَطَحُ فيه.

هـذه رسائل أدبيـة من السجن، وهنـاك كتاب (أدب السجـون) ممن سجن حتى مـن الشعراء العالمييـن ومن الزعمـاء والعلماء والمصلحيـن والناجحين، وغيرهم مـن العصاة- نسأل الله العافية- فهو تربيـة وتهذيب وكفارة وردع، وقد ذُكِـرَ السجن في القرآن في قصة يوسف، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. «وَلَتَكُونَـنَّ مِـنَ الْمَسْجُونِينَ» أي: إنـا نسجنك فنحبس دعوتك عن النـاس. فـالله عزّ وجلّ المسؤول وحـده أن يوفقنـا وإياكم وأن يجعلنا مـن المقبولين عنده، وأن يزيدنا وإياكم رشداً وسداداً.

وبالمناسبة، فقد قـرأت كتاب (رحلتي الطويلة للحرية) لـ (نيلسن مانديلا) الـذي سُجن (٢٧ سنة) وقد صور غرفته التـي كان مسجوناً فيها وسريره، وصمد وكان على شراب الذرة، حتى ألف هذا التراث وبنى هذا المجد.



obeikandl.com

الشعر والكرم

عند الترمـذي: «**الْسَّخِيُّ قَرِيـبٌ مِنَ اللهِ قَرِيـبٌ مِـنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِـنَ النَّاسِ، وَالْبَخِيـلُ بَعِيـدٌ مِـنَ اللهِ بَعِيدٌ مِـنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ**». وقد ضرب العرب أروع الأمثلة في الكرم، سواء قبل الإسلام أم بعد الإسلام، قبل الإسلام فيه الرياء والسمعة والشهرة وحـب الثناء، وبعد الإسلام طلب الأجر من الله ﷻ وإسـداء الخير والنفع للناس، لكن الكريم عيوبه تُغطى.

obeikandl.com

يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطّيهِ السَّخَاءُ

ومن أكرمهم على الإطلاق قبل الإسلام حاتم الطائي، وكان في جبال أجا وسلمى في حائل، حتى يقول لغلامه في ظلمة الليل لما اشتد برد الصحراء:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرُّ إِذَا أَتَى ضَيْفٌ فَأَنْتَ حُرُّ

وَالْبَرْدُ - يَا فُلانُ - بَرْدُ صِرُّ

فيقول: تعالَ بضيف وأنا أعتقك. أي كرم هذا؟! وأي جود لو كان في الإسلام؟!

وفي الحماسة لأبي تمام بيتان من الشعر من أجمل ما قيل على الإطلاق، هما لحاتم الطائي يصف نفسه بالكرم والبذل، وأنه يحب الخير، وأنه يؤثر الآخرين على نفسه، يقول:

أَمَا وَالَّذي لا يَعلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ وَيُحْيِي الْعِظامَ الْبِيضَ وَهِيَ رَمِيمُ

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ

وله في ذلك أمثال، لكن معنا هذان البيتان اللذان يقول فيهما ما معناه: والله الذي لا إله إلا هو إن الله ليعلم أنني أجوع أنا وأتحمل الجوع وأذوق مرارة الجوع وإنني أوثر غيري: جاري وضيفي؛ حتى لا يقال: إني بخيل يوماً ما من الأيام. حتى إنه يعطيك درساً في الكرم في الراحلة، والسيارة التي تشارك غيرك بأن يركب معك، فيقول:

إِذَا كُنْتَ رَبَّاً لِلْقَلُوصِ[1] فَلا تَدَعْ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبِ

أَنِخْهَا فَأَرْكِبْهُ، فَإِنْ حَمَلَتْكُمَا فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابَ فَعَاقِبِ

(١) القلوص: الناقة.

يقول: أنخ الناقة؛ فإن تحمل اثنين فاجعله معك، وإن كانت لا تستطيع فاركب مرة وتنزل أنت ويركب هو، وهكذا.

هـذا هو الكـرم والجود الذي ضُـرِب مثلاً لحاتـم وأمثاله، حتـى إن بعض الصحابـة ﷺ والتابعين اجتمعوا عنـد الحجر الأسود في ليلـة ظلماء يسمرون فـي عهد عبـد الله بن الزبيـر والحسين بن علـي وابن عباس ﷺ فقالـوا: «مَنْ أَكْـرَمُ النَّاسِ الآنَ؟». فاختلفوا. وقيل: إن ابن عمر «كان جالساً وابن الزبير وابن عباس ﷺ، قال واحد منهم: أكرمهم عبد الله بـن جعفر الطيار. وقال الثاني: عُرابَة الأوسي أكرم. وقال الثالث: بل قيس بن سعد بن عبادة أكرم. قال كبيرهم مـن شيوخ قريش: كلٌّ يذهب إلى صاحبـه ويأتيه بهيئة فقير ومسكين، فينظر ما يعطيـه، ونأتي ونلتقـي بعد مدة في هذا المكان ونرى أيهـم أفضل. فذهب الذي يريـد عبـد الله بن جعفر فلبس أسمـالاً بالية وملابس ممزقـة، وتعرض له وإذا عبـد الله بن جعفر خارج من المدينة يريد دمشـق، فلقيه في الطريق، قال: من أنـت؟ قال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال وقصـدت الله، ثم قصدتك. وكان عبـد الله بن جعفر على فرس ومعه سيـف وأدواته ودراهم فقال: أنا خرجت من المدينـة من ليلتين، ولو كنت زرتني في المدينة لوجدت ما يسرك، لكن الآن خذ الفرس بمـا عليه بدراهمه وهـذا السيف، وأنا سوف أنتظر تحـت هذه الشجرة والنـاس يعرفونني وسوف يمر الرَّكْبُ. قال: كيـف آخذ؟! قال: والله لتأخذن؛ أنا من قوم إذا وهبنا لا نعود في الهبة، وسوف يمر السيارة والمسافرون ويعرفونني وأنتقـل معهـم. فأخذ الرجل الفرس والسيف وما عليه من شـيء ومن الدراهم ومشـى، وأما الذي قصد قيـس بن سعد بن عبادة فكان فـي المدينة وأبوه سعد ابـن عبـادة صحابـي رضي الله عنه، وقيس هذا من أكـرم الناس وكان قائـداً لعلي رضي الله عنه علـى مصر، فأتى الرجل في الظهيرة وهـو نائم فطرق الباب، فخرجت الجارية فقالت: سيدي نائم، ولكن هذه ألف دينار، ولا توقظ سيدي. فذهب.

هذه جارية فكيف إذا كان هو؟

ثم ذهب الذي أراد عرابة الأوسي فوجده شيخاً كبيراً أعمى، ذهب إلى المسجد، يعتمد على اثنين من الموالي من خدامه، قال: أنا قصدتك بعد الله وأنا منقطع ولا مال لي. فقال عرابة الأوسي- وهو أنصاري أصلاً-: والله إن الحاجات ما أبقت لي شيئاً إلا هذين الخادمين، فخذهما لك، فقد تخلصت منهما. قال: فأخذتهما، فوالله إنه تركهما وإنه ليلتمس الطريق ويعتمد على الجدران، حتى وصل إلى المسجد.

فعادوا إلى الصحابة والتابعين ﷺ فأخبروهم بذلك فقالوا: عبد الله بن جعفر كريم ومن كرمه أنه أعطى وهو مسافر منقطع، وقيس بن سعد كريم والدليل أن جاريته أعطت فكيف لو قام هو؟! لكن أكرمهم عرابة الأوسي؛ لأنه مدين وليس عنده إلا هذان الخادمان، ومع ذلك أعطاهما وبقي يتلمس الجدار وهو أعمى حتى وصل إلى المسجد، فيقول الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ

حتى إن أبا تمام يقول:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه

وعلى هذا البحر قصيدة لزهير يقول فيها:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْبِرُّ سَاحِلُهْ

ثم يقول:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ ... أَرَادَ انقباضاً لانْقطَعْنَ أَنَامِلُهْ

وكثير من الناس يخلطون بين أبيات زهير، وبين أبيات أبي تمام، وبين أبيات مروان بن حفصة:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه

لكن من أحسن ما رأيت في الكرم بيتاً فريداً؛ حتى إنه عجب منه الزمخشري، وهو للحطيئة يمدح كريماً:

مَتَى تَأْتِه تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْر مُوْقِدِ

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما سمع هذا البيت-: «هَذَا لا يَصْلُحُ إِلاَّ لِلرَّسُولِ ﷺ». فإنه أكرم الناس.

وفي الصحيح عن علي وابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي «**كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ**». فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، فهو ﷺ الأحق بقول الشاعر:

مَا قَالَ: لا قَطّ إِلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ لَوْلا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاؤُهُ نَعَمُ

وهذا البيت للفرزدق من قصيدة قالها في علي بن الحسين زين العابدين، وكان زين العابدين من أجمل الناس وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أبوه الحسين الشهيد رضي الله عنه، أتى يطوف بالبيت والبيت مزدحم، ودخل هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وكان في دمشق، أتى يطوف بالبيت والناس مزدحمون، أتى هشام بحرسه وبموكبه وحاشيته وجلس وقال: أعطوني ما أجلس عليه. ينتظر حتى يخف الزحام فجلس، وأما زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «فأتى بعصا من خيزران غير محرِم، بل يطوف وريحه مسك ووجهه كالقمر ليلة أربعة عشر، فلما رآه الناس فسحوا له الطريق عند المطاف، وأخذوا يوسعون له، وأهل الشام لا يعرفون زين العابدين، وهشام بن عبد الملك يعرف من هو، لكن الحسد أخذ منه مأخذه، فقال هشام: من هذا الذي يفتح له الناس الطريق ويكبرون لما دخل؟ والفرزدق موجود فقام وقال:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلّ وَالْحَرَمُ
هَـذَا ابْـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ اللهِ كُلّهُـمُ ... هَـذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَـذَا ابْـنُ فَاطِمَـةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِـجَـدّهِ أَنْـبِـيـاءُ اللهِ قَـدْ خُـتِـمُـوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَـلا يُـكَـلَّـمُ إِلاَّ حِـيـنَ يَـبْـتَـسِـمُ
يَـكَـادُ يُـمْـسِـكُـهُ عِـرفَـانُ راحَـتِـهِ ... رُكْنُ الحَطِيمِ إِذا ما جاءَ يَستَلِمُ
فِـي كَـفّـهِ خَـيْـزَرَانٌ رِيـحُـه عَـبِـقُ ... مِـن كَـفِّ أَروَعَ فِـي عِـرنِـيـنِـهِ شَـمَـمُ

إلى أن ختم القصيدة فسجنه هشام بن عبد الملك ستة أشهر في سبيل الله، فالشاهد:

مَـا قَـالَ: لا قَـطّ إِلاَّ فِـي تَشَـهُّـدِهِ ... لَـوْلا الـتَّـشَـهُّـدُ كَـانَـتْ لاؤُهُ نَـعَـمُ

فيقول: إنه لا يعرف كلمة (لا). إلا إذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فالله عزّ وجلّ كان يجعل في بعض الناس ما الله به عليم، حتى إن الناس مجمعون على حب الكريم وعلى مدحه سواء بالعامي أو بالفصيح، وأذكر أننا ذهبنا إلى أناس من الكرماء، فطلبوا قصيدة من شعري الشعبي؛ لأن الجو جوٌّ يستحق شيئاً من الشعبي؛ فهم يفهمونه أكثر من العربي الفصيح، وبعدما أكرمونا بما وجدنا من حسن الضيافة والترتيب والوجوه النيرة والمسفرة والابتسامات والتراحيب والدلال الْمُهَيَّلَة والْبخور والإكرام قلت:

بِسْمِ اللهْ قُدَّام بَدْء الْحَرْفِ مِيلَهْ وِاعْتِدَالَهْ
وَالصَّلاة عَلَى مُحَمَّدْ وَالرِّضَا لانْصَارْ دِينَهْ

يَا سَلامَ اللهْ عَلَى الْفُرْسَانْ فِي بِيتِ الشَّكَالَهْ
تَعْرِفْ الرجَّالْ مِنْ لَمْحَةْ عُيُونَهْ فِي جِبِينَهْ

الْوُجُوهْ امْنَ الْكَرَمْ مِثْلْ الْوَهَجْ يِغْشَاهْ هَالَهْ
وَالـدّلال امْهَيَّلَهْ وَالْبِنْ تَوَّهْ حَامْسِينَهْ

اسْتِمَعْ مِنْ شَاعِرٍ تِسْعَ الْقُوَافِي ارْتِجَالَهْ
أَعْطِ قُوسَ الشِّعِرْ لاهْلِهْ وَالْخبَرْ جَا مَنْ ذِهِيلَهْ

شَاعِرٍ مَا يَسْرِقْ الأَبْيَاتْ مِنْ عَمّهْ وَخَالَهْ
فِيضْ نَارهْ مِنْ مِعِينَهْ وَالْدِهْ يَسْبِغْ نِعِيمَهْ

اللّه كَمْ مِنْ شَاعِرٍ لَوْ شَافِنِي يَتْرِكْ ضَلالَهْ
الْجِمَلْ مِنْ بَعْدْ هَذْرِهْ قَامْ يِدِّنْ مِنْ حَنِينِهْ

مِنْ رِجَالِ الْمَجْدْ جَدَّ الْمَجْدْ رَزُّوا لَهْ اعقَالَهْ
السُّيُوفْ الْمِصْلِتَهْ نِعْمِين بَاسَادَ الْعَرِينَهْ

مِنْهُمْ اللّي اهْتَزْ عَرْشَ اللّهِ عَلَى غيبة خَيَالِهْ
وِمْنُهُمَ اللّي غَسَّلُوه امْلاك رَبّي حَامِلِينَهْ

فِي بَلَدْنَا نَصْنَعَ التَّارِيخْ مِنْ فَجر الرِسَالَهْ
نِسْقِطَ الطَّيَّارْ يُومَ الْحَرْبِ وَانْفِكْ الرّهِينَهْ

إِنْ تِبِي بِالْعَرَبِي جِتْكَ الْقُوَافِي فِي جِزَالَهْ
وِانْ تَبِي بَالنَّبَطِي الْعِينِكَمْ تكْرَمْ مَدِينَهْ

وإنما قصدت من هذا أن الكرم خصلة إذا سارت في الناس صارت مضرب المثل فيهم، حتى إن هرم بن سنان أقسم إنه لا يسلم زهير بن أبي سلمى عليه إلا أعطاه جائزة، فاستحيا زهير، فكان يقول في المجلس: عِموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت.

ومعنى عم صباحاً، أي: وُفّقْتَ صباحاً، أو أُسْعِدْتَ صباحاً. ولذلك لامرئ القيس أبيات يذكر فيها هذا، يقول:

أَلا عِمْ صَبَاحَاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وَهَلْ يَعِمن مَنْ كَانَ فِي الْعُصرِ الْخَالِي؟
وَهَلْ يَعِمَنْ إِلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمٌ ... قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

ولما وفد أبو ذر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، أول ما وفد قال: «**عِمْ صَبَاحَاً يَا أَخَ الْعَرَبِ**». فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَبْدَلَنِي بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ**». بتحية قومه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيقول زهير للمجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت؛ لأنه حلف: ما تصبحني بخير إلا أعطيك هدية. حتى إنه يقول فيهم:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ ... طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزِعُ اللهُ مِنْهُمْ مَا له حُسِدُوا

حتى يقول بعضهم في الغزل:

دَعْ ذَا وَثَنِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ ... خَيْرِ الْهُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ شَيْئَاً سِوَى بَشَرٍ ... كُنْتَ الْمُنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

تخلق ما تقول، أي: إني أراك تقوم بكلام تفعله حينما تقوله، أي: تبتدع كلاماً، لكنك تنفذه. فلست من الذين يقولون ما لا يفعلون.

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**يَا بْنَ هَرِمْ، مَاذَا أَعْطَاكُمْ زُهَيْر؟ وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟ قَالَ: مَدَحَنَا وَأَعْطَيْنَاهُ. قَالَ: ذَهَبَ مَا أَعْطَيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أَعْطَاكُمْ**». وهو الثناء الحسن، فمن أراد الثناء الحسن فليقصد بعمله الله عز وجل.

ومـن أكرم الناس على الإطلاق -ودعني مـن حاتم وكعب وهـرم بن سـنان- أبـو بكـر الصديـق رضي الله عنه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢١]. فقد أنفق أمواله في سبيل الله وطلب ما عنده عز وجل وأعتق الرقاب، واشترى الخيول في سبيل الله عز وجل وجهز الجيش وأنفق ذات اليمين وذات الشمال في سبيل الله، حتى يقول عمر رضي الله عنه: «**قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَسْبِقَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْيَوْمَ. فَأَتَيْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى أَحَدٌ بِمَالٍ؟ قَالَ: أَخُوكَ أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: بِمَاذَا أَتَى؟ قَالَ: بِمَالِهِ كُلِّهِ. قُلْتُ: وَاللهِ لَا أُسَابِقُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ الْيَوْمِ**». فالخير كله عنده رضي الله عنه، ومن أمثاله رضي الله عنه عثمان بـن عفـان رضي الله عنه فإنه جهز الجيش وشرى بئر رومـة للمسلمين، حتى قال ﷺ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا صَنَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ**».

والأمثال في كرم الناس كثيرة، فإن أبا حميد الطوسي كان كريماً كرمًا، جعل بعض الشعراء يقول فيه:

لَـــوْلا حُـمَـيْـدٌ لَـمْ يَـكُـنْ ... نَـسَـبٌ يُـعَـدُّ وَلا حَـسَـبُ

يَـا وَاحِـــدَ الْـعَـرَبِ الَّـذِي ... شَـرَقَـتْ لِـمَـقْـتَـلِـهِ الْـعَـرَبُ

ولمـا مات حميد هذا وكان قد أكـرم الشعراء كرماً كثيـراً فقال أحدهم فيه أبياتاً منها:

أُصِبْـنَا بِيَـوم فِـي حُـمَـيْـدٍ لَـوْ أَنَّـهُ ... أُصِيبَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَضْحَتْ تَضَعْضَعُ

وَأَدَّبَـنَـا مَـا أَدَّبَ الـنَّـاسَ قَبْـلَـنَا ... وَلَـكِـنَّـهُ لَـمْ يَـبْـقَ لِـلصَّـبْـرِ مَـوْضِـعُ

فهـذه أقوال في الكرماء وفي الأسخياء، وهـذا يدل على أن الكرم منه الكرم بالجـاه والكرم بالعلم والكرم بالوقت والكرم بالمال والكرم بالطعام، حتى إن من لطائـف الجودِ الْجُودُ بالسَّهر، فقد قال البخاري: بـاب السهر بعد صلاة العشاء. فـإذا جاءك ضيف واحتاج أن تسهر، أن تسهرَ معه، وجاء ابن القيم وأتى بهذا في (مدارج السالكين) كما قال أحدهم:

لَوْ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَبْ لِي -فُدِيتَ- نُـــورَ عَـيْـنَـيْـكَ لَـــمْ يَـنَـمِ

يقـول: إنه مـن كرمه لو طلبت نوم عينيه لأعطاك نـوم عينيه وبقي في سهر، وهـذا شأن الكريم، فإنه كمـا يقول المقنع الكندي، وهو من أكـرم الناس وأبياته تُروى:

يُعَيّرُنِي بِالدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا
أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا حُقُوقَ أُنَاسٍ مَا اسْتَطَاعُوا لَهَا سَدَّا
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي وَبين بَنِي عَمّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمُ وَإِنْ هَتَكُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَلا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

إلى أن يقول- وهو الشاهد-:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً وَمَا شِيمَةٌ لي غيرها تشبه الْعَبْدَا

فمـن تواضع الإنسان ومن شهامتـه ومروءته أن يكون عبداً للضيف، إذا دخل تخدمه وتباشر أنت وتحيي وترحب وتتولى الأمور، فهذا يدل على نبلك وعلى حسن معدنك وعلى استقامة حالك وأنك تريد أن تسجل اسمك في سجل الخالدين.



قصائد قتلت أصحابها

موضوع- ولو أنه مخيف لكنه طريف-:
قصائد قتلت أصحابها. ينبيك أن الكلمة، إما أن ترفع صاحبها أو تقتله، وهذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟! ولذلك تجد القرآن الكريم ينبه على الكلمات واستخدام العبارات، والمسؤولية في الجملة إذا نطقتها ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولذلك يقول ﷺ: «**كُفَّ عليك لِسَانَكَ**».

وبعض الشعراء أرسل لسانه، وما حَكَّم عقله على لسانه، فدفع دمه وحياته ثمناً لعثرة اللسان.

عثرة الرِّجل يقوم منها الإنسان، لكن عثرة اللسان تذهب بالرأس فيبقى الإنسان دون رأس، أحياناً نتحمل، لكن أحياناً تأتي كلمات غير مقبولة، وفي قائمة الشعراء أناس دفعوا حياتهم ثمناً لكلمات، مع أن مبدأ الحق أن يضحي من أجل الحق ومن أجل رسالة الحق، لكن أن يضحي من أجل الباطل وأن يقدح في الناس وأن يشتمهم ثم يُقتل على ذلك أو يُجلد أو يقول: إنها تضحية، فهذا عجيب.

هذا تأديب على تطاوله على أعراض الناس وعلى خصوصياتهم وعلى ذوات الناس.

طرفة بن العبد قُتِلَ وعمره (٢٦ سنة). فالعبقرية لا تعترف بعمر؛ لأن العبقرية أمر مشترك بين البشر من العرب وغيرهم من الجاهليين والإسلاميين، لكن كإنسان عبقري، هذا طرفة وهو صاحب الدالية الرائعة الجميلة التي يفضلها بعضهم على كل المعلقات، والتي يقول في مطلع أبياتها من ذكر الأطلال ومنازل الديار وغيرها:

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ ببرقة ثَهْمَدِ تلوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

والتي من ضمنها:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

حتى يقول:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَنْتَقِي حَلِيلَةَ مَا لِلْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

ولكنه سبك وحبك وقوى اللفظ.

المقصود أنه تعرض للنعمان بن المنذر. وقيل: لأحد ملوك الغساسنة الآخرين. وحكم عليه بالقتل. فكتب رسالة للمتلمس الشاعر ورسالة لطرفة وأمرهما أن يذهبا بهما إلى عامله على البحرين، لكن المتلمس شك ففتح الرسالة فوجد فيها الأمر بقتله فشرد وألقى حذاءه ورحله، أما طرفة فرفض؛ لأنه ظن أنه له جائزة عند ملك البحرين، وقيل: الأحساء. فذهب من أجل أن يأخذ الجائزة؛ لأن الأمير قال له: اذهب إلى هناك. يريد أن يتخلص منه دون أن يقتله في العاصمة، وذهب بالرسالة، وقال له بعض الناس: احذر. لكنه شابّ، والشاب صاحب جموح وصاحب طموح وصاحب اندفاع وشدة، فذهب وأعطى الرسالة إلى الأمير في الأحساء أو في البحرين، ففتح الرسالة فإذا فيها: إذا جاءك فاقتله. فلما جاء قيَّدَه، ثم ذبحه ذبح الشاة.

والراجح عند أهل الأدب أنه عمرو بن هند، وسبحان الله تأتي إلى ملك صاحب دولة وكيان ثم تعتدي عليه! حتى عقلاً حتى دبلوماسية حتى سياسة ما لك أن تتعرض، فكيف إذا كان هذا خطأ؟! فدفع روحه ثمناً لذلك.

ولولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشَةِ الْفَتَى ... وَحَقّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عوَّدِي

ويقول:

فَإِنْ كُنْتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فَدَعْنِي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وهذا منطق الجاهلية والوثنية، فيقول: ما دمت سأموت فعاجلوني بالمرفهات وأسرعوا لنا بالدنيا. لأنه يرى أن الموت حق، مثل: عمر الخيام، خطَّأه أهل العلم لما قال:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمُرِ لَمْ أُسْتَشَرْ ... وَتُهْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَّى الْعِبَرْ

فَمَا أَطَالَ النَّوْمُ عُمْرَاً وَمَا ... قَصَّرَ في الأَعْمَارُ طُول السَّهَرْ

لأنهـم لا يعترفـون باليـوم الآخر الذي ذكـره الله ﷻ على ألسنـة أنبيائه - عليهـم السلام- فالشاهد أن طرفة أخطأ فدفع ثمن ذلك حياته، أما أهل الإيمان فلهم ثلاث غير ثلاث طرفة هذه، لهم: قيام الليل، وطلب العلم، وصيام الهواجر. كما رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على طرفة وأمثاله.

وممـن قتلهم شعرهم أبو الطيب المتنبي الشاعر المشهور، بل هو إمبراطور، وملـك الشعراء على الإطلاق، حتى إنه هو يفخر بنفسه ويحق ذلك في منطق أهل الأرض، يقول:

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرَاً أَصْبَحُ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وهـو دائماً في قصيـده، إما أن يمدح نفسه فـي أول القصيدة أو في آخرها، حتـى إنه إذا مدح ملكاً فلا بد أن يذكـر نفسه، ويرى أنه فوق الجميع، وأن الوزراء لا يستحقـون أن ينظروا إليه مجـرد النظر، وأنه فوق الجميع إلى آخر ما قال، فها هو يقول:

وإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

لكنـه عموماً ترك رسالة أدبية وترك أثـراً كبيراً وترك حكمة، وأنا لم أرَ عند العلماء والحكماء استشهاداً بالأبيات أكثر من أبيات المتنبي، حتى إن كتبهم حفلت بأبياته، وإن تنظر في مقدمة ابن خلدون، أو إحياء علوم الدين أو كتب ابن تيمية، أو من جاء بعدهم تجدها كلها تحفل بالاستشهاد بأبيات الشاعر الأعجوبة.

يقـول أحد العلماء: الشعـراء يمشون والمتنبي يطير. وقـرأت لأحد أدباء اليمن أن أحـد ملوك اليمن قـال له أديب هناك وشاعـر: أنا أشعر من المتنبـي. قال: كذبت أنت وكذب أبوك وجدك؛ للمتنبي (٥٠٠ بيت) تدور على ألسنة الملوك، علاوة على غيرهم.

ولذلك تجد غالب الحكم التي تدور على ألسنة الناس هي للمتنبي.

وقصة مقتله أنه تعرض لأحد الناس الوجهاء وتعرض لأمه وسب أمه وشتمها، فثار ذاك، فلما ذهب المتنبي إلى عضد الدولة في شيراز، الملك الذي قتل ابن بقية، وهذا الملك كان في شيراز، ثم أتى إلى بغداد فيما بعد، وكان المتنبي قد مدحه بقصائد، ويقول من ضمن قصائده فيه:

أَرُوحُ وَقَدْ خَتَمْتَ عَلَى فُؤَادِي[1] بِحُبّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سِوَاكَا
وَقَدْ حمَّلْتَنِي شُكْرَاً ثَقِيلاً طَوِيلاً لا أُطِيقُ لَهُ حِرَاكَا
أُحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا فَمَا تَمْشِي بِنَا إِلاَّ ابْتِرَاكَا
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءِ فَأَكْثَرُ مَا يَعَلّكَ مَا شَفَاكَا

هذا شعر باقٍ وأعجوبة، وهو دائماً يأخذ الجائزة بين الشعراء، وكانوا قرابة الثمانين وهو الذي يأخذ الجائزة بينهم والتفوق، المقصود أنه لما أخذ الجائزة ورجع خرج له بنو أسد؛ لأنه هجا أم أحد أمرائهم وعرَّض بها، هجاها هجاء مقذعاً، واتهمها في عرضها- ويل له من الله- فخرج هؤلاء النفر، فلما رأى القوم أقبلوا، ركب الفرس وأراد الفرار؛ لينجو، فقال له غلامه: ألست القائل:

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

فثبت وقاتل حتى قُتِلَ، وهو ذو شجاعة بالجملة وكان يقولها في شعره. فقتله شعره. وقد عُدّت هذه من أجمل القصائد، حتى إن بعضهم يقدمها على سائر قصائد الديوان ويجعلها القصيدة الأولى من حيث الروعة والإبداع، وهي التي يقول في مطلعها:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِحَالِي وَجِسْمِي عِنْدَهُ سقمُ
مَا لِي أُكَتِّمُ حُبَّاً قَدْ بَرَى جَسَدِي وتدّعي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْعَجَمُ

(١) هذا نفاق اجتماعي.

إلى أن يقول:

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ... بِأَنَّنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

إلى أن يقول:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُم ... وجداننا كُلّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

إلى آخر ما قال.

لكنه ترك على كل حال حكمة.

لقيه بعض الأدباء، فقال له: أنت ادَّعَيت النبوة في شبابك؟! فقال: من عثرات الشباب. أي: عثرات الصبا. قال: ما هي معجزاتك إن كانت لك معجزة؟ قال: قولي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وقد قيل: إن هذا مما دسَّه عليه أعداؤه وحسّاده؛ لتشويه سمعته والتنكيل والكيد به.

ولكنها حكمة، فهو يقول: ومن نكد الدنيا عليك أنه لا بد لك من أن تجامل وتصانع بعض الأعداء وتتخذه صديقاً؛ لأن هذه الحياة لا تكون إلا بهذه الطريقة، حتى إن زهير بن أبي سلمى يقول:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسَمِ

فلتكن عندك لباقة اجتماعية وعندك رفق ودبلوماسية وعندك تغافل في بعض الأمور، مثلما يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فينبغي أن تتغاضى عن زلات الإخوان، وأن تتغافل عن الإساءات؛ لأنك سوف تدفع الثمن أعلى لو أخذت النصر والقصاص.

والإمام أحمد قيل له: ما منزلة التغافل من حسن الخلق؟ قال: تسعة أعشار حسن الخلق التغافل. أي: أن تتغافل عن زلات غيرك وكأنهم ما قالوا وتنسى الأمور؛ حتى تستطيع أن تعايش الناس، أما من يحاسب هذا؛ لأنه تكلم فيه ويرد على هذا؛ لأنه كتب فيه مقالة، وينظم قصيدة ويرد على ذلك؛ لأنه أجاب بقصيدة، فيذهب العمر وتزداد العداوات.

قرأت لرئيس أمريكي مشهور (إبراهام لنكولن)، يقول: أنا لا أرد على رسائل الشتم التي تُوَجَّه إِلَيَّ، أو لا أفتحها، فضلاً عن أن أرد عليها. فينبغي علينا التغافل وأخذ العبرة من سيرة هؤلاء الذين دفعوا حياتهم.

وممن قُتِل علي بن جبلة العُكَوَّك، وكان من أشعر الناس، وعلي بن جبلة هذا عاش في العصر العباسي في عهد المأمون، حتى يقول الذهبي عنه: شعره كله نُخَبٌ. أي: جواهر ودرر. وهو الذي يقول:

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِمَا حَذِرَاً مِنْ كُلّ وَاشٍ جَزِعَا
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى تِلْكَ الْخُطَا ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

ونظم قصيدة في أبي دُلَف الأمير، وأبو دُلَف أمير مشهور في خراسان من أكرم الناس، لكنه أمير من قِبل المأمون والمأمون هو الخليفة الملك، ففضله على كل أهل الأرض بما فيهم المأمون، يقول في القصيدة -وهي من أجمل القصائد-:

ذَادَ وِرْدُ الْغَيّ عَنْ صَدَر ... فَارْعَوَى والْغَيّ مِنْ وَطَرِهْ
دَعْ جدَا قَحْطَانَ أَوْ مُضَر[1] ... فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِهْ
وَامْتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلاً ... حجر الأَيَّام فِي حُجَرِهْ
الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ ... وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفُرِهْ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ
كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِير مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

يقول: كل الناس يأخذون منك المكارم ويأخذون منك مجدهم. وهذا مبالغة ونفاق، فسمع بذلك المأمون، الخليفة العباسي في بغداد، فقال عن نفسه: قتله الله إن لم يقتل علي بن جبلة. ثم قال: عليَّ به. وأتوا به إلى بغداد، وأيقن أنه لن يقتله أمام الناس؛ لأنه مدح ذاك وغلَّبه عليه، بل لا بد من أن يتخذ حيلة؛ كي يفتي العلماء بجواز قتله، ويبرر للرأي العام أنه قتله بحجة، فأُدخِل عليه في البساط وكان أسمر، وعلي بن جبلة فيه بهق وبرص، لكنه شاعر يأخذ بالألباب، ومن أمثلة شعره ما قاله لما مات حميد الطوسي البطل، مما يعد من فن الرثاء:

أُصِبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْد لَوْ أَنَّهُ ... أُصِيبَتْ عُرُوشُ الدَّهْرِ أَضْحَتْ تَضَعْضَعُ
وَأَدَّبَنَا مَا أَدَّبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الصَّدْرِ مَوْضِعُ

الشاهد أنه لما دخل قال المأمون: قتل الله نفسي إن لم أقتلك؛ لكن لن أقتلك بقولك:

كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِير مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

(١) أي: اترك عطاياهم.

جعلتنا كلنا عبيداً لأبي دُلَف، نحن الذين نكتسي منه المفاخر، مع العلم أن المأمون هو الخليفة! لكنني أقتلك بأبياتك التي تقول فيها:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الأَيَّامَ مَنْزِلَهَا ... وَتُنْزِلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

وَمَا مَدَدْتَ بِأَقْلامٍ مُرَتَّبَةٍ ... إِلاَّ قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ

والصحيح أنه قتله في أبياته في مدح أبي دلف.

قال: يا غلام، اضرب رأسه. فقتله في البساط، فدع ثمن كلماته المبالغة المجحفة التي لا يُقرها عقل.

وابن هانئ الأندلسي قُتِل وعمره (٣٧ سنة)، أُصِيب بمرض عضال، يقول في أحد أمراء الفاطميين، وهل هذا الكلام يُقال لبشر؟!:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قاتله الله! الواحد القهار الذي تفرد بالبقاء ﷻ له الأسماء الحسنى، لا إله إلا هو. حتى يوسف عليه السلام في الزنزانة يلقي محاضرة في التوحيد لما أتوا يطلبون تعبير رؤياهم.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. فسمى الله ﷻ باسمين عظيمين: فهو الواحد الذي تفرد بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله جل في علاه لا إله إلا هو، ثم قال: القهار. الذي قهر غيره فإنه لو كان واحداً ولم يكن قهاراً لم يكن هناك تمام في الملك، فقال: الواحد القهار. فيأتي هذا- نعوذ بالله من عمله ومن سوء إرادته ونيته- فيقول:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ ... فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قيل: إنه قُتِل فيما بعد، تعرض له بعض الناس وقتله. وقيل: أصابه مرض عُضال فأصبح يتقلب ويعوي ويصيح ويضج، ويقول:

أَبِعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي ... فَأَهَنْتَنِي وَقَذفتَنِي مِنْ حَاذِقِ
لَسْتَ الْمَلُومَ أَنَا الْمَلُومُ؛ لأَنَّنِي ... عَلَّقْتُ آمَالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ

الآن يقر الإنسان بسعة الصدر.

يقول علي الطنطاوي: ساعة الصفر ساعة لقاء الله وساعة سكرات الموت، يُذعن فيها الجبار ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ويتوب فيها العاصي.

حتى فرعون شيخ الملاحدة يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. لكن هيهات، فينبغي أن يحسب الأديب كلماته والشاعر كذلك، وهذا في الدنيا فكيف عند الله؟! هذا غضب الملوك والأمراء والجبابرة، فكيف غضب الله الواحد القهار ﷻ؟!

ولذلك لما ذكر الله ﷻ شهادة بني إسرائيل المزورة على الرسالات السماوية الخاطئة الكاذبة قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. أي: سوف نكتبها ونسألهم. يقول ﷻ عن الكلام المَزوَّر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ثم قال في الملفات الماضية الأدهى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. اللهم أحسن خاتمتنا يا رب العالمين.



قصائد سارت بها الركبان

هـي أبيـات مـن الأدب العربـي خُلّـدَت عند العرب وصارت مضرب المثل، حتى حفظها الناس وتداولوها فـي المجالس لحسنهـا، وما كل شاعر يمكـن أن يُخلَّـد أدبه وشعره، لكـنّ هناك نابغين، والنابغـون من الشعراء هم الذين سطَّروا أبياتهم فـي قلـوب النـاس، وهـذه حظوظ مـن الله ﷻ فالشيـوع والذيوع حـظ منه ﷻ يُـرزق به شاعر ويُحرم ألف شاعر، وأذكر بالمناسبة قائمة، منهم المتنبـي وأبـو تمام والبحتـري وحسـان، وشوقي

obeikandl.com

مـن المعاصرين يخـرج شعرهم، ويُنقل بيـن الناس، حتى إن مـن ضمن الأبيات المشهورة التي يقولها أبو تمام -وهي أكثر ما يُتداول على ألسنة الناس-:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـرَ فَضِـيلَةٍ طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لَـهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ
لَـوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَـاوَرَتْ مَـا كَـانَ يُـعْـرَفُ طيب نفح الْعُودِ

وهـذه حكمـة، فيقـول: إن الله إذا أراد أن ينشـر فضيلة رجل مـا سلَّط عليه حسـوداً، فينقـب عنـه فيشتهر هـذا الرجل، حتى رأيـت مصطفى أميـن الكاتب المصـري المشهور قـال: إذا رأيت ناجحـاً أو صحيفة أو كتابـاً، ورأيت له نجاحاً وأصبـح ينهال عليـه كلام الحسـاد ويلقون عليـه بالطوب، فاعـرف أنها مدفعية انتصـار تطلق (٢١ طلقة) في فرح انتصار هذا الشخص. وهذا أمر معلوم لكن قصدي شيوع الكلام وانتشاره في الناس، وممن رُزِق ذلك أبو تمام حتى إنه يقول- من ضمن أبيات له توضع في التقويم اليومي-:

مَـرَّتْ سِنِينٌ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا فَـكَـأَنَّـهـا مـن قِـصْـرِهـا أيـامُ
ثُـمَّ انْـثَـنَـتْ أَيَّـامُ هَـجْـرٍ بَـعْـدَهَـا فَـكَـأَنَّـهَـا مِـنْ طُـولِـهَـا أَعْـوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينُ وَأَهْلُهَا فَـكَـأَنَّـهَـا وَكَـأَنَّـهُـمْ أَحْـلاَمُ

هذه هي الحياة؛ فسنينها الطيبة أيام، وأيام الشدة فيها أعوام، وتمر جميعاً، فتصبح كأنها أحلام. وهذه هي الحياة الدنيا، لكن أن يترجمها بهذا الكلام فهذه هي الفصاحة والبلاغة.

ومن ذلك أنه نظم قصيدة في المعتصم يهنئه بفتح عَمُّورِيَّة بـ (٧٠بيتاً).

يقول ابن القيم: إنه أعطاه على كل بيت (١٠٠٠دينار). حتى إنه يُذكر عن أبي تمـام أنه قال: لو كنت أعلم أنه سيعطيني علـى كل بيت لكنت زدت في القصيدة. وهي التي يقول فيها:

السَّيْفُ أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ　　فِي حَدّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدّ وَاللَّعِبِ

إلى أن يقول:

خَلِيفَةَ اللهِ، جَازَى اللهُ سَعْيكَ عن　　جَرْثُومَةِ الدّينِ وَالأَخْلاقِ وَالنَّسَبِ

إلى آخر ما قال.

وبالمناسبة، فـإن عبد الله البرودني شاعر اليمن عارضه بقصيدة على وزن قصيدته، فيقول:

مَا أَقْبَحَ السَّيْفَ إنْ لَمْ يُمْضِهِ الْغَضَبُ　　وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ

بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا　　أَيْدٍ إذَا غَلَبَتْ فِي كفها الْغَلَبُ

وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الأَغْبِيَاءِ بِلا　　هَمٍّ سُوى كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسِبُوا

والشاهد ذيوع شعر هذا الشاعر الكبير.

ومما درج من الشعر وانتشر أبيات ليزيد بن معاوية وقيل: لخالد ابنه الأمير صاحب الكيمياء وهو لم يتولّ الخلافة ولكنه شاعر، يقول:

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً　　لَكُنْتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لي الْبُكَا　　بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وعلى ذِكْرِ ذلك يقولون: إنه قال هذه الأبيات في مكة ولم يذهب إلى الطائف، وكانت زوجته تبكي للفراق، فقال:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً　　بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي الْبُكَا　　بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وما دمنا في الطائف وحول مكة، فقد كان للحَجاج أخت اسمها زينب، ذهبت معتمرة مـع وفد، أي: أخت الأمير، أمير العراق. فأخذت وفداً وحاشية ونزلت من الطائف على جبل نعمان تريد المناسك جهة عرفة، فرآها النميري الشاعر وكان بين الشجر، وهي مارّة ففاحت طيباً في الوادي لما مرت وضاع المسك، فقال:

تَضوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نُعْمَانَ أَمْ مَشَتْ ... بِـهِ زَيْـنَـبُ فـي نِـسْـوَةٍ عَـطِـرَاتِ
تَهَادَين مَا بَيْنَ الْمُحَصَّبِ مِنْ مِنَى ... وَأَقْـبَـلْـنَ لا شُـعْـثَـاً وَلا غَـبِـرَاتِ
يُخَبِّئْنَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى ... وَيَـقـتُـلـنَ بِـالأَلْـحَـاظِ مُـقـتَـدِرَاتِ
فَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النُّمَيْرِي أَعْرَضَتْ ... وَأَصْـبَـحْـنَ أَنْ يَـلْـقِـيـنَـه حَـذِرَاتِ

وضع نفسه موضعاً خطيراً وعنده موكب، شكاه الحجاج إلى عبد الملك فدعاه، قال: يا عدو نفسه، ما هو الركب الذي عندك؟! قال: والله - يا أمير المؤمنين- ما عنـدي إلا أتان. أي: حمار لا يساوي (٢٠٠درهـم). فأعتقه وسامحه وشرط عليه ألا يتعرض للحرمات.

ومن الذيوع في الشعر ما يُحفظ للشاعر طُفَيْل الْغَنَوِي، فله ثلاثة أبيات- وقيل: أربعـة- سارت وذاعت، حتى إن الشافعي أتـى بها في السيرة، يرويها عن الشعبي. قـال: لمـا اجتمع الصحابة ﷺ في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة سيد الخلق ﷺ يريدون اختيار خليفة. الأنصار ظنوا أن لهم من الأمر شيئاً، مع أن أمر الخلافة في قريش في عهد الرسول ﷺ، فاجتمعوا هنا، فحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ﷺ فسكَّتهـم عمر رضي الله عنه فما سكتوا، يقول عمـر: «زَوَّرْتُ كَلاماً فِي صَدْرِي- أي: جهَّزت كلاماً في صدري وهيأته- وَكُنْتُ أُرَاعِي فِي أَبِي بَكْرٍ حِدَّةً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَسَكَّتَنِي أَبُو بَكْرٍ فَسَكَتُّ، قال: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ بِكَلام، وَاللهُ مَا تَرَكَ كَلاماً فِي صَدْرِي زَوَّرْتُهُ إِلاَّ أَتَى بِأَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى البَدَاهة، قَالَ: أَيُّهَا الأَنْصَارُ، نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، نَحْنُ الشِّعَـارُ وَأَنْتُمُ الدِّثَارُ، آسيتم وَنَصَرْتُـمْ وَآوَيْتُمْ وَكَفَيْتُمْ، وَاللهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُكُمْ- أَيُّهَا الأَنْصَارُ- إِلاَّ كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِي لَمَّا نَزَلَ فِي بَنِي جَعْفَرَ:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرَاً حَيْثُ أَشْرَفَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الشَّارِفِينَ فَزَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ[1] وَأَلْجَؤُوا ... إِلَى غُرُفَاتٍ أَدفَأَتْ وَأَظَلَّتِ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

وهذه القافية جميلة (ملّتِ، زَلَّتِ). حتى إن كُثَيّر عزة يقول:

هَنِيئَاً مَرِيئَاً غَيْرَ دَائِمٍ مُخامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

وأحد الشعراء أتى أميراً، فأعطاه جائزة، فقال:

رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

يقول: رأى فقري وكنت أستر فقري، لكن الكريم يكتشف فقر الفقير وحاجة المحتاج، فنظر إلي حتى اكتشف خلتي.

فيقول: إنه لما رأى حاجتي وفقري لم ينم، وصارت قذى في عينه حتى فرَّج عني- فرَّج الله عنه.

وعلى هذا دعا سيف الدولة الحمداني أبا الطيب المتنبي الشاعر المشهور، فقال له: أعجبني بيت:

رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

فزد عليه أبياتاً. فقال المتنبي على البداهة:

لَنَا مَلِكٌ لا يطْعمُ الْغَمْضُ جِفْنَهُ ... مَمَاتٌ لِحَيّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيّتِ
جَزَى اللهُ، عَنَّا سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِم ... فَإِنَّ مَدَاهُ الْغَمْر سَيْفِي وَدَوْلَتِي
رَأَى خلَّتِي مِنْ حَيْثُ يخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

(١) هذا واقع الأنصار بالمهاجرين.

فهذا مما سارت به الركبان.

ومن أشهر شعراء الجاهليين عَدِي بن زيد، وله قصيدة بديعة، حتى إن الخليفة الناصر دعا ابن الجوزي الواعظ الكبير، وقال له: أكمل هذه القصيدة ولو كانت مجلدات. فأكملها بآلاف الأبيات، والتي يقول فيها عدي بن زيد:

أَيُّهَا الشَّامتُ الْمُعَيّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ؟

يقول: يا من يشمت بنكباتنا ويشمت بمصائبنا إذا حلت بنا، أأنت مبرأ ومعك صك غفران، فما تصيبك مصيبة ولا تأتيك نكبة؟ وإذا أتتنا نكبة تشمت بنا.

هَلْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خُلّفْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَبِيرُ؟

يقول: هل رأيت أحداً ما تكدر أو أُصِيب؟ أرأيت في الخليقة إنساناً ما عَثَرَ؟ أرأيت في العالم إنساناً ما أُصِيب ابنه، أو أصيب في أهله أو في جسمه؟ حتى يقول أحد الشعراء:

كُلُّ مَنْ لاقَيْتُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

يقول: مكدرة هي الدنيا. هذه قصيدته من أشهر ما قيل، يقول:

مَنْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خَلَّفْنَ أَمْ مَنْ ذا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضامَ خَفيرُ

أَينَ كِسرى كِسرى المُلوكِ أَنوشِرْ وانُ أَم أين قَبلَهُ سابُوُرُ

انتهوا كلهم. وهي قصيدة طويلة.

ولجمالها وذيوعها، فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك المحدث العابد الزاهد المجاهد مرّ فرأى قصر طاهر بن حسين في خراسان، وكان قصراً كبيراً مرتفعاً، فقال: والله إن قصيدة عدي بن زيد أحسن عندي من هذا القصر لو كان لي، وهي:

أَيُّهَا الشَّامتُ الْمُعَيّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ؟

وعدي بن زيد له أبيات، منها يقول- لما رأى بيوتاً وقصوراً، وقد مات ملوكها كالنعمان ومن كان معه-:

جَرَتِ الرّيَاحُ عَلَى مَحَلّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

يقول عزّ وجلّ عن الأمم والثقافات والحضارات السابقة والدول ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولما مرَّ علي رضي الله عنه ببابل ورأى الدور، وإذا هي مهدمة كأن لم تغنَ بالأمس، قال:

جَرَتِ الرّيَاحُ عَلَى مَحَلّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

ويقول ابن بطوطة: إنه مرَّ بخراسان بمقبرة، فوجد في المقبرة لوحة مكتوب عليها: دُفِن في هذه المقبرة (١٠٠٠ملك) من ملوك خراسان، ومكتوب عليها أيضا بيت شعر:

وَسَلاطِينُهُمْ سَلِ الطُّيُورَ عَنْهُمْ وَالرُّؤُوسُ الْعِظَامُ صَارَتْ عِظَاما

وهذا مما شاع في الناس، وذاع حتى صار مضرب المثل.

ومطالع القصائد العربية هي مما شاع وذاع عند الناس؛ فامرؤ القيس قال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدّخُولِ فَحَوْمَلِ

وبعض المعاصرين يقول:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى كِتَابٍ مُنْزِلِ

لأن ذاك يجيد بُكاءَ الديار وذكر النوق ومرابع الصبا وملاعب الفتوة، والعرب إنما حنت للديار وللأوطان أكثر من أي حنين، ولذلك فشعر الأوطان مما يأخذ بالْجَنَانِ ومما يهيج الإنسان، وأحسن شيء عندي في الوطن هو قول ابن الرومي:

وَلِـي وَطَـنٌ آلَـيْـتُ أَلاَّ أَبِـيـعَـهُ ... وَأَلاَّ أرى غَيْرِي لَهُ الدَّهْر مَالِكا
عَهِدْتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً ... كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلالِكَا
وَحَبَّبَ أَوْطَـانَ الـرِّجَـالِ إِلَـيْـهِـمُ ... مَعَاهِدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَـرُوا أَوْطَـانَـهُـمْ ذكرتْهم ... عُهُودُ الصِّبَا مِنهُا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

وهـذا من شعر الأوطـان التي حن لها الشعراء إذا استقـروا، لكن بعضهم لا يستقر، تراه يتنقل من دار إلى دار ومن سكن إلى سكن، حتى يقول أبو تمام:

بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وأنا ... بِالرَّقْمَتِينِ وبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

وقد نظمت على موضوعها وقافيتها قصيدة، فقلت:

أَنَـا الْـحِـجَـازُ أَنَـا نَـجْـدٌ أَنَـا يَـمَـنٌ ... أَنَا الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي
وَفِـي رُبَـى مَـكَّـة تَـارِيـخُ مَـلْـحَـمَـةٍ ... عَلَى ثَـرَاهَـا بَنَيْنَا الْعَالَمَ الْفَانِي
فِي طَيْبَةَ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وأُغْنِيتِي ... فِي رَوْضَةِ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَرِضْوَانِي
النّيلُ مَائِي وَمِـنْ عَمَّانَ تَذْكِرَتِي ... وَفِـي الْـجَـزَائِـرِ إِخْـوَانِـي وَتَـطْـوَانِي
فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وأنا ... بِالرَّقْمَتِينِ وبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي
فَـأَيْـنَـمَـا ذُكِـرَ اسْـمُ اللهِ فِـي بَـلَـدٍ ... عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي
وَالْوَحْيُ مَدْرَسَتِي الْكُبْرَى وَغَارُ حِرَا ... تَارِيخُ عُمْرِي وَمِيلادِي وَرِضْوَانِي
وَثِيقَةٌ كُتِبَتْ فِي اللَّوْحِ وَانْهَمَرَتْ ... آيَاتُهَا فَاقْرَؤُوا- يَا قَوْمُ- قُرْآنِي

فهـذه أبياتهـم يوم سارت فـي الناس، حتى إنهـم اختلفوا في أجـود الأبيات وأفضلهـا، وكل يقول بحسـب معرفته؛ فمنهم من يقدم قـول جرير- يخاطب بني أمية عند عبد الملك-:

أَتَصْحُو[1] أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

فقال عبد الملك: بل فؤادك أنت. فزجره في أول الأبيات، فلما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُون رَاحِ

قال عبد الملك: بلى، بلى. وأعطاه جائزة على ذلك.

ومما سارت به الركبان قول حسان- حتى إن الأصمعي يقول: هو من أفخر الأبيات. يقول ببدر-:

وَيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ يَصُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا ومُحَمَّدِ

وحسان رضي الله عنه صاحب قافية وله أبيات ماتعة، حتى إنه إذا أراد أن يهجو المشركين أوصل إلى الكبد وكوى، أي: يُنَضج الكبد تنضيجاً راقياً مثل: الميسم.

طُوبَى لِمُعْتَرَكٍ مِنَ الآرَامِ تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ
إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مِنْ ذِي الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ

يقصد الحارث أخا أبي جهل، وكان قد فرَّ من بدر، فيقول:

تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ

ولكن بعد ذلك أسلم الحارث بن هشام، وبعدها قُتِل شهيداً رضي الله عنه في اليرموك.

ومن أكثر الشعراء ذيوعاً وشيوعاً في شعرهم المتنبي، إذ إن شعره صار حكماً وروائع، ومن ذلك أنه يقول:

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

(١) هو يقصد نفسه، لكنه يكلم الخليفة، وهذا مما لا يصلح.

ولما تحدث عن الدنيا قال:

لَحَى اللهُ ذَي الدُّنْيَا مناخاً لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمّ فِيهَا مُعَذَّبُ

ويقول عن الْحُسَّادِ:

سِوَى وَجْعِ الْحُسَّادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

بل أتى بالقصيدة اللامية الأخرى، التي يقول فيها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

فلا بد من أن يُطَعّم الْقصيدة بأبيات من الحكمة المؤثرة الخالدة في الناس، ولذلك استحق أن يكون ملك الشعراء في مسألة القافية، حتى إن ديوانه شُرِح أكثر من (٨٠ شرحاً) فقد مدح سيف الدولة بقصيدة رائعة، يقول فيها:

لِكُلّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا

هُوَ الْبَحْرُ خُضْ فِيهِ إِذا كَانَ سَاكِناً خُذِ الدُّرَّ وَاحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِن أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ومثل هذا يقول:

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ[1] وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالِ

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مقرباتٍ فَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِي

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي نِصَالٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

(١) المشرفية: السيوف.

ثم يمدح ويقول:

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فهذا هو الشيوع والذيوع الذي انتشر عند بعض الشعراء؛ بسبب تجويدهم للكلمة والعبارة، وهذا من فضل الله عز وجل.



obeikandl.com

obeikandl.com

املؤوا فمه درًّا

كلمة عند أهل الأدب مشهورة يقولها الخلفاء والوزراء والأمراء للشاعر إذا أجاد، يقول: املؤوا فمه درًّا. أي: فوق الجائزة. إذا بلغ بالسامع الوزير الأمير الملك مبلغه من الإعجاب بهذا الشاعر، ومن مُلِئَت أفواههم درًّا عبر تاريخ الأدب أربعة أو خمسة فقط؛ لأنه قلّ أن يأتي شاعر ببيت ساطع لامع يمكن أن يخلع قلب الخليفة؛ لأن السحر الحلال هو الأدب، ولذلك «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**».

obeikandl.com

أذكـر على سبيل المثال أبا نواس الشاعر الكبير، وهو مدرسة بلا شك، مدح الوزراء في عهد بني العباس.

ولـه قصة مع علي بـن موسى الرضى. فأول ما تولـى المأمون كان ولي عهده علـي بـن موسى الرضى من بيت الرسول ﷺ مـن سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكـن بنـي العباس مـا تحملوا ذلك، لكن المأمـون مائل لأهل البيـت أكثر، فأتى بعلـي بن موسى الرضى فجعلـه ولي عهده، وعلي بن موسى هذا كان قد ذهب إليه الشاعر دعبل الخزاعي في خراسان وألقى قصيدته التائية التي يقول فيها:

بَنَاتُ زِيَـادٍ فِي الْقُصُورِ نَوَاعِمٌ ... وَآلُ رَسُـولِ اللهِ فِـي الْـفَـلَـوَاتِ
إِذَا وُتِـرُوا مَـدُّوا إِلَـى وَاتِـرِهِـمْ ... أَكُـفًّـاً عَـلَـى الأَوْتَـارِ مُـنْـقَـبِـضَـاتِ

ينعى فيها آل البيت، حتى يقول:

قُـبُـورُ عَـلِـيٍّ والْـحُـسَـيْـنِ وَجَـعْـفَـرٍ ... وَحَـمْـزَةَ والـسَّـجَّـادِ ذي الـنَّـفَـنَـاتِ
وقَـبْـر بـبَـغْـدادَ لـنـفْـسٍ زكِـيَّـةٍ ... تَضَمَّنها الـرَّحْـمـنُ فـي الـغُـرُفَـاتِ

فأُغْمِي على علي بن موسى الرضى من هول القصيدة وقوتها وسقط من على كرسيه.

وأبـو نواس مدح الـوزراء والأمراء ونسي ولي العهد وهو من أهل البيت، فجاء العلمـاء وقالـوا: تمدح فلاناً وتمـدح فلاناً وتنسى ولي العهد هـذا؟! وكان ما ترك أحـداً إلا مدحه حتى بائع الجرجير مدحه. فنظم أبياتاً قوية مؤثرة، فذهب يعتذر عند علي بن موسى، قال:

قِيلَ لِي [1]: أَنْتَ وَاحِدُ النَّاسِ فِي ... كُـلِ مَـعْـنَـىً مِـنَ الْـكَـلامِ بَـدِيـهِـي

(١) يقصد نفسه ويمدحها.

فيقـول: إن النـاس قالوا: إني صاحب كلمات، وإني وحيـد في العبارات، وإني أطلق اللفظ إذا أردت.

لَـكَ فِـي جَـوْهَـرِ الْـكَـلامِ بَـدِيـعٌ ... يثْـمـرُ الـدُّرُّ فـي يَـدَيْ مُـجْـتَـنِـيـهِ

فَـعَـلامَ تَـرَكْـتَ مَـدْحَ ابْـنِ مُـوسَـى ... بِـالْـخِـصَـالِ الَّـتِـي تَـجَـمَّـعْـنَ فِـيـهِ

قُـلْـتُ: كَـيْـفَ أَهْـتَـدِي لِـمَـدْحِ إِمَـامٍ ... كَـانَ جِـبْـرِيـلُ صَـاحِـبَـاً لأَبِـيـهِ

فانظر إلى هذه العبارات، حتى يقول الصوري: أَجزم جزماً أنه لم يُمْدَح أحدٌ بمثـل هذه. فقـال: املؤوا فمه دراً. لأنـه أجاد إجادة فوق الـلازم؛ حيث يقول: أنا أمدح الناس العاديين، أما أنت فجدك ﷺ صاحب جبريل، فأنتم شيء آخر؛ نبوة ورسالة ولا أستطيع أن أمدحك، فدعنا نمدح التجار والعمال والموظفين.

والموحدون هم الذين قاموا في المغرب وأسسوا دولتهم، ومن أشهر ملوكهم عبـد المؤمـن بن علي، كان يقـول: أصولنا ثلاثة: القرآن، وسنـن أبي داود، وهذا السيـف. فلا أنصاف حلول، وأخذ كتب الفقه والأصـول المالكية وأحرقها بالنار، وقال: عودوا إلى الكتاب والسنة. هذه وجهة نظره في الباب، وشجعه بعض العلماء علـى هذا، الشاهـد أنه أتى شاعر يمدحـه، يريد أن يمتدح عبـد المؤمن بن علي صاحب التصميم والعزيمة، الذي يخافه الناس رهبة وكل كلماته مؤثرة في القتال وفي الحروب وفي العلم وفي المعرفة، وقال:

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرَتْ ... وَرْقَاءُ جادَتْ مِنَ الشُّبَّاكِ بِالْمُقَلِ

كَـأَنَّ فَتكَتَهَا فِـي قَـلْـبِ عَاشِـقِهَا ... ضَرْبُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي

قـال: غيّر القصيـدة. أي: غيّر هذا المطلـق. ما تَطَلَّع علـى الشباك وورقاء ونظرت ورأيناها وسقطت وخافت.

فقال الشاعر:

مَا هَزَّ عَطْفَيْهِ بَيْنَ الْبِيضِ وَالأَسَلِ ... مِثْلُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي

قال: امسح القصيدة وأبقِ هذا البيت، واملؤوا فمه دُرًّا. فقوله هذا معناه أن من عادة السيوف والرماح أن تلوح بين الصفين في المعركة، وما لاحت في يد أحد مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي.

وممن مُلِئَ فمه درًا عمارة اليمني، وكان من أشهر الشعراء على الإطلاق، وهو من درجة المتنبي، سافر من مكة إلى الفاطميين في مصر، يقول:

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ ... مَا سِرْتُ إِلاَّ مِنْ حَرَمٍ إلا إِلَى حَرَمِ

حَيْثُ الْخِلافَةُ مَبْسُوطٌ صَوَادِقُهَا ... تَجْنِي الْبَغِيضَيْنِ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ

وَلِلرِّسَالَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ ... تُبْدِي الْحَبِيبَيْنِ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكَمِ

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

يقول: ليت النجوم تنزل علينا قليلاً، فأنظمها قصائد وأعطيكم إياها. القصيدة رائعة بلا شك، لكنه أتى بقصيدة أخرى يمدح فيها الفائز الحاكم الفاطمي في مصر، يقول:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ [1] وَخَرَجْتُ مِنْ ... أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

هذا نفاق اجتماعي مبالغ فيه يريد الجائزة، قال: امحُ القصيدة واترك هذا البيت واملؤوا فمه درًا. هذا هو عمارة اليمني، قتله صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه أراد مع بعض الناس إعادة دولة الفاطميين، الدولة المنحرفة عن الجادة، وأن يعادي السلطان العادل والإمام الحق صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي نصر

(١) أي: قبّلت.

الله به الإسلام، فاستحق الإعدام، فَأُعدم هذا الشاعر، وكلهم سوف يذهبون إلى الله ﷻ؛ القاتل والمقتول فهو ﷻ أحكم من يعدل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

جلس المتوكل ليلة من الليالي ولبس برد الرسول ﷺ الذي توارثه خلفاء بني العباس، فقال: من يصف هذا المشهد وأنا لابس البرد؟ وكان الشعراء جلوساً، فقام أحدهم وقيل: هو ابن الشجري. وقيل غيره. فقال:

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسْتَهُ ... يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهْ

وَقَالَ - وَقَدْ أُوِيتَهُ وَلَبِسْتَهُ- : نَعَمْ، هَذِهِ أَعْطَافُهُ وَمَنَاكِبُهْ

قال: املؤوا فمه دراً.

وسرعة البداهة موهبة من الله، وبالمناسبة فإن أبا جعفر المنصور أشهر خلفاء بني العباس، خرج للسير والنزهة، وقال للشعراء - وكان معه ما يقرب من ثلاثين شاعراً منهم بشار بن برد -: مَن يُجِيز هذا البيت الذي أقول ويأتي ببيت على البحر والقافية وأعطيه هذا البرد الذي عليَّ؟ قالوا: قل يا أمير المؤمنين.

فقال:

وَهَاجِرَةٍ وَقَفْتُ بِهَا قُلُوصِي ... يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهْرَ الْعَضَايَهْ [1]

فسكت الشعراء، فقالوا: أعد يا أمير المؤمنين. فقال:

وَهَاجِرَةٍ وَقَفْتُ بِهَا قُلُوصِي ... يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهْرَ الْعَضَايَهْ

معنى هذا البيت: ما أشد هذه الهاجرة وهذه الظهيرة التي نحن فيها! شدة النهار التي وقفت بها أنا وناقتي، حتى لو كان هذا الحر على ظهر السلحفاة- مع

(١) العضاية: قيل: السلحفاة. وقيل نحوها.

أن ظهرها شديد قوي- لقطعها، فكيف أنا؟! فقالوا: أعد. فلما أعاد جثوا على رُكَبِهم أيهم يرد أولاً. فقال أحدهم:

وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ فَفَاضَ دَمْعِي عَلَى خَدِّي فَأَقْصَرَ وَاعِظَايَ

فأعطاه أبو جعفر البرد، فشراه بنو العباس بألف دينار منه وأخذوا البرد؛ برد الخليفة.

وممن مُلِئَ فمه دراً أحد الشعراء، مدح جعفر بن فلاح وهو قائد فاطمي من قادة الفاطميين، لقيه الشاعر، فقال:

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلاحٍ أَرْوَعَ الْخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلا وَاللهِ ما سَمِعَتْ أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

يقول: كنا نسمع عنك ولما التقيتنا كنت أكبر. وهذا من ترتيب الألفاظ الجميلة، ومما يعجبني في ذلك أبيات نظمها أحد العلماء من أهل الحديث، وبعض أهل الحديث يُرزق مع العلم شعراً، ومنهم أبو وردي المحدث الكبير، كان شاعراً من درجة المتنبي بلا مبالغة، وهو الذي يقول:

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَو تَسْأَلُ الأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

وأحد المحدثين من الشعراء يقول:

مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ تَرْوِي أَحَادِيثَ مَا أَوْرِيتَ مِنْ مِنَنِ
فَالْعَيْنُ عَنْ قُرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صِلَةٍ وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ

فهؤلاء رواة حديث، مثل: قرة بن خالد المشهور، وصلة بن الأشين عالم كبير، وجابر بن عبد الله «الصحابي المشهور» والحسن البصري. فنظمهم؛ لأنهم في السند.

وممـن مُلِئ فمه دراً شاعـر يقال له: تميم الأمير. وكان تميم أميراً جواداً من أكبـر الأمراء على الإطـلاق، فيقولون: تميم بن دُبيس، أو غيـره. يقول فيه شاعر عارف بعلم السند:

أَصَحُّ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى ... مِنَ الأَثَـرِ الْمَعْرُوفِ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا ... عَنِ الْغَيْثِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ

فَأجازه جائزة، وقال: املؤوا فمه دراً.

وصارت شهرة لهؤلاء؛ لأنهم خلدوا شعرهم فيمن مدحهم.

وزهير من أعظم من مدح آل هرم بن سنان، حتى يقول:

مَـا كَـانَ مِـنْ خَيْـرٍ أَتَـوْهُ فَإِنَّمَـا ... تَـوَارَثَـهُ آبَـاءُ آبَـائِـهِـمْ قَبْـلُ
وَهَـلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيُّ إِلاَّ وَشِيجهُ ... وتُغْرَسُ إِلاّ فِي مَغَارِسِها النَّخْلُ

وهـذا أولى أن يُملأ فمه دراً؛ لأنه قال فيهم كلمة صادقة، وما كان يقول فيهم إلا الحـق. واختلف أهل الأدب عند الأصمعي وغيـر الأصمعي، تراه يفضل النابغة الذبيانـي على زهير، على أن زهير عاقل حكيـم، لكن النابغة مؤثر في شعره، قيل للأصمعـي: أيهمـا أشعر زهيـر أو النابغة؟ قـال: النابغة، النابغـة إن قلت: شعره حرير فهو حرير، وإن قلت: ألين من الحرير فألين من الحرير، وإن قلت: أقوى من الحديد فأقوى من الحديد. ومن ذلك قوله:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي[1] ... وَتِلْكَ الَّتِي أهتمّ مِنْها وأَنْصَبُ
فَبِتُّ كَـأَنَّ الْغَانِيَـاتِ فَرَشْـنَ لِي ... هرَاساً به يَعْلُو فِرَاشِي وَيقْشبُ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِك رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

(١) يقصد النابغة الذبياني.

وَإِنْ بَلَّغَ الْوَاشُونَ عَنِّي وِشَايَةً لَمُبْلِغُكَ الوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلَسْتَ بُمسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ؟!

هـذا البيـت الأخير مؤثـر وبديع وهو رسالـة اجتماعية، يقول: لـن يبقى لك صديق ما دمت لا تقبله على زلاته، تقبله على علاته، تقبله على الأخطاء فيه.

تلمه على شعث، أي: تتستر عليه وتحاول أن تُصلح ما بينك وبينه. ثم قال: أي الرجـال مذهب؟ هل رأيت عوداً يفـوح بلا دخان؟! هل رأيت إنساناً معصوماً؟! إلا الأنبياء -عليهم السلام-.

مَـنْ ذَا الَّـذِي مَـا سَـاءَ قَـطْ وَمَـنْ لَـهُ الْحُسْنَى فَقَطْ

ومن ذلك قول الشاعر بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُه؟
إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لا تُعَاتِبُه

فينبغـي للإنسـان أن يغض الطرف عـن صاحبه وصديقه، ويقبلـه على زلَلِه وعلى علله؛ ليستمر، أما أن تريد مذهباً لا عيب فيه، فهل عود يفوح بلا دخان؟!

حتـى إن لهم أيمانـاً فاجرة وبارَّة؛ فامـرؤ القيس يمينه فاجـرة عند الأدباء والحكماء؛ لأنه يقول:

حَلَفْتُ لَهَا بِـاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلا صَالِ

في لاميته التي فضلها الزمخشري على لاميته المعلقة، التي من ضمن أبياتها يقول:

أَلا عِمْ صَبَاحاً - أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي - وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وَهَـلْ يَعمن إلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ
حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلا صَالِ

هذه اليمين الفاجرة، أما اليمين البارة، فهي من النابغة الذبياني، حيث يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِك رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
وَإِنْ بَلَّغَ الْوَاشُونَ عَنِّي وِشَايَةً لَمبلغك الواشي أغشّ وَأَكْذَبُ

أي: إن الذي بلغك كذاب؛ لأنه يريد الإفساد بينك وبيني، ولو كان حكيماً لبلغك حسناً، فأول المغتابين لك والسابين لك هو من بلغك الوشاية ومن بلغك السب من صاحبك، فمن بلغك السب فكأنما سبك، ومن بلغك الشتم فكأنما شتمك، والواجب في الشرع أن تُكَذِّبه وأن تتثبت من الأخبار ولا تقبل روايته؛ لأنه ما أراد إلا السوء والإفساد. حتى إنه عزّ وجلّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فمنطق الإسلام التبين والتغافل عن زلات الإخوان؛ حتى يصلح الحال، فكن كأنك لم تسمع ولم يقل.

أما إكرامات الشعراء فتختلف من شاعر إلى شاعر بحسب ما أُوتي، وقيل: من أكبر الجوائز هي جائزة علي بن جبلة لأبي دُلَف. لأن أبا دلف لما سمع قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ بَيْنَ بَادِيه إِلَى حَضَرِه
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ

قال: أُخَيِّرُك في ثلاث: أن تقاسمني في الإمارة، أو تحتكم أنت، أو أن أعطيك على كل بيت (١٠٠٠٠٠درهم). قال: أعطني على كل بيت (١٠٠٠٠٠درهم)؟. فأخذ المال، ثم قتله المأمون؛ بسبب هذه القصيدة.

والعجيب أن أبـا منصور الحاجب أعطى المتنبي ديناراً على قصيدته، وكان هذا بخيلاً جداً، فمدحه المتنبي بأحسن قصائده، يقول:

بأبِي الشُّمُوسِ الجَانِحَاتِ غَوَارِبَا اللاَّبِسَاتِ مِنَ الْخُدُودِ جَلابِبَا

ثـم يقـول: فسموك الأبـي الحاجب. يقصـد الحاجب أعطاه دينـاراً فتُسمى هذه القصيـدة: الدينارية. وهي من أحسن قصائده لكن البخل عند بعض الناس بالعطاء طبع.



obeikandl.com

مدائح نبوية

رسول الهدى ﷺ بأبي هو وأمي أجل من خلق الله، وأكرمهم وسيدهم وخيرهم، ولكنه ﷺ يقول لأمته: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». لكنه يثنى عليه ﷺ بالمكارم، وقد أثنى عليه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وهناك مدائح نبوية حفظها لنا تاريخ الأدب العربي، بدأها كعب بن زهير الذي عاصر رسول الهدى ﷺ يقول فيها:

obeikandl.com

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ثم قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

نُبِّئْتُ أَنْ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

إلى آخر القصيدة، التي أُطلق عليها اسم «البردة»؛ لأنه يُروى في السياق أن الرسول ﷺ خلع بردته لزهير رضي الله عنه؛ لما قال هذه القصيدة.

وفي عهده ﷺ مُدِحَ، حتى إن هناك بيتين يتيمين شاردين من قوتهما يقول صاحبهما:

يَا مَنْ تَضوَّعَ طِيب الْقَاعِ أَعْظُمَهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِ ذَاكَ الْقَاعِ والأشم

نَفْسِي الْفِدَاءُ بِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم استمر الشعراء في مدائحهم للرسول ﷺ، حتى أتى البُوصيري لكنه غالى في المدح، فقصيدته من حيث الجمال الفني، ومن حيث التركيب البلاغي، ومن حيث الفصاحة مشرقة فصيحة جداً، يقول:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزْجَتَ دَمْعَاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِي

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِن قلتَ اكْفُفَا هَمَتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ يَهِمِ

ومدح رسول الله ﷺ، ثم جاء أحمد شوقي وسمى قصيدته: نهج البردة. التي مطلعها:

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ

رَمَى الْقَضَاءُ بِعَيْنِي جُؤْذِرٍ أَسَداً يَا سَاكِنَ الْقَاعِ، أَدْرِكْ سَاكِنَ الأَجَمِ

إلى أن يقول في مدح سيد الخلق ﷺ:

أَسْرَى بِكَ اللهُ لَيْلاً إِذْ مَلائِكُهُ ... وَالرُسْلُ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى عَلَى قَدَمِ

لَمَّا خَطَرْتَ بِهِ الْتَفُّوا بِسَيِّدِهِمْ ... كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ

حَتَّى بَلَغْتَ مَكَانَاً لا يُطَارُ لَهُ ... عَلَى جَنَاحٍ وَلا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ

وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ ... وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ

مَوْلايَ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى ... نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسْلِ كُلِّهِمِ

وهي طويلة، وأجمل منها قصيدة البوصيري.

وقد نظمت قصيدة اسمها: تاج المدائح فيه ﷺ من ضمن أبياتها على البحر والقافية:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمِ ... مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونِ وَالْقَلَمِ

سَالَتْ قَرِيحَةُ صَبٍّ فِي مَحَبَّتِكُمْ ... فَيْضَاً تَدَفَّقَ مِثْلَ الْهَاطِلِ الْعَمِمِ

يُزْرِي بِنَابِغَةَ النُّعْمَانِ رَوْنَقُهَا ... وَمَنْ زُهَيْرٌ وَمَاذَا قَالَ فِي هَرِمِ؟

مِيمِيَّةٌ لَوْ فَتَى بُوصِيرَ أَبْصَرَهَا ... لَعَوَّذُوهُ بِرَبِّ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ

مَا زَارَ سُوقَ عُكَاظٍ مِثْلُ طلْعَتِهَا ... هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مِنْ رَوْعَةِ النَّغَمِ

أُثْنِي عَلَى مَنْ؟ أَتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ؟ ... أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي؟

فِي أَثْبَتِ النَّاسِ قَلْبَاً غَيْرِ مُنْتَقِمٍ ... وَأَصْدَقِ النَّاسِ لَفْظَاً غَيْرِ مُتَّهَمِ

قَحْطَانُ عَدْنَانُ شَادُوا مِنْكَ عِزَّتَهُمْ ... بِكَ التَّشَرُّفُ لِلتَّارِيخِ لا بِهِمِ

عُقُودُ نَصْرِكَ فِي بَدْرٍ وَفِي أُحُدٍ ... وَعَهْدُنَا فِيكَ لا فِي هَيْئَةِ الأَمَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلاَّ نُقْطَةٌ غَرِقَتْ ... فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ فِي الْقِدَمِ

أَكَادُ أَقْتَلِعُ الآهَاتِ مِنْ حُرَقٍ ... إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِ

إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللهِ مِثْلَكَ فِي ... بَدْوٍ وَحَضْرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمِ
فلا اشْتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ... وَلا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ فَمِي

الرسول ﷺ يجمع في مدحه الدواوين والكتب والمجلدات من القصائد التي مُدِحَ بها ﷺ، وقام بعض الأدباء بجمع القصائد فأربت على المئات إلى خمس مئة، وربما لو جُمِعَت لصارت أكثر من ألف قصيدة خلاف المقطوعات والأبيات، ومن أحسن ما مُدِحَ به سيد الخلق ﷺ قصيدة لعبد الله البردوني شاعر اليمن، في قصيدة يتكلم فيها عن الغار، لكنها بسمو وبجمال وبقوة، وهو من أكبر الشعراء المعاصرين، يقول:

بُشْرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلْقَتْ فِي فَمِ الْغَارِ ... وَحْيَاً وَأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ
بُشْرَى النُّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّذَا سَحَراً ... وَأَعْلَنَتْ فِي الدُّنَا مِيلادَ أَنْوَارِ
وَشَقَّتِ الصَّمْتَ والأَنْسَامُ تَحْمِلُهَا ... تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ
وَهَدْهَدَتْ مَكَّةَ الْوَسْنَى أَنَامِلُهَا ... وَشَقَّتِ الْكَوْنَ إِيذَاناً بِإِسْفَارِ
فَأَقْبَلَ النُّورُ مِنْ خَلْفِ التِّلالِ وَفِي ... عَيْنَيْهِ أَسْرَارُ عُشَّاقٍ وَسُمَّارِ
وَشَبَّ طِفْلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبُ مُتَّشِحاً ... بِالْخَيْرِ مُتَّزِناً بِالنُّورِ وَالنَّارِ
فِي كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي وَفِي دَمِهِ ... عَقِيدَةٌ تَتَحَدَّى كُلَّ جَبَّارِ
أَعْلَى الْمَنَاصِبِ مَا حَاكَتْ لِصَاحِبِهَا ... مِنَ الْعُلا وَالْمَعَالِي نَصْبَ تَذْكَارِ
طَهَ إِذَا ثَارَ إِنْشَادِي فَإِنَّ أَبِي ... حَسَّان أَخْبَارُهُ فِي الشَّامِ أَخْبَارِي
أَنَا ابْنُ أَنْصَارِكَ الْغُرِّ الأُلَى سَحَقُوا ... جَيْشَ الطُّغَاةِ بِجَيْشٍ مِنْكَ جَرَّارِ
إِذَا تَذَكَّرْتَ عَمَّاراً وَسِيرَتَهُ ... فَافْخَرْ بِنَا؛ إِنَّنَا أَحْفَادُ عَمَّارِ

والزبيري له قصيدة في مدحه ﷺ مطلعها:

السَّمَاوَاتُ شَيِّقَاتٌ ظِمَاءُ وَالْفَضَا والنُّجُومُ وَالأَنْوَاءُ
كُلُّهَا لَهْفَةٌ إِلَى الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَشَوْقٌ وَعِزَّةٌ وَثَنَاءُ

وقد نظمتُ على قافية هذه القصيدة قصيدة قلت فيها:

أَيُّهَا الشِّعْرُ أَنْتَ، أَنْتَ الْحِداءُ غَنِّ شِعْرَاً تُصْغِي إِلَيْهِ السَّمَاءُ
قُدْتَ لِلْحَقِّ سَاطِعَاً يَفْضَحُ الْبُهْ تَانَ فَالْحَقُّ عِزَّةٌ شَمَّاءُ

وهناك شاعر من سوريا مشهور اسمه عبد الهادي حرب، مدح سيد الخلق ﷺ بقصيدة من ضمنها يقول:

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدٍ نَظَرَ الإِلَهُ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا
بَلْ كَرَّمَ الإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهِلالَهَا
لَبِسَ الْمُرَقَّعَ فَهْوَ قَائِدُ أُمَّةٍ جَبَتِ الْكُنُوزَ فَكَسَّرَتْ أَغْلالَهَا
لَمَّا رَآهَا اللهُ تَمْشِي نَحْوَهُ لا تَبْتَغِي إِلاَّ رِضَاهُ سَعَى لَهَا
أَنْتَ الشُّجَاعُ إِذَا لَقِيتَ كَتِيبَةً أَدَّبْتَ فِي هَوْلِ الرَّدَى أَبْطَالَهَا
وَإِذَا وَعَدْتَ وَفَيْتَ فِيمَا قُلْتَهُ لا مَنْ يُكَذِّبُ قَوْلَهُ أَفْعَالُهُ

فهو ﷺ ممدوح في ذلك، وإنما أقف مع المدح من ذكريات إسلامية مع سيد الخلق ﷺ، فقد أتاه رجل اسمه الأسود بن سريع، قال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي نَظَمْتُ قَصِيدَةً أُثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. فَقَالَ ﷺ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ**». ولذلك كان ﷺ يحب أن يكون المدح في ربه، فالله أهل أن يُمدح وأهل أن يُشكر وأن يحمد ﷻ، وأهل أن يُبجل لا إله إلا هو، حتى إنه ﷻ مدح نفسه، وعند مسلم: «**لا أَحَدَ أَحبّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ**». فالرسول ﷺ كان يسمع المدح، حتى إن ابن رواحة رضي الله عنه قال:

لَـوْ لَـمْ تَـكُـنْ فِـيـهِ آيَـاتٌ مُـبَـيَّـنَـةٌ لَـكَـانَ مَـنْـظَـرُهُ يُـنْـبِـيـكَ بِـالْـخَـبَـرِ

وقال في قصيدة أخرى:

فَـثَـبَّـتَ اللهُ مَـا آتَـاكَ مِـنْ حَسَـنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْراً كَالَّذِي نُصِرُوا

قـال ﷺ: «**وَإِيَّـاكَ فَثَبَّتَ**». وجاءه ﷺ النابغة، نابغـة بني جعدة، فأتى يمدح قومه؛ ليتوصل لمدح الرسول ﷺ، فقال:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ عَلَى الْفَتَى وَمِـنْ عَـادَةِ الْـمَـحْـزُونِ أَنْ يَـتَـذَكَّـرَا

بَـلَـغْـنَـا السَّـمَـاءَ مَـجْـدَنَـا وَجُـدُودَنَـا وَإِنَّـا لَـنَـرْجُـو فَـوْقَ ذَلِـكَ مَـظْـهَـرَا

فَقال ﷺ: «**إِلَى أَيْنَ - يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ: إِلَى الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ ﷺ: «لا فُضَّ فُـوكَ**». فعاش مئة سنة ما سقط له سـن ولا ضرس؛ من فضل وبركة دعاء الرسـول ﷺ، وكان يسمع الشعر ويأبى الغلو ﷺ لكنـه يسمعه ويقول: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَة**». ويسمع لحسان رضي الله عنه.

ولما جاءه وفد بني تميم وكانوا ما يقارب العشرة، وقيل: أكثر. وكان خطيبهم عمـرو بن الأهتم وشاعرهـم الزبرقان بن بدر، ومعهم قيس بـن عاصم الْمُنْقَري حليـم العـرب، فقدموا فقالـوا: نريد أن نُفَاخِـرَك. وعادة العـرب إذا قدموا على الملـوك أنهـم يُفاخـرون، وكل قبيلة تُفاخر، فـأذن لهم ﷺ ودُعوا فـي المسجد وخطيبهـم، ودُعِـي خطيب الرسـول ﷺ الذي هو ثابت بن قيـس بن شماس رضي الله عنه فتكلـم خطيبهـم وكان مصقعاً وهو عمرو بـن الأهتم، فلما انتهـى قال ﷺ: «قُمْ - يَـا ثَابِتُ بْـن قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ - فَـرُدَّ عَلَيْهِمْ». وهو الأنصاري الـذي قُتِل شهيداً فـي اليمامـة، فقام فأتـى بكلام كأنه صواعـق من على المنبر، حتـى غلبه، فقام شاعرهم الزبرقان بن بدر، وقال القصيدة، حتى إنه قال:

مِـنَّـا الْـمُـلُـوكُ فَـلا حَـيٌّ يُـضَـارِعُـنَـا مِـنَّـا الْـمُـلُـوكُ وَفِـينَـا تُـنْـصَـبُ الْـبِـيَـعُ

إلى آخر ما قال، فقال ﷺ: «قُمْ يَا حَسَّـانُ». فقام حسـان في الحال مباشرة على البداهة، وقال - في قصيدة طويلة -:

إنَّ الـذَّوَائِـبَ مِـنْ فِهْـرٍ وَإِخْـوَتِـهِ ... قَـدْ بَـيَّـنُـوا سُـنَّـةً لِـلنَّـاسِ تُـتَّـبَـعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ ... تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَـومٌ إِذا حارَبـوا ضَـروا عَـدُوَّهُـمُ ... أَو حاوَلوا النَفعَ في أَشياعِهِم نَفَعوا

إلى أن يقول:

كَأَنَّهُم في الوَغى وَالمَوتُ مُكتَنِعٌ ... أُسْـدٌ بِبِيشَـةَ فِي أَرْسَـاغِهَـا فَـدَعُ
سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنهُم غَيرُ مُحدَثَةٍ ... إِنَّ الـخَـلائِـقَ حَـقّـاً شَـرُّهـا الـبِـدَعُ
لا يَـرقَـعُ النـاسُ مـا أَوهَـت أَكُـفُّهُـمُ ... عِندَ الـدِّفاعِ وَلا يُوهونَ ما رَقَعوا

إلى آخر ما قال.

فقالـوا: «**غَلَـبَ شَاعِـرُكَ شَاعِرَنَا وَخَطِيبُـكَ خَطِيبَنَـا**». وحسان رضي الله عنه شاعر النبـي ﷺ. وكان الرسـول ﷺ يقرب له المنبر ويقول عـن المشركين: «**اهْجُهُمْ وَمَعَـكَ رُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّـدُكَ**». وحسان رضي الله عنه لما قال له: «**كَيْفَ أَنْـتَ يَا حَسَّانُ؟**». أي: هـل تستطيع للمشركين مجابهة بالـرد؛ لأن رد الشعر بالشعر والأدب بالأدب والحجـة بالحجة، فأخرج حسان رضي الله عنه لسانه وضرب أرنبة أنفه، وقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، مَعِـي هَـذَا لَـوْ وَضَعْتُـهُ عَلَى حَجَـرٍ لَفَلَقَهُ وَلَـوْ وَضَعْتُـهُ عَلَى شَعْـرٍ لَحَلَقَهُ**». فـكان حسان رضي الله عنه من أجود الناس شعراً هو، وحسان عند الملوك الغساسنة قبل الإسـلام يذهب إلـى الغساسنة حتى يحن لتلك الأيام والديـار، لكن أبدله الله عز وجل بخيـر من ذلـك، الإسلام ومحمد سيـد الخلق ﷺ، لكن من وفائـه يعترف لهم بأنهم أهل كرم في غسان في الشام، فيقول:

لله دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ ... يَوْمَاً بِجلّقَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ
أَبْنَاءُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ ... قَبْرِا بْنِ مَارِيَّةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهرُّ كِلابُهُمْ[1] ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
الضَّارِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضَةً[2] ... ضَرْبَاً يُطِيحُ لَهُ بَنَانُ الْمِفْصَلِ

حتى على مذهب النابغة يقول عن عمرو بن هند، وقيل: عن النعمان:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تُوُرِّثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلى اليَومِ قَد جُرِّبنَ كُلَّ التَجارِبِ

لأن العرب إذا مدحوا الإنسان مدحوه بأمه أو بجدته، ومن ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمَا كَعْبُ بْنُ أُمَامَةَ وَابْنُ سَعْدٍ ... بِأَكْرَمَ مِنْكَ يَا عُمَرُ الْجَوَادا
تَعَوَّدْ صَالِحَ الأَخْلاقِ إِنِّي ... رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزَمُ مُسْتَعَادَا

فقال في القصيدة: يا ابن ليلى. وابن ليلى هو عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأن ليلى هي أمه فهم يمدحون هذا بهذا، ولهذا يقول:

تُوُرِّثْنَ من أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلى اليَومِ قَد جُرِّبنَ كُلَّ التَجارِبِ

إذا عُلِمَ هذا فالرسول ﷺ قد مدحه ربه، وأغناه مدح الله عَزَّوَجَلَّ عن مدح كل أحد حتى قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وزكّى سمعه وزكى بصره وزكى منهجه ورسالته ودعوته، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ

(١) أي: من كثرة الضيوف تعبت كلابهم فصارت لا تنبح، تعودت الناس.
(٢) الكبش، أي: سيد القتال، أو سيد الكتابة يبدؤون به في المعركة. فوصفهم بالكرم وبالشجاعة.

﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ١-٣]. وقال له: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وذكر دعوته ومنهجه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عُلِمَ هذا فإنه لا ينبغي أن يُمدح ﷺ بأكثر مما أقامه ربه ﷻ من المنزلة، أو يُغالى فيه بأن يقال: شافني أو عافني.

ومن ذلك أن البرعي من اليمن، لما وصل إلى قبر رسول الله ﷺ قال:

يَا رَسُولَ اللهِ يَا مَنْ ذِكْرُهُ ... فِي نَهَارِ الْحَشْرِ رَمْزاً وَمُقَامَا

فَأَقِلْنِي عَثْرَتِي يَا سَيِّدِي ... .

وهذا شرك لا ينبغي؛ لأنه ﷺ لا يُحيي ولا يميت ولا يشافي ولا يقيل العثرة ولا يغفر الذنوب، إنما هو مبلغ ﷺ عن ربه، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ويذكر ابن العربي الصوفي - يُذكر عن بعض المشايخ - يقول: أتيت المدينة فدخلت، فلما اقتربت فسلمت فمددت يدي فانشق القبر وسلم علي ﷺ وصافحني. وهذا كذب، حتى إنه نظم في ذلك بيتين، فقال:

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا ... تُقَبِّلُ الْأَرْضَ عَنْكُمْ وَهْيَ رَائِدَتِي

وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ ... فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

قال: فمد يده فقبلتها. وهذا كله كذب وزور، ورسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وهو في قبره حي ﷺ حياة تليق به، فإن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، لكن يبلغه سلامنا وصلاتنا، يقول ﷺ: «**أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالُوا: كَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا - يَا رَسُولَ اللهِ - وَقَدْ أَرِمْتَ[1] ؟!. قَالَ: إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ**

(١) أي: بليت.

أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ». فهو ﷺ تُعرض عليه الصلاة ويرد الله عليه روحه، فيسلم على من سلم عليه، صلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، صلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون، وإنما قصدي بهذا أن بعض الناس يتوهم أنه إذا غالى وقال: إن رسول الله ﷺ يُشافي ويُعافي ويجلب الضر والنفع، وإني ذاهب إليه. كما يفعل بعض الناس الجهلة والمبتدعة، قال: أذهب إليه وأخبره أن ابني مريض فيشافي ابني، وأن زوجتي عقيم لعلها تنجب. كل هذا من الخرافات، رسولنا ﷺ عبد، ورسول، مهمته البلاغ من ربه بالوحي، وقد بلغ ﷺ وأدى ما عليه ونسأل الله أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى، حتى يقول:

هَذَا الَّذِي جَاءَ وَالأَبْحَارُ مَالِحَةً ... فَمَجَّ فِيهَا فَصَارَ الْمَاءُ كَالْعَسَلِ

هَذَا الَّذِي رَدَّ عَيْنَاً بَعْدَمَا فُقِئَتْ ... وَرِيقُهُ قَدْ شَفَى عَيْنَ الإِمَامِ عَلِي

فهو لبركته ﷺ صارت آثاره مباركة، وليس هذا إلا له ﷺ، فلا يأتي أحد ويقول: إن بساطه أو بشته أو ثوبه أو سواكه. هذا للرسول ﷺ فقط، حتى ليس للصحابة رضي الله عنهم ولا لأئمة الإسلام، ولم يدّعه أحد من الصحابة رضي الله عنهم، إنما هذا خاص بسيد الخلق ﷺ.



علوُّ الهِمة

الهمة العالية إذا وُجِـدَتْ في الشخص بوَّأته المنـازل العالية، سـواء في الدين أو فـي الدنيا، والله عز وجل أعطانـا أصول الهمة في القرآن، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لأن المطلـوب مـن الإنسان أن يكون أعلى، وميثاقنا ورسولنا ﷺ يقول كمـا في الصحيح: «**الْمُؤْمِـنُ الْقَوِيُّ خَيْـرٌ وَأَحَبُّ إِلَـى اللهِ مِـنَ الْمُؤْمِـنُ الضَّعِيفِ وَفِـي كُلٍّ خَيْرٌ**». فالمؤمـن القوي تجده عالـي الهمة، لا يرضى من العبادة إلا أحسنهـا وأخلصها وأصدقها، وكذلك

لا يرضى بالأخلاق الدنيئة، وقد تبارى أهل الحرف وصناع الكلمة في إثارة الهمم وفي قدح العزائم، حتى يقول ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ**». يقول الصحابة رضي الله عنهم: «**حَتَّى فِي الدُّعَاءِ عَلَّمَنَا ﷺ عُلُوَّ الْهِمَّةِ**». فلا ترضَ بمجرد الجنة، بل اسأل الله الفردوس «**فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطَ الْجَنَّةِ وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجِنَانِ**». الحديث. وقد سطر بعض الشعراء قصائد في هممهم على اختلاف بينهم، فبعضهم صاحب همة الدنيا، مثل: المتنبي. يريد الدنيا يريد المنصب ويريد الشهرة، فيقول في قصيدة ماتعة رائعة:

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وَحِيداً وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ

وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلامَتِي ... وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ

تَمَرَّسْتُ بِالآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا ... تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ الذعرُ؟!

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الأَثِيِّ كَأَنَّ لِي ... سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ[1]

فَلا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً ... فَمَا الْمَجْدُ إِلا السَّيْفُ والفتكة البكرُ[2]

إلى أن يقول:

وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا ... تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُه الْعَشْرُ[3]

هذا مذهبه. لكن الشافعي يخالفه في قصيدة ماتعة رائعة، والشافعي يريد ما عند الله؛ لأنه عالم رباني من مدرسة محمد ﷺ، الشافعي يختلف عن المتنبي، بلا شك أن المتنبي عبقري في الأدب وفي صنع الكلمة وفي إرسال الحرف، ولكن الشافعي ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فالشافعي يقول:

(١) الأثي: السيل. فإذا جاء السيل فلا يرده راد، فإن اعترضه جبل صعده وإن واجه صخراً طمّه وإن مرّ بشجرة اقتلعها.

(٢) أي الموت بالحوادث والأزمات.

(٣) يقول: يكون لك صهيل وجلجلة وصلصلة وزلزلة.

أمْطِرِي لُؤْلُؤَاً- سَمَاء سَرَنْدِيبَ- وَفِيضِي آبَار تكرور تِبْرَا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْزَاً وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ، وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

وساروا على ذلك يصفون لك علو الهمة، حتى إن الشوكاني يقول عن نفسه في كتابه (نيل الأرب): إن الذي شحذ همتي بيتان من الشعر. قرأهما وهو في الشباب.

فأحياناً تقرأ بيتاً يوردك الردى، وأحياناً تسمع قافية تشجعك على الخيل، حتى إنهم يرون أن معاوية رضي الله عنه رجع من صفين بعدما كاد يهرب حتى ذكره بعض الناس، وقال: كيف تهرب؟! وابن الإطلابة يقول:

أَبَى لِي شِيمَتِي وَأَبَى حَيَائِي وَأَخْذ الْمَجْد بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي - كُلَّمَا جَشِئَتْ وَجَاشَتْ -: مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

أما قول:

أَقُولُ لهَا وَقَدْ جَشِئَتْ وَجَاشَتْ مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكَ لَنْ تُرَاعِي

فهي لقطَري بن الفجاءة، وبعضهم ضبطه قَطْرِي والصحيح أنه قَطَرِي بن الفجاءة أبو نُعامة:

أَقُولُ لهَا وَقَدْ جَشِئَتْ وَجَاشَتْ مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكَ لَنْ تُرَاعِي[1]
فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرَاً فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرَاً فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلا ثَوبُ الْبَقَاءِ بِثَوبِ عِزٍّ فَيُطوى عَن أَخِي الخَنعِ اليُرَاعِ

(١) يقول لنفسه: لا تهربي، بل جاء وقت الموت فاثبتي.

فالشاهد أن الشوكاني يقول: إن الذي شجعني على طلب العلم والسهر وحفظ المتون بيتان حفظتهما للشريف الرضي- الشاعر المشهور- الذي يقول مخاطبًا نفسه-:

أَقْسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حُرَّةً ... وَقَاحَةً تَحْتَ غُلامٍ وَقَاحْ

إِمَّا فَتَى نَالَ الْمُنَى ... أَوْ فَتَىً زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَاحْ

إما أن أنال المجد أو أزور الردى وأموت، ولذلك نظمت أنا عليها بيتين، فقلت:

إِذَا سَأَلْتَ اللهَ فِي كُلِّ مَا ... أَمَّلْتَهُ نِلْتَ الْمُنَى وَالنَّجَاحْ

بِهِمَّةٍ تُخْرِجُ مَاءَ الصَّفَا ... وَعَزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ: آحْ

لأن قول: آح. علامة الفتور والبرود والانهزام.

يقولون لعنترة: كيف تغلب الرجال وأنت جسمك جسم الرجال؟! قال: ضع إصبعك في فمي وأضع إصبعي في فمك. وقال: عض إصبعي وأعض إصبعك. ففعلا حتى قال الرجل: آح. فسحب إصبعه وقال عنترة: بصبر ساعة غلبت الرجال. هذه هي الهمة أن تصاول الأحداث وتقف مستعيناً بالله عزوجل: لأن من صبر وواصل واستمر، فسوف ينجح بإذن الله عزوجل، حتى إنهم يقولون: لما أسرع الفرس ركبه الملوك، ولما أبطأ الحمار جعلوه للأحمال، حتى يقول الشاعر:

سَوْفَ تَرَى إِذا انْجَلَى الْغُبَارُ ... أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَوْ حِمَارُ

وقد زرنا حديقة الحيوان في أندونيسيا قريباً من (جاكرتا) فوجدنا كل الحيوانات بأشكالها وألوانها؛ الأيل والغزال والفهد والعجماوات والنسور، ولما أتينا إلى الأسد وإذا رجال الأمن واقفون عنده بسياراتهم وإذا هو بارك على مكان مرتفع كأنه على عرش وإذا هو ينظر بعينيه ويحملق في الناس، قلت: حق لك أن تكون ملك الغابة.

ولذلك، فإن الله ﷻ لما وصف المشركين قال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]. والقسورة: الأسد. ومن أسمائه: القسورة، والليث، والغضنفر، وأسامة، وحيدرة، والهزبر. وأسماء كثيرة، يقولون: إذا عَظُمَ الْمُسَمَّى كثرت الأسماء. ولذلك فالله أعظم من كل عظيم، وله تسعة وتسعون اسماً ﷻ عظيمة كلها جليلة.

وبالمناسبة، فمن أسمائه: حيدرة. حتى إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يسمونه حيدرة الذي يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرهْ
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فإذا اجتمع الجِدُّ والْجَدُّ فذلك الخير، فالجَد هو الحظ والْجِد هو العمل والسعي والكسب، يقول المتنبي:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَومِ سَيِّدَا

يقول: هو حظ من الله أن أعطى سيف الدولة وجعله يفوز على الناس وعلى الملوك بحظ عظيم، لأنه يقول:

هَنِيئاً لَكَ الْعِيدُ الَّذِي أَنْتَ عِيدُهُ وَعِيدٌ لِمَنْ زَكَّى وَصَلَّى وَوَحَّدَا

ومطلع القصيدة يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا

وهي تدل على الهمة العالية، ويصفه بالبحر وأنه هائج في تقدمه، يقول:

هُوَ الْبَحْرُ خُضْ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنَاً عَلَى الدُّرِّ وَاحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا

إلى آخر ما قال، فقصدي أن الْجَدَّ إذا اجتمع مع الْجِدِّ بلغ الإنسان من الرقي مبلغاً عظيماً. وأذكر أن إسحاق بن يونس قيل له: ما النجاح؟ قال: يقوم النجاح

علـى ثلاثة أركان: العمل، ثم العمـل، ثم العمل. مثلما قيل لنابليون: ما هي شروط كسب المعركـة؟ قال: تُكْسَبُ المعركة بثلاثة شروط: بالمال، ثم المال، ثم المال. وهذا من الأجوبة الذكية، وقد مرَّ معنا أخبار كثيرة، لكن أذكر على سبيل المثال أن أبا إسحاق الشيرازي من علماء الشوافع، وهو صاحب (المجموع شرح المذهب). يقـول: واللّه إنـي كنت أكرر الدرس، قبل أن أشرحـه لطلابي مئة مرة. تفرغ للعلم وحياته كلهـا علم، قال: واللّه إني كنت أعيد القياس بالقياس ألف مرة. حتى نحل جسمه وصار عالم الدنيا، يقول فيه الشاعر:

تَـرَاهُ مِـنَ الـذَّكَـاءِ نَحِيلَ جِسْمٍ ... عَـلَـيْـهِ مِـنْ تَـوَقُّـدِهِ دَلِـيـلُ

إِذَا كَـانَ الْفَتَى ضَخْمَ الْمَعَالِي ... فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الْجِسْمُ النَّحِيلُ

ولذلك فإن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان نحيل الجسم، لكن انظر ماذا فعل بعمله؟! في الهجرة الأول وفي الجهاد وفي الصدقة وفي الذكر وفي الصلاة، وفي الخطابة وفي الإنفـاق، حتى استحق أن يكون الخليفة بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسُمّي بالصديق، وذُكِر وصفه تنويهاً بالقرآن وصار في المرتبة الأولى أفضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأخباره عظيمة.

والإمام أحمد طاف الأقاليم في طلب الحديث، سافر إلى صنعاء ماشياً وفي طريقـه معه إسحاق بن راهويه يقول: دعنا نمر نأخذ عمرة بالبيت. ماذا يريدون فـي صنعاء؟ يريدون العالـم المحدث الكبير عبـد الرزاق بن همـام الصنعاني، فخرجـوا بنية أن يصلوا إليه في صنعاء، وفي أثناء طريقهم- بين بغداد واليمن- قـال للإمام أحمد: دعنا نمر بالبيت ونعتمر. فمروا بالبيت وهم يطوفون وإذا عبد الـرزاق بن همـام الصنعاني أتى للعمرة وقرَّبه اللّه لهم فـي مكة، قال إسحاق: يا أحمـدُ، هذا عبد الرزاق قد حضر وقد قـرَّب اللّه علينا المسافة وسهل علينا. قال أحمـد: لا واللّه أنـا لا أُبْطِـل نيتي التي خرجـت بها، واللّه لا أطلـب الحديث عنه، حتـى يعود إلـى صنعاء وأذهب. فلما عاد رجع الإمام أحمـد وسافر لليمن، ومشى

فـي الطريق وانتهت نفقته واشتغـل مع الحصادين يحصد الـزرع بأجرة، وذهب بالأجـرة وطلب الحديث وواصل التعليم وواصل نشر العلم والفائدة، حتى إنه صار عالم الدنيا.

وقـرأت عـن ابن حبـان المحـدث الكبير صاحـب الصحيح، يقـول: لعلي رويت عـن ألفي شيخ. طـاف الأقاليم كلها: الحجاز، ومصر، والشـام، والجزيرة، واليمن، وخراسـان، وما وراء النهر. فـروى عن ألفين من العلماء، قال الذهبي: لله در الهمم. لأن هذا يبلغ به أن يطوف على هؤلاء جميعاً ويسجل أحاديثهم ويكتبها، أمر عجيب!.

ومنهـم سيبويه، فإنـه لما تُوُفِي قال أهـل السير: عمـره كان (٣٧سنة). لكن العبقرية لا تعترف بعمر، بعض الصحابة ﷺ توفي دون الثلاثين، لكنه ترك علماً، قدم جهاداً، قدم خيراً ونفعاً، معاذ بن جبل رضي الله عنه عمره (٣٢سنة) في بعض الروايات وهو قائد العلماء يأتي أمام العلماء يوم القيامة برَتْوة، أي: رمية حجر. يقودهم إلى جنـات النعيم، هذه هممهم التي سجلوا بها وأثَّـروا بها في الناس، البخاري يقول: ما كتبـت حديثاً في الصحيح- عند تبييض- الحديـث إلا توضأت وصليت ركعتين واستخرت الله. توضأ عند كل حديث واستخار الله وصلى ركعتين! همة تنطح الثريا وعزم نبوي يزعزع الجبال، فنحن بحاجة إلى همة، يقول الشاعر:

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرَاً أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تُدْرِكَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا (١)

يقول شوقي:

وَمَـا نَـيْـلُ المطالب بِالتَّمَنِّي ... وَلَـكِـنْ تُـؤْخَـذُ الـدُّنْـيَـا غِلابَا

فالمسألـة مسألة المغالبة والمصارحة هي لـك أو لأخيك أو للذئب، فالسوق مناهبـة، فلا تظن أن من نام سوف يدرك المجـد، بل يدرك المجد من قام حتى إن المتنبي يقول - عمَّنْ يمدحه -:

(١) الصبر: نوع من الثمر المر.

إِذَا تَغَلْغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ مِن مَجدِهِ غَرِقَتْ فِيْهِ خَواطِرُهُ

وفي بيت آخر يقول:

قَلِيلُ سُهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يُؤَرِّقُهُ فِيمَا يُشَرِّفُهُ الْفِكْرُ

يقول: لا ينام مثلما ينام الناس، تراه يتقلب في المنام يفكر في أشياء ومشروعات يفتتحها، يفكر في خير في النهار، يفكر في أمر يحدثه، فيه نفع لنفسه وللناس، يكون الله عزوجل عنك راضياً وتكون أنت راضياً عن نفسك ويكون من حولك راضين عنك، وتقدم عملاً نافعاً لغيرك، هذا هو النجاح، فيمدح الممدوح هذا بأنه قليل النوم يفكر فيما يرفعه وفيما يُعلي قدر الإنسان، وترى الناس سواسية من لحم ودم لكل واحد عينان ولسان وأذنان وشفتان ورجلان ويدان، لكن هناك الهمة تمر الهمة مر السحاب ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

حتى إن ابن الجوزي قال: إن بعض الناس يرضى بأن يحفظ قصار المفصل؛ قصار السور. وبعضهم يقول: جزء يكفيني. وبعضهم لا يرضى إلا بالقرآن كله، وبعضهم يقول: القرآن والقراءات السبع معها، وبعضهم يحفظ أحاديث الصحيحين وغيرها وغيرها، فيزداد من الخير. ولذلك فدرجات الجنة بحسب الهمم، فنسأل الله الهمة العالية.



المنظومات

المنظومـات في العرب غيـر القصائد وهي الأراجيز، والأرجوزة بحر خفيف تُنظم فيه العلوم والفنـون، ولذلك لخفته يُسمونـه: حمار الشعراء. كل ينظـم عليـه، حتـى إن ابـن مالك نظـم عليه الألفية في النحو، وقال:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكِ

أَحْمَدُ رَبِّيَ اللهَ خَيْرَ مَالِكِ

وبعض الشعـراء يستخدمـه فـي قصائـده ليسـ نظماً، لكن لخفـة هذا البحر بحـر الرجز،

obeikandi.com

ويأخذونه في المعركة، فالأبطال إذا برزوا لخفة هذا البحر يستخدمون أبياته في المعركة، فعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَه
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ .....

وهذا أحدهم يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرِّبُ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَنَهَّبُ .....

ويقول الأحنف بن قيس: إنه كان في خراسان يجاهد في سبيل الله، فأخذ الراية وقال:

إِنَّ عَلَى رَاعِي اللِّوَاء حَقًّا أَنْ يُخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تَنْدَقَّا

يقول: إن الواجب على القائد إذا أخذها أن يأخذها بحقها، إما أن يخضب الصعدة (الحربة) أو تندق في يمينه، وإن لم يقم بهذا الحق، فلا يحق له أن يكون قائداً، ومن أحسن المنظومات المقصورة لابن دريد التي يقول فيها:

يَا ظَبْيَةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَهَا تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

جاء فيها بأبيات من الحكمة ومن الفهم ومن العمق، حتى يقول فيها:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى
وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَا

فجاء بهذه الأمثال والحكم وضمنها مقصورته، وبعض الأقران حسده على منظومته؛ لأنها انتشرت بين الناس. وأحدهم عارضه، فقال:

مَنْ طَبَخَ الدِّيَكَ وَلَمْ يَذْبَحْه فَرَّ مِنَ الْقِدْرِ لِحَيْثُ انْتَهَى

كي يُضحِك الناس عرَّض بمقصورة ابن دريد، وهذا معروف ولا يحتاج إلى حكمة، فالإنسان إذا أخذ الديك وهو حي ووضعه في القدر يفر.

مَنْ دَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ مِسَلَّةُ [1] فَسَلْهُ مِنْ سِعَتِهَا عَنِ الْعَمَى
وَحَمْلُ تَمْرٍ مِنْ حُمُولِ بِرِّه أَفْضَلُ لِلْمَسْكِينِ مِنْ حَمْلِ النَّوَى

يقول: التمر أفضل من النوى، أراد أن يسخر من ابن دريد.

ويقول ابن مالك في الألفية:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا وَجَوَّزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لا ضَرَرَا

أي: الأصل في الخبر مجيئه بعد المبتدأ، نحو: محمد كريم. كريم خبر فلا تقدم الخبر على المبتدأ، وجوزوا التقديم (إذ لا ضررا)، كأن يتقدم الجار والمجرور نحو: في البيت محمد. فإن محمداً هنا صار مبتدأ مؤخراً، فقال أحدهم ينظم:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَازِ أَنْ تُطَمَّرَا وَجَوَّزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لا ضَرَرَا

فالأصل في الخبز أنك تضعه على الجمر، ولكن لو وضعت قليلاً من العجين، فلا بأس بذلك.

أحدهم اسمه عامر الأنبوطي ردَّ على ابن مالك، فقال:

يَقُولُ عَامِرٌ هُوَ الأَنْبُوطِي أَحْمَدُ رَبِّي لَسْتُ بِالْقَنُوطِ
الأصل في الأَخْبَازِ أَنْ تُقَمَّرَا وَجوّزوا التَّرْقِيقِ إِذْ لا ضَرَرَا
وَصُبَّ شَاهٍ مِنْ عَلَى الْبَرَّادِي وَاصْبِبْ لَهُ فِي سَاعَةِ الْمُرَادِ
وَكَمِّهِ وَغَطِّهِ بِالْمَنْشَفَهْ وَاصْبِرْ لَهُ فِي سَاعَةٍ وَاسْتَعْلِفَهْ

(١) أي: إبرة.

هـذا كله تضييع للوقـت وإضحاك للإخـوة، حتى تستمـر النفوس على طلب الحق.

بعض الساسة كتب تقريره السياسي الذي رفعه لدولته بأراجيز، فمثل اليمن لـدى دول عدم الانحياز الإمـام أحمد بن حميد الدين رفع تقريـره بأرجوزة؛ لأن اليمـن لم تكن علـى وفاق مع جمال عبد الناصر، بينهـم خلاف، وكان جمال معه تيتو ونهرو، فيقول ممثل اليمن:

هَـاتِ التَّـحِيَّـهْ وَكَـذَا سَلامِي ... أَرْفَـعُـهُ لِـحَـضْـرَةِ الإِمَـامِ
وَالْـعَـالَـمُ الـثَّـالِـثُ فِـي نِـزَاعِ ... مُـخْـتَـلِـفُ الأَهْـوَاءِ وَالأَطْـمَـاعِ
قَـدْ دَعَـا إِلَـى اجْـتِـمَاعِ النَّاصِرِ ... مِـنْ أَجْـلِـهِ تِيتُو وَعَبْدِ النَّاصِرِ
يُـصَـارِعِ الْـقُـنْـبُـلَـةَ الـذُّرِيَّـهْ ... بِـجَـزْمَـةٍ فِـي رِجْـلِـهِ قَـوِيَّـهْ
وَفِـي الْـوُفُـودِ غَـايَـةٌ عَيْنِيَّهْ ... أَظُـنُّـهَـا مِـنْ أُسْـرَةٍ غَـنِـيَّـهْ
تَـلْـمَـحُـهَ الأَبْـصَـارُ بِـالـتَّـوَالِـي[1] ... وَبِـالْـخُـصُـوصِ مِـنْ سَـفِـيرِ مَـالِـي

وأذكر مرة أني نظمت قصيدة على ألفية ابن مالك وقد سمعها بعض العلماء والفضلاء، قلت فيها:

وَلا يَـجُـوزُ الابْـتِـدَا بِـالـنَّـكِـرَهْ ... وَمَـنْ أَجَـازَ ذَاكَ فَـهْـوَ بَـقَـرَهْ

فإن ابن مالك يقول:

وَلا يَـجُـوزُ الابْـتِـدَا بِـالـنَّـكِـرَهْ ... مَـا لَـمْ تُـفِـدْ كـ: عِـنْـدَ زَيْـدٍ نَـمِـرَهْ

لكـن العلماء استخدموا بحر الرجز في نظم العلوم، حتى إن الصنعاني نظم بلـوغ المـرام، وأنا ضد أن يُنْظَمَ كلامه ﷺ لأن كلامه أجمل من كل كلام وأجمل مـن كل شعر، وأجمل من كل أدب وأجمل مـن كل خطابة، كلامه ﷺ الذي يقول:

(١) أي: ممثلة غانا، أو غينيا.

«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». أفصح من نطق بالضاد، كيف تنظم كلامه ﷺ؟! لكن هذا اجتهد حتى يحفظ، فالصنعاني نظمها، فيقول:

حَمْدَاً لِمَنْ بَلَّغَنَا الْمَرَامَا ... وَزَادَنَا مِنْ فَضْلِهِ إِكْرَامَا

ثُمَّ صَلاةُ اللهِ تَتْرَى مَا سَرَى ... بَرْقٌ عَلَى طَيْبَةَ أَوْ أُمِّ الْقُرَى

مَعَ السَّلامِ يغْشَيَانِ أَحْمَدَا ... وَآلِهِ الْمُسْتَثْمِرِينَ الرَّشَدَا

وبدأ ينظم، ويتم المتن في بلوغ المرام، حتى يقول:

أَمَّا إِدَارُ الْمَا عَلَى الْمَرَافِقِ ... فَالدَّارِ قَدْ ضَعَّفَهَا وَالْبَيْهَقِي[1]

وَضَعَّفَ الْكُلُّ حَدِيثَ الْبَسْمَلَهْ ... عَلَى الْوُضُو وَضَعَّفُوا مَنْ نَقَلَهْ

لأن في الحديث إدار الماء على المرافق، وأنا رددت عليه، بعدما قرأت صحة الحديث في السند، قلت:

وَصَحَّحَ الْبَعْضُ حَدِيثَ الْبَسْمَلَهْ ... وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ - أَيْضَاً- وَصَلَهْ

فهم ينظمون العلوم في منظومة؛ حتى يحفظها طالب العلم، فينظمون النحو والفرائض وأصول الفقه، ونحو ذلك.

والحريري له منظومة في النحو جميلة نحو (٤٠ بيتًا) يقول -من ضمن أبياتها-:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عَلامَهْ ... فَقِسْ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عَلاَّمَهْ

لأن الاسم له علامة فيدخل عليه الجر والندا وأل، وللفعل علامة على الماضي والمضارع والأمر، بابها في باب النحو، لكن الحرف ليس له علامة.

---

(١) الدار، هو: الدارقطني.

وأذكر أن طالباً حفَّظَهُ أبوه بعض الأبيات هذه كان في الابتدائي فدخل مفتش عندهم، فقال المفتش للطالب: كيف تُفَرِّق بين الحرف والفعل والاسم؟ فقال الطالب:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عَلامَهْ فَقِسْ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عَلاَّمَهْ

فقال المفتش: سوف أقيس على قولك، وتكون علامة في المستقبل إن شاء الله.

فبعضهم يحفظ العلوم، حتى يقول أحد الناظمين في بعض مسائل النحو:

كَانَ وَأَضْحَى ثُمَّ صَارَ أَصْبَحَ لَيْسَ وَأَمْسَى انْفَكَ زَالَ بَرِحَا

وهذه كان وأخواتها، هذا في نظم النحو.

وأحسن من نظم النحو صاحب الخلاصة ابن مالك الأندلُسِي، فإنه فُتِحَ عليه في هذه وأُوتِي قبولاً من صحة نيته، فكان عابداً زاهداً والله عزوجل نسب له القبول في هذه المنظومة، جاء بأشياء فيها من الولاء لله ولرسوله ﷺ حتى يقول:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَا اسْمَاً وَالْخَبَرْ تَنْصِبُهُ كَكَانَ سَيِّدَاً عُمَرْ

يقولون: إن بعض الشيعة سمع البيت وشرحه، فقال:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَا اسْمَاً والَّذِي يَلِي كَكَانَ سَيِّداً عَلِي

فيريد أن يأتي بهذا، وعلي رضي الله عنه فاضل وعمر رضي الله عنه فاضل رضي الله عنهم جميعاً وجمعنا وإياهم في دار الكرامة، ما دام الله رضي عنهم وزكَّاهم وعدلهم، وصاحبوا رسول الله ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم، ويقول ابن مالك يرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يُرى في الآخرة.

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقُولُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن الزمخشري قال: لن تراني، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأهل الاعتزال يرون أن رؤية الله لا تكون في الدنيا ولا في الآخرة، والسنة يرون أن الله لا يُرى في الدنيا ذلك أنه يقول لموسى عليه السلام ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. لكن في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال عز وجل عن أعدائه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما حجب عن أعدائه دل على أن أولياءه يرونه. فنسأل الله أن يرينا وجهه الكريم في جنات النعيم، فيقول ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا ... فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

مؤبداً دائماً في الدنيا والآخرة. فارده واعضد قول أهل السنة؛ لأن لن لا تفيد التأبيد في النفي، لكنها تفيد النفي حتى أمر مؤقت، فاعضد سواه وهو قول الحق، فانظر كيف نظم هذا في منظومته؛ لأن منهجه كان سديداً في ذلك، فآتاه سعة وقبولاً في هذا الأمر.

وأذكر من المعاصرين ممن أجاد النظم الشيخ حافظ الحكمي وهو علامة نابغة إلى درجة العبقرية، مات وعمره (٣٧عاماً) وألف ما يقارب أربعين كتاباً، ومن ضمن نظمه في العقيدة، قوله:

وَالْمَوْتَ فَاذْكُرْهُ وَمَا وَرَاءَهْ ... فَمِنْهُ مَا لأَحَدٍ بَرَاءَهْ

وَإِنَّهُ لَلْفَيْصَلُ الَّذِي بِهِ ... يَنْكَشِفُ الْحَالُ فَلا يَشْتَبِهِ

خُذْ وَاضِحَ الْحِلِّ وَدَعْ مَا اشْتَبَهَا ... مَخَافَةَ الْمَحْذُورِ يَا مَنْ فُقِهَا

وَازْهَدْ بِدُنْيَاكَ وَأَقْصِرِ الأَمَلْ ... وَاجْعَلْ لِوَجْهِ اللهِ أَجْمَعَ الْعَمَلْ

لا تَحْتَقِرْ شَيْئَاً مِنَ الْمَآثِمِ ... وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِمِ

وَمَنْ لِقَاءَ اللهِ قَدْ أَحَبَّا ... كَانَ لَهُ اللهُ أَشَدَّ حُبَّا

وَعَكْسُهُ الْكَارِهُ فَاللهَ اسْأَل ... رَحْمَتَهُ فَضْلاً وَلا تَتَّكِلِ

ثم يقول:

وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنَ الْجِنَانِ ... أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرانِ
إِنْ يَكُ خَيْرَاً فَالَّذِي مِنْ بَعْدِهِ ... أَهْوَنُ عِنْدَ رَبِّنَا لِعَبْدِهِ
وَإِنْ يَكُنْ شَرَّاً فَمَا بَعْدُ أَشَدْ ... وَيْلٌ لِعَبْدٍ عَنْ سَبِيلِ اللهِ صَدْ

وينظم المتن ويأتي بالأحاديث بنصها وفصها بسلاسة أعذب من شهد العسل إذا مزجتها بماء الغمام بارداً، ثم مززته مزاً، وهذا ميزة الذكاء في هذا العالم (٣٧سنة)، حفظ القرآن في شهر، شهد له العلماء زملاؤه، فقالوا: نشهد أنه كان يقرأ جزءاً في النهار فيحفظه ويصلي بنا في الليل في التراويح وهو شاب ولا يخرم حرفاً واحداً، وكان يحفظ المنظومات والقصائد في ذهنه، وكان يفتي ويرد على المسائل، ومات وهو في (٣٧سنة) وقد أصبح عالماً من أكبر العلماء، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان ﷺ جالساً في المسجد، بعد صلاة العصر، بعد صلح الحديبية، والصلح ألا يُنقض العهد لا من الطرف هذا ولا من الطرف هذا، ورسول الله ﷺ على الوفاء وهو أصدق الناس وأوفاهم، وإذا برجل أناخ جمله في طرف المسجد اسمه عمرو بن سالم، وهو من خزاعة؛ لأن خزاعة اتفقوا مع الرسول ﷺ وبكر مع قريش، ونزل وقال:

يَا رَبِّ إِنِي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الْأَتْلَدَا
فَانْصُرْ - رَعَاكَ اللهُ - نَصْرَاً مُزْبِدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِي فَيْلَقٍ مِثْلَ الصَّرِيمِ سَرْمَدَا ... إِنَّ قُرَيْشَ أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَكَثُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا ... وَقَتَلُونَا رُكَّعَاً وَسُجَّدَا

قال ﷺ: «**نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ**». ثم نظر ﷺ في السحاب فاستنزل النصر من الله، فنصره الله نصراً مؤزراً، وفي الطريق أنزل عليه، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]. نصرٌ ما سمع التاريخ بمثله، نصر أوقف الزمان، نصر صفقت له الدنيا، وتفتحت له أبواب السماء، نصر سجله ﷺ أبد الدهر، وكان ابن رواحة رضي الله عنه يقول - في مجلسه ويُنشد بين يدي الرسول ﷺ -:

وَاللهِ لَوْلا اللّٰهُ مَا اهْتَدَيْنَا

قال ﷺ: **اهتدينا**.

وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

قال ﷺ: **صلينا**.

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

قال ﷺ: **علينا**.

وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

قال ﷺ: **لاقينا**.

فهذا من بحر الرجز البحر الخفيف، الذي يتناشده الناس، وعسى الله عز وجل أن تُنْظم منظومة في الآداب، كما نظم بعض العلماء كابن شرف وغيره منظومة في الآداب والأخلاق، وأنا أفكر في ذلك، لكن الهمم صغرت على الناس وشُغِل الناشئة والشباب بسبب ما جدَّ في هذا العصر، فإذا الإنسان أقبل بهمة وبحافظة قوية وأقبل على المعرفة والعلم فتح الله عليه، وترون سلفنا كيف سجلوا أروع

القصص في حفظ المتون وفي حفظ المنظومات وحفظ الأشعار، حتى إن لبيد لما دخل على النعمان بن المنذر يقول:

ونَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الأَرْبَعَهْ وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَهْ

الْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدَعْدَعَهْ وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَهْ

إلى أن انتهى من القصيدة.



obeikandl.com

العلماء والشعر

للعلمـاء شعـر، ولـم يمنعهـم العلـم وحفظ المتـون وشرح النصوص مـن أن يبدعوا القافية، ويرسلـوا الحـرف الجميـل لمقاصـد عاليـة من التربيـة والتهذيـب والتوجيه، ومـن أشهر من مرّ معنـا فـي تاريـخ العلماء عبـد الله بـن المبارك، فقـد كان شاعـراً لبيبـاً حكيمـاً زاهـداً مجاهداً منفقـاً محدثاً، حتى يقول الذهبـي: كان أصحابه يجتمعـون في غيابـه ويقولون: تعالـوا نَعُد مناقب عبـد الله بن المبارك. وهـو من أهل خراسان من مـرو، زار الفضيل بن عياض عابـد الحرمين في الحرم، فسمع بداعي الجهـاد في سبيل الله جهة عمورية، فخرج من الحرم، وقال:

بُغْضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللهِ أَخْرَجَنِي ... وبيعُ نَفْسِي بِما لَيسَتْ لَهُ ثمَنا
إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْقَى لِيَعْدِلَهُ ... مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلا وَاللهِ مَا اتَّزَنَا

وذهب إلى خراسان يعلم الجيش ويفتيهم في الليل، يقول أحد أصحابه: لمحت ابن المبارك ليلة ونحن نجاهد الروم في ليلة ماطرة فتركنا حتى نمنا فقام يصلي ويقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] حتى أصبح وهو يبكي. ولما قام جاهد، فأرسل له الفضيل رسالة من الحرمين: إنك تأخرت علينا وإنك تركت الصلاة بالحرم بمئة ألف صلاة والإفتاء والتعليم، فرد عليه ابن المبارك:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
روحُ الْبُخُورِ لَكُم وَنَحْنُ بُخُورُنَا ... رَهجُ السَّنابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ

فمثل هذا الشعر الماتع والشعر القوي جمعه مع الحديث ومع الفقه والفتيا.

وقد لا يُمدح الشاعر كثيراً إذا تفرَّد في حياته؛ لأنه تخصص للشعر، لكن أن يأتي عالم ويجمع مع الفقه والحديث والتفسير شعراً وأدباً جميلاً، فهذا يدل على النبوغ، ويدل على الريادة.

فهذا ابن المبارك يوصي طلابه وإخوانه:

إِذَا صَحِبْتَ قَوْمَاً أَهْلَ ودٍّ ... فَكُنْ لَهُمُ كَذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ
وَلا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلّ قَوْمٍ ... فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِلا رَفِيقِ

يقول: لا تبحث عن العيوب، وتكون كشافاً لعثرات الناس، بل اجبر الخاطر واستر، واغفر الزلة وتغافل؛ فإنك سوف تظفر بإخوان إذا قبلتهم على ما فيهم. وكان يقول:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدهر فَاصْحَبْ مَاجِداً ذا عَـفَـافٍ وَحَـيَـاءٍ وَكَـرَمْ
قَـوْلُـهُ لِـلشَّـيْءِ: لا. إنْ قُـلْـتَ: لا وَإِذَا قُـلْـتَ: نَـعَـمْ. قَـالَ: نَـعَـمْ

فـالأخ الموافق والصاحب الموافق دائماً يُسعـدك، ولا يُحِبُّ الخلاف، تقول: ننزل في هذا المكان؟! يقول: حبًّا وكرامةً. تقول: ما رأيكم أن ننام في هذا المكان؟ فيقـول: أحسنـت، رأي سديد؛ لأنها أمور تقبل الاجتهـاد وليست أمور عقائد يكون الخلاف فيها كفراً، فما دامت أموراً اجتهادية فاقبل ولا تخالف؛ لأن بعض الناس يحب الخلاف، يقول الشريف الرضي:

مَشْغُوفَةٍ بِالْخِلافِ لَوْ أَقُولُ لَهَا: يَوْمَ الْغَدِيرِ. لَقَالَتْ: لَيْلَةَ الْغَارِ

فهـو حـب الخلاف فقـط وحب الاعتراض، ومن أبيـات ابن المبـارك التي يقولها:

هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ مِـنَ الـشَّـرْ قِ فَـجَـاءَتْـنِـي بِـرِيـحِـكْ
كَـيْـفَ أَنْـسَـاكَ وَرُوحِـي صُـنِـعَـتْ مِـنْ جِـنْـسِ رُوحِـكْ

إلى آخر تلك القائمة الجميلة من أبياته.

وأمـا العالـم الآخر الذي أتـى بعده وكاد يدركـه، فهو الإمـام الشافعي محمد بن إدريس، وهو- على الإطلاق- من أذكى العلماء إن لم يكن أذكاهم، بعد الصحابة رضي الله عنهم، وأنبغهم وأبلغهم وأفصحهم غفر الله له وجمعنا الله به في الفردوس الأعلى.

يقول في قصيدة:

أَمْطِرِي لُؤْلُؤاً سَمَاءَ سَرَنْدِيبَ[1] وَفِيضِي آبَارَ تَكْرُومَ تِبْرَا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْزاً وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

معنى الأبيات: يا سماء سرنديب، أمطري ما شئت فأنا لا أريد الجواهر والدرر، وفيضي آبار تكرور تبرًا، أي: فيضي ما شئت من هذا الذهب، لا أريده. وأنا يكفيني رغيف وقبر إذا مت أُدْفَن فيه، فهمتي عالية مثل همة الملوك، مثل همة الأسود ترى المذلة كفراً، هذه فلسفته في الحياة، وهو كاد أن يكون من أشعر الشعراء، لكنه توجه إلى العلم والتفسير والفقه والحديث، حتى يقول:

وَلَوْلا الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

يقصد: لبيد بن ربيعة الشاعر المشهور من بني عامر بن صعصعة، الذي وفد وافدهم على الرسول فمدح الرسول ﷺ، وقالوا: أنت خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا وسيدنا. فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بِبَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَدْرِجَنَّكُمُ الشيطان».

فلبيد هذا من أشعر الشعراء على كل حال، وقومه بنو عامر بن صعصعة وفدوا على النعمان بن المنذر، وكان مستشارَ النعمان بن المنذر الربيعةُ بن زياد العبسي، وكانت بين عبس وبين بني عامر بن صعصعة أزمة وسوء تفاهم وعداوة، فأوغر الربيعة العبسي صدر النعمان بن المنذر على بني عامر، وقال: كل القبائل استقبلهم إلا قبيلة بني عامر؛ لأنهم ينالونك ويؤذونك. وهذا الجليس السوء أوغر صدره، فأتت القبائل فقال النعمان للوفود: أدخلوهم. فدخلوا إلا وفد عامر بن صعصعة قال: احجبوهم؛ لأنه أوغر صدره مستشاره الوزير العبسي الربيعة بن زياد، فرجعوا إلى رحالهم مكسوفي الحال وهو معهم غلاماً ما زال صغيراً، أعني

(١) جزيرة سرنديب التي يستخرج منها الأحجار الكريمة والمجوهرات والدر.

لبيـد بن ربيعة، فقالـوا: رجعنا من عند الملـك وطردنا. فقـال: أدخلوني أنا غداً عليـه. ثم بدأ يرتجز، قالوا: نحـن عجزنا وأنت تقدر؟! قـال: أدخلوني غداً عليه، اتركـوا الأمر لي. قال سيدهـم: إن كان نام فليس بصاحبنـا- لأن الحر إذا اهتم بأمـر لم ينم بليل - وإن كان يترمض، كما تترمض الحية على الرمضاء، فاعرفوا أنـه صاحبنـا يستطيـع أن يدخل. فلمحوه بالليـل فإذا هو يتقلب، ينـام قليلاً على اليمنى ثم يميل على الجهة اليسرى، فأخبروا سيدهم فقال: هو صاحبنا. فطَيَّبُوه وألبسُـوه لباساً أبيض وعممـوه ومشى معهم في الوفد، وقـال: فقط اتركوني على البسـاط. ثـم أخذ يتسلل بين النـاس، حتى وقف قبل النعمان، قـال النعمان: من أنت؟ قال -وفي أولها-:

أَكُـــلَّ يَـــوْمٍ لِـمَّـتِـي مُـقَـزَّعَـهْ ... إِنَّ بُعَيْدَ الضِّيقِ يَأْتِيكَ السَّعَهْ

نَـحْـنُ بِـنو أُمِّ الْبَـنِـيـنَ الأَزْبَـعَـهْ ... وَمِـنْ خِيَـارِ عَـامِـرِ بْـنِ صَعْصَعَهْ

الضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَهْ ... وَالْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدَعْدَعَهْ

الجفنة المدعدعة: الجفنة الكبيرة عليها الثريد واللحم والبر.

وقال الأصمعي: الخيضعةُ: الجلبةُ، إذا اشتدت المعركة وازدحمت الصفوف، أي: نضـرب بالسيوف. ثم قال هجاءً مـراً في الربيعة بن زياد وسبه وكَرَّهَ النعمان فيـه، فقـال النعمان للربيعة بن زياد: اخرج. قال: افترى عليَّ. قال: قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذِبَاً، يعني قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقَاً وَإِنْ كَذِبَاً ... فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلا

فعـلا نجم لبيـد في تلك المرحلة وهـو شاعر -بلا شـك- مجيد، حتى دخل الإسـلام وأسلم، ثم تاب من قول الشعر ونذر نذراً إن قال بيتاً أن يُعتق رقبة، حتى إنه في سكرات الموت قال أربعة أبيات فأمر أن تُعتَق أربع رقاب، وهو الذي يقول:

الْحَمْدُ للهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلامِ سِرْبَالا

أمـا شعـر الشافعي فكان أكثره فـي النصائح وفي التوجيـه، وهو الذي يقول لأحمد بن حنبل:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ بِانْفِرَادٍ وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَهْ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي فَلا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ
أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ
وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

ومن هذه الأبيات الجميلة الخفيفة كثير.

وهو يفلسف الكـرم، فيقول: الكريم تُغطى عيوبه. ولذلك فإن السخي الجواد يُسامحه الناس بزلاته:

يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

وهو من قصيدة طويلة يقول فيها:

أَمَا وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلُّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

حتـى يذكر الجاحظ وغيره مـن الأدباء أن السخي تتحـول ذنوبه بين الناس حسنـات. فلكرمه وجـوده على الناس وسخائه إذا أكثر مـن الكلام قالوا: سبحان الـذي أعطاه الفصاحة! وإذا سكت وكان عَييًّا قالوا: سبحان الله! كيف أعطاه الله

الحكمــة والصمــت. وإذا لبس جديداً، قالوا: سبحــان الله! يحب أن يرى أثر نعمة ربــه عليه. وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله! حتى اللباس تواضع فيه. وإذا كان عجــولاً قالوا: سبحــان الله! جادّ مثل السيف بتــار. وإذا كان بطيئاً قالوا: كالجمل راسخاً.

أمــا البخيل فيحولون محاسنه إلى خسائر، فــإذا كان صموتاً، قالوا: سبحان الله! أصابه الله بالعي، الله عزّ وجلّ خذله حتى في الكلام فلا يتكلم. وإذا تكلم قالوا: كلامــه هــذر بلا فائــدة. وإذا لبس جديداً، قالــوا: أحشفاً وسوء كيلــة؟ وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله ابْتُلِي بمصيبتين: مصيبة البخل، ومصيبة هذه البهذلة وهذه الثياب الممزقة. وإذا كان عجولاً، قالوا: سبحان الله! طائش ما أخف عقله! وإذا كان ثقيلاً، قالوا: سبحان الله! ما أبرد أعصاب هذا الرجل وأثقل دمه!

وعنــد الترمــذي: «السخي قريب من الله قريب من الجنــة قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس».

وممــن يُعرف من الشعراء المتأخريــن، بل هو عالم شاعر واستحسنت شعره وتابعت كثيراً من قصائده، ابن القيم -تلميذ ابن تيمية- له أبيات خاصة الميمية، يقول فيها:

أَمَــا والَّــذِي شَـقَّ الْـقُـلُـوبَ وأَوْ ... جَدَ الْمَحَبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لا تَتَصَرَّمُ

وَحَـمَّـلَـهَـا جُـهْـدَ الْـمُـحِـبِّ وَإِنَّـهـا ... لتَعْجَزُ عَنْ حَمْلِ الْقَبِيصِ وَيَعْلَمُ

لأَنْـتُـمْ عَـلَـى بُـعْـدِ الـدِّيَـارِ وَقُـرْبِـهَـا ... أَحِـبَّـتَـنَـا إِنْ غِـبْـتُـمُ أو حَـضَـرْتُـمُ

سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ ... مَـحَـبَّـةَ صَـبٍّ حُـبِّـهُ لَـيْـسَ يُـكْـتَـمُ

وَكُنْتُ إِذَا مَا اشْتَدَّ بِي الْحُبُّ وَالْجَوَى ... وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَفَصَّمُ

أُعَـلِّـلُ نَـفْـسِـي بِـالـتَّـلاقِـي وَقُـرْبِـهِ ... وَأُوهِـمُـهَـا لَـكِـنَّـهَـا تَـتَـوَهَّـمُ

وهذا من أجمل ما يقوله شاعر.

وشعر العلماء درجات، فبعضهم يجيد إلى الدرجات الأولى، وبعضهم يتوسط، وبعضهم يضعف، ومنهم ابن الوردي المحدث الذي يقول:

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسْأَلِ الأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفنَ مَكَانِي

والأَرَّجَانِي شاعر، وَالأَرَّجَان خففها المتنبي لما قال: أُرَجَان. لما ذهب ومر بالشعب وقال:

مَغَانِي الشِّعْب طِيباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ واللِّسَانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ كَالأُرَجَانِ

والأُرَّجَانِي عالم محدث كبير، يقول من قصيدة جليلة:

أَعَيْنَيّ كُفَّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ سَعْيِ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدِ

يقول لعينيه: أنتما اثنتان؛ فكفّا عن قلبي؛ لأنه واحد فكيف تجتمعان على قلبي تقتلانه؟ هذا من جميل ما يقول العلماء في أشعارهم.

ومن الشعراء ابن حزم الظاهري، كان يقول الشعر الجميل، حتى إنه يقول:

إِنّي لَشَمْسٌ فِي السَّمَاءِ مُضِيئَةٌ وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِيَ الْغَرْبُ

لأنه من الأندلس، يقول: أنا شمس، لكن مشكلتي أنني ما جئت من الشرق، بل جئت من الغرب. وقد ذهب هو وابن عبد البر المحدث فرأيا منظراً جميلاً، فقال ابن عبد البر: لا تغتر- يا ابن حزم- بكل ما ظهر من الجمال؛ فإنه قد يكون تحته أمر مخبوء ليس بجميل. فقال:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّـي ظَـاهِـرِيٌّ وَأَنَّـنِـي ... عَلَى مَا بَدَا حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

يقـول: أنا أشغـل بالظاهر؛ لأنه يأخذ من ظاهر النصـ، فكل جمال ظاهري يقول: الأصل فيه جميل؛ لأن مذهبي الظاهر، فأتعامل بالظاهر.

ودخلـوا علـى ابن تيميـة، وهو في الحمّى مريض، قالوا: مـاذا تشتكي يا أبا العباس؟ قال:

تَـمُـوتُ الـنُّـفُـوسُ بِـأَوْصَـابِـهَـا ... وَلَـمْ يَـدْرِ عُـوَّادُهَـا مَـا بِهَا

وَمَـا أَنْـصَـفَـتْ مُـهْـجَـةٌ تَشْتَكِي ... أَذَاهَـا إِلَـى غَـيْـرِ أَحْـبَـابِـهَـا

وهذا مثل قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ- إِذَا أَرْضَاكُمُ- أَلَمُ

ويُنشدون في هذا المعنى قول القائل:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... وَتَفْعَلُه فأُحْسِنُ مِنْكَ ذَاكَا

استشهـد به بعضـ المحدثين على قصـة رسول الهدى ﷺ الـذي رواه ابن ماجـة وذكره صاحـب المنتقى جد ابن تيمية في (منتقى الأخبـار) «أَنَّهُ ﷺ أَتَى يَنْحَرُ النُّوقَ فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أَيَّتُهَا يَنْحَرُ أَوَّلًا». كل ناقة تقدم صدرها قبل الأخرى أيتها ينحر أولاً.



obeikandl.com

الرجاء

الرجاء في رحمته ﷻ هو سلم العبودية وهو الحبل الممدود بينك وبين رب العباد ﷻ، وإذا لم ترجه ﷻ فمن ترجو؟ فإنه لا يحقق مطالبك ولا يسهل الصعوبات ولا يفك الأزمات إلا هو وحده ﷻ، وقد التجأ كثير من الأولياء والعلماء والشعراء والأدباء في تباريح تنبعث من قلوبهم، الزمخشري أتى إلى البيت وصلى ركعتين وقال - وقد جاور بيت الله ﷻ -:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهُ ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

وعُلِمَ بهذا أن الله عزوجل يُدعى في كل طلب ويؤمل، وبحسب ظنك بربك يحقق لك ما ظننت، يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ». فمن ظن بأن يفرج الكرب ويحل الأزمات ويكشف الملمات حقق الله عزوجل ظنه، ومن ظن بالله السوء فعليه دائرة السوء، ولذلك يقول السهيل الأندلسي:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ

فالعدة والذخر عند عقلاء العالم هو الله وحده عزوجل، ولذلك التجؤوا له في الشدائد، حتى قلت في أبيات:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلَّ صَيِّبُ

في قصيدة اسمها العظمة وأسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناتي؛ لأن الله يحب المدح.

الأسود بن سريع شاعر أتى إلى الرسول ﷺ فقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، نَظَمْتُ قَصِيدَةً مَدْحَاً فِي رَبِّي. قَالَ ﷺ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ**». ولذلك يقول في صحيح مسلم: «**وَلا أَحَدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**». ولذلك مدح نفسه، حتى حسان رضي الله عنه يقول لقريش الجاهلة التي تحارب رسول الله ﷺ:

زَعَمَتْ سَخِيلَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... فَلَيَغْلِبَنَّ الْمُغَلِّبُ الْغَلاَّبُ

قالوا فيما يُروى عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ شَكَرَ بَيْتَكَ يَا حَسَّانُ**». فمن هذا المنطلق قلت:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلَّ صَيِّبُ ... وَمَا تَابَ - يَا مَنْ يَقْبَلُ التَّوبَ - مُذْنِبُ
لَكَ الْحَمْدُ مَا هَاجَ الْغَرَامُ وَمَا هَمَا ... الْغَمَامُ وَمَا غَنَّى الْحَمَامُ الْمُطَرِّبُ
فَوَاللهِ لَوْ صُغْنَا مِنَ الدَّمْعِ مُقْلَةً ... أَحَادِيثَ حُبٍّ فِي عُلاكَ تُرَتَّبُ
وَسِرْنَا عَلَى الأَجْفَانِ تُشْوَى وُجُوهُنَا ... عَلَى النَّارِ نُشْوَى أَوْ عَلَى الْجَمْرِ نُسْحَبُ
لَمَا بَلَغُوا مَا تَسْتَحِقُّ وَقَصَّرُوا ... وَلَوْ حَاوَلُوا فِيمَا أَرَدْتَ وَرَتَّبُوا

ويقول أحدهم:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّوَاكِبُ ... ومِنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمِّلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلاَّ فَالْغَرَامُ مُضَيَّعُ ... وَعَنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فالرجاء أن ترجو الله ﷻ أن يُحقق لك ما أردت، فتوبتك لا تحصل إلا بتوفيق من الله، ورزقك لا يتعين ولا يتحقق لك إلا بتسهيل من الله، ونجاحك لا يتحقق، ولن يكون إلا إذا فتحت الطريق مع الله ﷻ، حتى إن بعض الشعراء يقول:

وَإِنِّي لأَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

أي: كأن الأمور مكشوفة أمامي من حسن الظن به ﷻ حتى المؤمنون يقولون: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فهم سلموا له ﷻ فقالوا: صدق الله، بأن الأحزاب سوف يأتون إلينا، وسوف تضيق بنا الضوائق، ولكن سوف يفرجها الله ﷻ، وسوف يأتي النصر والفتح وصدق الله ورسوله. وأما المنافقون وأهل الشك والريبة والمرض، فقالوا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. تبت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا.

وهنا إذا علمت ذلك فعليك أن تتجه إليه وحده ﷻ، يقول أبو يزيد البسطامي: عِشت مع الناس أربعين سنة فوجدتهم أمواتاً غير أحياء وما يشعرون أيان يُبعثون، فكبَّـرْت عليهم أربع تكبيرات ونفضت يـدي منهم، وجدتهم لا يقطعون ولا يصلون ولا يميتـون ولا يحيون، ولا يُقَرِّبُـون ولا يُبَعِّدُون، ولا يرفعون ولا يُعِزُّون ولا يُذِلُّون ولا ينفعـون ولا يضرون. هذه هي حقيقة الناس فالنافع الضار والمحيي المعز هو الله وحده ﷻ، ولذلك يقول:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذلـك يقـول ﷺ: «**مَنْ لَـمْ يَسْـأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْـهِ**». إذا تركت دعاء الله غضب عليك، وإذا أكثرت من دعاء الله والإلحاح عليه أحبك الله وقرَّبَك وأعطاك، حتـى في الترمذي يقول: «**يَسْـأَلُ أَحَدُكُمْ حَاجَتَهُ عَلَيْهِ، وَحَتَّـى ملْحَ الطَّعَامِ**». حتى إن ابن رجب ذكر أن في التوراة: اسألوه حتى عجين دوابكم، وحتى ملح طعامكم، وحتـى يصلح شسع النعل. كل الأمـور لا يصلحها ولا يهيئها إلا الله ﷻ ولذلك هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ويقولون: إن معاذ الرازي صعد المنبر يريد أن ينصح الناس:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

ثم قال: عليكم بالأعمال الصالحة. قال الناس: فإن لم تكن أعماله صالحة؟ قـال: حسنات مُكَفِّرَة. قالوا: فإن لم تكن حسنـات؟. قال: مصائب تأتيكم. قالوا: فـإن لم تكن مصائب تكفِّر ذُنُوبنا؟. قـال: شفاعة سيد الخلق ﷺ. قالوا: فإن لم تكن شفاعة؟. قال: رحمة أرحم الراحمين. فضج الناس بالبكاء.

وله كلمات يقول فيها: إن الله لما أرسل موسى وهارون -عليهما السلام- إلى فرعون قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. قال: سبحانك - يا ربي - هذا فعلك مع من يقول: أنا ربكم الأعلى. فكيف بفعلك مع من يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى؟! فنحن نرجوك أن ترحمنا وأن ترفق بنا؛ لأننا نحن نقول في سجودنا: سبحان ربي الأعلى. وهذا من أحسن الكلمات.

فالرجاء يسوق إلى رحمته ﷻ، فإذا خِفْتَه ورجوته وأحببته كنت مستخدمًا، كان عندك سوطُهُ وكان عندك قائدٌ يقود وسائق يسوق، فالسائق الذي يسوق هو الخوف والذي يقودك الرجاء، والمحبة الدابة وقيل: السوط الخوف، والقائد هو الرجاء والسائق الحب.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغلُهَا ... عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ

إِذَا تَشَكَّتْ كَلالَ السَّيْرِ أَسْعَفَهَا ... شَوْقُ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

فهو الرجاء برحمته ﷻ، يقول بعض السلف: سيروا على رجاء رحمة الله ﷻ. قال أحد طُلابِ هذا العالم: كيف نسير، وقد ذهب القوم على خيول مُضَمَّرَةٍ وَبقينا نحن على حَمِيرٍ مُعَقَّرَة؟! أي: إن السلف لهم أعمال ولهم مواقف صحابة وتابعين ﭫ من النصرة والإنفاق وبذل الخير، والدعوة والجهاد والعلم، فهم على خيول مُضَمَّرة، قال: والله لتصلن بالقوم؛ ما دامت على هذا الطريق؛ لأنه مثلما قال الشافعي:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ

وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي ... وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

فحبهم والعمل بشيء ولو قليل من السنة وتمشي على الطريق تصل، المهم ألا تخرج على الرصيف، بل تمشي على الطريق لتصل، نعم تأتيك كدمات؛ شوكة في الطريق، لكنك في الأخير سوف تصل ما دمت على الطريق المستقيم.

المتنبـي في أمور الدنيا لما ذهب إلى سيـف الدولة تعب في الطريق وأضنى راحلته، وفي الأخير قال سيف الدولة: كأنك تعبت. قال:

جَـزَى اللهُ الْمَسِيـرَ إِلَـيْـكَ خَـيْـرَاً وَإِنْ تَـرَكَ الْـمَـطَـايَـا كَـالْـمَـزَادِ

يقول: الله يجزى المسير خيراً. هو بشر سافر إلى بشر، ولو كان ترك مطايانا تركها مثـل المزاد، أي: مثل القِرَبِ البالية. فيقول: ما عليه التعب. فكيف إذا كان التعب لله؟ وكيف إذا كان السهر له عز وجل؟ وكيف إذا كان الجوع في سبيله؟!

عِمَـارة اليمني سافر من مكة إلى الحاكم المعـز الفاطمي في مصر، فانظر كيف يسافر بشر إلى بشر، ضعيف على ضعيف!، قال:

الْحَمْدُ لِلعِيسِ بَعْدَ الْحَمْدِ لِلذَّمَمِ حَمْدَاً يُزِيلُ شُكُوكَ الظَّنِّ وَالتُّهَمِ
فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلاَّ إِلَى حَرَمِ
حَيْثُ الْخِلافَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا تَجْرِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ
وَلِـلْـخِـلافَـةِ أَنْـــوَارٌ مُـقَـدَّسَـةٌ تَبْنِي الْحَبِيبَيْنِ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكَمِ

وهو الذي يقول في المعز:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وَخَرَجْتُ مِنْ أَبْـوَابِـهِ لَـثَـمَ الْـمُـلُـوكُ يَمِـينِـي

فهـؤلاء تقطعوا في رجاء أناس من العباد من الملـوك ومن السلاطين، ومن الأمـراء ومن الـوزراء، ومن الوجهاء ومن الأغنياء ومـن الأثرياء فكيف من قصد رب الأرض والسماوات عز وجل؟!

ذهـب أبـو تمام إلـى عبد الله بـن طاهر بن حسيـن في خُراسـان فضلَّ في الطريق وضاع بالراحلة وضيع رفقة له -أي: وفداً- ذات اليمين وذات الشمال حتى بلـغ قُومس، وقومس هذه بلدة في إيران، فجاء بقصيـدة هي من أجمل القصائد

وأحسن قصيدة مُدِحَ فيها جواد في تلك الحقبة، بعدما ضاع وأتى الصباح وكلَّت الرحل، يقول أبو تمام:

فِي قَوْمَسٍ صَحْبِي وَقَدْ وَخِذَتْ أَيْدِي الْمَطِيّ مَعَ الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ

يقول: تعبت -والله- الإبل وتعبت الخيول.

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

يقول: قطَّعتنا في السفر، فتريد أنت مطلع الشمس، حيث ذهب ذو القرنين، ثلاث ليالٍ وهم ضائعون. ويقول: أنا أريد أن أذهب إلى عبد الله بن طاهر بن حسين، حيث يطلع الجود وشمس الجود هناك تطلع. وهذا من أحسن الكلام، وقيل: إنه انتحل البيت من مسلم بن الوليد الشاعر الذي يقول:

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْكَرَمِ

مدح فيه أميراً قبل، فتصرف فيه أبو تمام، وأبو تمام شاعر مطبق لا يُعلى عليه في الشعر.



obeikandl.com

الشيب والهرم

الشيب والهرم مرحلة من مراحل العمر، يمر بها الإنسان، ويصل إلى هناك وقد شحن بالتجارب والأمثال والحكم، وقد عرف الدهر وعرف الناس وعرف الأيام، بعضهم يصل إلى ذلك العمر وبعضهم يُقَدَّم له وينتهي في شبابه، لكن الحديث عمن وصل إلى سن الشيب وسن الهرم، حتى يقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. انظر كلمة: اشتعل. كأنك أحرقت شيئاً من النبات، فتغير لونه من النار، حتى يقول ابن دريد في شيبه:

يَـا ظَـبْـيَـةً أَشْـبَـهَ شَـيْءٍ بِـالْـمَـهَـا ... تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَى
أَمَـا تَـرَى رَأْسِـي حاكى لَـوْنَـهُ ... غُـرَّةُ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَـالِ الدُّجَى
وَاشْتَعَلَ الْمِبْيَضُّ فِي مِسْوَدِّهِ[1] ... مِثْلُ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الْغَضَى

هـذا هو أمـر الشيب الذي ينتظـره الإنسان، ولذلـك في الحديـث: «**إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحِيي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ فِي الإِسْلامِ**». هذا هو ﷻ يستحيي، فكيف لا يستحيي العبـد منه، وسار على ذلك الأدباء، فمنهم من شكا من السبعين، ومنهم من شكا الثمانين، ومنهم من قال:

وَإِن امْـرأً قَـدْ سَارَ سِتّينَ حَجَّةً ... إِلَـى مَـنْـهَـلٍ مِـنْ وِرْدِه لَـقَـرِيـبُ

يقول: قرُب من مشى ستين، فكيف بالذي مشى ثمانين!

دخل عوف بن محلى إلى معاوية رضي الله عنه، فقال: ادْنُ مِنّي. فَدَنا مِنْهُ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: مَا تَسْمَعُنِي؟. قَالَ:

إِنَّ الـثَّـمَـانِـيـنَ وَبُـلِّـغْـتُـهَـا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سمعي إِلَى تُرْجُمَانِ

في قصيدة طويلة، وقيل: إنما قالها عند المأمون، لا عند معاوية رضي الله عنه. وهذا الـذي أرجحه مع بعض الأدباء؛ لأن عوف بن مُحَلـى إنما عاش في عهد المأمون، وعبد الله بن طاهر بن حسين، وبين عبد الله بن طاهر بن حسين وبين معاوية ما يقرب من (١٠٠سنة) أو يزيد.

جـاء شيخ كبيـر بلغ الثمانيـن، وإذا أبناؤه معـه ينامون معه فـي بيته؛ لأنهم مسافـرون، فاحتاجوا أن يناموا في مكان واحـد، أتوا ينامون وإذا هو يسعل ويتأوه ويزفـر ويـنـدب ويتململ، قالوا: مـا هذا الأنيـن؟ فجلس ونظم قصيـدة من أروع القصائد عند العرب، حتى إن ابن الجوزي وأهل التاريخ ذكروا جزءًا منها يقول:

(١) المبيض: الشيب الأبيض في الرأس.

obeikandl.com

قَالُوا: أَنِينُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهِرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟. قُلْتُ: الثَّمَانِينَا

يقولون: كان في شبابه مُعدماً فقيراً وجمع وجمع وحاول أن يجمع المال وما تيسر المال، فأقبل عليه المال لما قرب الثمانين، قال:

مَلَكْتُهُ بَعْدَمَا جَاوَزْتُ سَبْعِينَا مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ عِشْرِينَا

تَمُرُّ بِنَا بَنَاتُ التُّرْكِ رَهِيفَةٌ مِثْلُ الظباء عَلَى كُثْبَانِ يُبْرِينَا

قَالُوا: أَنِينُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهِرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟. قُلْتُ: الثَّمَانِينَا

فالدنيا لا يستقيم لها حال، فتجد الشيخ الكبير يقبل له المال وقد ذهب الشباب، وتجد بعض المرضى ذا ثروة، وبعض الشباب معدم فقير، ومن صح بصره ضعُفَ سمعه، فلا قرار إلا في جنات النعيم بجوار الواحد الأحد ﷻ، حتى إن زهيراً في الجاهلية يقول:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً - لا أَبَا لَكَ - يَسْأَمِ

يقول: من يعش ثمانين سنة في الحياة يسأم من الحياة. وخاصة الحياة التي ليس فيها عبادة ولا قراءة ولا معرفة تكون حياة مملولة مكررة، اليوم مثل أمس، لكن طالب العلم والعابد دائماً يسمع قصة وموعظة وفائدة، ويقدم عملاً صالحاً ويقدم نافلة ويقدم خلقاً كريماً ويقدم تاريجاً مجيداً، فتجده يتجدد عمره وتتجدد الأيام، لكن تصور البائس أو المحروم من طاعة الله ﷻ تضيق الدنيا في عينيه؛ لأن الواحد الأحد أخذ على نفسه العهد، فيقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. حتى إن المتنبي يقول: لا تُصدقوا الشيخ إذا قال: آه. فإنه ما ملَّ من الحياة، فقال:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: آهٍ، فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَلَكِنَّ الشَّيْبَ مَلَّ

أي: إن الشيب ملَّ منه، أما هو فما ملَّ الحياة، نحن حريصون على الحياة، وله كلمات عجيبة حتى إنه يقول:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِتَرْكِ الْيَدَيْنِ مِنْهُ تَخَلَّى

حَتى قال الشوكاني في القصيدة نفسها: لا إله إلا الله ما أدق نظر المتنبي! ولا إله إلا الله ما أحسن حكمه! يقول: الإنسان إذا بكى من الدنيا فهو يبكي عليها، لا يتركها وهو ميت إلا وهو متشبث بها، حتى إنهم يسحبون الإنسان من الدنيا وهو متشبث بها. ولا يغرنك كلامهم؛ فإن أكثر الناس متشبثون بها.

ووجهوا رسائل في الشيخوخة، حتى إن شيخاً كبيراً مرَّ بشباب، فتغامزوا لما رأوا لحيته كلها بيضاء وهو منحنٍ وكانت لحيته طويلة على صدره كأنها قوس، فقال له أحد الشباب: يا شيخ، من أهدى لك هذا القوس؟ قال: أهدانيه الدهر وسوف يهدي لك قوساً مثله بلا ثمن. وهو ترقب الأيام والليالي، حتى إن الأندلسي أبو إسحاق الإلبيري مر، وإذا ابنه لاهٍ مع شباب في حديقة لا يطلب العلم ولا يقرأ القرآن ولا يحفظ ولا يقدم نافعاً للناس، لا رسالة نافعة عنده في الحياة، فنظم له قصيدة تقطع القلب يقول من ضمنها:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبِي أُرِيدُ أَنْتَا

إلى أن يقول فيها:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي وأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

يقول: قبيح الشاب أن يفعل خطأ وشراً، لكن أقبح وأشنع من ذلك الشيخ الكبير الذي يعود كأنه شاب في المخالفات، حتى يقول أبو الفتح البستي في قصيدته:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيْرُ مَحْضِ الْخَيْرِ نُقْصَانُ

إلى أن يقول فيها:

هَبِ الشَّبِيبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا مَا بَالُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

يقول: قدر أن الشاب يكون معذوراً؛ لأن عمر رضي الله عنه يقول: «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ». وحتى يقول حسان رضي الله عنه: «إِنما الشَّبَابُ وَاللِّمَّةُ السَّوْدَاءُ مَا لَمْ يُعَاصِمْ كَانَتْ جُنُوناً». فاللمة السوداء والشباب إذا لم يعصما الإنسان كان جنوناً، فشباب الإنسان شيء من الاندفاع إذا ما حده بتقوى وبعقل.

دُعِي أحد كبار السن إلى بعض المجالس اللاهية، فقال:

كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فالشيب ينهى ولذلك ترى كثيراً من الناس يفرح أن قد كبر من أجل أن يعود له عقله وتنضج تجربته ويستقيم نهجه، حتى إن علي بن جبلة العكوك يقول:

وَأَرَى اللَّيَالِي مَا طَوتْ مِنْ قُوَّتِي وَحِدَّتِي رَدَّتْهُ فِي عِظَتِي وَفِي إِفْهَامِي

فيقول: الليالي، كلما أضعفت من جسمي ردته في عظتي وفي ذهني وفي فكري، ولذلك ترى الكبير يضعف في جسمه، لكن عقله يتوقد، والشاب جسمه، قوي لكن عقله فيه طيش بخلاف هذا.

فكانوا يفرحون بالشيب ويرحبون به، يقول الأندلسي:

ذَهَبَ الشَّبَابُ بِجَهْلِهِ وَبِعَارِهِ وَأَتَى الْمَشِيبُ بِحِلْمِهِ وَوَقَارِهِ

فإذا عُلِمَ هذا، فإن بعضهم كان يتمنى الشباب أيضاً؛ لأن في الشباب النوم الهنيء والتمتع بالحياة الطيبة والسمع الحاد والبصر القوي والذاكرة المتوقدة والنشاط والمسابقة، وإلى غير ذلك، حتى يقول أبو العتاهية:

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

فيقـول: يا ليت شبابنا يرجع إلينا فأخبره ما فعل بنا هذا المشيب. فالمشيب يجعلـك لا تنـام إلا قليلاً؛ سعال وصداع وأمراض وأوجـاع وشكوى، حتى إنك تجد الشيخ الكبير، وخاصة إذا لم يكن عنده معرفة أو تلاوة أو ذكر لله ﷻ وعلم يمل، وربما يذهب بعضهم يعالجونه؛ لأنه انتهى فهو يعيش وحده؛ عنده فراغ فلا رصيد من العمل ولا رصيد من الذكر ولا أعمال يقدمها من الخير، فيقول:

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

النساء لا يريدنه، حتى يقول أحدهم:

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لاحَتْ بِعَارِضِي فَأَعْرَضْنَ عَنِّي بِالْخُدُودِ النَّوَاضِرِ

فهم يكرهون الشيب من أجل هذا، ولكنهم يسترونه، حتى إن المتنبي يقول:

وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَاتِي تَرَكْتُ شَعْرَاً بِرَأْسِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

يقول: إنه من صدقي ووضوحي وشفافيتي أنني لا أخضب شعري.

هذه مسألة أخرى، لكننا نعود إلى مسألة الهرم.

وثلاثة لا يهرمون: حافظ القرآن العامل به، والجواد الذي نفع المسلمين نفعاً موصـلاً لهـم الخير لوجه الله ﷻ، والحاكم العادل الوالـي المقسط في الرعية. يحفظهـم الله مـن الخـرف ومن الهذيـان، ويجعلهـم مسددين حتـى يقول ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

دخلوا على رجل في سنته المئة، فسألوه: كيف وجدت الحياة؟ قال: والله كأنه بيت أو كأنه غرفة لها بابان دخلت من هذا وخرجت من ذاك.

وقيـل لأحدهم -وقد بلغ المئة-: كيف وجدت الحياة؟ قال: كأن رجلين: رجل في ليلة رأى أنه تعشى أحسن الطعام ولبس أحسن الثياب وهو في قصر منيف وفي

حديقة غناء، ورجل بجانبه رأى في المنام مثلما فعل هذا في اليقظة. أي: إنها أحلام يقظة، فكأنك ترى الحياة مثل الفيلم ومثل المسرحية، حتى يقول الكوفي صاحب العادات السبع في رسالة له: إنه زار مقبرة كاليفورنيا، فعجب؛ قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر هذا البائس الفقير. حتى يقول ابن الزبعرى:

وَالْخَسِيسَاتُ قَلِيلٌ بَيْنَهَا وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقِلْ

فقبر هذا المثري شبيه بقبر الفقير البائس الحقير؛ لأن القبور لا تُفَرِّق.

يقول أحدهم:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا: أَيْنَ الْمُعَظَّمُ وَالْمُحْتَقَرْ؟
تَفَانُوا جَمِيعَاً فَمَا مُخْبِرٌ وَمَاتُوا جَمِيعَاً وَمَاتَ الْخَبَرْ
تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الثَّرَى (١) فَتَمْحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا، أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبَرْ

يقول المتنبي:

أَبَنِي أَبِينَا، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَداً غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

الفراق دائم؛ فهذه جنازة هذا وهذا يحط وهذا يودع كأننا في محطة قطار أو مطار مسافرين.

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الأَكَاسِرَةُ الأُلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَلا بَقِينَ وَلا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَن ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

(١) بنات الثرى: الدود. تروح على الخدود، وعلى العيون، وعلى المباسم.

تجد الإنسان كأنه يملك الدنيا والناس والجنود والبنود والأعلام وأقواس النصر، ثم يُلف في خرقة ويُدس في التراب.

حتى إنك إذا كلمتهم لا يردون عليك، تسلم على المقبرة ولا أحد، يقول:

مَا فِي الدِّيَارِ لِمُخْبِرٍ إِلاَّ النَّدَى لِمُصَوِّتِ

نَادَيْتُ: أَيْنَ أَحِبَّتِي؟ فَأُجِبْتُ: أَيْنَ أَحِبَّتِي؟

أي: إنه جاء المقبرة، وصاح: أين أحبتي؟ فلم يسمع إلا الصدى، فرجع عليه الصوت: أين أحبتي، فقال:

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

فلا أحد حرم عليهم الكلام فلِمَ لا يردون علينا الكلام؟

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ وَالْمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

فإذا رأيت الإنسان يستعز بما عنده من مال أو ولد أو منصب ولا يستعز بما له عند الله من طاعة فهو أحمق، فيه خَبَلٌ وهَبَلٌ.

وَالْمَرْءُ يَأْمَنُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَلْزَقُ

فَمع الشيب العقل والحكمة والأناة والبصيرة وتدارس العواقب، ومع الشباب الهمة والطموح والإقبال، فكونوا في عقول الشيوخ وفي همم الشباب؛ حتى تصلوا إلى المجد الدنيوي والأخروي بإذن الله.



الفرج بعد الشدة

الفـرج بعد الشدة كلمة جميلة يرتاح لها كل إنسـان؛ لأنه ما مـن أحد إلا ويمر بـه شدة، فهو يريد الفـرج، والله عز وجل قد بشرنا أن مع كل يسر عسـر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. فنُكِّر اليسر فصـار مغايراً لليسر الأول، بينمـا المعرفـة واحـدة فـي العسـر هنا والعسر هناك.

ونظـم أهـل الأدب في ذلك بعض القوافي الجميلـة يخبـرون الناس بأنهم سـوف يسعدون بعد الشدة، وسوف يأتيهـم الفرج، حتى إن علي ابن جبلة العكوك يقول:

obeikandl.com

عَسَى فَرَجٌ يَكُونُ عَسَى ... نُعَلِّلُ نَفْسَنَا بِعَسَى
فَلا تَجْزَعْ إِذا حَصَلَتْ ... هَمَّاً يَقْطَعُ النَّفَسَا
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْمَرْ ... ءُ مِنْ فَرَجٍ إِذَا يَئِسَا

ولذلك إذا اشتدت الظلمة جاء الفجر، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد وأنت تمشي فاعرف أن وراءها الخير وبعد التل ترى أرضاً خضراء، وابن السكيت يقول:

إِذا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ ... وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ ... وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لانْكِسَافِ الضُّرِّ نَفْعَاً ... وَمَا أَجْدَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ أَمْرٌ ... يَمُرُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ ... فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

هذا الفرج سوف يأتي ويصل إلى المريض إذا كتب الله له عافية، وإلى المحبوس وإلى الْمُبتلى وإلى المدين وإلى الضال وإلى المكسور والمصاب، وإلى غير ذلك من الْمُبْتَلَين والمعذَّبِينَ، حتى إن ابن الرومي له إشراقات وهو الذي يقول بعدما فارق بغداد:

لَعَلَّ اللَّيَالِي بَعْدَ شَحْطٍ مِنَ النَّوَى ... سَتَجْمَعُنَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الْمَآلِفِ
نَعَمْ إِنَّ لِلأَيَّامِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا ... عَوَاطِفَ مِنْ أَفْضَالِهِ الْمُتَعَاطِفِ

فهي الليالي شتى وألوان، ليلة لك وليلة عليك، ويوم لك ويوم عليك وكما يقول عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فينبغي أن تكون محتسباً منتظراً الفرج، حتى يقول أحدهم:

وَلَـرُبَّ نَـازِلَـةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعـاً وَعِـنْـدَ اللهِ مِـنْهَا الْـمَـخْـرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُـرِجَـتْ وَكُـنْـتُ أَظُـنُّـهَـا لا تُـفْـرَجُ

لأن المفرج ﷻ موجود ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. حتى إن بعضهم كان يستبشر إذا اشتدت المصيبة والمشكلة، فقد أذِن حلها بإذن الواحد الأحد، حتى كان يقول:

اشْـتَـدِّي أَزْمَـــةُ تَـنْـفَـرِجِـي قَـــدْ آذَنَ لَـيْـلُـكِ بِـالْـبَـلَـجِ

بالبلج، أي: بالصبح وبالسَّفَرِ. ومن أحسن ما حُفِظ من الكلمات ما نسبوه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه كان يَرْمل، وكان يهزأ بها:

الْـغَـمَـرَاتُ ثُـمَّ يَـنْـجَـلِـنَّـهْ ثُـمَّـةَ يَـذْهَـبْـنَ وَلا يَـجِـنَّـهْ

الغمـرات هي الأزمـات والكربات التـي تأتيك ثم تنجلي عنـك، تذهب عنك وتصبـح في فرج وفي يسر وفي سهولـة، فينبغي للمسلم أن يكون واثقاً بالله ﷻ، حتـى أهل الجاهلية كانوا يثقـون وكانوا يطلبون من ربهم الفرج، وحتى المشركين ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وهم في الأزمة يعرفـون أن هناك رباً على العرش استوى يفرّجُ ويكشف الكربات، ويعافي المبتلى ويشفي المريض، ولذلك يقول النابغة يمدح عمرو بن هند:

ولا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِمِ

يقـول: إذا جاءهم نعيم فلا يتكبرون ولا يبطـرون ولا يفترون على الناس، بل يخافـون مـن الليالي ويخافون من الانقـلاب، وإذا جاءتهم مصيبـة أو أزمة، فلا يستسلمون ويصيبهم الوهن. لأن بعض الناس يظنها النهاية، فقال:

ولا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

في قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ وَلا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بصَاحِبِي

التي يقول فيها يمدح هؤلاء:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وهذا مدح بما يُشبه الذم، يقول: كل خصالكم جميلة ورائعة، لكن فيكم عيباً واحداً. حتى إن أحد الشعراء الشعبيين يمدح أحد الوجهاء، يقول:

شِيْخَ القَوَافِي يَا قَلِيلَ العَذَارِيب لو تسْتِحي ما تَجْمعُ الطيبَ كلَّه

وهذا من المبالغة.

ويقول النابغة: عيبكم شيء واحد، وهو أن سيوفكم مثلمة من شدة ما تواجهتم مع الأعداء من قراع الكتائب.

ولذلك وفد عُروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان، بعدما انتصر عبد الملك، وقتل مصعب بن الزبير في العراق، فأتى عروة فقال: رد سيف أخي مصعب من عندك. قال: ما نعرف سيف مُصعب. قال: أرني السيوف وأنا أعرفه. فأراه، فإذا فيه ثلمة ضرب به الزبير بن العوام رضي الله عنه في بدر مع رسول الله ﷺ في المشركين، قال: بِمَ عَرفته؟. قال:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تَوُورِثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارُبِ

حتى يقول من ضمن القصيدة، ومن أروع ما قيل يمدح الملوك بأنهم منعمون، حتى إنهم يلبسون لباساً جيداً، وكما في صحيح مسلم: «**جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**». الرجل يقول: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي جَمِيلاً وَنَعْلِي جَمِيلاً، أَذَاكَ**

مِنَ الْكِبْرِ؟ قَالَ ﷺ: لا إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». الكبر غمط الناس وبطر الحق، يقول النابغة:

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ عِيد السَّبَاسِبِ

يقول: يفوح منها المسك. عيدهم هناك اسمه: السباسب. فيخرجون الجواري والولدان يحيونهم بالرياحين على الشوارع والسكك يوم المهرجان ويصطف الجمهور لهم، وقصدي هنا:

وَيَحْسَبُونَ الْخَيْرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ وَلا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِمِ

حتى يقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلا تيأس ما دام أن هناك ربًّا يُدْعَى عز وجل يفرج الكربات، ألحَّ عليه واسأله.

بالأمس القريب كنت أنا والشيخ د. سعد البريك في طائرة من المنامة إلى الرياض، ولما أقبلنا من مطار الرياض قالوا: هناك خلل فني في الطائرة، وأمور رعدية في الجو. فلما اقتربنا ما استطعنا الهبوط، وبقينا فوق سماء الرياض نصف ساعة، فتذكرت كلاماً كنت قد قلته وهو:

كَمْ نَطْلُبُ اللهَ فِي ضَرَرٍ يَحِلُّ بِنَا فَإِنْ تَوَلَّتْ بَلايَانَا نَسِينَاهُ

نَدْعُوهُ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُنْجِي سَفِينَتَنَا فَإِنْ رَجَعْنَا عَلَى الشَّاطِي عَصَيْنَاهُ

وَنَرْكَبُ الْجَوَّ فِي زَهْوٍ وَفِي دَعَةٍ فَمَا سَقَطْنَا لأَنَّ الْحَافِظَ اللهُ

أبو العتاهية يقول:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهْ يحفظكَ اللهُ وَأَنْتَ كَارِهْ

يقول: كم مرة سجنت وخرجت، وكم افتقرت واغتنيت، وكم مرة أخذت ديناً وقضيت، وكم مرة مرضت وأخذوك إلى السرير الأبيض، وخرجت وتشافيت، وكم مرة جعت وشبعت.

ولذلك مُلَرّ قائد البحرية الأمريكية غرق في بحر اليابان بصاروخ، قال: فنزلت تحت الماء (١٣ يوماً) وانقطع الاتصال بالعالم الخارجي، وخرجت بثلاث حقائق:

الأولى: أن هناك إلهاً يحكم العالم ويحكم الكون لا إله إلا الله.

الثانية: الذي ما عنده إلا خبز دافئ وماء بارد كفاه.

الثالث: لا تجزي القوة الصغرى تتصل بها في الأزمات عن القوة العظمى. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ولذلك يقول يوسف عليه السلام في الزنزانة: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. لما سألوه عن تعبير الرؤيا فدلهم على أن الواحد القهار هو خير عز وجل وهو الذي تفرد بالأسماء والصفات والأفعال، وهنا يقول أبو تمام:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

أي: إنه خير من الله عز وجل، أحياناً يكون ظنك أنك في بلوى وأنك في شدة، فقير، لكنك حقيقة في نعمة؛ فربما منعك من الربا ومنعك من العصيان ومنعك من أمور لا تعلمها أنت ولا تدري ما هي، وقد يُنْعِم الله على قوم بالبلوى ويبتلي الله قوماً بالنعم. وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]. حتى يقول أبو الطيب:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالعِلَلِ

أحياناً تأتيك علة وفيها صحة الجسم، وأحيانا تأتيك مصيبة وفيها نجاحك واستمرارك، وأحيانا محنة وفيها المنحة لك، وأحياناً تقع في بلية وهي العطية وأنت لا تدري، ورب ضارة نافعة من حكم الباري عز وجل، فاختيار الله لنا أحسن من اختيارنا لأنفسنا، وكما يقول ابن قاضي:

لا تَشْتَكِي - يَا وَاحِدُ - باتَ مَهْمُومٌ تَـرَى الـفَـرجَ عِـنـدَ قـرابِ الـحِـزَام
وَإنْ كانَ عَينُكَ خَالفَتْ مُدَّةَ النُّورِ أَنــتَ تَـنَـام وخـالِـقُـكَ مَـا يَـنَـام

لك سجدة، أو تشير بالسبابة لله الواحد الأحد ﷻ.

وقـد فُرِّج عن المسلمين في كابـول لما فتحها محمد بن واسع أشر بالسبابة: يا حيُّ يا قيوم يا حيُّ يا قيوم، تحرك الجيش ففُتِحت، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]. من يُدير الكون غيره ﷻ.

فقصدي أنه ينبغي أن نتأمل، وأن يكون عندنا انتظار لموعود الله ﷻ ونمني أنفسنا بأنه أقبل الفرج.

وقـد سمعت كلام المفسريـن والأدباء والحكماء والشعـراء كلهم أجمع على ذلـك، حتـى أهـل الجاهلية وأهـل الإسلام. وفي كتـاب (بزرجمهـر) أن عجوزاً فارسيـة كان لها كوخ بجانـب قصر كسرى، فلما ذهبت قالت: يـا ربِّ، أستودعك كوخـي وما فيه وأنت لا تضيع ودائعك. فإنهم مقِـرُّون كما كل الأمم أن هناك إلهاً يديـر الكـون، يقول ابن تيميـة: ما ينكر الصالـح في الظاهر إلا فرعـون، أما في الباطـن، ففرعون يعترف بذلك. حتـى إن موسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. أي: والله إنـك في نفسك تعـرف أن هذا الكون لا تخلقه أنت، فأنت ذرة مـن ذرات الدنيـا وإلا فستركب الأفلاك وهذا الكـون. راحت هذه العجوز في عهد كسرى، فعدا الجنود على كل شيء وأخذوا الدجاج فأكلوه وهدموا الكوخ، فلما أتت قالت: يا ربِّ، غِبْتُ أنا فأين أنت يا ربِّ؟!. أستغفر الله، ثم دعت عليه، وافقت دعوتهـا سيد الخلـق ﷺ، في تلك الأثنـاء أرسل ﷺ خطاباً لكسـرى، فلما قرأه متكبراً ومزَّقه، فأخبر الرسول الذي أرسله ﷺ، فقال: «مَزَّقَ كِتَابَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: مَزَّقَ اللَّه مُلْكَهُ كَمَا مَزَّقَ كِتَابِي». فبعدها بليلة عدا عليه ابنه بالخنجر، فمزقه في فراشه. قالها الحافظ الذهبي وابن كثير وغيرهما، فمزقه في الفراش.

وعلى ذكر العجائز كانت عجوزٌ في عهد ابن الفرات، يقولون: اعتدى على بستان لها وأخذه وضمَّ معه الصك عنده، فقالت للوزير: اتقِ الله فالدار داري، والله لأدعونَّ عليك. فقال: انتظري الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير شيء عظيم. فانتظرت الثلث الأخير شهراً وهي ترسل رسائل، مدادها وحبرها الدموع وقراطيسها الدموع وترسلها في السحر وتصل العرش مباشرة، وجاء الجواب بعد شهر، فجاء الخليفة وأخذ ابن الفرات وجلد ظهره وقطع يده وعلَّقها عند باب الخلافة، ومرَّت عليه وإذا هو يُجلد والخيزران تشتغل على ظهره في الظهيرة، فقالت: والله من أحسن ما يكون الثلث الأخير، وإنك نصحتني بهذا وجزاك الله خيراً أن نصحتني بهذا. ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ ... وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ

فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ... لِقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فانظر كيف صبت عليه جام غضبها، فأجاب الله عزَّ وجلَّ دعوتها، حتى إنه تعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فكما هو منهج عند كثير من العقلاء في العالم بغض النظر أنه سوف يُسهل الأمر، ولذلك ينبغي لمن ليس عنده فهم ولا علم أنه إذا مرت به أزمة أن يقول:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ

ويقول آخر:

لَطَائِفُ اللهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى ... كَلَمْحَةِ الطَّرْفِ إِذَا الطَّرْفُ بدا

كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إِيَاسٍ قَدْ أَتَى ... وَكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الأَسَى

مَنْ يُحْسِنِ الظن بِذِي الْعَرْشِ جَنَى ... حُلْوَاً جَنَى الشَّائِكُ مِنْ شَوْكِ السَّفَى

مَنْ يَتَجَرَّعْ غُصَصَ الصَّبْرِ ... يَذُقْ حَلاوَةً عَلَى طُولِ الْمَدَى

سُبْحَانَ مَنْ يَعْفُو وَنَهْفُو دَائِمَاً ... وَلا يَزَالُ مَهْمَا هَفَى الْعَبْدُ عَفَا

يُعْطِي الَّذِي يُخْفِي وَلا يَمْنَعُهُ ... جَلالُهُ عَنِ الْعَطَا لِذِي الْخَطَا

فهو ﷻ متفضل علينا حتى في الأثر القدسي: «**خَيْرِي إِلَيْكَ - يَا بْنَ آدَمَ - نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ وَتَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، خَلَقْتُكَ وَتَعْبُدُ غَيْرِي وَرَزَقْتُكَ وَتَشْكُرُ سِوَايَ**». فالنعم كلها والستر والعفاف والغنى من الله الواحد الأحد، والدنو والتقصير من العبد، فغالب العبد صاحب هوى ونفس أمارة وشيطان ودُنيا مؤثرة، لكن العجيب أن الإنسان إذا وقع في مأزق أو مشكلة ظن أنه انتهى الحال به، ولكن لم ينتهِ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.



obeikandl.com

الوطن

الوطن مضغة من القلب؛ لأنه مسقط الرأس، دَرَجْتَ على تراب الوطن واستنشقت هواءه وشربت ماءه، فأصبح الوطن يجري حبه في دمك، ولذلك في القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]. فجعل قتل النفس شقيق الخروج من الوطن، حتى إنه لما أُخرِج ﷺ من مكة من مرابع فتوته وملاعب صباه ومغاني شبابه، التفت إلى مكة ونظر إليها وبكى، قال: «وَاللهِ - يَا مَكَّةُ - إِنَّكِ مِنْ أَحَبِّ بِلادِ اللهِ إِلَيَّ،

وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ». فكان يحن لها ﷺ ويتمنى أن يبقى فيها، ولكنه ﷺ طُرِدَ منها، حتى يقول أحدهم:

يَا طَرِيداً مَلأَ الدُّنْيَا اسْمُهُ ... وَغَدَا لَحْنَاً عَلَى كُلِّ الشِّفَاهْ

وَغَدَتْ سِيرَتُهُ أُنْشُودَةً ... يَتَلَقَّاهَا رُوَاةٌ عَنْ رُوَاهْ

هَلْ دَرَتْ مَنْ طَارَدَتْهُ أُمَّةٌ ... هُبَلٌ مَعْبُودُهَا شَاهَتْ وَشَاهْ

طَارَدَتْ فِي الْبِيدِ مَنْ بَوَّأَهَا ... مَنْزِلاً لا يَبْلُغُ النَّجْمُ مَدَاهْ

فهو ﷺ كان يحن إلى الوطن، وفي بعض الآثار: «**حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ**». ولما هاجر الصحابة ﷺ أصابت الحمى بلال بن رباح ﷺ في المدينة، فكانوا يمرون به ويرفع عقيرته وينشد بصوته الجميل الندي الذي كان يؤذن به، فيهز به أطناب القلوب، فيمرون عليه وهو ينشد ويقول ويستشهد بشعر ليس له ﷺ بل لشاعر قديم:

يَا لَيتَ شِعْرِي هَلْ أُعرّسُ لَيْلةً ... فأَشُمَّ حَولِي إذْخِراً وجَلِيلاَ[1]

أو تَرُونِي يَوماً مِيَاهَ مِجَنّةٍ ... ويَشِيمُ طرفي شَامَةً وطَفِيلاَ[2]

يا ليت شعري هل تطول بي الحياة وأعود إلى مكة، وأرى الإذخر والجليل أشمهما وأتمتع برؤيتهما، وهل أرد ماء مجنة فأشرب منه ولو شربة قبل الموت، وأرى جبل شامة وطفيل أمامي. إنه حب الوطن والولوع إلى تلك الديار وتلك المنازل، ولذلك يقول ابن الرومي -وهذا أحسن كلام في الوطن لابن الرومي-:

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلاَّ أَبِيعَهُ ... وَأَلاَّ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكَا

عَهِدْتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً ... كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلالِكَا

---

(١) مجنة: ماء في مكة.

(٢) الإذخر: شجر.

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ مَعَاهِدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمْ عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

السمكة لا تريد إلا موطنها في الماء، والسلحفاة تريد مكانها، والطائر يريد العش، والنملة تريد بيتها، والإنسان يحن لموطنه وتجده عاشقاً لهذا الوطن متعلقاً به، فطرة من الله عز وجل حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لِقَلْبٍ حَلَّ جَرْعَاءَ الْحِمَى ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيْ
فَاسْأَلُوا سُكَّانَ وَادِي سَلَمٍ فَهْوَ مَا بَيْنَ كُدَاءٍ وَكُدَيْ

يقول: تلك منازل قلبي هناك، حيث أسكن.

وعروة بن حزام كان ينزل هنا، يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافُ نَجْدٍ إِن هُمَا شفيَانِي

حتى إن شوقي أمير الشعراء لما نُفِي من مصر يقول:

أَحَرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوحُ حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ
وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

ولكن معنى هذا البيت خاطئ، ومعناه يقول: لو كنت في جنات النعيم لاشتقت، وأنا داخل الجنة إلى وطني، وهذا خطأ ومبالغة، وهو الذي يقول في دمشق:

لَمَّا مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ هَلْ فِي الْمُصَلَّى أَوِ الْمِحْرَابُ مَرْوَانُ

إلى أن دخل دمشق، يقول:

أَتَى يُصَفِّقُ يَلْقَانَا بِهَا بَرَدَى[1] كَمَا تَلَقَّاكَ دُونَ الْخُلْدِ رَضْوَانُ

(١) نهر بردى.

وَالْحُورُ فِي دُمَّرٍ أَوْ دُونَ هَامَتِهِ ... حُورُ الْحَرَائِرِ زَانَتْهُنَّ عُقْيَانُ
وَرَبْوَةُ الْوَادِ فِي جِلْبَابِ رَاقِصَةٍ ... الصَّدْرُ كَاسِيَةٌ وَالسَّاقُ عِرْيَانُ

إلى آخر ما قال، وهذه من أحسن قصائده على كل حال، وإلا فله قصيدة في دمشق، بعدما انتصر السوريون على الفرنسيين، فقال:

سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقّ ... وَدَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْذِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي ... جَلَالُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفٍ يَدِقُّ
دَخَلْتُكِ وَالأَصِيلُ لَهُ ائْتِلاقٌ ... وَوَجهُكِ ضاحِكُ القَسَمَاتِ طَلْقُ
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ... وَتَعْرِفُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
وَلِلْحُرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ ... بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

على أن الشيخ الكبير الأديب علي الطنطاوي يعترض على القصيدة ويقول: أُقٌّ، أُقٌّ، القصيدة متعبة في القافية. مع العلم أنها من أجمل القصائد، وهذه وجهة نظر للشيخ علي الطنطاوي، وإلا فإن قصيدته هذه يحتفلون بها، ولكن النونية عندي في دمشق لشوقي أحسن من هذه القافية التي ذكرها.

وابن الخياط له مقطوعة في نجد؛ لأنه مر بنجد، وقبّل نجد يقول في كتاب الحماسة:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِي[1] ... بِنَا نَحْوَ الْمَجَرَّةِ فَالضَّمَارِ
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وهذا من أجمل ما يكون في الأدب، حتى يقول ابن الخياط:

(١) يقول: المسافرون تاركو نجد ويريدون أن يذهبوا إلى الحجاز، فيوصي صاحبه.

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ ... فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ
وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ ... إِذَا هَبَّ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرُ خَطْبِهِ

فدل على أن حب الوطن مركوز في طبائع الناس، حتى إنك لو حدَّثت الإفريقي الذي يعيش في الصحراء التي تكاد حرارتها تُقَطِّع البدن يرى أنه في جنات النعيم، والشمالي الذي في القطب كذلك، حكمة بالغة أن حبب الله عز وجل أهل الديار إلى ديارهم؛ لِتُسْكَن الأرض وتُعْمَر.

كانت خزاعة قبل قريش في مكة، ثم أُبِيدت خزاعة، وأُبِيدت من قبل خزاعة قبائل، وهذه سنة الله عز وجل في الأمم والدول والشعوب والقبائل، أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وقبيلة بعد قبيلة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. قيل: في مكة كان رجل من خزاعة تأثر وبكى لما رأى قبور الناس من خزاعة في مكة، فقال:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمَعْ بِمَكَّةَ سَامِعُ

ويقول هارون الرشيد:

بَلْ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُرُوفُ اللَيَالِي وَالجُدُودُ العَوَاثِرُ

علماً أنه لا يجوز للإنسان أن يتشاءم، ويقول: حظي العاثر أو المشؤوم. لا، أمة تذهب، أمة سادت ثم بادت، ملك علا ثم هوى ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ نَمْرُودُ وَمَنْ ... وَلِيَ الأَحْكَامَ طَوْرًا وَعَزَلْ
كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْكُلِّ فَكَمْ ... فَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ

وتفرد هو بالبقاء عز وجل فينبغي أن يُلاحظ أن حب الوطن ليس كما يقول بعض الناس: الوطنية محرمة. لا، الوطنية إذا كان يحب الوطن أكثر من الإسلام أكثر

معتقداً فلا يجوز، لكن إذا أحب وطنه من باب الوفاء ودافع عن وطنه، فهذا لا بأس به، كل الأمم تدافع عن أوطانها، ولما دافع العراقيون عن بلادهم قال أحد الشعراء العراقيين:

مُتَمَّمُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ

فينبغي للإنسان أن يعتقد هذا ويعيش دفاعاً عن معتقده وعن وطنه، وإن رجلاً لا يحب دينه قبل كل شيء ثم يحب وطنه فإنه مشكوك في انتمائه وفي وفائه، قالوا: يُعرف الرجل بوفائه لأمرين: بوفائه لوطنه، وبوفائه لإخوانه. فلهذا تجده يحن لفلان ويتذكره فاعرف أن فيه مروءة وأن معدِنَه طيب، وإذا حن إلى وطنه ومراتع شبابه وملاعب صباه فاعرف أنه وفيّ، أما القاطع الجافي فإنه يتنكر لأوطانه ولإخوانه، فلا يذكر الوطن بخير ولا يذكر إخوانه بخير، فتجده سيَّان عنده بلاده وغيرها، فكيف إذا كان الوطن مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق التعاليم الربانية؟! وكيف إذا كان هذا الوطن تراباً مشى عليه محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟! وكيف هذا إذا كان هذا الوطن جبريل عليه السلام التقى على ظهره بمحمد ﷺ؟

هذا هو وطننا، وطننا الذي رضيه لنا الله عز وجل وفيه أم القرى وفيه المقدسات وفيه مهبط الوحي، حتى يرى كل مسلم أن من المعتقد أن يحب هذا الوطن؛ لأن فيه قبلة المسلمين التي يؤمها الناس، فنحن نقول: نسأل الله أن يجعل وطننا الأم في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأن ذاك الوطن هو وطننا الأساسي؛ لأن أبانا آدم كان في تلك الجنة.

كنا في وطننا ذاك، كنا في جنات النعيم، لكن أبانا آدم عليه السلام لما أكل من تلك الشجرة وكتب الله عز وجل عليه تلك المعصية هبط بنا، فالواجب أن نَحِنَّ إلى ذلك الوطن لنعود إليه؛ لأن ذاك الوطن لا خوف فيه ولا قلق ولا مرض ولا اضطراب، ولكنها جنات ونهر في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

هـذه بعض اللمسات على الأوطان، وقد بكـى الشعراء وتفجعوا على أوطانهم وهـم يُخرجون، حتى إننـي رأيت أول بيت فـي الأغاني لأبي فـرج الأصبهاني أول الأبيـات، يقول: إن أحد الموالي طُرِد مـن المدينة، طرده أمير المدينة إلى الشام فبكـى لما نظر إلى نخـل المدينة وتذكر مراتع الصبا فـي المدينة وتذكر زملاءه وأصدقاءه وأحبابه، وسار إلى أبواب جيرون وجيرون هي دمشق بالرومية، قال:

النَّخْلُ وَالْقَصْرُ وَالْجَمَّاءُ بَيْنَهُمَا أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ أَبْوَابِ جِيرُونِ

يقصـد النخل والبئر، والجماء مزرعة لسعيد بـن أبي العاص وسعيد بن أبي العاص في المدينـة والبئر بئره في المزرعة والقصر قصر بناه هناك، فيقول: يا ليت لي القصر والبئر والجماء بينهما، فذلك أشهى إلى النفس من أبواب جيرون، أحسـن عندي مـن أبواب دمشق لكني أصبحت غريبـاً. فالغريب يحن إلى أوطانه إذا نُفِـي من الوطن، والنفي من الوطن أصعب شيء على النفس ومن أشقه؛ لأنك تذهـب عن إخوانـك وتذهب عن أترابك لمـا ألفتهم وأنستهـم، تذهب عن أشياء ارتبطـت بها وأصبحت جزءاً من حياتـك وذاكرتك، فأنت لا تتخلى عنها بسهولة، فيُصبح حكماً بالإعدام الغيابي على هذه الروح التي تحملها.

وأنت تتذكر هذا الوطن الذي كنت تعيش فيه، فالواجب أن يحسن إلى الوطن بأن يكون عضواً صالحاً في وطنه، يحمل المعتقد الحق والكلمة الطيبة ويدعو إلى الفضيلة، ويشارك في بناء وطنه ويذب عنه العدوان، ويجتمع مع إخوانه على كلمة الحـق: لا إله إلا الله، محمـد رسول الله. ويكون وفياً لوطنـه، والحقيقة أن أوطان المسلمين يجب أن تُقَدَّر جميعاً.

وَكُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَلَدٍ عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

وقد قال بعضهم:

أَنَا الْحِجَازُ، أَنَا نَجْدٌ، أَنَا يَمَنٌ الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي

وهذا أبو تمام يشكو من أنه لم يستقر في وطن واحد، فهو مشرد، مرة يذهب يمدح هذا، ثم يرده هذا إلى ذاك، ومرة يطرده الوالي إلى والٍ آخر، فيقول:

فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا ... بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

يقول: إني معذب ومشتت، ولكن يجتمع قلب الإنسان إذا كان مع ربه ﷻ، فإن كان مع الله كان الله معه، آنسه من وحدة وآواه من غربة وأطعمه من جوع وأغناه من فقر ونصره من قوة وأعزَّه من ذلة.

وقد قرأت عن موسى عليه السلام كما في كتب السير أنه لما نزل في أرض مدين أوى إلى الشجرة، بعدما كشف الغطاء للفتاتين وسقى لهما أغنامهما، فقال: يا ربِّ أنا فقير، يا ربِّ، أنا غريب، يا ربِّ أنا جائع، يا ربِّ أنا ضعيف. فأوحى الله إليه: يا موسى، الغريبُ من لم أكن أنا مؤنسه، والجائع من لم أكن أنا مطعمه، والفقير من ألم أكن أنا مغنيه، والضعيف من لم أكن أنا مقويه. ورُوِي عن يوسف عليه السلام أنه لما أُلْقِي في الجب كان وحده، فأنزل الله ﷻ عليه السكينة، فأخذ يسبح الله ﷻ فجعله الله على صخرة في الجب الذي فيه ماء فأنقذه ﷻ ورده وأصبح ملكاً وتولى وطناً.

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ ... مَعَاهِدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمُ ... عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا



الوقت

الوقت هو العمر والوقت هو الحياة، والوقت هو المتكون من الدقائق والثواني التي تمر بك. ولذلك يقول ﷻ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]. فهو يسألهم ﷻ حتى عن الوقت وعن العمر، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تَزُول قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ**». وذكر: «**عُمْرَهُ فِيمَا أَبْلاهُ**». يسأل عن عمره فيما صرفه، وعند البخاري: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**». فالوقت

تكلم عنه الشعراء والحكماء على أنه كنز للتجارب وفعل للخير وإسدال المعروف ونفع الآخرين، حتى إن أبا تمام في أبيات جميلة لَخَّص تجربته مع الوقت والأيام، يقول:

مَـرَّتْ سِنِينٌ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا ... فَـكَـأَنَّـهَـا مِـنْ قِـصْـرِهَـا أَيَّـامُ
ثُـمَّ انْـثَـنَـتْ أَيَّـامُ هَـجْـرٍ بَـعْـدَهَـا ... فَـكَـأَنَّـهَـا مِـنْ طُـولِـهَـا أَعْـوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينُ وَأَهْلُهَا ... فَـكَـأَنَّـهَـا وَكَـأَنَّـهُـمْ أَحْـلامُ

هذا هو الوقت. ولذلك يقول شوقي:

دَقَّـاتُ قَـلْـبِ الْـمَـرْءِ قَـائِـلَـةٌ لَـهُ: ... إِنَّ الْـحَـيَـاةَ دَقَـائِـقٌ وَثَـوَانِ

أي: إذا رأيت القلب ينبض فكأنه يُذَكِّرك، فيقول: انتبه مضت ثانية، والثانية الثانية، وهكذا. هذه الثانية لن تعود، فقد اقتربت من النهاية، حصدت لحظة من عمرك، وهكذا. وهذا من أجل أبيات شوقي:

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ قَبل مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَـالـذِّكْـرُ لِـلإِنْـسَـانِ عُـمْـرٌ ثَـانِ

وهذا صحيح، والمتنبي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فيقول: ذِكْرُكَ كأنه عمر لك ثانٍ. أي: العمر الْحَسَن. مطلوب منك أن تسعى في حياتك بأعمال جليلة؛ حتى تُذكر بعد موتك، لو زهِدَ أحد بالثناء لزهد إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. أي: اجعل لي ثناء حسناً فيذكرني الناس بالخير ويترحمون علي. لأن الناس شهود الله في أرضه؛ إن أثنوا عليه خيراً فهو خير وإن أثنوا عليه شراً فهو شرير، لأنهم شهود، ألسنة الخلق أقلام الحق، فهنا يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: ... مَا قَاتَهُ. وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فالحاجة فقط هي القوت، وما زاد عن كفايتك وحاجتك فهو إشغال يضيع العمر، وذكر الجاحظ في كتابه (الحيوان) أن السلطان السعدي يقول: أوقاتي هي العمر.

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِي

اليوم والليل أفنى الكبير وشيب الصغير الطفل، فليلة ويوم وليلة ويوم وإذا الشباب شيوخ كبار، وإذا الأطفال شباب وإذا الشيوخ في المقابر، ويوم وليلة وإذا الدول تنتهي ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. كم تصبّح هذه الليالي وتصبّح علينا، الشمس تُشرق وتغرب وهي من أعمارنا تنقص.

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَّمَتْ يَوْمَهَا[1] أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي

تنتهي ليلة ويأتي يوم جديد، اليوم والليلة جديدان، نموت وننتهي وهما جديدان.

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لا تَنْقَضِي

ما دمت حياً فلك حاجة كل يوم ولك غرض، وللنفس تطلعات وآمال ومطالب.

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

أحد الصالحين يقول لصاحبه: ألا تزورنا؟. قال: أُشْغِلنا عن الزيارة. فأخذه مرة وذهب به إلى المقبرة، فقال: انظر، إن هؤلاء ماتوا كلهم ولهم أشغال. لكن عُطِّلت أشغال، أي: ما عندهم سابق إنذار بهذا. ولذلك قال بعضهم:

إِذَا كَانَ رَأْسُ الْمَالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرِسْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْيِيعِ فِي غَيْرِ وَاجِبِ

(١) أي: أنهت اليوم.

رأس المال العمر، فإذا كان هذا العمر هو رأس المال، فلا تضيعه في غير واجب، والشافعي -رحمه الله- يقول: رافقت الصوفية فما استفدت منهم إلا قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقيل لرجل: الوقت أغلى من الذهب. فقال: بل الوقت هو الحياة. لأنك في الدقيقة الواحدة قد تصنع شيئاً كثيراً ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. تُقْرَأُ في دقيقة، سبحان وبحمده مئة مرة تُقرأ في دقيقة، صفحة من كتاب علم أو معرفة تُقْرأ في دقيقة، كلمة صادقة طيبة ينفع الله بها، تتصل بأخيك المريض تعزيه في دقيقة، هذه الدقيقة تصنع بها مجداً وتبني لك بها تاريخاً، تقدم حسنات تغرس في الجنة شجرات، لكن المشكلة أن الإنسان إذا ما أخذ كلام أهل العلم وأهل الحكمة وأهل الأدب واستفاد به بحال، إنما يحمله فقط كما قال عزّ وجلّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. مجلدات ومصنفات على ظهر الدابة لا تستفيد منها، ولذلك ينبغي إعمال ما تسمعه من الحكمة وما تسمعه من الأدب ومن الشعر، حتى يقول:

مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

فالماضي انتهى عفا الله عما سلف، تلك أمة قد خلت، وأنت مع الماضي هب أنك أغلقت عليه في زنزانة النسيان، والمؤمل غيب: فالذي يأتيك غداً هو ليس في يدك، ولا تستطيع أن تضمنه، ولكن لك هذه الساعة التي أنت فيها، فازرع الخير.

وقد قرأت عن الأديب الشاعر المشهور شكسبير يقول - يوصي صديقه -: يا صديقي، الخير الذي تفعله سوف يُثنى عليك به، والشر الذي تفعله سوف يُدفن معك في قبرك. وأحسن من ذلك قول سيد الخلق ﷺ فيما يُروى عنه لما قال لقيس بن عاصم: «**يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِيناً تُدْفَنُ مَعَهُ وَهُوَ حَيٌّ وَيُدْفَنُ مَعَكَ وَأَنْتَ مَيِّتٌ**». هو العمل.

فمـن أراد أن يحسـن عملـه، فليحسن صرف الوقت فيما ينفـع، وفيما يفيد، وفيما يعلي قدره.

وقد قال ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**». لأن كثيراً من الأصحاء مشغولون وكثيراً ممن يملكون الوقت مرضى، لكن أن يجتمع لك الصحة والفراغ فأمر عَجَب، ولذلك تجد شاباً صحيحاً غير مشغول ولا يعمل خيراً، الآن تـرى الشمس تجري لمستقر لها، والريح تتحـرك والنسيم يهب والقافلة تسير والليـل يطوي النهار وأنت لماذا تقف؟. لا وقوف في العالم ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]. لا وقـوف فإما أن تتقدم أو تتأخر، فلـن يجديك أن تبقى تفكر، امشِ على نظام ولو على نظام السلحفاة، فإنك سوف تسبق الثعلب الذي وقف.

وقـد قيـل: الغزال التي وقفت تنظر، هل الفهـد يطاردها أو لا، فانقطعت عن السلحفـاة وسبقتهـا السلحفاة. نحـن بحاجة إلـى إعادة ترتيب لقـراءة الأدب، وأدبنـا هو أدب الحكمـة وأدب المعرفة وأدب الرشد أدب المثـل العليا، ليس أدب النقائـض الذي يدرسونه فـي بعض المدارس، قال جرير يهجـو الفرزدق وقبيلته وقـال الفرزدق يـرد عليه، أو داحس والغبراء؛ قالت هذه القبيلة في تلك، تغلب في بكر وبكر في تغلب حتى يورثوا الضغائن بين الأحياء وبين القبائل والعشائر، أدبنا ينطلق من قول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَـإِنَّ أَبِـي وَوَالِـدَهُ وَعِـرْضِـي ... لِـعِـرْضِ مُـحَـمَّـدٍ مِـنْـكُـمْ وِقَـاءُ

هَـجَـوْتَ مُـبَـرَّأً لا عَـيْـبَ فِـيهِ ... رَسُـولُ اللهِ شِـيـمَـتُـهُ الْـوَفَـاءُ

أَتَـهْـجُـوهُ وَلَـسْـتَ لَـهُ بِـكُـفْءٍ؟! ... فَـشَـرُّكُـمَـا لِـخَـيْـرِكُـمَـا الْـفِـدَاءُ

ينطلـق مع أبيات الحكمة التي تعلمنا، فكل ما دلَّـك على الفضيلة فهو فاضل فـي نفسـه ينبغي الاعتناء به، وكل ما تحاول أن تقترب بـه من الشر والرذيلة فإنه يُلغـى سـواء أكان نثـرًا أم شعـرًا، ولذلك نحـن بحاجة لحجر صحـي فكري على

أذهـان الجيـل والشباب؛ لئلا يحفظوا بعض اللوثات الفكريـة التي نفث بها بعض المرضـى، فأثرت في أدبنا وجعلتـه كأنه الأدب العربي في بعضـ ملاحمه، وإنما هـو رذيلة وعـداوة وشر وبغضاء وغدر، وانسلال هذه القبيلـة على الأخرى وإراقة دمـاء وتشويه، فهناك صور مشرقة لا بد مـن أن نُظْهِرَها للناس وأن نحكيها، وأنا أعـرف من القصص الرائقة الأدبية الجميلة ومـن الأبيات التي فيها من المروءة ومـن العزة ومن الأنفة، حتى الأدب الجاهلي تقرأ فيه عن عفة النفس وعن الكرم والسماحة، مثل قول حاتم الطائي:

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ لِجَامِهَا لِتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرَّكَائِبِ

فانظـر إلى هذا؛ يقـول: أنا لا أوثر نفسي على صاحبـي، والله حتى فرسي لا أسابق بها حتى تشرب ماء الحوض قبل أن تأتي الخيول الأخرى. يقول: فليسبقوني هم حتى يشربوا الماء.

وعُـروة بن حزام مرَّ به شخـص سمين بدين وكان عروة نحيفاً، فضحك منه السمين، فقال:

أَتَـهْـزَأُ مِنّـي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَـرَى بِوَجْهِي شُحُوبَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ شَاهِدُ

يقـول: يأكل معي علـى السفرة أناس، أنا أوزع طعامي علـى الجيران، وأنت تأكل وجبة وحدك، تغلق الباب إذا كنت تأكل.

إِنّـي امـرُؤٌ عافي إِنـائِـيَ شِـركَةٌ وَأَنـتَ امـرُؤٌ عافي إِنـائِكَ واحِـدُ

أَتَـهـزَأُ مِنّي أَن سَمِنتَ وَأَن تَـرى بِوَجهي شُحوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جاهِدُ

أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُـو قَـراحَ المَاءِ وَالـمَاءُ بَـارِدُ

يقـول: أنا عنـدي شركاء فـي الأكل وأستضيـف وآخذ ولذلـك نَحُف جسمي وضعفـت بنيتي، وأنت تأكل وحدك فأنت سميـن فالواجب أن تهزأ بنفسك لا تهزأ

بـي. هذه مُثُـل عُليا، فكيف يوم جاء محمد ﷺ وأقام سَنَن العدل والنور والإيمان، ووصـل بهـا إلى الواحـد الأحد حتى يقول ﷺ: «**مَـنْ كَانَ لَـهُ فَضْـلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَـى مَـنْ لا زَادَ لَهُ، وَمَـنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ**». حتى البسمة جعلها صدقة ﷺ إلى درجة أن زهير يقول في الجاهلية لِهَرِم:

تَـــرَاهُ إِذَا مَـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلاً ... كَـأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّـذِي أَنْـتَ سَائِلُه

يقـول: وأنت تطلبه شيئاً، فكأنك أنت الـذي تعطيه المال؛ من التهلل ضحوك السن. أما الغضوب والعبوس، فإنه مذموم، حتى قال أحدهم:

وُجُـوهٌ مِـنْ سَـوَادِ الْـكِبْـرِ عَابِسَـةٌ ... كَـأَنَّمَـا أُورِدت غَـصْـبَـاً إِلَـى النَّـارِ

هَانُوا عَلَى اللهِ فَاسْتَاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ ... يَـا وَيْـحَـهُـمْ مِـنْ مَـنَـاكِـيـدٍ وَفُـجَّـارِ

لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا لاقَيْتَهُمْ عَرَضَاً ... أَهْدَوْكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُتْحِفُ السَّارِي

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُل: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فهـؤلاء أهل الرقة أهل الإيمان أهل المبادئ العالية، الذين يحفظون أوقاتهم فيما يقربهم لله ﷻ، فأنت لا تصرف وقتك إلا في حق أو في خير، فالوقت دمار، أو عمار إما لك أو عليك، وسوف تُسأل عن هذا وعن هذا فازرع ما شئت من الخير تجده، وزارع الحنظـل سوف يحصده وسوف يذوقه مراً علقماً يوم العرض الأكبر عنـد الله ﷻ، وهـل أقيمت الصلـوات إلا في الوقت ودُفِعَت الزكـوات وأُعْفِي عن الناس، ونُشِرت المعرفـة وأُطْعِمَ المساكين وأُدِّيت الحقوق وعُولج المرضى إلا في الوقـت؛ لأن الوقت مزرعة، وهـل سُفِكَت الدماء واعتُدِي علـى الحرمات وانتُهِكت المقدسـات إلا في الوقت، فالوقت ظرف زمنـي، لكنه للأبرار جنة وللأشرار نار، فعليك أن توجهه فيما يصلح قلبك، من يوم أن تستفيق في الصباح اعرف أنه يُعد عليك وأنه يُحصى عليك، أقلام تكتب وملائكة تشهد وصحف ترتفع، فتهيأ وتجهَّز للقدوم عليه ﷻ، ودائماً تذكر أن مع دقة القلب دقة الساعة، فدقات الساعة تقول للقلب: لقد أخبرتنا أن صاحبه يمضي في الطريق، وأنه سوف يمضي قريباً.

دَقَّـاتُ قَـلْـبِ الْـمَـرْءِ قَـائِـلَـةٌ لَـهُ: إِنَّ الْـحَـيَـاةَ دَقَـائِـقٌ وَثَـوَانِ

فمـا هي الثوانـي؟ تُؤَلف الدقيقة من ثـوانٍ، والساعة من دقائـق، واليوم من ساعـات، والأسبوع من أيـام، والشهر من أسابيع، والسنة مـن أشهر، والعمر من سنوات، حتى نلقى رب الأرض والسماوات.

سئـل أحد الناس: كم عمرك؟ قـال: والله ما أذكر من عمري إلا هذه الساعة فقط. حتى إن أبا الطيب المتنبي يقول:

قَـدْ ذُقْـتُ شِـدَّةَ أَيَّـامِـي وَلَـذَّتَـهَـا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَعْبٍ وَلا عَسَلِ

يقـول: إني ذقت الأيام كلها حلوهـا ومرها، لكن ما في يدي شيء الآن، أتأمل أيـن اللذائذ؟ ولا لذائـذ، أتأمل المصائـب ولا مصائب، أتأمـل النكبات فكأن لا نكبات، ما بقي عندي من آثار العسل وحلاوة الأيام التي مرت، وما بقي عندي من الصعب العلقم الذي مرَّ بي.

كـم مرة مرت بنا أزمات صـارت ذكريات! كم ذقنا من أيـام سعيدة وأفراح ومباهج الحيـاة ونعمها! لو سُئِلت عنها ما تحسها، وقد لقيت عالماً كبيراً فسألته: مـا تذكر من علمك يـا شيخُ؟ قال: ما أذكر شيئاً، هذه اللحظة التي أنت بين يدي، كأنـي وُلِـدت من جديد والله مرت بي أيام طويلة وجميلة مـا أذكر شيئاً ومرت بنا صعوبـات ما أذكر شيئاً. فقط لك الساعة التي أنـت فيها، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فعلينا أن نمضي هذه الساعة في عمل صالح.

وأنا أرى أن من أراد أن يحفظ وقته فعليه بالتنويع؛ فإنه أدعى لنشاط النفس، فمـرة قراءة ومرة تسبيح ومرة نفع للناس ومرة ترويـح عن النفس، ومرة إيصال الخيـر إلى الآخريـن، عيادة مريض ومواسـاة منكوب وإعطاء فقيـر ومسح رأس يتيـم، طلب معرفة، قراءة كتاب، ركعتان بخشوع، تدبـر، بر والدين وأعمال خير،

هـذه مرزعة الحياة فأين الزارعون؟! هذا بستـان الخيرات فأين الباذرون؟! هذا سلم المجد، فأين الصاعدون، فأين الصاعدون؟! هذه صحف المثل العليا، فأين الكاتبون؟! فيا أيها الناس، هذا وقتكم قُدِّم لكم، لكنه من طريق الشعراء.

وكما أوصـوا بالوقت وأوصوا بالزمن فإن الشعـراء أيضاً شاركوا في صياغة الحكمـة؛ لأنه كما قـال ﷺ: «**وَإِنَّ مِـنَ الشِّعْـرِ لَحِكْمَة**». فلنأخـذ حِكَمَة الشعراء حكمة الأدب، يقول أبو تمام:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ وَقْفاً فَإِنَّنِي رَأَيْتُ كَرِيمَ الْحُرِّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

يقـول فـي محمد بن حميد، الذي قُتِـلَ وَعُمْرُه (٣٢سنة): مـا لك عمر لكنك سجَّلت عمراً طويلاً من المجد؛ لأنه قُتِل في سبيل الله. دائماً عمر الكريم قصير؛ كأنـه ما عاش فـي الناس، يقولون: ليتنا أعطيناه من أعمارنا، يا ليتنا جدنا له من أوقاتنـا، ليته أطـال الإقامة معنا، لكنه ينتهي سريعًا. حتـى إنهم يقولون: ما كأنه عاشـ بين أظهرنا من عمـره. أما الشديد فطويل عمره، يقولون: متى يقصف الله روحه؟ أثقلنا وأتعبنا وما أطول عمره! نسأل الله الرحمة والعافية.



obeikandl.com

ساعة الصفر

ساعــة الصفر عنــد المعاصرين هــي ساعة الموت وساعة النهايــة، وهذه الساعة لا بد من أن يمر بها كل واحد، وفي ساعة الموت يضعف القوي ويذعن الجبــار ويستسلم المتكبــر ويفتقر الغني، والعلماء والحكماء والأدبــاء والشعراء لهم كلمات في ساعة الصفر؛ لأن زيــف النفس انتهى وانتهى الغــرور والعجــب والكبريــاء وانتهــى واستسلــم، فيقولــون الكلمــات الصادقة إمــا بيتــاً أو كلمة أو جملــة، ولذلك يُروى عن الشافعــي أنه لما انطرح للموت وذكر الله، قال:

obeikandi.com

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا- رَبِي- لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ- رَبِي- كان عَفْوُكَ أَعْظَمَا

ثم تُوفِّي بعدما شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وهناك محدث كبير من أجلِّ المحدثين من الشمال كان في عهد أحمد بن حنبل اسمه أبو زرعة الرازي، أتوه في سكرات الموت، فأرادوا أن يلقنوه: لا إله إلا الله. فاستحيا منه طلابه فأرادوا أن يذكروا سند الحديث: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**». فما استطاعوا، واستيقظ بعدما كان مغمى عليه أو في غفوة فقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، ثم مات. ومالك بن الريب الذي سجل أروع قصيدة في ساعة الصفر، قصيدة رائعة مؤثرة، أرى أن ليس في الأدب العربي مثلها في مسألة الحنين وصدق العاطفة والوضوح والشفافية في ساعة الموت، بعدما كان من قُطَّاع الطريق ويسرق - غفر الله له - ثم تاب وأناب، ومر به عثمان بن عفان رضي الله عنه مجاهداً مع جيشه، فدخل معهم وذهب إلى خراسان مجاهداً في سبيل الله، وفي الطريق لدغته حية فحفروا قبره وألقى قصيدة ما يقارب (٦٠بيتاً) على شفير القبر، قال:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِجنبِ الْغَضَى أُزْجِي الْقِلاصَ النَّوَاجِيَا
فَلَيتَ الغَضا لَم يَقطَعِ الرَكبُ عرضَه ... وَلَيتَ الغَضا ماشَى الرِّكابَ لَيالِيا
وَلَيتَ الغَضا يَومَ ارتَحَلْنا تَقاصَرَت ... بِطُولِ الغَضَا حَتّى أَرى مَنْ وَرائِيا
أَلَم تَرَنِي بِعتُ الضَلالَةَ بِالهُدى ... وَأَصبَحتُ في جَيشِ ابنِ عَفّانَ غازِيا
فَلِلَّهِ دَرّي يَومَ أَتْرُكُ طَائِعَاً ... بَنِيَّ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا
وَأَشقَرَ مَحبوكٍ يَجُرُّ عَنانَهُ[1] ... إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا

(١) يعني فرسه.

يُقادُ ذَليلاً بَعدَما ماتَ رَبُّهُ ... يُباعُ ببَخْسٍ بَعدَما كَانَ غَالِيا

وَلَمّا تَراءَت عِندَ مَروٍ منِيَّتِي ... وَخَلَّ بِها جِسْمِي وَحانَتْ وَفاتِيا

خُذَانِي فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا ... فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبَاً قِيَادِيَا

إلى آخر ما قال، فكلها صدق وكلها تنبيك أن الإنسان يذهب عنه الطلاء وقت الحقيقة، فإذا أصبح في سكرات الموت انتهى كل شيء؛ لأن أكثر لحظة يمر بها الإنسان لحظة ضعف ولحظة صدق هي لحظة سكرات الموت التي سوف نمر بها جميعاً، حتى إن أبا نواس الأديب الشاعر المشهور يقول في سكرات الموت- عسى الله أن ينفعه بذلك-:

إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ

مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

وقالوا في السير والأدب: إن ابن عباس دخل على معاوية رضي الله عنه الملك الخليفة، فلما رآه ابن عباس «وهو في سكرات الموت أراد أن يظهر لابن عباس» أنه ما زال نشيطاً، لأن ابن عباس «ابن عم علي رضي الله عنه غفر الله للجميع ورضي عنهم جميعاً» قال معاوية رضي الله عنه:

وَتَجَلُّدِي لِلشامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

قال ابن عباس «في الحال»:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وهي من القصيدة نفسها، فدل على أن الإنسان قد يتجلد، حتى إن ابن تيمية لما دخلوا عليه قالوا: ماذا أصابك يا أبا العباس؟ وهو في مرض خطير، قال:

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا ... وَلَمْ يَدْرِ عُوَّادُهَا مَا بِهَا

وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةٌ تَشْتَكِي ... أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

هذا على حد قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فهو التجلد والصبر مثل قول النابغة لبني جعدة:

سَقَيْنَاهُمُ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا ... وَلَكِنَّنَا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

يقول: لما تلاقينا، والأعداء قاتلونا وقاتلناهم وسقونا الموت وسقيناهم، وشربنا من كأسهم وشربوا من كأسنا، ولكننا كنا على الموت أصبر منهم. فهو التجلد على تلك الساعة ساعة الصفر وساعة الحقيقة، ولذلك يقول عز وجل عن الأولياء: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: إن كنتم تألمون- أيها الصحابة والمؤمنون- من مقاتلة الكفار فهم يألمون مثلكم، لكنكم تزيدون بأنكم ترجون الثواب والنعيم والجنة وهم لا يرجون شيئاً، وهذا الذي يعزي الناس، ولما حضرت ساعة الصفر في مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ قال تلك القطعة الرائدة الجميلة:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا

الرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إِنْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا ... .

وقُتِل رضي الله عنه وهذه الكلمة أثبتها بفعله، فالشعر يصدق خبر العبد أو يكذبه، وأتى ابن رواحة رضي الله عنه بعده وقال:

أَقْسَمْتُ - يَا نَفْسِي - لَتَنْزِلَنّه ... أَقْسَمُ النَّاسِ وَأَشَدُّ ظَنَّهْ

مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلاَّ نقطة فِي شَنَّهْ

وقاتل وقُتِلَ رضي الله عنه وقُتِل قبلهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ودخلوا ثلاثتهم جنات النعيم على أسرة من ذهب جمعنا الله عز وجل بهم.

ورماح بن حكيم يقولون: إنه قُتِلَ في المعركة، وكان يتمنى الشهادة. حتى إنه يقول قبل الموت:

أَيا رَبِّ لا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ أَتَتْ عَلَى مَضْجَعٍ يَعْلُوه حُسْنُ الْمَطَارِفِ

يقول: أسألك - يا رب - لا تميتني في غرفة النوم على فرش وثيرة ومخدات ووسائد.

وَلَكِنْ شَهِيداً ثَاوِياً فِي عُصَابَةٍ يُصَابُون فِي فَجٍّ مِنَ الأَرْضِ خَائِفِ

إِذَا فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ فَارَقُوا الأَذَى وَسَارُوا إِلَى مَوْعُودِ مَا فِي الصَّحَائِفِ

أي: ما في القرآن مما وعدهم الله عز وجل من الجنة.

وأذكر أن محدثاً كبيراً اسمه: أبو بكر الباغندي. محدث كبير مشهور بعلم الحديث، ومن علامات حسن سيرة العبد أن يحب: حدثنا فلان عن رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ كذا، أو المحدث يقول حدثنا، أخبرنا.

الْعِلْمُ مَا قَالَ فِيه: قَالَ: حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

يقوله بعض السلف، فيقولون: إنه كان في سكرات الموت فسمع شاباً أو طِفلاً يقول: حدثنا فلان. وهو لا يدري أن الباغندي في سكرات الموت، والباغندي حياته كلها حديث، قال: أسندوني. فأسندوه، قال:

سَقَوْنِي وَقَالُوا: لا تُغَنِّ. وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سُقِيتُ لَغَنَّتِ

وهذا الشعر لأحد شعراء العرب يقول: إنهم أسقوه خمراً وطرب، ثم سمع قصيدة وطلبوا منه ألا يرفع صوته، فرفع صوته وعقيرته بالنشيد، فقال:

سَقَوْنِي وَقَالُوا: لا تُغَنِّ. وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سُقِيتُ لَغَنَّتِ

فهنا يقول المحدث: أنتم سمَّعْتُموني شيئاً هزني وحرك مشاعري وشجوني. وهو علم الحديث الذي أفنى فيه عمره، فقام في تلك الساعة وقال هذا البيت المشهور.

وأحد العلماء مرض وفي مرض الموت كان متكئاً ويقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. وهي كلمة الحق وأصدق كلمة في العالم وأحسن كلمة وأجمل كلمة، حتى إني رأيت في بعض الأحاديث يُروى: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ فِي الأَرْضِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ اللهُ فِي السَّمَاءِ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا**». وعند ابن حبان «**قَالَ مُوسَى** عليه السلام: **يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي كَلِمَةً أَدْعُوكَ بِهَا...**». وكان موسى عليه السلام جريئاً وشجاعاً وصاحب أسئلة «**قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ النَّاسِ يَقُولُونَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي كِفَّةٍ وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**». فهذا العالم كان يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. فسمع رجلاً آخر يقول: لا إله إلا الله. قال:

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنَى فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْبِلادِ وَمَا نَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

يقول: وهذا ذكرني أيضاً وأعانني على ذكره عز وجل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. لأن أعظم شيء في هذه اللحظة هو ذكره عز وجل، وابن تيمية سُئِلَ سؤالاً ذكره تلميذه ابن القيم في (روضة المحبين) قال لابن تيمية: يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. كيف يأمرهم وقت القتال وهو وقت خوف وقلق واضطراب وهم مشغولون ويأمرهم

بذكره ﷻ؟! قال ابن تيمية: لأن المحبين كانوا يتشرفون بذكر محبوبهم وقت الأزمات وفي مصاولة الأعداء، أما سمعت عنترة يقول لمحبوبته:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ ... مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأَنَّهَا ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

فالله ﷻ أمرهم في وقت القتال ومصاولة الأعداء وفي سكرات الموت بذكره ﷻ، فهذا قصده، ولذلك في تلك اللحظة تجد الإنسان إذا تجرد وقرب من لقاء الله ﷻ تجد عنده من الصدق، لا أن يرائي ولا أن يطلب مدح الناس وسمعة الناس؛ لأنه علم أن الحياة منصرمة، وأن الحق قد وصل، وأن الموت قد حصل، ولذلك أحدهم كان يسبح، ثم نظر فقال:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانَاً فَنَنْتَكِسُ

ذكر ابن رجب الحنبلي أن أحد الصالحين كان لا يكف لسانه من ذكر الله، لأنه ﷺ يقول لرجل لما سأله عن عمل يتشبث به قال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبَاً مِنْ ذِكْرِ اللهِ**». وعند أحمد في المسند «**اذْكُرِ اللهَ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ مَجْنُونٌ**». هذا فيه كلام في السند، لكن الشاهد أن يُتمتم كالموسوس، فقال له أحدهم: أنت مريض؟! قال:

وَمِنْ هِيَامِي بِكُمْ قَالُوا: بِهِ مَرَضٌ ... فَقُلْتُ: لا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

وهذا مثلما ذُكِرَ في سيرة موسى عليه السلام لأنه لما أرسله ربه هو وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون قال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢. أي: لا تتعبا في الذِّكْرِ، وواصلا التسبيح. لأنه يقول تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٤]. فقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾. فدخل موسى يُتمتم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال له أحد الحراس: أمجنون أنت؟

عنـدي دواء المجانين. وهذا ممـا يُذكر في سيرته عليه السلام قال: جئت أعالج مجانين في القصـر لديكم. الطاغية الأكبر الذي طغـى وبغى وأخذه عز وجل، فهذه لحظة الصدق مع الله عز وجل التي قالها الأولياء وصدقوا فيها.

حتـى إنـي رأيت منهـم مثل معاذ رضي الله عنه فـي ساعة الصفر وفـي ساعة الموت يقول: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِغَرْسِ الأَشْجَارِ وَلا لِجَرْيِ الأَنْهَارِ، وَلا لِعِمَارَةِ الدُّورِ والْقُصُورِ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الْكَلامِ كَمَا يُنْتَقَى طِيبُ التَّمْرِ، وَأَنْ أَصُومَ يَوْمَاً شَدِيدَ الْحَرِّ فِي سَبِيلِكَ، وَأَنْ أَقُومَ الثُّلُثَ الأَخِيرَ مِنَ اللَّيْلِ**». أو كما قال رضي الله عنه.

ويقول حذيفة رضي الله عنه: «مَرْحَبَاً بِالْمَوْتِ حَبِيبَ مَنْ جَعَلَه آفَاقَهُ، لا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ». وقال بعض الصالحين في ساعة الصفر في ساعة الموت: اللهم إني كنت أخافك، وأما الآن فأرجوك. فهذه هي اللحظة الحاسمة.

وشوقي يقول في الساعة هذه:

قَـدْ يَضِـيقُ الْـعُـمْـرُ إِلاَّ سَـاعَـةً ... وَتَـضِـيـقُ الأَرْضُـــ إِلاَّ مَـوْضِـعَـا

هذا قاله في جبل التوباد الذي يقول فيه المجنون:

أَجْـهَـشْـتُ لِـلـتُّـوبَـادِ حِـيـنَ رَأَيْـتُـهُ ... وَكَـبَّـرْتُ لِـلـرَّحْـمَـنِ حِـيـنَ رَآنِـي

فيقول شوقي:

جَـبَـلَ الـتُّـوبَـادِ حَـيَّـاكَ الْـحَـيَـا ... وَسَـقَـى اللهُ صِـبَـانـا وَرَعَـى

فِـيكَ نَـاغَـيْـنَـا الْـهَـوَى فِـي مَـهْـدِه ... وَرَضَـعْـنَـاهُ فَـكُـنْـتَ الْـمُـرْضِـعَـا

هَـذِهِ الـرَّبْـوَةُ كَـانَـتْ مَـلْـعَـباً ... لِـشَـبَـابَـيْـنَـا وَكَـانَـتْ مَـرْتَـعَـا

كَـمْ بَـنَـيْـنَـا فِـي حَـصَـاهُ أَرْبُـعـاً ... فَـانْـثَـنَـيْـنَـا وَمَـحَـونـا أَلأَرْبُـعَـا

وَكَتَبْنَا فِي نَقَى الرَّمْلِ فَلْم تَحْفَظِ الرِّيحُ ولا الرَّمْلُ وَعَى
قَدْ يَضِيقُ الْعُمْرُ إِلاَّ سَاعَةً وتَضِيقُ الأَرْضُ إِلاَّ مَوضِعَا

فهذه ساعة الصفر ينبغي أن تُعِدوا لها بلا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، قالوا لأحد الصالحين: ماذا أعددت لها؟. قال: أعددت لها كلمة التوحيد التي لو وُزِنَت بالسماوات والأرض لمالت بهن وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، ساعة الصفر سوف نمر، ونحن في مقياس ينزل بنا درجة درجة، حتى نصل إلى تلك الدرجة الحاسمة التي ينتهي بها العمر، ونبدأ حياة أخرى.



obeikandl.com

الصديق

الصديق مؤنس ومُؤيس؛ لأنه يخفف عنك الأحزان ويعينك على حمل الأثقال، ويساعدك على طاعة الله عزوجل ويدلك على الخير وينصحك ويسددك ويذب عن عرضك، هذا إذا كان صادقاً، أما إذا كانت صداقة مجاملة في الظاهر فهذا ضرره أعظم. وإنما يعنينا الصديق الصادق الصدوق الذي يكون معك في الضراء والسراء، حتى إن الله الواحد الأحد يقول: ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وعلي رضي الله عنه يقول: «**تَزَوَّدُوا مِنَ الإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عِزٌّ**

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي الدُّنْيَا عَرَفْنَا ذَلِكَ فَكَيْفَ فِي الآخِرَةِ؟ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. فدل على أن الأخ الخليل الصديق المتقي ينفعك حتى في الآخرة، فقد يشفع الصديق الصالح الصادق لصديقه إذا كانوا على أصل من التوحيد والإيمان، وكانوا يحذرون من الصديق المخادع المجامل الذي صداقته للمنفعة المنقطعة الدنيوية. يقول أحد الشعراء:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ... واحـذرْ صَـدِيقَـك أَلْـفَ مَـرَّهْ

فَـلَـرُبَّـمَـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـقُ ... فَـكَـانَ أَوْلَـــى بِـالْـمَـضَـرَّهْ

فهـم يجملون الحياة، فقـد كان بعض الأخيـار إذا رأى إخوانـه قال: مرحباً بالإخوان الذين يُذْهِبُون الأحزان. حتى يقول إيليا أبو ماضي:

أَحْبَابَنَا، مَا أَجْمَلَ الدُّنْيَا بِكُمْ ... لا تَـقْـبُـحُ الـدُّنْـيَـا وَفِـيـهَـا أَنْـتُـمُ

هـذا إذا كانـوا مُسْعِدِينَ وكان الواحـد منهم موافقاً وكان سهـل الخلق، كما يقول ابن المبارك:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدهرَ فَاصْحَبْ مَاجِداً ... ذا عَـفَـافٍ وَحَـيَـاءٍ وَكَـرَمْ

قَـوْلُـهُ لِـلشَّـيْءِ: لا. إِنْ قُـلْـتَ: لا. ... وَإِذَا قُـلْـتَ: نَـعَـمْ. قَـالَ: نَـعَـمْ.

فهذه مدرسة الإخاء؛ أن تكون كثير الموافقة إلا فيما حرَّم الله، سهلاً ميسراً تقبـل الـرأي الآخر تحترم وجهات النظر، تراعي صاحبـك، فلا تكون أنانياً تحب ذاتك أكثر من إخوانك، حتى يقول ابن المبارك:

إِذَا صَـاحَـبْـتَ قَـوْمـاً أَهْـلَ وِدٍّ ... فَكُنْ لَهُمُ كَذي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ

وَلا تَـأْخُـذْ بِـزَلَّـةِ كُـلِّ قَـوْمٍ ... فَتَبْقَى فِي الـزَّمَـانِ بِلا رَفِيقِ

ومـن اللطائف أن بعضهم على حديـث: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أن أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأَنْ أُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي**». حتى يقول أبو تمام:

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمُ وَتُذْنِبُونَ فَنَأْتِيكُمْ وَنَعْتَذِرُ

فدائمـاً البـادئ بالجميل وساتر عثـرات الإخوان والذاب عـن أعراضهم هو الموفق في الدنيا والأخرى.

وأبو تمام أيضاً يصف الإخاء فيقول:

إِنْ كِيدَ بَيْنَ إِخَائِنَا فَإِنَّنَا نَغْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدِ

يقـول: إذا تعرضنـا إخاؤنا وصداقتنا لهـزات، فإنني سوف أثبـت، لن أتأثر بكلمات تُنقل عن صديقي أو حسد حساد أو كلام مبغضين.

أَوْ يَخْتَلِفْ مَاءُ الْغَمَامِ فَمَاؤنا عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا دِينٌ أَقَمْنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ

هـو يقـول: أدب أقمنـاه مقـام الوالد. فبيننا مـن جسور المحبـة ومن نقاط الاتفاق ما الله به عليم.

الشافعـي -رحمـه الله- اختلف مع صديق لـه في مسألة، قـال: ألا يمكن أن نتفـق، أو أن نتحاب أنا وأنت وإن اختلفنا فـي مسألة أو مسألتين أو ثلاث أو أكثر؟ بلى لأننا نتفق في أمور كثيرة مما نعمل. حتى إن أحدهم تذمر من أخيه؛ لأن بعض الإخوة والأصدقاء إذا كان له عندك حاجة أحبك وتقرب منك وزارك، وإذا انتهى من حاجته طار فلم تره، يقول:

أَأَنْتَ أَخِي إِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ حَاجَةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَيْقَنْتُ أَلا أَخَا لِيَا

فإني غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

يقول في القصيدة ومن أجمل الأبيات:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيا

والناس يصدرون عن عواطف وعن أهواء وعن مواقف مستعجلة ومرتجلة لا عن حكمة، ولذلك فإن الذي مدحه باقٍ وذمه باقٍ هو الله عزوجل إذا أثنى أو أحب عزوجل، أما الناس فهم على حسب المصالح، حتى إن أحدهم يقول:

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ ... وطُولُ اخْتِبارِي صَاحِباً بَعْدَ صَاحِبِ

فَلَمْ تُرِنِي الأَيَّامُ خِلاً تُسِرُّنِي ... مَبَادِيْهِ إلاَّ سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ

وَلا قُلْتُ: أَرْجُوهُ لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ

فهذا بعد تجربة لأن أكثر الناس لا يذكرون، أكثرهم لا يفون بعهد الصداقة وميثاق الشرف والأخوة، وأكثرهم وقت الضوائق لا يأتون ووقت الأزمات ووقت المشكلات إنما هم وقت الرخاء ووقت المصالح والنفع، يثبتونه أو يريدونه حتى يحققوه، ثم يذهبون ولا تجد أحداً.

وفي الصداقة والإخوة الأوفياء يأتون بأبيات طفيل الغنوي التي استشهد بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة لما اجتمع الأنصار يظنون أن الخلافة فيهم، فبَيَّن لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الحق في ذلك وأنصتوا له، ثم شكر الأنصار على مواقفهم الرائعة المجيدة بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبنصرة الدين، قال: «وَاللهِ - يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ - مَا مَثَلُنَا وَمَثَلَكُمْ إلاَّ كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِي:

جَزى اللهُ عَنّا جَعفَراً حينَ أَزلَقَت ... بِنا نَعلُنا في الواطِئينَ فَزَلَّتِ

هُمُ خَالَطُونَا فِي النُّفُوسِ وَأَلجَؤُوا ... إِلَى غُرُفَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

أَبَوا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَقالَت: هَلُمّوا الدَّارَ حَتّى تَبَيَّنوا ... وَتَنجَلِيَ العَمْياءُ عَمّا تَجَلَّتِ

وَمِن بَعدِما كُنّا لِسَلمَى وَأَهلِها قَطِيناً وَمَلَّتْنا البِلادُ وَمُلَّتِ
سَنَجزي بِإِحسانِ الأَيادِي الَّتي مَضَتْ لَها عِنْدَنا ما كَبَّرَت وَأَهَلَّتِ

فالصديق دائماً تجده يواسي، يريد أن يقع التعب والعتب عليه لا عليك. تجده في خدمتك. حتى إن من أعظم الخدمة خدْمَة الصديق وخدمة الضيف، والرجل لا يأنف من ذلك حتى إن المقنع الكندي يقول:

وَإِنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً وَمَا شِيمَةٌ لِي غيرَها تُشْبِهُ الْعَبْدَا

فمن أحسن صفات المؤمن أنه يباشر الضيف ويرحب ويقدم الطعام بنفسه، وهذا أعلى ذوقاً وأعلى ويدل على كرم المعدن وطيب الأصل وعلى ارتفاع الهمة أن تخدم ضيفك، وهذا من الشرف العظيم الذي كانوا يتبارون فيه.

فهذا أمية بن أبي الصلت الثقفي من الطائف نزل على أصدقائه في مكة، فأكرموه وواسوه، جاء الطائف عام قحط وجدب وسنة مجحفة، انقطعت الأمطار فنزل عند أهل مكة فرحبوا به وحيوه وأنزلوه عند آل جدعان؛ لأن خاله عبد الله ابن جدعان الذي يقول هو فيه:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَبَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَبَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمَاً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

يقول: نُعَرِّض لك بالمسألة فيأتي العون مباشرة ويأتي الإكرام دون تأخير، فهو يمدح أصدقاءه بعدما واسوه، فقال:

لا يَنْكُتُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ لِتَطَلُّبِ الأَعْذَارِ بِالْعِيدَانِ

يقول: إذا أتيت تطلب منهم حاجة، قالوا سريعاً: أبشر، تم. لكن البخيل ينكت الأرض بالعيدان يذهب يُخَطِّط ويرسم له خرائط من أجل الأعذار والمخارج

فيقـول: تعال غداً. الكريـم يُنجز والبخيل يعد، مهما تأته لا تجـده، فيقول أبناؤه: خرج؛ مريض. أي: مرض من فاجعة الخبر. فيقول:

لا يَنْكُتُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ ... لِتَطَلُّبِ الأَعْذَارِ بِالْعِيدَانِ

بَلْ يُشْرِقُونَ وُجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا ... عِنْدَ السُّؤَالِ أَحْسَنَ الأَلْوَانِ

وَإِذَا الْغَرِيبُ أَقَامَ وَسْطَ رِحَالِهِمْ ... رَدَّوْهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَامِ

يُكرمونه إلى درجة أنهم يعطونه جواري، ويعطونه خيولاً.

وَإِذَا دَعَا الدَّاعِي لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ ... سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ

ووقت الشجاعة إذا دعاهم داعي الحرب يخرجون مع الشمس ويسدون شعاع الشمس بخيولهم، فهذا من الصداقة.

ومن الصداقة والصديق أن أحد المحدِّثين كان يُحَدِّث في خراسان في مجلس حديـث، وقد كان للمحدثين مجالس، فمنهم مـن يبلغ طلابهم عشرة آلاف طالب علـم، ومنهم أكثر ومنهم أقل، فنظر ابن الأعرابي وهو محدث لغوي كبير صاحب أدب وبيـان، فـإذا صديقان في مجلس الحديث يتحدثان، قـال لأحدهما: من أين أنت؟ قال: من الأندلس. وقال للآخر: وأنت؟ قال: من خراسان. قال: سبحان الله! ألَّـف بيـن قلوبكم الله، أنت من الأندلـس وأنت من خراسان، اكتبـوا اكتبُوا. قطع الدرس واستشهد بأبيات؛ لأنه أديب وسريع بديهة وحضره الأدب، فقال:

نَزَلْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ ... لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ هَجَانِ

وَقَالَتْ وَأَلْقَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا: ... بِأَيَّةِ قَوْمٍ أَمَّنِي الرَّجُلانِ

فَقُلْتُ لَهَا: أَمَّا تَمِيمٌ فأُسْرَتِي ... فُدِيت وَأَمَّا صَاحِبِي فَيَمَانِي

رَفِيقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدِّينُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّتَّى فَيَجْتَمِعَانِ

وهذا من أحسن الأبيات، فيقول: الإسلام ألف بيننا وجمعنا. ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

كان ﷺ محمد القرشي الهاشمي يجلس مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، كلهم تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. فابن الأعرابي استشهد بهذه الأبيات.

وفي مجالس الحديث التي كان يحضرها كثير من طلاب العلم، حتى يقول أحد المحدثين، وكان شاعراً:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشَتْنِي أَلْفُ مَحْبَرَةٍ يَكْتُبْنَ: حَدَّثَنِي طَوْرَاً وَأَخْبَرَنِي

يقول: إذا اجتمعت علي ألف محبرة وألف طالب علم يحملون المحابر، وأصبحت قريبة مني واجتمعوا مرة يكتبون: حدثني فلان وأخبرني.

نَادَيْتُ فِي النَّاسِ وَالأَقْلامُ حَافِلَةٌ تِلْكَ الْمَكَارِمُ لا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ

هذا نص بيت لأمية بن أبي الصلت يقول:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لا قَعْبَان مِنْ لَبَنِ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

فالصداقة تبنى على المصارحة وعلى المحبة وهي على المشاكلة، يقول ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». ولذلك إذا تحابَّ إنسانان فإنهما من قرب روح هذا من هذا، وبعضهم وإن كان صادقاً، لكنك لا ترتاح له، فابحث لك عن صديق ورفيق ترتاح له، طبائعه تقارب طبائعك؛ إذ يمكن أن تكون فيك دعابة وخفة دم وتحب النكتة وطيب القلب فيوافقك في هذه الصفات، لكن يأتيك رجل زميت ومتشدد في أخلاقه قاسٍ لا يصلح لك، ولكن يصلح مع رجل آخر مثله، وفي الصالحين من هو صارم حازم في أموره، وهذا ما يُعطل المصالحة معه من جانب.

الإسلام يتسع للجميع، بشرط أن يكون على المنهج الصحيح منهج الرسول ﷺ، فيتسع الإسلام للرجل القريب السهل المزوج خفيف الظل، ويتسع الإسلام للتاجر الكبير الذي له أموال طائلة يؤدي حق الله، ويتسع للفقير الذي لا ينام إلا على الرصيف، ويتسع الإسلام للعالم الكبير الرباني وللمتعلم أو العامي، وللمجاهد وللزاهد وللعابد وللأمير وللوزير وللمنفق وللشاب، وللمرأة وللفيلسوف وللكاتب وللصحفي، هذا دين عظيم دين عالمي يتسع للجميع ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. يقول: أنتم مواهب واستعدادات لكن ابنوا، كلكم تؤسسون في حضارة الإسلام وسوف تصلون ما دام قصدكم الحق، ولكن قصدي من ذلك تذمُّر وتفلت الأصدقاء واختلاف بعض الأصحاب. ولا يجمع الناسَ شيءٌ كالإيمان بالله عزوجل والعمل بكتابه وبسنة نبيه ﷺ حتى يكونوا على كلمة سواء.



العلم

العِلـم أشـرف مطلوب، وأجـل مقصود، وبه يُعـرف الله عزّ وجلّ، والعلـم انشراح للصـدر وراحة للفكـر وعلو للذكر واستقامة للأمر، بالعلم يجلس الصعلوك علـى أسرّة الملـوك، وبالعلم يستشهد العلمـاء علـى وحدانيتـه ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

obeikandl.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١].

أول كلمة نزلت من السماء من الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لشرف العلم وشرف المعرفة وشرف الفائدة، ولم يُطلب من الرسول ﷺ أن يطلب التزود إلا من العلم ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

يقول أبو إسحاق الألبيري في قصيدته الرائعة التي أولها:

تَـفُـتُّ فُـــؤَادَكَ الأَيَّـــامُ فَـتًّـا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

يقول فيها - يمدح العلم ويشجع ابنه على طلب العلم وأنه مثل السيف-:

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَضَارِبَ مَنْ أَرَدْتَا

وَكَنْزٌ لا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحِمْلُ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

لأن العلم معك في السوق وفي البيت والمكتب والطريق والسيارة والطائرة، كما يقول الشافعي:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمَّمْتُ يَتْبَعُنِي ... صَدْرِي وِعَاءٌ لَهُ لا بَطْنَ صُنْدُوقِ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي ... أَوْ كُنْتُ بِالسُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ بِالسُّوقِ

فيقول: العلم كنز لا تخالف عليه لصاً، فاللص يسرق المال وإذا سُرِق المال انتهى. فانظر البورصة الآن، التاجر يمسي في ليلة صاحب ملايين ويصبح فإذا هو فقير، لكن العالم من لا يسرق علمه، فعلمه في صدره وفي فكره.

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

كلمـا علمت وكلما خطبت ودرسـت زادك الله من الفتوحات وفتح لك الكنوز، وكلما أمسكت نقص، فالعالم إذا بخل بالعلم أغلق الله عليه منافذ المعرفة.

فَـبَـادِرْهُ وَخُـذْ بِـالْـجِـدِّ فِـيـهِ فَـإِنْ أَعْـطَـاكَـهُ اللهُ انْـتَـفَـعْـتَـا

أي: بادر العلم. وخذ وتزود.

وَإِنْ أُوتِـيـتَ فِـيـهِ طَـوِيـلَ بَـاعٍ وَقَـالَ النَّـاسُ: إِنَّـكَ قَـدْ رَؤُسْـتَـا

أي: صرت عالماً وعندك متون وحفظ، أصبحت وجيهاً في الناس مصدَّراً.

فَـلا تَـأْمَـنْ سُـؤَالَ الله عَـنْـهُـمْ بِـتَـوْبِـيخٍ: عَـلِـمْـتَ فَـهَـلْ عَـمِـلْـتَـا؟

إِذَا لَـمْ يَـفِـدْكَ الـتَّـعْـلِـيـمُ خَـيْـراً فَـلَـيْـتَـكَ ثُـمَّ لَـيْـتَـكَ مَـا عَـلِـمْـتَـا

إن لـم يكـن العلم قد دلَّك على تقوى الله ودمعة في السحر وسجدة، والصف الأولى ولم يجعلك حمامة مسجد وعندك مصحف تتلوه، وصاحب أخلاق مع الناس متواضعاً وتكتم الغيظ فتكـون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وتسامح من أخطأ في حقك، بارّاً بوالديك وصولاً لأرحامك محباً للخير، فلا حيَّا الله هذه المعرفة، إذا لم يزدك العلم خيراً.

وَإِنْ أَلْـقَـاكَ فَـهْـمُـكَ فِـي مَـغَـاوٍ فَـلَـيْـتَـكَ ثُـمَّ لَـيْـتَـكَ مَـا فَـهِـمْـتَـا

هذه قصيدته في مدح العلم وأهل العلم، وفي وصيته لابنه في تقوى الله عزّ وجلّ.

ومـن أجلّ ما أوصى به العلمـاء قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني، التي هي من أمتع وأجمل وأرق الشعر، بل هي في درجات شعر المتنبي وأبي تمام، وكان هو قاضي أصبهان وكان وجيهاً وشاعراً وأديباً، وله أبيات من ضمنها:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ. وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

كان ينقبض من مجالس العامة والناس والقيل والقال.

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسَاً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَاً فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَمْ أَبْتَدِرْ فِي مُهْجَةِ الْعِلْمِ مَطْلَبِي ... لَأَخْدِمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لُأَخْدَمَا

أي: إذا لم يدلني على تقوى الله والمحافظة على الصلوات وبر الوالدين وحسن الخلق فليتنا ما ضيعنا الشباب في امتحانات وفي الحفظ وفي المذاكرة وفي التعب وفي السهر، ثم ما النتيجة؟! النتيجة يأخذ الإنسان بالعلم المال ويأكل به.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وهي اثنان وعشرون بيتاً من أجمل ما قيل في هذا الباب.

وكذلك قصيدة ابن الوردي الذي يقول:

اعْتَزِلْ ذِكْرَ الأَغَانِي وَالْغَزَلْ ... وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَنْ هَزَلْ

ثم يقول:

فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَى ... وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلاحُ الْعَمَلْ
لا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبْتْ أَرْبَابُهُ ... كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

أي: لا تقل: العلم ذهب أصحابه ومات أصحابه. فمن أوصل سفيان الثوري سوف يوصلك، والذي هدى الشافعي ووفقه يوفقك، والذي فتح على أحمد بن حنبل يفتح عليك، الله حي لا يموت وخزائنه ملأى، ونواله موجود، لكن اطلب واسأل واصدق له في العبودية ﷻ.

والعلم يميز البهيمة التي تتدرب وتتعلم عن الأخرى غيرها، حتى إنك تجد الكلب المعلم صيده حلال وأما الكلب غير المعلم فصيده حرام ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ

﴿أُحِلَّ لَهُمُ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. يقول حافظ الحكمي:

وَمَيَّزَ اللهُ حَتَّى فِي الْبَهَائِمِ مَا ... مِنْهَا يُعَلَّمُ عَنْ بَاءٍ وَمُغْتَشِمِ

فالجاهل من الكلاب لا يحل صيده ولا يؤكل ما صاده، وأما المدرَّب الذي علمناه فإذا صاد نأكل صيده! فانظر كيف ميز الله ﷻ بين البهائم.

فالعلماء سادة ومجالسهم إفادة ومصاحبتهم زيادة والوفود إليهم أعظم وفادة، فهم للخير قادة وللدين ذادة، يذودون عنه من ناواه إذا صدقوا في التعلم والعمل وحمل الميثاق وهو مراقبة الباري ﷻ، والطريق العظيم للتعلم على المشايخ والعلماء، لكن القراءة القراءة.

يقول عبد الرحمن بدوي: المعرفة ثلاثة أسس: القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. لأن المسألة ثلاثة وثلاثة في ثلاثة تسعة، فبدوي يقول: العلم والمعرفة القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. وإسحاق نيوتن يقول: النجاح: العمل، ثم العمل، ثم العمل. ويقول نابليون: كسب المعركة يحصل بالمال، ثم المال، ثم المال. فهذه تسعة، وهي من الفوائد التي جرت بين الناس، فالقراءة هي الطريق الواسع للمعرفة بأن تكون طالب علم، ولذلك انظر كلمة: اقرأ.

اقْرَأْ كِتَابَكَ هَذَا الْعِلْمَ تَسْمَعُهُ ... مَا بَيْنَ طَلْعَتِهِ مِنْ سَابِقِ الْأُمَمِ

مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلاَّ نُطْفَةٌ غَرِقَتْ ... فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرْسَاءُ فِي الْقِدَمِ

أَكَادُ أَقْتَلِعُ الآهَاتِ مِنْ فَرَطِي ... إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِي

فالعلم منه القراءة والاستماع والتفقه وطلب العلم على المشايخ، وكلها تؤدي إلى ذلك.

يقول أحد عشاق الكتاب: إن القراءة والذهانة والفهامة والدراسة أصل التعبد والتسهل والتزهـد والرياسة والسياسة. الدنيا والدين أساسها القراءة، حتى إنك لا تجد أحداً بارزاً في مكان ما إلا لأنه تعلم شيئاً من المعرفة وعرف، يعرف كيف يتكلم ويحاور ويأخذ ويعطي ويدير الجلسة، يؤثر في الناس بأفكاره يبدع بألفاظه، ينظـم أبياتاً راقية يكتب مقالاً خلاَّقاً، أما الجاهل الذي لا يقرأ يومه ولا نهاره فهو كتلة من اللحم؛ يومه مثل أمسه وأمسه مثل يومه، ويأتي غده مثل اليوم، فالمطلوب أن نتعلق بالعلم ونزداد منه معرفة، حتى يقول ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقَاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمَاً سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقَاً إِلَى الْجَنَّةِ**».

وأوصـى ﷺ بطلـب العلم وحثَّ عليـه وبيّن أن أهل العلم هـم أفضل الناس، وفضل العلماء كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن معلم الناس الخير الـذي يتعلم ويعلم الناس تستغفر له حتـى النملة في بيتها وحتى السمك في الماء وحتى الطير في الهواء.

يقـول ابن عباس «لما تعلـم العلم: «**ذَلَلْتُ طَالِبَـاً فَعَزَزْتُ مَطْلُوبَـاً**». أي: إنني لمـا كنت طالباً كنـت أذل. حتى إنه كان يذهب إلى الشيخ وينتظر عند الباب حتى يقوم الشيخ، ويقول: «**وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ آتِي بُيُوتَ الأَنْصَارِ لأَطْلُبَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فِي الْقَيْلُولَةِ، فَأَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ نَائِمَاً فَلا تُوقِظُهُ الْجَارِيَةُ فَأَبْقَى عِنْدَ الْبَابِ، وَاللهِ إِنَّ الرِّيحَ بِسُمُومِهَا تَلْفَحُ وَجْهِي بِالْغُبَارِ وَإِنِّي أَنْتَظِرُ حَتَّى يَقُومَ فَأَطْلُبُ الْعِلْمَ مِنْهُ**». فصـار ابن عباس «عالم الدنيا، فصار المرجـع؛ لأنه لما تعلم وصار بحراً صـار يفد إليه الناس يضربون إليه أكباد الإبل من العراق واليمن ومصر والشام، ومـن كل أطـراف الجزيرة، ويقـول: كان له مجلس حديث في الحـرم، فإذا صلى الفجر ذكر الله ﷻ حتى ترتفع الشمس، ثم قال: «**عَلَيَّ بِأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّفْسِيرِ**». فيفتيهـم ويعلمهم ويدرسهم، ثـم يُقَدَّم الطعام من قبله، وهـو يُدَرِّس في الحرم، فهو قـد جمع بين الإنفاق من العلم والإنفاق مـن الطعام ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ثم قال: «**عَلَيَّ بِأَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ**». ثم بأهل الفتيا ثم أهل السنة والحديث، ثم إذا اقترب الظهر قام، وهذا لا يكون إلا من مثل ابن عباس «لأنه طلب وحرص، وتلك هي الليلة المباركة في حياة ابن عباس».

يَا لَيْلَةَ الْجَزْلِ هَلاّ عُدْتِ ثَانِيَةً ... سَقَى زَمَانَكِ هَطَّالٌ مِنَ الدِّيَمِ

لأنه في ليلة رسول الله عند ميمونة خالة ابن عباس نام عند رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ قام ابن عباس «إلى القربة فقرَّب ماء له؛ ليتوضأ ﷺ قال: «**مَنْ قَرَّبَ لِي هَذَا اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**». فانطلق هذا الفتح وهذا الفهم من تلك الليلة، عمره ثماني سنوات ويعلم أن رسول ﷺ إذا خرج يحتاج الماء فقرَّب له الماء، فرسول ﷺ لم يدعُ له بمال ولا بذريَّة ولا بدور ولا بقصور ولا بخزائن، بل قال: «**اللَّهُمَّ، فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**». فالفقه في الدين علم السنن والفهم والتأويل تفسير كتاب الله ﷻ.

ولما قام في الحرم رجل حَادٌّ وَغَضُوبٌ يتكلم على ابن عباس، وكان ابن عباس حليماً عالماً بحراً ذكياً مَرِسَاً داهية، آتاه الله صباحة ورجاحة وملاحة، وهو جالس بين الناس كأنه القمر ليلة أربعة عشر، فرجل مستعجل يريد أن يسأل ابن عباس، فبدأ ينتظره قليلاً فغضب ذلك الرجل فسب ابن عباس، فقال ابن عباس: «**أَتَسُبَّنِي وَفِيَّ ثَلاثُ خِصَالٍ؟!**». قال الناس: ما هي؟. قال: «**وَاللهِ مَا سَمِعْتُ بِقَطْرٍ بِأَرْضٍ إِلاَّ حَمِدْتُ اللهَ وَلَيْسَ لِي فِيهَا نَاقَةٌ وَلا جَمَلٌ، وَلا سَمِعْتُ قَاضِيَاً يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ إِلاَّ دَعَوْتُ لَهُ وَلَيْسَ لِي عِنْدَهُ قَضِيَّةٌ، وَلا فَهِمْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلاَّ وَدِدْتُ لو يَفْهَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَا أَفْهَمُ**». وذلك لعلمه ولحلمه رضي الله عنه ورجاحته لنصحه فأعطاه الله ﷻ، فينبغي على من يتعلم آية أو حكمة أو حديثًا أو قصة أن يفعِّلها

فـي حياتـه، وإلا فما فائدة أن يسهر الإنسان مع المجلدات دون العمل بها؟! ويقول الله عزّ وجلّ عن أعدائه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥]. وقال عن العَالِم الذي ضل وانحرف عن الدين في عهد موسى عليه السلام ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فهذا مثـل الذي لا يستفيد من الحكمة وتضيع عليه المعرفة ولا يظهر عليه البركة بركة العلـم في الصلاح وفي التقـوى وفي العمل وفي إسداء الخيـر للناس، وإنما جئت بهذا لذكر العلم.

والمتنبي في قصيدة يقول في كافور، وهي من أجمل قصائده التي قالها:

وَلِلسِّرِّ منه مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ ... نَدِيمٌ وَلا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ

إلى أن يقول:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهُ وَخِطَابُ

يقـول: أعز مكان فـي الدنيا وأشرف مكان أن تكون علـى ظهر الفرس؛ لأنك إذا كنـت هناك كنـتَ صاحب عزة ودافعت عن مجدك وعـن دينك وعن رسالتك فهابك الناس.

وخيـر جليس في الزمان كتاب؛ لأن الكتاب لا يؤذيك ولا يُمِلُّك ولا يُسئِمُك ولا يغتابـك ولا يذلـك ولا ينم عنك ولا يثقـل عليك، إن قرَّبْته دنـا وإن أبعدته دنا وإن كتمته سراً كتم، وإن أردت أن يضحكك أضحكك وإن أردت أن يبكيك أبكاك، وإن رجعـت له بعد سنـة ما عتب عليك ولا عاتبـك: لِمَ تركتني ولِـمَ هَجَرْتَنِي؟ خفيف

المحمل تجعله في جيبك وتحت إبطك وتأخذه معك في السيارة، ويجمع لك العلوم والدهور والقرون والأزمان ما بين آية محكمة وحديث صحيح وقصة وخبر طريف، وبين نادرة وبين نكتة وبين موعظة، وينقل لك شجون العالم وأخبار الدنيا وأفكار المعمورة، فيجمع لك أفكار الغرب والشرق والعرب والعجم والبربر، يجمع لك التاريخ والأدب والفقه والتفسير والجغرافيا، ويُحدِّثك نظماً ونثراً، وإذا مللت وقف وسكت وإذا أطبقته هدأ مكانه، أما الجلساء فأحدهم- إلا الصالحين- يلمز، والآخر يغتاب وإذا قطعت عليه غضب وإذا سكت شاركته في الإثم، وبعضهم ثقيل يزورك الساعة الثانية عشرة ليلاً ويبقى عندك ويأكل طعامك في الله ويحبك في الله ويعانقك في الله ويشرب في الله، ويتصل بك في اليوم عشرين مرة، ويستلف مالك في الله ولا يردها في الله، وهذا كله في بعض الصداقات، فهذا الثقل كله منفي عن الكتاب، ولذلك أجمع العقلاء في العالم على أن أحسن من تجلس معه الكتاب.

وكان ابن المبارك إذا جمع الكتب حوله قال: أنا بين أصحاب رسول الله ﷺ - يقصد الأحاديث - أنتم تغتابون الناس أما هؤلاء فلا يغتابون الناس.

والأصمعي قيل له: لِمَ نراك وحدك؟. قال: أنا لست وحدي، أنا معي أصدقاء بررة وجُلاسٌ خيرة. فينظرون فإذا الكتب بين يديه. وكان بعضهم يقول: إن الإمام أحمد كان إذا نام كانت الكتب عند رأسه عشرة أو عشرين كتاباً، وقال له رجل: أريد خراسان. قال: خذ الكتب، لا تستوحش.



obeikandl.com

العيون في الشعر

مـن آخر مـا قرأت بيتيـن للشاعـر الإيراني العالمي المشهور السعد الشيرازي، يقول فيهما:

بَكَتْ عَيْنِي غَدَاةَ الْبَيْنِ دَمْعاً
وَأُخْرَى بِالْبُكَا بَخِلَتْ عَلَيْنَا

فَعَاقَبْتُ الَّتِي بِالدَّمْعِ ضَنَّتْ
بِأَنْ أَغْمَضْتُهَا يَوْمَ الْتَقَيْنَا

معنـى البيتيـن يقـول: إن عيني لمـا فارقت أحبابـي بكت، أمـا الثانية فما بكـت ولا شاركتنا، فلما التقينـا بعد مدة فتحت هذه؛ لترى الأحباب، أما هذه فأغمضتها؛ عقاباً لها.

وهذه تُسمى لغة العيون، ومن أحسن من تفنن فيها الشعراء عند العرب، حتى إن ابـن كثير ذكـر ابن الخياط في ذلك، وهو شاعر من أعظـم الشعراء له ديوان كبير، قال بعضهم: أحسن ما في ديوانه قوله:

لـها عَـيْـنٌ أَصَـابَـتْ كُـلَّ عَـيْـنٍ وَعَـيْـنٌ قَـدْ أَصَـابَـتْـهَـا الْـعُـيُـونُ

فـإذا عُلِمَ هذا، فقد قال العـرب في العين كثيراً، حتـى إن الصُّمَّةَ القشيري قال:

بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

لأنه يقول:

أَلَيْسَتْ عَشِيَّاتِ الْهَوَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيكَ وَلَكِنْ خَلَ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

إلى أن يقول:

بِنَفْسِيَ تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

يقول: لما بكت عيني اليمنى وقلت: خافي الله لا تحزني ولا تقلقي ولا تجزعي، وانظـري إلى الشمالِ كيف صبـرت واحتسبت، وبعد قليل فإذا الشمال تبكي معها. فلا سكتت هذه ولا صبرت تلك.

وعلى هـذه القافية ذكر الترمذي عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنهـا أتت إلى الحجون تزور قبر أخيها عبد الله، فلما وقفت بكت وقالت: «**وَاللهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكَ - يَا عَبْدَ اللهِ - إِلاَّ كَمَا قَالَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ** - يرثي أخاه مالكاً -:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَي جَذِيمَةَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لن يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيَ وَمَالِكاً لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وفي بيت آخر لا يُلحق بالقصيدة يقول بعضهم:

فَلَيْتَ الْمَنَايَا كُنَّ خَلَّفْنَ مَالِكَاً فَعِشْنَا جَمِيعَاً أَوْ ذَهَبْنَ بِنَا مَعَا

فدل على اهتمام العرب بالبكاء وبالعيون، حتى إني رأيت الأعور السُّلَمِي وله ابن ضلّ منه، فبكى عليه كثيراً، فكان يقول:

بَكَيْتُ بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ[1] وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ

عَذِيرُكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةَ بِالْبُكَا فَمَالَكِ يا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلانِ؟

يقول: أعذرك يا صحيحة، والبكا، فما بك يا عوراء؟

فكانوا يرسلون دموعهم وقت الفراق ووقت الحزن وفقد الابن ونحو ذلك، ولكن دموع المؤمنين يُثاب عليها صاحبها إذا احتسب، وأما دموع التسخط فإني أخشى على صاحبها منها، حتى إن كثيراً من الناس كانوا يبكون بكاء الفرح؛ لأن هناك دموع فرح وهي باردة ودموع حزن وهي حارة، وفيها يقول أبو هلال العسكري: إنه بُشِّر بابن فبكى وبُشِّر بموته فبكى، قال:

يَا عَيْنُ، صارَ الدَّمعُ عِندَك عَادةً تَبكِينَ في فَرَحٍ وفِي أَحْزانِ

طَفَحَ السُّرورُ عَليَّ حَتَّى إنَّنِي مِنْ عِظْمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكانِي

قالوا: إذا اشتد فرح الإنسان إلى درجة لا يملك نفسه انفجر باكياً، ولذلك ترى الأم إذا طالت غيبة ابنها ثم وفد إليها فإذا هي تبكي؛ ما استطاعت أن تعبر بالضحك، ومثلما ورد في الحديث الصحيح أن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه - سيد القُرَّاء أبو المنذر- أتاه ﷺ وقال: «**إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أقرأ عليك البينة. قال: وسماني في الملأ الأعلى؟!**». أي: آلله قال: اقرأ على أُبَيّ بن كعب؟! وسماه

(١) أي: بعينه الصحيحة.

الله عزوجل، قال ﷺ: «**سمَّاك**». فبكى أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه، فبكاؤه هذا من شدة الفرح على ما بشره به سيد الخلق ﷺ.

ومـن هذا الباب ما ذُكِر عن ابن عباس «في مسألة العيون ووصفها، حتى إنه قبل ذلك كان يزيد بن هارون الواسطي محدثاً مشهوراً كبيراً عالماً ذهبت عيناه، فقيـل: ما فعل الله بعينيك يا يزيد بن هـارون؟ قال: أذهبهما بكاء الأسحار. حتى قال ابن عباس»:

إِنْ يَـأْخُـذِ اللهُ مِـنْ عَيْنَـيَّ نُورَهُمَا ... فَفِي فُـؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

عَقْلِي ذَكِيٌّ وَقَلْبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَشْهُورُ

فهنيئاً لمن دمعت عينه من خشية الله وتقواه، حتى إن من السبعة الذين يُظِلُّهُمُ الله فـي ظلـه يوم لا ظل إلا ظلهُ كمـا أخبر سيد الخلق ﷺ: «**رَجُلٌ ذَكَـرَ اللهَ خَالِيَاً فَفَاضَـتْ عَيْنَـاهُ**». أي: حيث لا ريـاء ولا سمعة ولا يراه أحد. وهؤلاء الشعراء حينما يتحدثون عن مسألة الدموع فإنهم يسهبون ويبالغون، حتى يقول أبو الطيب:

بَـادِرْ هَـوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَـمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُك أَوْ جَرَى

فـي قصيدته التي مدح فيهـا ابن العميد وهي من أشهـر قصائده، يقول في ابن العميد:

مَنْ مُخْبِرُ الأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُم[1] ... جَالَسْتُ جَالِينُوسَ وَالإِسْكَنْدَرَا

وَقَـرَأْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُـتَـبَـدِّيَـاً مُـتَـعَـلِّـمَـاً مُـتَـحَـضِّـرَا

قَطَفَ الـرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ ... وَقَـطَـفْـتَ أَنْـتَ الْـقَـوْلَ لَـمَّا نَـوَّرَا

(١) أي: ترك العرب وراح إلى فارس.

علـى مذهب الشعراء فـي المبالغة إلا المتنبي؛ فإن لـه أبياتاً في العيون وفي البكاء، حتى إنه يقول:

إنَّ الْمُحِبَّ مُضَرَّجٌ بِدُمُوعِهِ مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضَرَّجٌ بِدِمَائِهِ

في قصيدته التي يقول فيها:

لا تَعْذُلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاك فِي أَحْشَائِهِ

ويقولـون: إن أبـدع مـا فعله العـرب الفراقيـات. لأن الفراق هـذا هو الموت الأحمر، كما يقول صاحب (طوق الحمامة). فها هو أبو الطيب يقول:

لَوْلا مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلا

الفـراق موت أحمر، حتى إنه قيل لجعفر الصادق: لماذا لا تتخذ لك إخواناً؟ قال: خوف وحشة الفراق. لأني إذا آخيتهم، ثم ابتعدوا عني وفارقوني، فلا أستطيع أن أواصل. وكان ابن المبارك إذا ودَّع إخوانه في الله يبكي ويقول:

وخَفَّفَ وَجدِي في البُعَادِ لأنَّه فِـرَاقُ حَيَـاةٍ لا فِـرَاقُ مَمَـاتِ

أي: إن الـذي خفـف عليه المصيبة أنه يفترق ثم يعـود، إلا فراقاً واحداً ليس فيـه عـودة وهـو المـوت ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. فينبغـي للإنسان إذا فارق أحبابه أن يتذكر ذاك الفراق، وإذا سافـر مـن مـكان أن يتذكر ذاك السفـر، وإذا ودَّع المحبيـن أن يتذكر وداع الدنيـا والقدوم عليه ﷻ، فهذا شأن الأدب العربي في استخدام الفراقيات، وهو الـذي يُسمى عند الدموع لغـة العيون، فإن العين هي الموضحـة وهي الجالية لما يعتقد صاحبها، وهي التي تُظهر الأسرار من خلال خلجاتها، ومن خلال تقلباتها، فلذلـك ذكروا دموعهم وذكـروا أساها وكيف أنهم تأثروا، وكيـف أن ذاك دمعت عيناه وأرسل دموعه على حبيبه.

ذهبت إلى طهران في إيران من أجل ديوان السعد الشيرازي؛ لأن عنده حكمة، حتى يقول من ضمن أبيات جميلة:

مَا مَرَّ طَيْفُ الْهَوَى بِمَسْمَعِي ... لَوْ سَمِعْتُ حَمَامَ الحِمَى نَاحَتْ مَعِي

يا مَعْشَرَ الخِلاَّنِ قُولُوا للمُعَافَى: ... لَيسَ تَدرِي مَا بِقَلْبِ المُوجَعِ

وهو صاحب المقطوعة المشهورة، فهي مقطوعة عالمية تُرْجِمَت إلى لغات كثيرة، يقول:

قَالَ لِي المَحْبُوبُ لمَّا زُرتُهُ: ... مَنْ بِبَابِي؟. قُلْتُ: بِالبَابِ أَنَا

قَالَ لي: أَخطَأْتَ تَعْرِيفَ الهَوَى ... حِينَمَا فَرَّقْتَ فِيْهِ بَينَنَا

وَمَضَى عَامٌ فَلَمَّا جِئْتُهُ ... أَطْرُقُ البَابَ عَلَيهِ مُوهَنَا

قَال لِي: مَنْ أنتَ؟ قُلتُ: انظُر فَمَا ... ثَمَّ إلاَّ أنتَ بالبَابِ هُنَا

قَالَ لِي: أَحْسَنْتَ تَعرِيف الهَوَى ... وعَرَفْتَ الحُبَّ فادْخُل يَا أَنَا

فسموها: يا أنا. في الاتحاد العالمي، حتى إن بعضهم يقول: إنها موجودة الآن في مجلس الأمن باللغات لاتحاد الأمة. أي: أنا وأنتم شيء واحد. ويُذَكِّرُني ذلك بهبنقة وهو أحمق، يقول: إن أمه ألبسته قلادة ونام بها، ثم قام أخوه وهو نائم وأخذ القلادة من عنقه وكان عهده أن القلادة في عنقه، فأيقظ أخاه من النوم، فقال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟. وذكَّرَني ذلك بأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أرفع وأجل وأعظم - وهذا يسمونه شاهداً - أتى فكتب لعيينة بن حصن كتاباً أن له قطعة أرض، أي: هبة وأعطية. لأنه خليفة رسول الله ﷺ، فقال: «**ارْسُمْهَا وَاخْتُمْهَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، قال: الْخِتْمُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ». لأنه كان قاضي المدينة والختم عنده، فذهب عيينة لابن الخطاب، وإذا هو يُطلِي إبل الصدقة في سبيل الله، كان يطليها يريد الأجر والمثوبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا غرو، فهو من

أولئـك الملأ الأبرار، فقال: هذا خطـاب من خليفـة رسـول الله ﷺ أقطعني الأرض الفلانية من جبل كذا إلى جبل كـذا. قال: «**ائْتِنِي بِالْخِطَابِ**». فقرأه فمزَّقه عمر رضي الله عنه قـال: تُمَزِّق خطاب أبي بكر رضي الله عنه ولم تختمه؟!. قال: «**كُنَّا نَتَأَلَّفُكُمْ يَا عُيَيْنَةَ، وَالإِسْلامُ كَانَ ضَعِيفاً، أَمَّا الإِسْلامُ فَقَدْ أَصْبَحَ بَارِزَاً قَارِحَاً قَوِيًّا، فَإِنِ ارْتَدَتْ ضَرَبْنَاكَ بِالسَّيْفِ**». فعـاد إلـى الخليفة أبي بكر الصديـق رضي الله عنه مغضباً، فقال: «**أَنْتَ الْخَلِيفَـةُ أم عُمَرُ؟!. قَالَ: أَنَا هُوَ غَيْرَ أَنَّهُ إِيَّايَ**». أي: ما الفرق بيني وبينه؟ أبو بكر عمر وعمر أبو بكر. فهما روح فـي جسدين، ولذلك جمع بينهمـا الإسـلام والدين، فصـار الواحد منهم يقول كلمتـه، حتى إن أبـا بكر رضي الله عنه سكت في اليوم الثاني لوفاة رسـول الله، بعدما تكلم في اليوم الأول وأُغْمِي على عمر رضي الله عنه، فتكلم وكان فارس الحلبة ذاك الوقت أبو بكر رضي الله عنه، وفي اليوم الثاني رجع أبو بكر رضي الله عنه يبكي لما تذكر المنبر ووفاة رسول الله ﷺ، فقام عمـر رضي الله عنه يخطب في الناس وقـال: «**بَايِعُوا أبا بَكْرٍ**». وذكـر مناقبه وأخذ يد أبي بكر أمام الناس ورفعها، وأخذ يقيمها للناس ويبايع أبا بكر «فهؤلاء هم الملأ الأخيار».

ونعود إلـى كلمة السعد الشيرازي؛ لأن هناك أدباً عربيـاً وأدباً فارسياً، حتى إنهـم يجعلون الشعراء العالميين الخمسة في هذا العصر: شكسبير من الإنجليز، ومحمـد إقبال من باكستان، وطاغور مـن الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا، والسعد الشيرازي من إيران. وعموماً وُجِدَ في العصر شعراء كبار، لكن لأن هؤلاء تُرْجِمَ شعرهم للغات كثيرة وهم يُخاطِبُون العالم في شعرهم، وإلا فإن في العرب شعراء أقوياء، لكن بعضهم محلي إقليمي وبعضهم لم يُترجم شعره للناس، فنرجع ونقـول: إن مـن أحسن ما يقوله العرب إذا ذكروا الشجـا وذكروا الفراق، حتى إن أحدهم يقول:

شَكَا أَلَـمَ الْـفُـرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بِـالْـجَـوَى حَـيٌّ وَمَـيْـتُ

وَأَمَّـا مِـثْـلَ مَـا ضَـمَّتْ ضُـلُوعِي ... فَـإِنِّـي مَـا سَـمِـعْـتُ وَمَـا رَأَيْـتُ

والطنطاوي استحسن مثل قول مجنون يوم يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ[1] الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِن هُمَا شَفَيَانِي

يقول: أتيت عند عراف اليمامة وعراف نجد، فقلت: احتكموا في أمري، وخذوا ما تريدون من الإبل والمال [ما شئتم]. على أن تداوياني من هذا الحب وهذا الهوى، فوالله ما مِنْ رُقية يعلمانها ولا شربة إلا بها سقياني، فقالا: شفاك الله، والله ما لنا بك حيلة:

فَقَالاَ: شَفَاكَ اللهُ واللهِ مَا لَنَا بِمَكْنُونِ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِ

فالإنسان إذا توَّلع بشيء صار همه وكاد يقتله، حتى إنهم يذمون العشق.

وقد قرأت لابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى رجلاً في عرفة يمشي كالموسوس، قال: ما هذا؟ قالوا: عاشق كاد يذهب عقله وأُصيب بالذهول. فقال ابن عباس : «أعوذ بالله من العشق». والمتنبي في القافية يقول في قصيدة مشهورة له:

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ؟!

وَعَذَرْتُهُ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مْنْهُمْ مَا لَقُوا

يقول: ابتلاني الله؛ لأنني كنت أستهزئ بهم، فقلت: كيف يعشق الإنسان؟!. ولكن الأولياء لهم حب أرفع وأسمى وهو حب الواحد الأحد؛ يحبهم ويحبونهم، حتى إن أحد الصالحين الأخيار من الشعراء يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ والْعَقْلا

فَمَاذَا عَسَى يَصْنَعُ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقاً إِلَى الْعَالَمِ الأَعْلَى

(١) عروة بن حزام.

إذا كان حب المرأة وحب المال وحب المنصب يسلب العقل، فكيف بمن أحب الله عزوجل؟!. ولذلك أعظم كلمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤]. حتى يقول الألوسي يمدح الواحد الأحد في الحب:

إِلَـيْـكَ وَإِلاَّ لا تُشَـدُّ الـرَّكَـائِـبُ ... وَمِـنْـكَ وَإِلاَّ فَـالْـمُـؤَمِّـلُ خَـائِـبُ

وَفِـيـكَ وَإِلاَّ فَـالْـغَـرَامُ مُـضَـيَّـعٌ ... وَعَـنْـكَ وَإِلاَّ فَـالْـمُـحَـدِّثُ كَـاذِبُ

فنسأل الله أن يجعلنا من أحبابه، وليس العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإنه عزوجل خلقهم ورزقهم لكن العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. كيف أنه خلقهم وأعطاهم ومنحهم وتولاَّهم، ثم أحبهم عزوجل، ومفاتيح محبته عزوجل القيام بالفرائض وتلاوة كتابه بتدبر وكثرة ذكره، وعمل الصالحات واتباع سيد الخلق ﷺ وتجديد التوبة وكثرة الاستغفار. فهذا هو الذي يبلغ درجات الصديقية عند الله الواحد الأحد.

أُحِبُّكَ لا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبْوَتِي ... أُفَسِّرُ مَاذَا وَالْهَوَى لا يُفَسَّرُ



obeikandl.com

قصة وقصيدة

نعني بها القصة التي عُمِلَت من أجلها القصيدة ونُظِمَت، لأن الشعر إذا اتفق مع النثر أنتجا إبداعاً بشرياً.

ومن ذلك أنه ﷺ قبل أن يغزو مكة ويفتحها منتصراً؛ ليعيد الحق إلى نصابه وليؤسس دولة العدل في العالم، وليقيم الحضارة الربانية، إذ كان ﷺ خرج شريداً طريداً من مكة، لكن انظر إلى نصره عز وجل جمع له القبائل والناس، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فأتى يزحف بالجيش إلى مكة، وقبلها يقول حسان رضي الله عنه كأنه ينظر إلى المعركة ويراها وهو شاعر الإسلام شاعر الرسول ﷺ،

يقـرب له الرسول ﷺ المنبر ويقول: «**اهْجُهُـمْ وَرُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ**». أي: جبريل معـك. فما هو بأي كلام، حتى السماء معه، حتى يأتيك حسان رضي الله عنه بالقافية كأنها صاعقة تُحرق ما قبلها، حتى يقول حسان رضي الله عنه:

وَبِيَـوْمِ بَـدْرٍ إِذْ يَصُـدُّ وُجُوهَـهُمْ ... جِبْـرِيلُ تَـحْتَ لِوائِنَـا وَمُحَـمَّدُ

يقول: قيادة السماء مع جبريل عليه السلام وقيادة الأرض مع محمد ﷺ، والصحيح أن الـذي قـاد الملائكة -عليهـم السلام- وقـاد الصحابة رضي الله عنهم هـو محمد ﷺ، فالقيادة العليا في يد الرسول ﷺ، فقبل معركة بدر يقول حسان رضي الله عنه:

عَـدِمْـنَـا خَـيْـلَـنَـا إِنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا ... تُـثِـيـرُ الـنَّـقْـعَ مَـوْعِـدُهَـا كُـدَاءُ

يقـول: لا رد الله علينـا خيلنـا، لا جعلها ترجـع إذا لم تروها تثيـر الغبار في مداخـل مكة طوابير تدخل في مواكب مع رسـول الله ﷺ، والنقع: الغبار. وكداء: جبل كُدَيّ يُقابله في مكة. حتى يقول ابن الفارض:

مَـنْ لقَلْـبٍ حَـلَّ جَـرعَـاءَ الحِمَى ... ضَـاعَ مِـنِّـي هَـلْ لَـهُ رَدٌّ عَلَـي

فَـاسْـأَلـوا سُـكَّـانَ وادِي سَـلَـمٍ ... فَـهـوَ مَـا بَـيـنَ كُـــدَاءَ وكُـدَي

فحسان رضي الله عنه قبل المعركة يقول:

عَـدِمْـنَـا خَـيْـلَـنَـا إِنْ لَـمْ تَـرَوْهَـا ... تُـثِـيـرَ الـنَّـقْـعَ مَـوْعِـدُهَـا كُـدَاءُ

تَـظَـلُّ جِـيَـادُنَـا مُـتَـمَـطِّـرَاتٌ ... تُـلَـطِّـمُـهُـنَّ بِـالـخُـمُـرِ الـنِّـسَـاءُ

أي: إن الفارس يأخذ راحتـه، يسبح سبحاً، يقفز بالبطـل، على ظهره خالد بـن الوليد وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، يسبح بهم سبحاً، كأنه يسبح في الموج.

فَإِمَّا تُعرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا

يقول: دعونا نكمل العمرة، دعونا فالحق معنا، دعوا محمداً ﷺ يدخل البيت.

وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

انتهى الموضوع وبان الحق من الباطل، بان الصدق من الكذب وأنتم على الكذب.

وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: دعونا نتصارع نحن وأنتم، ونتجالد بالسيوف والله يعز من يشاء.

وَقَالَ اللهُ: قد أَرْسَلْتُ جُنْدَاً ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهُ اللِّقَاءُ

وأنعم بالأنصار رضي الله عنهم ورحمهم وجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنَهْجُو بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

ثم عرَّض بأبي سفيان بن الحارث، وكان يهجو رسول الله ﷺ فقال:

أَلا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ

بِأَنَّ جُيُوشَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدَاً ... وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتُهُ الإِمَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ

وهذا قبل إسلامه، لكنه أسلم فيما بعد رضي الله عنه، وحتى كل الأمة لا تصل ذرة من جلاله ﷺ.

. . . . . فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

هَجَوْتَ مُبَرَّأً بَرَّاً رَحِيماً ... رَسُولَ اللهِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

لا يعدله أحد ﷺ.

وانطلقت الجيوش فاتحة وأتى رسول الله ﷺ فقسَّم الجيوش على أربعة أقسام تدخل مكة من أربع جهات، دخلت ثلاثة منها دون مواجهة إلا جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه فتعرَّض له عكرمة رضي الله عنه وأناس معه عند الخندمة، مدخل من مداخل مكة.

وجاء أحد كفار قريش وكان يسقي سيفه السم قبل دخول المسلمين، تقول زوجته: ما لك؟. قال: أقتل بهذا محمداً. ويوم جاء المعركة حضر هذا بسيفه الذي سقاه سماً، إذ أقبل سيف الله المسلول خالد بن الوليد أبو سليمان رضي الله عنه، وأقبل بالخيول وفلول المسلمين، ولما اقترب من عكرمة رضي الله عنه ومن معه فخرج لهم خالد، أي: أظهر أنه فارٌّ منهزم. ثم اغترَّهم فخرجوا له، فلما خرجوا بخيولهم كرَّ عليهم خالد رضي الله عنه ولعب فيهم وصفَّى حسابهم في ذلك اليوم، هرب صاحب السيف ودخل غرفته وأغلق الباب فقالت امرأته: قاتلك الله، أما قلت: تقتل محمداً. فقال:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

يقول: فر الأبطال والقادة.

وَالْمِسْلُمُونَ خَلْفَنَا فِي غَمْغَمَهْ ... لَمْ تُنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

يُطَارِدُونَ بِالسُّيُوفِ الْمُثْلَمَهْ ... .

يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. مثلمة: مكسرة. ليست كيسوفنا. يقول النابغة:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

والشاهد أنه دخل ﷺ مع كتيبته الكتيبة الخضراء، معه ألف من الأنصار ما يُرى منهم إلا العيون، كلهم عليهم الحِدَقُ والخوذات والدروع والسيوف، انظر النصر العظيم، استلم مكة عاصمة الدنيا، نصر نصراً عزيزاً صفقت له أبواب السماء ونزّلت الملائكة وفُتِحَت الجنان له، دوى الدهر والتاريخ وقف وكل الزمان

وقف، أكبر نصر في العالم، أتى ودخل ﷺ ينظر، فإذا لمعان السيوف هناك وإذا الخيول، ثم نظر وإذا في أحد طرق مكة وإذا خيول خالد رضي الله عنه شهباء أقبلت حافية حامية، وإذا النساء تخرج الواحدة عليها خمارها وتضرب وجه الفرس، فأخذ يتبسم ﷺ وأخذ يده على فمه، وقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ**، - وكان أبو بكر رضي الله عنه يحفظ الشعر ويرويه - **كَيْفَ يَقُولُ حَسَّانُ؟. قَالَ: يَقُولُ - يَا رَسُولَ اللهِ -**:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كُدَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فتعجب رسول الله ﷺ من أن حسان رضي الله عنه قدَّم هذه الصورة المشرقة، فأتت مثلما قال رضي الله عنه، وهذه قصة قصيدة حسان: **عدمنا خيلنا**.

أما بيت مشهور لعلي بن جهم الشاعر الصالح الناصح فيقول فيه:

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرِّصَافَةِ وَالْجِسْرِ ... جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

الرصافة في بغداد والجسر جسر الكرخ، فقد كان الشاعر في البادية وعنده غنم وما كان يعرف إلا التيس والكلب، يرعى الغنم ويرى التيس إذا نطح التيس الآخر وطرحه فظن أن أشجع شيء في العالم التيس؛ لأن البيئة تصنع أفكار الإنسان فلا يعرفون إلا هذا، ورأى الكلب مثلاً للوفاء، إذ لا ينبح صاحبه، فذهب مع الشعراء من البادية ودخل مع الشعراء على المتوكل الخليفة العباسي، وجاء الشعراء أهل الحضارة يمدحونه، وجاء هو على نيته، فوقف عند المتوكل، وقال:

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلْوِدِّ ... وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

فيقول: إنك مثل الكلب في الوفاء، ومثل التيس في الشجاعة. وهو شاب بدوي، فقال وزير المتوكل: أمسكوه. قال المتوكل: دعوه، أين عشت؟. قال: أنا عشت في البادية يا أمير المؤمنين. قال: اتركوه؛ هو لا يعرف إلا البادية يظن أنه

مدحنـا، خذوه سنة في الكـرخ- والكرخ: مدينة ذات منزلـة ومكانة عالية- دعوه يـرى الحياة ويرى الدنيا. فراح وسكـن هناك فرأى هؤلاء الذين يمرون والحدائق الغناء والبساتين، ونهر دجلة يضرب ذات اليمين وذات الشمال والحدائق تتمايل، وبعد سنة قال المتوكل: أدخلوه مع الشعراء. فلما دخل بعد سنة، قال: أنشد. قال:

عُيُون الْمَهَا بَيْنَ الرّصَافَةِ وَالْجِسْرِ ... جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلا أَدْرِي

أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُنْ ... سَلَوتُ وَلكِن زِدْنَ جَمراً عَلى جَمرِ

قصيـدة من أجمل مـا قيل، والمها الغزال، يقصد النسـاء. جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري: شيء أعرفه وشيء لا أعرفه.

وقلْـنَ لنـا: نَحْـن الأَهِـلَّـةُ إِنَّـمَـا ... تُضيءُ لِمَن يَسري بِلَيلٍ وَلا تَقري

فَـلا بَـذْلَ إِلّا مـا تَـزَوَّدَ نـاظِـرٌ ... وَلا وَصلَ إِلّا بِالخَيالِ الَّذي يَسري

أحينَ أزحنَ القَلبَ عَن مُستَقَرِّهِ ... وَأَلهَبنَ ما بَينَ الجَوانِحِ وَالصَدرِ

صددنَ صدودَ الشاربِ الخمرَ عندما ... روى نفسَهُ عن شربها خيفةَ السكرِ

فَإِن حُلنَ أَو أَنكَرنَ عَهداً عَهِدنَهُ ... فَغَيرُ بَديعٍ لِلغَواني وَلا نُكرِ

وَلَكِنَّهُ أَودى الشَبابُ وَإِنَّما ... تُصادُ المَها بَينَ الشَبيبَةِ وَالوَفرِ

كَفى بِالهَوى شُغلاً وَبِالشَيبِ زاجِراً ... لَوَ اَنَّ الهَوى مِمّا يُنَهنَهُ بِالزَجرِ

كَفاكُم بِأَنَّ اللَه فَوَّضَ أَمرَهُ ... إِلَيكُم وَأَوحى أَن أَطيعوا أولي الأَمرِ

وَلَم يَسأَلِ الناسَ النَبِيُّ مُحَمَّدٌ ... سِوى وُدِّذي القُربى القَريبَةِ مِن أَجرِ

وَلَن يُقبَلَ الإيمانُ إِلّا بِحُبِّكُم ... وَهَل يَقبَلُ اللُه الصَلاةَ بِلا طُهرِ

وَمَن كانَ مَجهولَ المَكانِ فَإِنَّما ... مَنازِلُكُم بَينَ الحَجونِ إِلى الحِجرِ

وُجوهُ بَني العَبّاسِ لِلمُلكِ زينَةٌ ... كَما زينَةُ الأَفلاكِ بِالأَنجُمِ الزُهرِ

وَلا يَستَهِلُّ المُلكُ إِلّا بِأَهلِهِ ... وَلا تُرجَعُ الأَيّامُ إِلّا إِلى الشَهرِ

إلى آخر ما قال في قصيدة طويلة، فأعطاه جائزة، وقال: هكذا يكون الشعر.

فالإنسان ابن بيئته وعلى تصوره ولذلك يُحبِّذون أن تتكلم عن البيئة فلا تذهب إلى البادية وتتكلم عن مشكلة العمل والعمال والبورصة والأسهم، ولا تذهب إلى المدينة تتكلم عن الأشجار الْمُتَنَازَع عليها في البادية، أو عن صندوق القبيلة، لكل مقام مقال، هذه قصتها.

أسلم بُجير أخو كعب بن زهير رضي الله عنه فغضب كعب بن زهير، فهجا الرسول ﷺ وهجا دينه، فأهدر رسول الله ﷺ دمه؛ لأنه سب الإسلام وسب الدين وسب الرسالة واستهزأ، فاستشار العرب فقالوا له: ما دمت تعرضت لمحمد فقد انتهى الموضوع، ما لك إلا أن تُسلِّم نفسك له. فيروى: «**فأتى وَصَلَّى الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَعْدَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ جَلَسَ عِنْدَهُ، قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟. قَالَ: كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ**». وكان ﷺ حليماً وهو سيد الحلم، قال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، اسْمَعْ مِنِّي: بَانَتْ سُعَادُ. قَالَ ﷺ: مَنْ سُعَادُ؟. قَالَ: زَوْجَتِي. قَالَ: لَمْ تُبن إِذَاً**». وشعراء العربية لا بد من أن يبدؤوا بالغزل، وقال:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ثم مضى فيها، فقال:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ

لا تَأْخُذَنّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

وقال:

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنْتُ آمَلُهُ ... لا أَلْهِيَنَّكَ إِني عَنْكَ مَشْغُولُ

مازِلتُ أَقتَطِعُ البَيداءَ مُدَّرِعاً ... جُنحَ الظَلامِ وَثَوبُ اللَيلِ مَسبولُ

حَتّى وَضَعتُ يَميني لا أُنازِعُهُ ... في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قِيلُهُ القيلُ

لَـذاكَ أَهْـيَـبُ عِـنـدي إذ أُكَـلِّـمُـهُ ... وَقـيـلَ: إِنَّـكَ مَـسـبـورٌ وَمَـسـؤولُ
مِن ضَيغَمٍ مِن ضِراءَ الأُسدِ مُخدِرَةً ... بِـبَـطـنِ عَـثَّـرَ غـيـلٌ دونَـهُ غـيـلُ
إِنَّ الـرَّسُـولَ لَـنـورٌ يُـسْـتَـضَـاءُ بِـهِ ... مُـهَـنَّـدٌ مِـنْ سُـيُـوفِ اللهِ مَـسْـلُـولُ
في عُصبَةٍ مِن قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُم ... بِبَطنِ مَكَّةَ لَمّا أَسْلَموا زُولُوا
شُمُّ العَرانينِ أَبطالٌ لَبوسُهُمُ ... مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ
يَمشونَ مَشيَ الجِمالِ الزُهرِ يَعصِمُهُم ... ضَربٌ إِذا عَرَّدَ السودُ التَّنابيلُ
لا يَقَعُ الطَعنُ إِلاّ في نُحورِهِمُ ... ما إِن لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ

إلى آخر ما قال وعفا عنه رسول الله ﷺ وخلع له بردته، فتسمى هذه البردة، ونظم فيه البوصيري قصيدة يقول فيها:

أَمِـنْ تَـذَكُّـرِ جِـيـرَانٍ بِـذِي سَـلَـمٍ ... مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفُفَا هَمَتَا ... وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ يَهِمِ

وسار عليها شوقي، فيقول:

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بِعَيْنِي جُؤْذُرٍ أَسَدَاً ... يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِك سَاكِنَ الأَجَمِ

ونظمتُ عليها قصيدة في مدحه ﷺ، فقلت:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمِ ... مِـدَادُهَـا مِـنْ مَـعَـانِي نُـون والْـقَـلَـمِ
إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ اللهِ مِثْلَكَ فِي ... بَدْوٍ وَحَضْرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمِ
فَلا اشْتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ... وَلا تَـفَـوَّهَ بِـالْـقَـوْلِ السَّـدِيـدِ فَمِي

هذه قصة: بانت سعاد.

وأذكـر فـي التاريخ المعاصر الحاضر ملك اليمـن أحمد بن حميد الدين في الثورة، ثورة الانقلاب التي ما نجحت والجمهوريون كادوا ينجحون في الثورة الأولى عليه، فأسر منهم سبعين ووضعهم في السجن وأخذ كل يوم من أيام الجمعة يقطع رأسـاً منهم، العلماء والقضاة والأدباء منهم: الكبيسي، وابن النعمان، ومحمد بن محمود الزبيري. أي: كبارهم. فلما وضعهم هناك تشفع فيهم كثير، حتى وفد من جامعة الـدول العربية فرفض، حتى إنه يقول لوفد جامعة الدول العربية: لو نزلت السمـاء حتـى تصل إلى هنا وارتفعـت الأرض إلى هناك لا أتركهـم. لأنهم دبروا ليحيـى بن حميد الدين الملك الأول والده، فدخل عليه أحد الشعراء، فقال: ائذن لـي ألقي عليك قصيدة، أنا لبست الكفن تحت ثوبي هذا واسمع مني القصيدة إن عفوت فاعفُ عني وإلا فاقتلني معهم. قال له الملك: لِمَاذا؟. قال: لا تصلح اليمن إذا قتل سبعون من علمائهم وقضاتهم ووجهائهم، فما المراد من اليمن؟!. فقال: قل قصيدتك. قال:

يَا أَبَا الْمَجْدِ يَا بْنَ مَاءِ السَّمَاءِ ... يَا سَلِيلَ النُّجُومِ فِي الظَّلْمَاءِ

فَأَجِرْنِي كَالْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ ... حِيـنَ قَـالَ الـنَّـبِـيُّ...

يقول: أنت يا بن ماء السماء، يا أبا المجد، من ضمنها يقول: افعل فعل جدك محمد ﷺ - لأمه لأنه من آل البيت - الذي يقول ﷺ: «لَوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِي فِي أَسْرَى بَدْرٍ كُنْتُ تَرَكْتُهُمْ لَهُ». لأن المطعم بن عدي مشرك، لكن من أعيان مكة، طـاف الرسول ﷺ في حمايته ومنعه وأجاره فلما هاجر الرسول ﷺ وانتصر في بـدر وأتـى بالسبعين من الأسرى، قـال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَـوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ». سبعون وأولئك سبعون.

قـال: قـد أجرتك وقد عفوت عنهـم جميعاً. فأطلقهم ومنهـم الزبيري الذي ذهب إلى باكستان، وخاطب اليمن في قصيدة رائعة ذائعة.

وهنـا بعض الوقفـات السريعة، المتنبـي أتى يمدح سيف الدولـة وعنده ابن خالويـه النحوي، وبعض النحاة يتقعرون ويتشدقون في الشعر، والنحو والعبقرية، مـا يعرفون الدخول في تفاصيل، والمتنبي عبقـري في الشعر لكن الحاسد يبحث عن العيوب في أشعارك وفي كتبك وفي أخلاقك، فكان ابن خالويه جالساً وسيف الدولة يستمع، فيقول المتنبي قصيدته القوية الرائعة:

نَـعُـدُّ الْـمَـشْـرَفِـيَّـةَ وَالْـعَـوَالـي وَتَـقْـتُـلُـنَـا الْـمَـنُـونُ بِـلا قِـتَـالِ

يقول: نجهز الرماح والسيوف من أجل أن نقاتل بها العدو، بينما تأتي المنايا ما يقاتلن بسلاح، يقتلننا على الفرش والوسائد.

وَنَرْتَبِط السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ

يقول: حتى الخيول جهزناها نصبح العدو بها.

فَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

يقول: وراءنا الليالي أقبلت.

كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالي

قال ابن خالويه: لو قلت: مستقيم في اعوجاج. كان أحسن، قال: كي أقول في البيت الثاني:

وَإِنْ تَـفُـقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْهُـمْ فَـإِنَّ الْـمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْـغَـزَالِ

هذا من إشراقات المتنبي ولعلها فُهِمَت؛ لأنك إن اضطررتني أن أغير الجيم في محالي فتكون اعوجاجي لتغير الروي وفسد المعنى.



كلمة الحب

كلمــة الحب كلمة جميلــة مُشْرِقة، لا يُعبِّر عن الحب إلا كلمة الحب، وهو متكون من حرفين، حتى إن الشفتيــن حينما ينطــق الإنسان بالحب تلتقيان بعــد فراق وبعــد قطيعة، والله ﷻ ذكــر الحب في كتابــه في آية موحية ومؤثــرة فيقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤]. أي: إن أوليــاءه ﷻ والصالحين من

عباده يحبهم ﷻ، وليس العجب من قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإنه هو الذي خلقهم وأعطاهم ووهبهم ﷻ، لكن العجب من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فكيف أنه هداهم واجتباهم ووفقهم ثم أحبهم ﷻ.

وقد تبارى الشعراء والحكماء في مسألة الحب، فمنهم من صرفها للمال ومنهم من صرفها للثروة وللمنصب ومنهم من صرفها للمرأة وإلى غير ذلك، ونقف وقفات مع بعض الشعراء.

فبشار بن برد كان أعمى بصر وأعمى قلب وذهب إلى ربه، فيقول هو:

يَا قَوْمِ، أُذُنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

لأنه ما كان يرى لكن بالأذن وبالسماع أحب، ويقول: إنهم يقولون له:

وقالوا: لَوْ سَلَّيْتَ قَلْبَكَ لارْعَوَى فَقُلْتُ: هَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ

فيقول: ما لنا قلوب أصلاً، فلو كان لنا قلوب لسليناها، لكنها ليست موجودة أصلاً.

ولكن أحد الشعراء يلفت النظر إلى حب آخر وهو حب الواحد الأحد ﷻ، الذي استوجب الشكر واستوجب الثناء الحسن ومن أحبه استوجب الأجر العظيم وسُكنى جنات النعيم، يقول:

إِذَا كَانَ حب الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ وَالْعَقْلَا
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى؟

يقول: هؤلاء يُصرعون من أجل امرأة وخدود وعيون، فكيف بمن أحب الباري عزّ وجلّ بأسمائه وصفاته؟

والمتنبي يستفتح أبياته وقصائده في العادة بمثل هذا، وله قصيدة رقيقة في الحب والعشق، فيقول:

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ ... وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

جَهْد الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى ... عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ

مَا لاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ ... إلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

فَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي ... عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

معانيها جميلة بلا شك في هذا الباب، وكلنا يبدي وجهة نظره في العشق والحب، حتى إن ابن عباس «يوم عرفة قال: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ**». لأنه رأى رجلاً من المسلمين في عرفة وإذا هو موسوس وفيه ذهول، فقال: «**مَنْ هَذَا؟**». قالوا: موسوس. قال: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْعِشْقِ**». لأنه يُتعب القلب ويُفقد النفس استقرارها؛ لأن صاحبه لا يتدبر القرآن، كما ينبغي ولا يشتغل بالعلم فيبقى كالحيران المذهول.

ومن الشعراء المعاصرين نزار قباني لما ذهب إلى تونس، يقول:

يَا تُونُسُ الْخَضْرَاءُ جِئْتُكِ شَاعِراً ... وَعَلَى جَبِينِي وَرْدَةٌ وَكِتَابُ

إِنَّ الدِّمَشْقِيَّ الَّذِي عَشِقَ الْهَوَى [1] ... إِنَّ الْهَوَى أَلا يَكُونَ إِيَابُ

دَمُ دِمَشْقِيٌّ يُسَافِرُ فِي دَمِي ... وَسَنَابِلٌ وَخَمَائِلٌ وَقُبَابُ

(١) لأن أصله من دمشق.

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشقَ فَأَهْلُهُ ... عَشِقُوا الْجَمَالَ وَذَوَّبُوهُ وَذَابُوا
وَالْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فأينما ... أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدْوَلٌ يَنْسَابُ
وَدِمَشْقُ تَهْدِي لِلْعُرُوبَةِ لَوْنَهَا ... وَبِبَابِهَا تتشَكَّلُ الأَحْزَابُ

وأحد الرؤساء زاره رئيس آخر فذهبوا إلى قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في حمص يزورونه، والأولى بمن يزور قبر حمص أن يُحرر الأرض أولاً، ثم يزور قبر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، فنزار اعترض على هذا بقصيدة، يقول فيها:

أَلْقَيْتُ فَوْقَ ثَرَاكَ الطَّاهِرَ الْهَدَبَا ... فَيَا دِمَشْقُ لِمَاذَا نُكْثِرُ الْعَتَبَا
دِمَشْقُ يَا كَنْزَ أَحْلامِي وَمَرْوَحَتِي ... أَشْكُو الْعُرُوبَةَ أَمْ أَشْكُو لَكَ الْعَرَبَا
أَدْمَتْ سِيَاطُ حُزَيْرَانَ[1] ظُهورَهُمُ ... فَأَدْمَنُوهَا وَدَاسُوا كَفَّ مَنْ ضَرَبَا
وَطَالَعُوا كُتُبَ التَّارِيخِ وَاقْتَنَعُوا ... أن الْبَنَادِق منها تسْكنُ الْكُتُبَا
وَقَبْرُ خَالِدٍ في حِمْصٍ نُلامِسُهُ ... فَيَرْجُفُ الْقَبْرُ مِنْ لأوائه غَضَبَا
يَا بْنَ الْوَلِيدِ ألا سَيْفٌ تُؤَجِّرُهُ ... فَإِنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَشَبَا

هذا على ذكر حب الديار وحب الوطن الذي قاله، ولكن أحسن قصيدة عنده في الوجد والفراقيات هي قصيدة ابن زيدون: بنتم وبنا. وقد عارضها كثير، لكن ما وصلوا إلى مستواها، الذي يقول فيها:

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَمَا جفّت مآقِينَا
تَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ... يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلا تَأَسِّينَا
لِيَسْقِ عَهْدكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا ... كُنْتُمْ لأَرْوَاحِنَا إلا رَيَاحِينَا

(١) نكسة حُزيران وانتصار إسرائيل على العرب.

وشوقي له على البحر والقافية قصيدة يرثي أمه، يقول:

يَا نَائِحَ الطَّلْحِ أَشْبَاهٌ عَوَادِينَا ... نَأْسَى لِمَسْرَاكَ أَوْ تَأْسَى لِنِسْرِينَا

كَنْزٌ بِحَلْوَانَ عِنْدَ اللهِ نَطْلُبُهُ ... خَيْرَ الْوَدَاعِ لِخَيْرِ الْمُحِبِّينَا

لأنها مدفونة بحلوان البلد القريبة من القاهرة، يقصد: والدته.

ويقول ابن خميس:

وَكَانَ صَوْتُ الْفِرَاقِيَّاتِ نَسْمَعُهُ ... فَلا نُحْسُّ بُكَاءً مِنْهُ يُبْكِينَا

حَتَى أَصَاخَ لِسَانُ الدَّهْرِ مُلْتَجِئاً ... أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا

وأحدهم أندلسي يقول:

إِنَّ السَّلامَ وَإِنْ أَهْدَاهُ مُرْسِلُهُ ... وَزَادَهُ رَوْنَقاً مِنْهُ وَتَحْسِينَا

لَمْ يَبْلُغِ الْعُشْرَ مِنْ قَوْلٍ يُبَلِّغُهُ ... أُذْنَ الأَحِبَّةِ أَفْوَاهُ الْمُحِبِّينَا

وقال آخر:

آخَيْتُمُونَا عَلَى حُبِّ الإِلَهِ وَمَا ... كَانَ الْحُطَامُ شَرِيكاً فِي تَآخِينَا

شُكْرَاً زَبِيدُ فَقَدْ أَهْدَيْتِ مَا عَجِزَتْ ... عَنْ مِثْلِهُ فِي الوَرَى رُومَا وَبَرْلِينَا

والناس ينظمون على هذا البحر؛ لأنه خفيف ولأنه معجب ومُطَرِّب.

ويقول الطنطاوي: ومن أحسن الأبيات والقصائد ما قال الشهرزوري أحد العلماء الأدباء، وهي جميلة وأخاذة يقول:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ [1] وَقَدْ عَسْعَسَ اللَّيْلُ ... وَمَلَّ الْحَالُ بِي وَحَارَ الدَّلِيلُ

(١) أي: ذهب إلى من يُحِب.

فَتَأَمَّلْتُهَا وَفِكْرِي مِنَ الْبَيْنِ ... عَلِيلٌ وَطَرْفُ عَيْنِي كَلِيلُ
وَفُؤَادِي ذَاكَ الْفُؤَادُ الْمُعَنَّى ... وَغَرَامِي ذَاكَ الْغَرَامُ الدَّخِيلُ

وهي تُسمى: لمعة نارهم. وهي جميلة على كل حال، والشهرزوري يقول:

وَاللهِ مَا جِئْتُكُمُ زَائِرَاً ... إلاَّ وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَى لِي
وَلا انْثَنَى قَلْبِي عَنْ بَابِكُمْ ... إلاَّ تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

وله بيتان جميلان يقول فيهما:

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَزُرْتُهُ ... فَمَرِضْتُ مِن خَوْفِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يَزُورُنِي ... فَشَفِيتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

هذا من أجملها، فيقول: مرض الحبيب فعدته ومرضت؛ إشفاقاً عليه فلما زارني تشافيت بإذن الله.

وأما في العُذريات فقصيدة: يا ظبية البان. وهي للشريف الرضي وأحسن قصيدة له على الإطلاق، والشريف الرضي يصل إلى درجة المتنبي في النسيب والمدح والفخر، لكن لا يصل إلى درجة المتنبي في الحكمة، يقول:

يَا ظَبْيَةَ الْبَانِ تَرْعَى فِي خَمَائِلِهِ ... لِيَهْنَكِ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرْعَاكِ
الْمَاءُ عِنْدَكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِهِ ... وَلَيْسَ يَهْنِيكِ إلاَّ مَدْمَعِي الْبَاكِي
هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَاحِ الْغَوْرِ رَائِحَةٌ ... بَعْدَ الرُّقَادِ عَرَفْنَاهَا بِرَيَّاكِ
ثُمَّ انْثَنَيْنَا إِذَا مَا هَزَّنَا طَرَبٌ ... عَلَى الرِّحَالِ تَعَلَّلْنَا بِذِكْرَاكِ
سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ ... مَنْ بِالْعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدْتِ مَرْمَاكِ
كَأَنَّ عَيْنَيْكِ يَوْمَ الْجَزْعِ تُخْبِرُنَا ... عَنِ الْمُحِبِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتْلاكِ

فقـال هذه القصيدة وعارضه من المعاصريـن الشاعر الأديب الكبير حمزة شحاتـة بكافية على البحر والقافية، وهي جميلـة، لكن تبقى (يا ظبية البان) هي المتمكنة في هذا الباب وتُعدَّ من أوائل القصائد.

وقيـل: يُنسب إلى خالد بن يزيد بـن معاوية، وقيل: لوالده يزيد قصيدة يقول فيها:

وَلَـمَّا تَلاقَيْنَا وَجَـدْتُ بَنَانَهَا ... مُخَضَّبَةً تَحْكِي عُصَارَةَ عَنْدَمِ
فَقُلْت: خَضَبْتِ الْكَفَّ بَعْدِي أَهَكَذَا ... يَكُونُ جَـزَاء الْمُسْتَهَام الْمُتَيَّمِ
فَقَالَتْ وأَبْدَتْ فِي الْحَشَا حُرُقَ الْجَوَا ... مَقَالَةَ مَنْ فِي القول لَمْ يَتَلَعْثَمِ
وَحَـقِّكَ مَا هَـذَا خِضَابٌ عَرَفتُهُ ... فَلا تَكُنْ بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ مُتْهِمِي
وَلَـكِنَّنِـي لَـمَّا رَأَيْـتُـكَ رَاحِـلاً ... وَقَدْ كُنْتَ لِي كَفِّي وَزَنْدِي وَمِعْصَمِي
بَكَيْتُ دَمَاً يَـوْمَ النَّوَى فَخَضَبْتُهُ ... بِكَفِّيَ فَابْتَلَّتْ بَنَانِي مِـنْ دَمِـي
فَلَـوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَا ... بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

هذا من أجملها على كل حال.

ونعـود إلـى مسألة الحب وأحسـن الحب هو ما صُرف فـي طاعة المولى ﷻ، فالله ﷻ ذكر الحب وأن أولياءه أشد حباً لله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فهم أشد حباً من أهـل الأوثـان لأوثانهم وأهل الأصنـام لأصنامهم وأهل المنصـب لمناصبهم وأهل المـال لمالهـم؛ لأن أحباب الله ﷻ صرفوا أعمارهم في خدمة أعظم محبوب وهو الله ﷻ، ومفاتيـح محبته ﷻ كثيرة من أعظمها وأجلها: ذِكْرُهُ ﷻ، وتسبيحه آناء

الليـل وأطراف النهار، وتـلاوة كتابه، والسهر مع ذكره في الثلـث الأخير من الليل، ومناجاته في السجود وفي السَّحر. هذه من العلامات الكبرى على حب الله ﷻ.

ومن علامات الحب أنك تطيع من تحب، فيقول بعضهم:

تَعْصَى الإِلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّهُ! هَذَا - لَعُمْرِي - فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَـوْ كَـانَ حُبُّكَ صَـادِقَاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فيُبتلى هذا بهذا ولكن الذين أخطؤوا في الحب أخطؤوا في مسألة حبهم ما لا يحِلُّ لهم؛ لأن الحب الطبيعي في الإسلام حب الزوجة، وحب العظمة والدين لله ﷻ، وكذا مـن الحب الطبيعي حب الابنة والأخت والأم والوالد وهكذا، حب في الله ﷻ، لكن إذا صُرِف في محرم وقف الشرع مانعاً من ذلك ونهى عن ذلك، ولذلك تجد أكثر الشعراء على هذا الانحراف، مثل: جرير الذي يقول:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَم يُحْيِينَ قَتْلانَا
يَصْرَعْنَ ذا اللُبِّ حَتَّى لا حِرَاكَ بِهِ وَهُـنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنْسَانَا

وغيرهم مثل عروة بن حزام يقول:

جَعَلْتُ لِعَـرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَـرَّافِ نَجْدٍ إِن هُمَا شَفَيَانِي
فَـوَاللهِ مَا مِـنْ رُقْيَـةٍ يَعْلَمَانِهَا وَلا شَـرْبَـةٍ إِلاَّ بِهَا سَقَيَانِي
فقَالا: شَفَاكَ اللهُ، وَاللهِ مَا لَنَا بِمكنون ما تَحْوَى الضُلُوعِ يَدَانِ

فهم ساروا على هذا يصفون حياتهم فقط بهذه المعاني، ولم يقدموا رسالة لله.

ويقـال: إن المهندسين والعمال والمخترعيـن والمكتشفين لا يعشقون. لأنهم ليـس عندهم وقـت للفراغ والضياع؛ فهـم مشغولون بالبنـاء والتعمير والاكتشاف

والاختـراع، أمـا الخالي فهـو يقع في العشـق والحب؛ الحب اللاهـي؛ لأن الخالي يسمع الشعـر ويداعبه الخيال وتجره الأوهام والعواطـف، أما الكادح فهو مشغول أمامه أمور بالعيان، أما هذا فيشتغل بذهنه ولذلك تجد الخالي يتعب؛ فهو لا يجد عمـلاً فيجنح عقله ذات اليمين وذات الشمال، ولذلك يوصى الموسوس والمهموم ومـن عنده قلق واضطراب نفسي أن يعمـل. والصينيون عندهم حدائق العمل في مصحاتهـم النفسيـة، فإذا جاءهم الإنسان يشكو مـن مرض الوهم والاضطراب أعطـوه المسحاة يُعدِل الماء ويُصلح الأشجـار، فما يمر عليه شهر إلا وقد تعافى، ولذلـك تجد العمـال والمهـرة والبنائين ليـس عندهم قلق ولا اضطـراب، لأنهم يعملون ومشغولون بالعمل وأذهانهم منصبة على هذا العمل، فإذا انتهوا من العمل زارهم النوم فاستقبلوه بنفس مرتاحة طيبة رضية.

إذا عُلِـمَ هـذا فإن علينا أن ندرس معاني الحب التي في كتاب الله ﷻ وسنة نبيـه ﷺ، إذ يقول ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**». وفي حديث قدسي في البخاري يقول ﷻ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**»... الحديث. فدل على أن الله يحب أولياءه، وأولياؤه يُحبونه إذا حققوا الولاية، كل بحسبه؛ لأنه قد يجتمع في الإنسان مع أسباب الحب أسباب البغض.

نعود إلى المحبة، يقول أحد الأندلسيين من الشعراء، كما ذكر ابن رشيق:

شَكَا أَلَـمَ الْـفِـرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بِـالـنَّـوَى حَـيٌّ وَمَـيْـتُ

وَأَمَّـا مِـثْـلَ مَـا ضَـمَّتْ ضُلُوعِي ... فَـإِنِّـي مَـا سَـمِـعْـتُ وَلا رَأَيْـتُ

فـكلٌّ يشكو تباريحه، حتى إن المحدِّث الأديـب العالمي المفتي الأندلسي ابن حزم الظاهري ألَّف طوق الحمامة في هذه المعاني وجاء بالهجر والوصل والقطيعة والتعزز والمراسلة ومسألة الرقيب والعذل، ونحو ذلك.



obeikandl.com

الجليس الصالح

الجليس الصالح مُنْيَةُ من يتمنى، وهو مطلب لكن يعَزُّ وجوده برغم كثرة من يجلس مع الإنسان، إذ يجعلون شروطاً في الجليس الصالح: أن يكون ظاهره وباطنه سواء، وأن يكون وافياً لك في الغيب والمشهد، وألا يؤذيك في الجلوس. حتى يقول ابن عباس، وهو من خيرة كلامه: «**وَاللهِ مَا أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ جَلِيسِي، وَلَو اسْتَطَعْتُ أَنْ أُنَفِّرَ الذُّبَابَ عَنْهُ لَفَعَلْتُ**». وقالوا: إن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وفائه وأصالته كان يُكرم جليسه إكراماً عظيماً، وقال: «**رَجُلٌ تَخَطَّى النَّاسَ إِلَيَّ**

وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِي أَلا يَكُونُ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيَّ». فهم يتبارون في خدمة الجليس الصالح؛ لأن الجالس الصالح هبة من الله يعينك على طاعة الله ويقربك من معالي الأمور، ويحفظك من مجلسك وإذا رآك أخطأت واغتبت ردَّكَ بلُطف، تجد عنده من الفائدة ومن الرأي السديد ما الله به عليم.

فهذا المسعر بن كدام أحد المحدثين الأولياء وكان عنده جلاس، يقول: اشترط عليهم ثلاثاً: ألا ينقلوا خبراً عن إنسان، وألا يغتابوا أحداً، ولا يكذبوا.

فيقول ابن المبارك:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسَاً جَلِيسَاً صَالِحَاً ... فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ

فِيهَا الْمَوَدَّةُ وَالْكَمَالُ وَأَهْلُهَا ... أَهْلُ الْوَقَارِ وخِيْرةُ الأَقْوَامِ

يقول: إن كنت تريد جليساً صالحاً يساعدك على طاعة الله والمعرفة، وتستفيد علماً نافعاً فهلمّ إلى حلقة مسعر بن كدام تجد فيها ما يسرك. وابن المبارك له بعض الحكم، فيقول:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمَاً ... ائْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدِ

حماد بن زيد محدث كبير من درجة الإمام مالك بن أنس، اسمه حماد بن زيد بن درهم، وآخر اسمه حماد بن سلمة بن دينار، فقيل لأحد العلماء: أيهما أفضل؟. قال: كما بينهما في الصرف؛ لأن الدينار بعشرة دراهم، ذاك حماد بن سلمة بن دينار أفضل في العبادة والولاية، وإلا فحماد بن زيد أوثق منه في الحديث والرواية، وكلاهما عالمان جليلان كبيران، فيقول ابن المبارك:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمَاً ... ائْتِ حَمَّادَ بْنَ زَيْدِ

فَاسْتَفِدْ عِلْمَاً كَثِيرَاً ... ثُمَّ قَيِّدْهُ بِقَيْدِ

وَاتْرُكُوا الْبِدْعَةَ مِنْ ... آثَارِ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدِ

عمرو بن عبيد معتزلي له آراء مخالفة للحق وللكتاب والسنة.

فيقول: إذا بحثت عن إنسان، فابحث عن إنسان تستفيد منه، وينفعك ويدلك على الخير وعلى معالي الأمور. وأبو تمام يصف أحداً، يقولون: يصف المعتصم، والله أعلم. فيقول:

وتـراه يصغي للحديث بقلبه وَبِسَمْعِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

يقول: من حسن جلوسه مع الناس أنه يصغي للقصة وربما سمعها. فبعض الناس لطيف تقص عليه القصة وقد سمعها عشرين مرة فيقول: ما شاء الله! عَجَبٌ. وهو عارف بها لكن من حسن أخلاقه. وبعضهم إذا بدأت بالقصة يقطع عليك الحديث ويقول: سمعنا به أكثر من مرة، أو من ثلاثين مرةً. وإذا حدثته بقصة قال: أعرفها. وإذا قلت له بيتاً قال: حفظته وأنا في الابتدائية. فلا يتركك تشارك أبداً ويستولي على المجلس، فهو يخبرك؛ قال وخرج ودخل وقام وقعد وقرأ ونشر وكتب، أخبار فقط وهذا يُسمى الثقيل، حتى يقول الشافعي إذا رأى ثقيلاً: ربنا اكشف عنا العذاب إنا موقنون. وقال الشافعي: والله إن المجلس يمج الثقيل؛ لأن الأرض تميل في جهته.

ويقولون: إن ابن تيمية كان إذا رأى ثقيلاً قال: هذه حمى الربع. وحمى الربع حمى تأخذ ربع الجسم.

وقيل لابن المبارك: من هم الثقلاء؟. قال: المبتدعة. وقيل لأحدهم: من هم الثقلاء؟. قال: السفلة الذين يأكلون الدنيا بالدين. وغير ذلك، حتى يقول أحد الشعراء:

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتَهُ كَانَ الْحِلْمُ رَدّ جَوَابِهِ

يقصد بالإنسان: الجليس. لأن بعض الناس آتاه الله عزوجل خلقاً؛ إن يصدر عنك يغفر الزلة، أي: يتغافل ويتغابى، كأنه ما سمع شيئاً. حتى يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فليس الغبي السيد، بل المتغاضي هو الذكي، التغافل عن هفوات الجليس هو من أحسن ما يكون، ولذلك تجد العقلاء والوجهاء والدهاة الذين أكل عليهم الدهر وشرب يسمع أحدهم بعض الكلام ويسكت كأنه ما بلغه شيء ويدفن الموضوع، فيقول: ما حصل بأس، وكل شيء على ما يُرام. تمشي الأمور فيكسب العفو والحب والصفح والله يؤيده عزوجل، أما من يحاسب كل الناس على كل حال، فلا يبقى له صديق، يقول أحدهم لصديقه:

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتَ لاءً ... مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلا تَحِلُّ

يقول: ما تقول: لا. إلا في لا إله إلا الله. يعنى هذا من كرمه.

إِذَا حَلَّ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ ... وَإِن حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلُّ

يقول: أنت في الشتاء مثل الشمس بدفئها علينا، وفي الصيف مثل الظل نستظل به. فبعض الأصدقاء هكذا، فبعضهم إذا دخلت عليه سلاَّك من الهموم وخفف عنك، وإذا ذكرت له مشكلة قال: لا عليك، إن مع العسر يسراً، ماذا تطلب؟ أنا معك أذهب معك سوية وعرضي دون عرضك وجاهي جاهك، والأمور يسيرة وأنا وجدت لك حلاً. وبعضهم إذا حضرت قال: حسبي الله، يا أخي، من ورطة إلى ورطة، هذه مشكلة ما لها حل ولا لها ربط. فيزيدك هماً إلى هم وغماً إلى غم، ومثل هذا ينبغي ألا يُخالط.

يقول زهير بن أبي سلمى في جلساء آل هرم بن سنان وكانوا يجلسون في مجالسهم ولا ينطقون بالفحشاء ولا بالعوراء:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ ... طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا

لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزَعِ اللهُ مِنْهُم مَا لَهُ حُسِدُوا

ويمدحهم في مجلس آخر، يقول: ما أحسن مجالسهم! بسمة ورضا وتآمر بالمعروف وكرم، ولا يغتابون أحداً. قال كعب في آل هرم بن سنان:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٍ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القول وَالْفعْلُ

عَلى مُكثِريهِم رِزقُ مَن يَعتَريهِمُ وَعِنْدَ الْمُقِلّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

قال: أغنياؤهم يعفون وفقراؤهم يُضيّفون، ولا فقير فيهم، فالفقير يدخل عند الغني والجائع يدخل عند الكريم. كلهم متشاركون فيما أعطاهم الله ﷻ متعاونون متكاتفون، حتى يقول ﷺ في الأشعريين الذين منهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لما وفدوا من اليمن ورآهم النبي ﷺ: «**نِعْمَ الْوَافِدُونَ؛ إِذَا أَرْمَلُوا جَمَعُوا طَعَامَهُمْ فَأَكَلُوا سَوِيَّةً**». أو كما قال ﷺ: «**وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَسَاكِنَ الْأَشْعَرِيينَ بِاللَّيْلِ وَأَنَا لَمْ أَرَهَا بِالنَّهَارِ**»؛ من دويهم بالقرآن بالليل ومنهم أبو موسى رضي الله عنه الذي مر به ﷺ في المسجد وإذا هو يقرأ وما علم أن الرسول ﷺ في طرف المسجد، وإذا بأبي موسى الأشعري رضي الله عنه أُوتِي مزماراً من مزامير آل داود؛ يُوقِف الإنسان إذا مشى.

يقول أحد الصحابة: سمعت أبا موسى يُصلي المغرب فوالله الذي لا إله إلا هو ما سمعت ناياً ولا عوداً ولا وتراً أجمل من صوته. فمر ﷺ عند المسجد وإذا بأبي موسى رضي الله عنه يقرأ وما علم أبو موسى رضي الله عنه، فوقف النبي ﷺ يسمع أبا موسى يرسل صوته وأخذ رسول الله ﷺ يرسِلُ دموعه، وفي الصباح لقيه ﷺ قال: «**لَوْ رَأَيْتَنِي يَا أَبَا مُوسَى وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ** -وهو أُنْزِلَ عليه القرآن ﷺ- **قَالَ يا رَسُولَ اللهِ أَإِنَّكَ كُنْتَ تَسْتَمِعُ لِي؟!. قَالَ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ لَكَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ. قَالَ: وَاللهِ - يَا رَسُولَ اللهِ - لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا**». فيقول: ليتني كنت أعلم بك لكنت رجَّعته وحسّنته وجوّدته ورفعت وخفضت في هذا الكتاب، لكنني ما كنت أعلم.

نعود إلى آل هرم بن سنان. يقول:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٍ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا النُّبْلُ وَالْفَضْلُ
عَلى مُكثِريهِم رِزقُ مَن يَعتَريهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّي إِلاَّ وَشِيجُه ... وَتُغْرَسُ إِلاَّ فِي مَغَارِسِها النَّخْلُ؟
جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَأَبْلاَهُمُ خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فوصفهم بأن عليهم الرضا والسكينة، أي: على وجوههم فإذا أتيتهم رحبوا. أحياناً فلُّ الحجاج وانبساط الوجه وبسمة الفم أحسن من الضيافة، ماذا تريد من إنسان يضيفك وهو مُقَطِّبُ الجبين، ويصيح على أبنائه؟! ليس الطعام كل شيء، لكن الإنسان الذي يرحب ويحيي ويسألك عن الأخبار والأمطار والعيال والأولاد، فتجده كأنه يهدي لك الحياة، حتى يقول أحدهم:

أُحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيبُ

فتجده إذا جاء الضيف يقول: يا حياك الله أهلاً وسهلاً، بارك الله فيكم، تفضلتم علينا بهذه الزيارة. هذا هو المؤمن الكريم وتجده يتحدث معه ويؤانسه، حتى إنهم يقولون: إن أحد الكرماء كان يسهر مع ضيوفه. حتى يقول فيه أحد الشعراء:

مُتَيَّمٌ بِالنَّدَا لَوْ قَالَ وَافِدُهُ: ... هَبْ لِي-فُدِيتَ-كَرَى عَيْنَيْكَ لَمْ يَنَمِ

يقول: هو عاشق للندى ومصاب بمسألة الكرم والسخاء. والوافد: هو الضيف. فلو قال له الضيف: أعطني النوم الذي في عينيك. لقال: تفضل، خذ النوم. فهو يكرمه ويسهر معه ويؤانسه ويكون معه في وقته كله، حتى يرتحل عنه الضيف، هذا هو الجليس الصالح.

حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ذهب عند آل جفنة بن مارية من الغساسنة مدحهم وتأثر بمجالسهم، حتى بعد الإسلام حن إلى تلك المجالس من الوفاء، وقد كانوا في دمشق من ملوك غسان، فقال فيهم:

لله دَرُّ عُصَابَةٍ صَاحَبْتُهُمْ ... يَوْمَاً بِجَلَّقَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

أَوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهُمُ ... قَبْر بْن مَارِيَّةَ الْكَرِيمُ الْمُفْضل

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهرّ كِلابُهُمْ ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

يقول: في مجالسهم هذا ينزل وهذا يطلع وهذا يُرَحَّب ويدخل، وهذا يدخل وهذا يمشي، مفتوحة الأبواب، حتى إن الكلاب تعبت عند الباب من النبح. بسبب كثرة الوافدين، فسكتت لأنها أنست بالناس، وإذا أقبل الإنسان من هناك لا يقولون: مَنْ؟. فلا تحقيق عند الباب؛ لأن بعض الناس يضع رصداً عند بابه ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]. أولاده وعنده حارس عند الباب يقول لكل من يأتي: لماذا أتيت في هذا الوقت؟ وماذا تريد من الوالد؟ أعطنا اسمك ورقمك، ثم فيما بعد نتصل بك. أما بعضهم فمشرع الأبواب، حتى يقول في مثل هذا ابن شلاح:

امل الوجار وخل الباب مفتوح ... خوف المسير يستحي ما ينادي

يا نمر ما في صكة الباب مصلوح ... ولا خير فيها يا مظنة فؤادي

تصلح الرجال اللي يبي يشتري الروح ... والا فعليه ولا يعتمدها اعتمادي

رجال تقصيره مع الناس مسموح ... لاجل إن ماله في القديمة شدادِ

ما سبق له أن ضيَّف ولا ضيَّفَ أبوه ولا ضَيَّف جده فهو معذور، حتى لو قصر قالوا: معذور. أي: يسامحونه. لكن الرجل الشهم الْمُجَرَّب في المواقف، فيقولون: أنت فلان وتفعل هذا؟!

كان عمر رضي الله عنه يخطب على المنبر يوم الجمعة وهو خليفة وأمير المؤمنين وفي أثناء ما يخطب وإذا بعثمان بن عفان رضي الله عنه وهو من العشرة المبشرين بالجنة وثالث الخلفاء الراشدين، يأتي في وقت الخطبة ويدخل المسجد وهو واقف، فقطع عمر الخطبة والناس جلوس وعلماء الصحابة رضي الله عنهم شهداء الصحابة كبار الصحابة، فقال عمر لعثمان: «**أَتَأْتِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؟!!. فَقَالَ عُثْمَانُ** رضي الله عنه: **وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ الْجُمُعَةُ إِلاَّ الآنَ فَتَوَضَّأْتُ فَأَتَيْتُ. قَالَ عُمَرُ** رضي الله عنه: **وَالوُضُوءُ أَيْضاً؟! وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وسلم **كَانَ يَأْمُرُنَا. فَصَلى**». فدل على أن الغسل مُستحب وليس واجباً؛ لأنه لو كان واجباً لعاب على عثمان رضي الله عنه تركه، وهذا في قول الجمهور، الشاهد أنه يصعب على الناس إذا كان الرجل ذا مكانة، ثم رأوه قصَّر في الواجب قالوا: كيف تفعل وأنت كذا؟!. مثل الطالب المجد الممتاز المجد في الفصل إذا نام أو لم يحل الواجب تقول: سبحان الله! أنت تفعل كذا؟!. أما البليد الكسول فتقول: له سوابق فلا يؤخذ عليه مثل ما يؤخذ على الثاني.

لكن أحسن جليس هو الكتاب، وكما يقول أبو الطيب المتنبي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ

أي: ظهر الفرس. لأن فيه المجد والشرف والسؤدد.

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وكان السلف والأخيار يجلسون مع الكتاب، وكان ابن المبارك له كتب يضعها عن اليمين وعن الشمال كتب الحديث والفقه والتفسير، ويقول أحدهم في الكتب:

لَنَا جُلَسَاءُ لا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبَاً وَمَشْهَدَا

فإنهم وهم حضور نحبهم وهم غياب نأمنهم على أسرارنا، ولا يغتابون وهي الكتب، تدخل مكتبتك وتقرأ ما شئت وتطلب الكتاب ولا يغتابك ولا يؤذيك ولا ينقل عنك سراً لا يتعرض لك ولا يثقل عليك، ولكن من يعرف هذه الأمور؟!

جلس أحد الشعراء مع أصدقائه، فانشرحوا في المجلس، قالوا: صف لنا هذا المكان. قال:

وَلَمَّا جَلَسْنَا مَجْلِسَاً طَلَّهُ النَّدَى جَمِيلاً وَبُسْتَانَاً مِنَ الرَّوْضِ نَادِيَا

أَثَارَ لَنَا طِيبُ الْحَدِيثِ وَحُسْنُهُ مُنَىً فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتَ الأَمَانِيَا

يقول: تمنينا ونحن جلوس، فكُنْتَ أنت الأمنية، تمنينا لو أنك معنا.

ولذلك قال عمر للصحابة ﷺ وهم جلوس وأبو عبيدة ﷺ في الشام يُقاتل ويجاهد مع الجيوش ويفتح الدنيا بلا إله إلا لله، قال: «**تَمَنَّوْا**». فتمنى أحدهم الشهادة في سبيل الله، والثاني العفو والعافية، والثالث العلم النافع، والرابع الذرية الطيبة، فقال عمر ﷺ: «**لَكِنِّي أَتَمَنَّى مِلْءَ هَذِهِ الْغُرْفَةِ رِجَالاً مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ**». فقط أن تمتلئ هذه الغرفة بأمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ.

ولما ذهب عمر يفتح بيت المقدس لقيه أبو عبيدة مع الجيوش فسلم عليه، ولما أتى الليل قال أبو عبيدة ﷺ: «**تَعَالَ يَا عُمَرُ، نَتَبَاكَى أَنَا وأنت هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي جَنْبِ اللهِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**». وهم كانوا أوفياء ﷺ.



obeikandl.com

الحكمة

الحكمة وكيف نطق الشعراء والأدباء بالحكمة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي السداد في القول والعمل، وإذا ذكرت في القرآن فهي السنة، ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. أي: السنة. لكن إذا أُطلقت فالمقصود بها السداد والصواب والاستقامة في كل الأمور، قال ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسحرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**». فالشاعر ينطق بالحكمة.

ولذلك تبارى الشعراء في أن يسطر كل واحد منهم تجاربه في بيت أو بيتين، حتى إن أحدهم يختصر حياة عشرين سنة أو ثلاثين سنة في بيت، فإذا فهمت هذا البيت وطبقته في حياتك استغنيت عن مجلدات من التجارب ولم تحتج إلى أن تعيش التجربة نفسها، يقول أحد الشعراء:

وَمَنْ كَمُلَتْ فِيهِ النُّهَى لا يَسُرُّهُ ... نَعِيمٌ وَلا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

هذه حكمة وهذا البيت من أحسن ما يكون، يقول: إن الإنسان العاقل إذا كمل عقله ونضج ما عاد يفرح بإقبال الدنيا، ولا يأسى على إدبارها ومصائبها، إذ انتهى إلى قناعة بأنا زائرون مُنْتَهُون مرتحلون، وأن السعادة في جوار رب العالمين عزوجل . ولذلك على هذه القصيدة - لما أعجبني هذا البيت - نظمت:

سَلا الْقَلْبُ عَنْ غِيْدٍ صَفَتْ وَحِسَانِ ... وَأَهْمَلَ ذِكْرَ الْمُنْحَنَى وَعُمَانِ

وَمَا عَادَ يُلْهِينَا الصَّبَا بِأَرِيجِهِ ... وَلَوْ فَاحَ بِالرَّيْحَانِ وَالنَّفَلانِ

وَخَطَّ بِرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةَ عَاشِقٍ ... يَقُولُ: احْذَرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلانِ

شَرِبْنَا لَيَالِي الصَّفْوِ في كَأْسِ غَفْلَةٍ ... وَجَاوَزْتُ بَعْدَ الأَرْبَعِينَ ثَمَانِي

فَمَرَّتْ كَأَحْلامِ الرَّبِيعِ سَرِيعَةً ... فَأَيَّامُهَا فِي نَاظِرَيَّ ثَوَانِ

فَلَوْ أَنَّنِي أُرْمَى بِقَوْسٍ دَفَعْتُهُ ... بِحِدَّةِ قَلْبٍ وَاحْتِدَامِ جَنَانِي

وَلَكِنَّ قَوْسَ الْعُمْرِ يُمْكِنُ أَسْهُمَاً ... وَمَا لِلْفَتَى فِي رَدِّهِنَّ يَدَانِ

وَفِي أَرْبَعِينَ الْعُمْرِ وَعْظٌ وَعِبْرَةٌ ... وَيَكْفِيكَ عِلْمَاً شَاهِدُ الرَّجَفَانِ

فَلا تُسْمِعَنِّي وَعْظَ قُسٍّ وَلا تَسُقْ ... عَلَيَّ مَقَامَاتِ الْفَتَى الْهَمَذَانِي

فَعِنْدِي مِنَ الأَيَّامِ أَبْلَغُ عِبْرَةً ... عَلَى مِنْبَرٍ تُلْقَى بِكُلِّ لِسَانِي

وَلَمَّا اتَّخَذْتُ الْعِلْمَ خِدْنَاً وَصَاحِباً ... تَرَكْتُ الْهَوَى وَالْمَالَ يَنْتَحِبَانِ

جَعَلْتُ الْقَوَافِي الصَّافِنَاتِ مَرَاكِبِي ... كَأَنَّ الضُّحَى وَاللَّيْلَ قَدْ حَسَدَانِي

فلا تُـرِكَ الـدُّنْيَـا بِـلَـهْـوٍ فَـإِنَّـهُ ... يُعَاقُ مَسِيرُ الشَّمْسِ بالدَّبَرَانِ
فَقَدْ هَدَّ قِدْمَاً عَرْشَ بَلْقَيْسَ هُدْهُدٌ ... وَخَـرَّبَ فَـارٌ مَـا بَـنَـى الْـيَـمَـنَـانِ
وَجَـدِّي أُوَيْـسُ الأَزْدِ أَفْضَـلُ تَـابِعٍ ... عَلَى صِدْقِ قَوْلِي يَشْهَدُ الْقَمَرَانِ
فَلا تَحْسَبِ الأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَظَى ... وَلَـوْ كُنْتَ مِـنْ قَيْسٍ وَعَبْد مَـدَانِ
أَبُو لَهَبٍ فِي النَّارِ وَهْوَ ابْن هَاشِمٍ ... وَسَلْمَانُ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنْ خُرَسَانِ

وعلى هذا البحر للمتنبي قصيدة من أروع قصائده، يقول الواحدي الذي شرح ديوانه: هذا والله هو المدح، ما مُدِحَ ملك بمثل هذا المدح. مدح بها كافورًا يقول:

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ ... وَلَـوْ كَـانَ مِـنْ أَعْـدَائِـكَ الْـقَـمَـرَانِ
وَلله سِـرٌّ فِـي عُـلاكَ وَإِنَّـمَـا ... كَلامُ الْـوَرَى ضَـرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ
بِـرَغْـمِ شَبِيبٍ فَـارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ ... وَكَـانَا عَلَى الْـعِلاَّتِ يَصْطَحِبَانِ

لأن شبيباً قاتل كافورًا، ثم سقط، إذ أُغْمِي عليه، فوقع السيف منه، فقُتِل.

كَـأَنَّ رِقَـابَ النَّـاسِ قَـالَـتْ لِسَيْفِهِ ... رَفِـيـقُـكَ قَـيْـسِـيٌّ وَأَنْـتَ يَـمَـانِي

لأن شبيباً قيسي والسيف يماني.

قَضَـى اللهُ يَـا كَـافُـورُ أَنَّـكَ أَوَّلٌ ... وَلَـيْـسَ بِقَاضٍ أَنْ يُـرَى لَـكَ ثَانِ

إلى آخرها، والقصائد هذه من أجمل ما يكون.

يقولون: إن الأعور السلمي ضاع له ابن وهو ابن وحيد، فبكى وبكى، حتى بكى بعينه الثانية، كان بعين واحدة وعينه الثانية العمياء بكى بها، فقال:

بَكَيْتُ بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ ... وَعَـيْـنٌ بِـهَـا رَيْـبٌ مِـنَ الْـحَـدَثَـانِ

يقول: حتى الثانية بكت معها.

عَذِيرُكِ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةُ، والْبُكَا فَمَالَكِ يا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلانِ

شاركت فيه من شدة المصاب.

والحطيئة سجل بيتاً في التاريخ يُعد من الشوارد، يقول - لما هجا الزبرقان -:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

ثوابك عند الله عز وجل سواء كافأك الناس أو لا. كن أنت البار وكن أنت المحسن، لا تُسئ أبداً، فإن الله سوف يثيبك إذا لم حفظ جميلك أحد.

فكَانَ ﷺ إذَا جاءه الْخَبَرُ قَالَ:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

يقول: سوف تُظهر لك الليالي، وسوف تبين لك علومًا، وسوف يأتيك أناس بأخبار وأنت ما طلبت منهم هذه الأخبار، لكن هكذا شيمة الأيام.

ومن أحسن القصائد وأشهرها قصيدة أبي تمام، يوم هنأ المعتصم بفتح عمورية، قال:

فَتْحٌ تَفَتَّحَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشُبِ

يقول أبو تمام: إن نصرك هذا تُفتح له أبواب السماء. وذلك لما ضُرِبَتِ امرأة في عمورية، وقالت: وامعتصماه! وأقسم بالله لينصرنها وسار بالجيش فقال له المنجمون: لا تذهب؛ لأن البرج في العقرب، والعقرب إذا قاتل فيه الإنسان ينهزم. قال: آمنت بالله وكفرت بعلم نجومكم هذا. فهزئ أبو تمام بالمنجمين، وقال:

أَيْنَ الدِّرَايَةُ بل أَيْنَ الرِّوَايَةُ؟! كَمْ صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

يَقْضُونَ بِالأَمْرِ عَنْهَا وَهْيَ غَائِبَةٌ مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخْفِ مَا حَلَّ بِالأَصْلابِ وَالنُّصُبِ

فَالنَّصْرُ فِي شُهُبِ الأَرْمَاحِ لامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

خَلِيفَةَ اللهِ، جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جَرْثُومَةِ الدِّينِ وَالأَخْلاقِ وَالنَّسَبِ

بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها ... تُنالُ إِلاّ عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ

إِن كانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ ... مَوصولَةٍ أَو ذِمامٍ غَيرِ مُنقَضِبِ

فَبَينَ أَيّامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بِها ... وَبَينَ أَيّامِ بَدرٍ أَقرَبُ النَّسَبِ

إلى أن يقول:

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... للهِ مُرتَقِبٍ فِي اللهِ مُرتَغِبِ

وهي سبعون بيتاً أعطاه على كل بيت ألف دينار، مبلغ ضخم يستحقه، وأولها قوله- وهذه الحكمة التي قصدت أن أصل إليها -:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وعارضه وسايره عبد الله البردوني شاعر اليمن الكبير المعاصر، يقول:

ما أَصْدَقَ السَّيْفَ! إِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْكَذِبُ ... وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ

بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَطْلُبُهَا ... أَيْدٍ إِذَا غَلَبَتْ يَغْلُو بِهَ الْغَلَبُ

وَأَقْبَحَ النَّصْرَ نَصْرَ الأَغْبِيَاءِ بِلا ... فهمٍ سِوَى فهمِ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسِبُوا

مَهْلاً - هُدِيتَ - أَبَا تَمَّامَ تَسْأَلُنِي ... كَيْفَ احْتَفَتْ بِالْعِيدِ حَيْفَاءُ وَالنَّقَبُ

أي: إسرائيل، التي جاءت عندنا لماذا غلبتنا؟

نَادَيْتَ فِي الْجَيْشِ عَمُّورِيَّةً اتَّقَدَتْ ... مَاذِي النُّجُومُ فُنحنُ السَّبْعَةُ الشُّهُبُ

حضرت الجيوش وقال: لا نجوم، هذا كلام فارغ، نحن السبعة الشهب، أي: جنود المعتصم. إلى آخر ما قال، فالشاهد قول أبي تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

الكتاب له دور والقلم له دور والسيف له دور، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

يقصد السيف.

تَوَهَّمَ القَومُ أَنَّ العَجْزَ قَرَّبَنا وَفي التَقَرُّبِ ما يَدعُو إِلى التُّهَمِ

يقول: من يحاول المجد يريد الملك والسؤدد بغير الهندي؛ السيف الأبيض أجاب كل سؤال عن: هل. قائلاً: لم، لم. ولذا يقول:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

في أبيات له، فهنا جاء بهذه الحكمة.

ومن الحكمة قول زهير في ميميته المشهورة وهي المعلقة:

ومَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وهذا خطأ، بل لا يجوز الظلم ولا العدوان على الناس، لكنه مبدأ الجاهلية، يقول: عليك أن تبدأ الناس بالظلم؛ كي لا يظلموك ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. لكن صحيح أن من لم يذد عن حوضه يهدّم، مع أن الأولى ألا تظلِمُوا ولا تُظلموا؛ فلا ضرر ولا ضرار، لا تعتدِ ولا تترك أحداً يعتدِي عليك، ومن اعتدى عليك فجزاء سيئة سيئةٌ مثلها، ومن عفى فأجره على الله.

ويستمر في هذا إلى أن يأتي ابن دريد، فيقول:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثَاً حَسَنَاً لِمَنْ وَعَى

يقول: أصل الإنسان ذكرى جميلة بعدما يموت، فسجل لك تاريخاً طيباً، فلا تعادِ الناس ولا تؤذِهم، لا تكن مصدر تعاسة لأحد، ولا تتسبب في إزعاج أحد، كن

محبوباً إذا مُت يبكي عليك الجيران والخلان، سجل لك صفحات ناصعة من البر ومـن فعل الخير، زُرّ مسكينـاً وواسِ منكوباً، وقف مع الأرملـة وواسِ محروماً؛ كي تسجل لك أفعالاً حسنة.

ونعود للمتنبي صاحب الحكم؛ فله خمس مئة بيت تدور على ألسنة الناس في الحكمة، يقول:

وَمِـنَ الْـعَـدَاوَةِ مَـا يَـنَـالُـكَ نَفْعُهُ وَمِـنَ الصَّدَاقَةِ مَـا يَضُـرُّ وَيُؤْلِـمُ

بعضـ الأعداء يجعلـك أحياناً تتحفـز وتهتم ويتسبب في بـروزك ومكانتك، ويجعـل لك عطـاء فتهتم بنفسك واسمك، وتعرف عيوبـك ويكشف لك أخطاءك، ويدلـك على زللك؛ لأنه ينافسك ويحسـدك، وبعض الأصدقاء مصدر شقاوة لك، فبعضـ الأصدقاء أحياناً يجر لك الويـلات، فتجده أعرف الناس بأسرارك، حتى يقول أحدهم:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً وَاحْـــذَرْ صَـدِيـقَـكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ
فَـلَـرُبَّـمَـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـقُ فَـكَـانَ أَوْلَـــى بِـالْـمَـضَـرَّهْ

فتجـد الصديق إذا انقلب عليك صار ناراً حارقة؛ لأنه كشف تاريخك وعرف سجلـك كله، صرت أمامـه مكشوفاً، ثم نعوذ بالله من الصديـق إذا انقلب عدواً، فإنه النار المحرقة، فانظر الحكمة.

ويقول المتنبي عن الزمان:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَـنَـاهُـمْ مِـنْ شَـأْنِـهِ مَـا عَـنَانَا
وَتَـوَلَّـوا بِـغُـصَّـةٍ كُـلُّـهُـم مِـنْـ ـهُ وَإِن سَـرَّ بَـعضَـهُـم أَحيانا
رُبَّـمَـا تُـحْسِـنُ الصَّنِيعَ لياليه وَلَـكِـنْ تُـكـدِّرُ الإِحْـسَـانَـا

أبيات جميلة بلا شك، فيقول: إن الناس عانوا من الليالي مثلما عانينا ومروا بمثلما مرّ بنا، وتغيرت بهم الأحوال، وأحياناً تأتيك مسرات، لكن فيها كدراً وفيها مزعجات.

كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً ... رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانَا

يقول: تجد الآن في الغابات أشجاراً للنماء وللخضرة وللبركة وللجمال، ثم يأتي إنسان ويقطعها ويركب فيها رمحاً ويأخذ منها شجراً ويركبها مقبضاً للسيف؛ لكي يطعن بها الناس ويقتل بها البشر. فالإنسان يُخرِّب الطبيعة - في الغالب - إذا كان شريراً، يحول الخيرات إلى مواد سامة وقاتلة ومواد عدائية للبشر، ولا يريد الإصلاح، يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٥-٢٠٦].

والمتنبي يقول لسيف الدولة:

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُم ... فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

يقول: نعلم إنك من آدم وحواء، ولكن أنت أجود منهم- وهذه مبالغة- مثلما أن دم الغزال منه المسك.

ويقول- وهو من أجمل أبياته-:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ

يقول: لو كانت الأمور سهلة لكان كل الناس أجاويد وكلهم شجعان، ولكن الجود يفقر فالجواد والسخي إنما فعل ذلك مغامرة منه، وإلا فليس سهلاً دفع المال، وكذا الشجاعة، فالشجاع فعل ذلك مغامرة منه وإلا فليس سهلاً بذل الأنفس، لأن قبلها يقول:

لا يُـدْرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

وهو يقول في أول الأبيات وذاك من أجملها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إذْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

إلى أن يقول:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

يقـول: هـذ الزعيم استوجـب الأفعال الجميلـة والأخلاق الجليلـة والمدائح النبيلـة؛ لأنه ينفق مالـه، والمال إذا أنفقته خفت من الفقـر. ولذلك تجد البخيل يحسِـب ألـف حساب وتجـده يُعدد دراهمه، يقولـون: كان عند بخيـل كيس، وكان يُخرج الدراهم قبل النوم فيقبلها ذات اليمين وذات الشمال، ويقول للدرهم: طبت حياً وطبت ميتاً، والله ما تخرج من هذا الكيس إلا إلى القبر. ثم يعيده.

ولذلـك فـالله عزّ وجلّ ذم البخيـل أميـة بـن خلـف: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١ - ٤]. كان ذاك الحسيس الخاسـر الذي حـارب الدعوة يعدّد دراهمه، فخلَّدها، ومات مذمومًا، فذلك المتنبي يقول:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الْجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ



obeikandl.com

المجد

المجد الـذي يتغنى به الشعـراء والأدباء هو انتصار الأمة، وهو رفعة كلمتها وسؤددها وبقاؤها وانتصارها على سائر الأمم بالحق والعدل والعلم والمعرفة، وأعظم أمة عرفتها البشرية -بلا تحيُّزٍ عاطفـي- هي أمة الإسـلام، ولذلك سار الشعراء كلٌّ يذكـر المجـد علـى سبيلـه؛ فمنهـم أبطـال الاستقلال ورمـوز الفاتحيـن والمنتصرين، لكن عبَّروا بقصائد تحفظها الأجيال، ففي العراق لما طرد المحتل يقول شاعرهم:

obeikandl.com

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: إنهم طلبوا منا ثمناً والثمن كان الدماء، فتوكلنا على الله ودفعنا دماءنا.

والسوريون لما ضربوا الفرنسيين وطردوهم من بلادهم يوم الجلاء جاء شوقي يبارك لهم هذا الانتصار، فقال:

سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ وَدَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْذِرَةُ الْيَرَاعةِ وَالْقَوَافِي جَلاءُ الرُّزْءُ عَنْ وَصْفٍ يَدِقُّ
دَخَلْتُكِ وَالأَصِيلُ لَهُ ائتِلاقٌ وَوَجْهُكِ ضَاحِكُ القَسَمَاتِ طَلْقُ

إلى أن قال:

وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءُ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْرِفُ أَنَّهُ صِدْقٌ وَحَقُّ

فهذا دل على أنه ينبغي وجود التضحيات لرفع الدين الحق، التضحية بالعلم والجهد وبالوقت والقلم والبيان؛ لتكون الأمة ذات سؤدد، يقول الزبيري:

يَوْمٌ مِنَ النصر لَمْ تَصْنَعْ أَشِعَّتُهُ شَمْسُ الضُّحَى بَلْ صَنَعْنَاهُ بِأَيْدِينَا

وهو يعني الانتصار والمجد الذي حازوه والذي أعلنوه، فالأمة إذا كانت أمة سؤدد عرفت أنها أمة مستخلفة، وأمة رسالة في العالم، ولها كيان ولها تاريخ مشرق حرصت على تربية أبنائها على المثل العليا، وعلى أن رموزها وأعظمها محمد ﷺ أقدس القداسات، والخلفاء الراشدون بعده والأئمة الفاتحون والعلماء المجددون والأئمة العدول والولاة المصلحون، صارت أمة بحق تستحق أن يقول لها الشاعر:

يَا أُمَّةَ الْمَجْدِ، قُومِي مَزِّقِي الْحُجُبَا وَأَشْعِلِي فِي لَيَالِي دَهْرِكِ الشُّهُبَا
لا تَذْكُرِينَ صَلاحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً مِنْ غَيْرِ بَذْلٍ؛ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

لا يكفي فقط أن نجتر الماضي، فالأسلاف أصلحوا وأفلحوا ونجحوا، لكن ماذا فعلنا نحن؟!

لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي إنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا
إذَا فَخَرْتُ بِآبَاءٍ بِهِمْ كَرَمٌ نَعَمْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

بل أرنا من نفسك أنت ابناً، كما يقول الأول:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمَاً عَلَى الأَجْدَادِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

قال أبو جعفر المنصور:

نَبْنِي فَوْقَ مَا فَعَلُوا وَنَفْعَلُ فَوْقَ مَا فَعَلُوا

وهذا هو الابن دائماً يكون أقوى ويحرص على أن يكون أحسن من أبيه ومن جده بأفعاله الحميدة وبسيرته المجيدة، فهنا يقول:

لا تَذْكُرِينَ صَلاحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً مِنْ غَيْرِ بَذْلٍ؛ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

هو انتهى، لكن أنت جدِّد واكتب وسِرْ على ما سار عليه الأول.

ومن الأبيات الجميلة في هذا الباب الذي أنشده الناس يوم العدوان الثلاثي، يوم خرج المصريون يكبرون ويُهَلِّلون على العدوان الثلاثي الذي تعرضت له بلادهم وأوطانهم، حتى يقول شاعرهم:

أَخِي! جَاوَزَ الظَّالِمُونَ الْمَدَى فَحَقَّ الْجِهَادُ وَحَقَّ الْفِدَا
أَنَتْرُكُهُمْ يَغْصِبُونَ الْعُرُوبَةَ أَرْضَ الْأُبُوَّةِ وَالسُّؤْدَدَا
فَجَرِّدْ حُسَامَكَ مِنْ غِمْدِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدُ أَنْ يُغْمَدَا

للسيف موضع وللحوار موضع وللين موضع وللرفق موضع ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فالذي يعتدي علينا نرد عدوانه، نحاور من حاورنا، ونسالم من سالمنا، ونحارب من حاربنا، هكذا الإسلام ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأبو الطيب المتنبي يقول:

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ما قام كيان في العالم ولا دولة في العالم إلا بالقوة وبالمناعة والعزة

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

فالولايات المتحدة الأمريكية توحدت بالدم، وثورة فرنسا بالدم، وثورة ألمانيا بالدم، والإسلام قام على العدل والإنصاف لكن قام بقوة وعزَّة وسؤدد، فمن أحب العدل أُعْطِي العدل، ولكن إذا جار وظلم وأراد الاعتداء وأراد الإفساد فما حقه إلا أن يؤدب، فيجب أن يُفرَّقَ بين هذا وبين هذا، لأن بعضهم ينشر أنه ليس عندنا جهاد ولا سيف وأنا أناس طيبون محبوبون نحب الحوار، وهذا تدجين للأمة؛ نحن أمة عدة وأمة سلام ولكن أمة قوة، وأمة محبة وحوار ولكن أمة سؤدد، وأمة لين وأمة رفق لكن أمة مجد، حتى يقول شاعر المسلمين:

سَلُوا الرِّمَاحَ الْعَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا وَاسْتَشْهِدُوا الْبِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا؟

يعني المسلمين.

البيض: السيوف. قال المعاصر: الأمة الآن تعيش في غوغائية كغثاء السيل.

فهو يشيد بمجد الأمة. حتى إن إقبال يشيد بمجد هذه الأمة التي صنعت التاريخ ودخل دينها القارات الست، وقام خطباؤها على منابر الدنيا يصلون يوم الجمعة يخطبون في أصقاع العالم، من سيبيريا إلى الأطلسي إلى سور الصين العظيم، وهم يبشرون بهذا الدين الجديد الذي هو فجر البشرية وهو انتصار وفتح لها، حتى إن محمد إقبال يقول:

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَمْ

يقول: كان الكون نائماً، كان في ليل مطبق، فأذن بلال رضي الله عنه فأذن المؤذنون في العالم فاستيقظ العالم، كان العالم نائماً قبلنا.

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّدَاً لِجَلالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّرَا

كان الناس قبل الإسلام يعبدون الأصنام والأوثان ويعبدون البقر والتماسيح، ولهم صور ولهم ألعاب وأوهام، ولهم سحر ولهم شعوذة وإفك وإثم وخرافة وكذب ودجل، فلما بُعِث الإسلام بلا إله إلا الله، محمد رسول الله قال:

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّدَاً لِجَلالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصَوَّرَا
وَمَنِ الَّذِي بَاعَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى
وَمَنِ الَّذِي دَكُّوا بِعَزْمِ أَكُفِّهِمْ بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَا

علي رضي الله عنه لما دخل خيبر قال له رسول الله ﷺ: «**لَسْنَا قَتَلَةً، بُعِثْنَا رَحْمَةً وَهِدَايَةً وَفَتْحَاً**». فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخذ السيف وقاد الكتيبة والجيش يريد أن يفتح خيبر، والرسول ﷺ ليس حريصاً على قتل الناس حتى اليهود، قال: «**يَا عَلِي، ادْعُهُمْ إِلَى لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لك مِنْ حُمرِ النَّعَمِ**». فيقول: قبل أن تبارزهم حاول أن

تدعوهم عسى الله أن يهديهم إلى الحق؛ لأننا نريد هدايتهم، ليس لنا مصلحة في أن يدخل أحد النار، بل مصلحتنا أن يهتدي وأن يدخل الجنة، ليست مصلحتنا في أن يُعذب العالم، بل أن يهتدوا وأن يُرْحموا برحمة الله ﷻ، ولذلك كما في صحيح البخاري سمع رسول الله ﷺ أن غلاماً يهودياً كان جاراً له في سكرات الموت، فقال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ**». يا للوفاء ويا للخلق الجم ويا للتواضع ويا للسجايا الحميدة! فلا يُلمنا أحد في حبه ﷺ وإنا لمعذورون، ولا يعترض علينا أحد من غير المسلمين، فإنا في حبه واتباعه لمأجورون، وإن قوماً أحبوه واتبعوه فإنهم على الحق سائرون، وإن قوماً عشقوا مثله العليا لهم المنصورون عند الله ﷻ، ولذلك قال ﷺ: «**قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ**». **فَأَتَوْا فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ رَأْسِ الْغُلَامِ الْيَهُودِي**. يهودي على غير الملة، فأخذ ﷺ يدعوه إلى: لا إله إلا الله. قبل أن يموت، قال ﷺ: «**اشْهَدْ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**». ويخبره ﷺ أنه يصدق بما أتى موسى عليه السلام «**فَالْتَفَتَ الْغُلَامُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ لأَبِيهِ**». يهودي صلت جلف عند أقدامه ليس مسلماً، أي: كيف تُشيرُ علي؟ قال: «**أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ**». لأن أباه تأثر لأن الرسول ﷺ زاره في البيت وهو سيد الخلق أجمعين، فَقال الغلام: **أَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ**. فخرج ﷺ يقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**». فيا للخلق!

هذا هو المجد.

وبعضهم يصف مجد الأمة وبعضهم يصف مجد القبيلة، لكن مجد الأمة والملة أعظم مجد؛ لأنه مجد عام ومجد سؤدد، وإلا فكل الناس لهم مجد، حتى يقول الحسين بن المطيري يمدح بني مطر قبيلة من قبائل العرب، فيقول:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي بَطْنِ غَطَفَانَ أَشْبُلُ

هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حتَّى كَأَنَّهُ ... لِجَارِهِمُ بَيْنَ السَّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي الإِسْلامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... لأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

إلى آخر ما قال، وهي من أحسن قصائد المدح.

وابن قابوس- ملك قديم في القرن الرابع- ابتُلِي بابتلاءات واضطُهِد وسُجِنَ، وجاءت عليه ثورات وشمت به أعداؤه، وكان شاعراً مجيداً في الشعر، فقال:

أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ دُرَرُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لَهَا ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلاَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

كم في السماء من نجم، ولكن لا يتعرض للأفول إلا الشمس والقمر، فيصيبهما الخسوف والكسوف، ومن هنا، فلا يعيِّر أحدٌ أحداً، لأن الأبطال والبارزين والمبدعين والمنتجين والنافعين والمفيدين والواجهات والرموز دائماً هم الذين تأتيهم الضربات ذات اليمين وذات الشمال، كما يقول أبو الطيب المتنبي:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

وأبو تمام يقول:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ نَفْحِ الْعُودِ

فدل على أن المجد يُتعب له، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ

المجـد لا يُبـاع في السـوق، ولا يحصل عليـه السفيه والغبـي، المجد لا يأتي علـى طبـق من ذهب هديـة، بل يأتي المجـد بدماء ودموع وأشـلاء، حتى مع غير المسلمين؛ فهذا نيسلون منديلا أخذ المجد في سبع وعشرين سنة في زنزانة وراء الحديـد بالقضبان، وألـف كتاباً اسمه: رحلتي الطويلة فـي الحرية. وخرج بدماء ودموع وجهاد وسهاد وسهر وسفر، فيقول المتنبي:

لا يُـدْرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

لا خَامِلٌ جَهِلَتْ كَفَّاهُ مَا بَذَلَتْ ... وَلا جَبَانٌ بِغَيْرِ السَّيْفِ سَئَّال

لَوْلاَ الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

فالمجد له ثمن يوم يقول الأول:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ ... فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَا

يقول: لما طلبتنا المعركة والانتصار والاستقلال كل دولة لها رموز.

أنا ذهبت إلى إندونيسيا والشارع الرئيس في جاكرتا: أبطال الاستقلال. وإذا هـم هناك لهم صور، قالوا: هؤلاء الذين شاركوا فـي القتال، وقاتلوا هولندا حتى حفظت أسماؤهم عند الأمة.

وتذهـب في أفريقيـا وإذا زُعَماء الإصـلاح وأبطال الاستقـلال والمكافحون عـن مجد الأمة، وعندنـا من الرموز وعندنا من السادات ومـن الأخيار ما نحفظ أسماءهم؛ لأنهم قدموا لبلادهم ولأوطانهم من التضحية ومن الفداء ومن النبل، فمن وفائنـا لهم أن نحفظ أسماءهم وأن نقدرها وأن نحترمها، سواء في الجانب العلمي أو الجانب السياسي أو الجانب الفكري أو الاقتصادي أو الأدبي، كل من نفع أمته ووطنه وقدَّم لها خدمة راقية من الإصلاح والإعمار والبناء احترمناه وسجلنا اسمـه وترحمنـا عليه، ولكن أيضاً كل من سعى في خرابهـا ودمارها وفي الإفساد

ألغيناه من الذاكرة وحاربنا اسمه ولم نرضَ فعله؛ لأن الله ﷻ يُحب الإصلاح والصلاح ولا يحب المفسدين ولا يهدي عمل الخائنين.

قرأت أن الوزير أبا الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الذي قال عنه الذهبي إنه: وزر غير مرة للمقتدر، وللقاهر، وكان عديم النظير في فنه، ويخبر عنه الصولي، قائلاً: «لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه...» يحكي عنه المحدث أبو سهل القطان: كنت معه لما نفي بمكة [فدخلتها في حر شديد، وقد كدنا نتلف] فطاف يوماً، وقد جاء فرمى بنفسه، وقال: أشتهي على الله شربة ماء مثلوج. قال: فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت، وجاء بَرَد كثير جمع منه الغلمان جرارًا، وكان الوزير صائماً، فلما كان الإفطار جئته بأقداح من أصناف الأسوقة، فأقبل يسقي المجاورين، ثم شرب وحمد الله، وقال: ليتني تمنيت المغفرة. ولما رجع إلى بغداد حصل الانقلاب وحُكِمَ عليه بالإعدام. ومشى، والناس كل ينظر إليه منهم الحساد والشامتون، فقال:

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سَائِلاً لِشَمَاتَةٍ ... لِمَا نابني أو شَامِتًا غَيْرَ سَائِلِ

فَقَدْ أَبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابْنَ حُرَّةٍ ... صَبُورًا عَلَى أَحْوَالِ تِلْكَ الزَّلازِلِ

يقول: الحمد لله، قضاء وقدر، أنا أذهب إلى الموت ورأسي مرفوع، أنا أذهب وأنا شريف، أنا ألقى حتفي وأنا على مجد وعلى هداية ربانية. لأن أعظم المجد طاعة الله ﷻ والانتصار له، فهو كان وزيراً وأنصف في حكمه وأنصف في ولايته، ثم حصل له شيء وقام عليه أعداؤه وحكموا عليه بالإعدام. فانظر هذا الثبات! يقولون: مُسَلْسَل بالحديد. ويذهب إلى المنصة، حيث المشنقة، فيُشنق ويُعدم، ومع ذلك التفت إلى الجمهور، وقال تلك الأبيات؛ أي: أعلموا من لم يسأل بشماتة عنا، والذي شمت وما سأل.

ولذلك لما قُتِلَ الوزير ابن بقية قال أبو الأنباري فيه وهو مصلوب:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا ... وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلاتِ

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً ... وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلاةِ

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمُ إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

هذا مجد يصل بك إلى رب العالمين، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.



obeikandl.com

بر الوالدين

بـر الوالدين مـن الحكمـة والأدب والشرف، وبعـد حق الله ﷻ حق الوالدين، فليس في العالم أحـد متفضل عليك بعد تفضـل الله ﷻ كتفضل الوالديـن، ليس فـي العالم من حرصـ عليك ولا قـدم لك ولا أسـدى لك جميـلاً ولا نفعك ولا كان سببـاً في وجودك، بعد فضل الله ﷻ كالوالدين، فهما بمنزلة الروح لمن كان له قلب ولمن كان عنده ضمير ووفاء، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ

﴿أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ثم يقول ﷻ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. أُفٍّ هي أصغر كلمة تضجر أو تأفف أو تذمر، حتى هذه الكلمة لا تقُلها، فكيف بما فوقها من الكلام؟!

وجعل ﷻ من أسباب إطالة العمر والبركة في الرزق وانشراح الصدر بر الوالدين، حتى إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد، فقال ﷺ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**». وقال لرجل: «**الْزَمْ رِجْلَ أُمِّكَ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا**». أي: في خدمتها وفي طاعتها، وفي أثر: «**الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**».

ولذلك تبارى الشعراء والحكماء في هذا الفضل وهذا الخير تنويهاً ودعوة ونصحاً لمن اتقى الله وقَبِلَ النصح. يقولون: مُنَازِل- رجل من ثقيف- عقَّ أباه. فقال أبوه فيه:

وَرَبَّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ ... أَخَا الْفَحْلِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الطَّرِّ شَارِبُهْ

قال: ربيته، حتى صار كبيراً.

تَغَمَّطَ حَقِّيَ ظَالِمًا وَلَوَى يَدِي ... لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهْ

يقول: أغضبه ثم لوى يده أمام الناس. شيخ كبير ووالد وصاحب حق، ثم يفعل بي هذا الفعل؟! أكبر عاق هو منازل الذي صار مضرب المثل عند الناس، وذكر الزمخشري صاحب الكشاف فيما يُروى أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنِي رَبَّيْتُهُ مِنْ صِغَرٍ وَأَطْعَمْتُهُ مِنْ جُوعٍ، سَهِرْتُ لِيَنَامَ وَتَعِبْتُ لِيَرْتَاحَ فَلَمَّا كَبُرَ تَغَمَّطَ حَقِّي وَظَلَمَنِي! فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أَمَا قُلْتَ فِيهِ شِعْرًا؟** - لأنه ﷺ يعرف أنه شاعر- **قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: مَاذَا قُلْتَ؟ قَالَ**: قلت:

غَدَيتُكَ مَوْلُوداً وَعِدْتُكَ يَافِعَاً ... تَعُلُّ بِمَا أُجْرِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إِلاَّ سَاكِيَاً أَتَمَلْمَلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... لُدِغْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمِلُ

أنت تمرض وكأني أنا المريض، وتصيبك الحمى، فتصيبني أنا الحمى، ولذلك جرِّب فتعلم من أبيك وأمك أنهم لا ينامون إذا مرضت، وإذا غبت فهم معك بقلوبهم وأرواحهم، يرضون أن يجوعوا لتشبع وأن يتعبوا وترتاح وأن يسهروا وتنام وأن يشقوا وأنت تسعد، قال:

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... لُدِغْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمِلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ... إِلَيْهَ مَدَى مَا فِيكَ كُنْتُ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

يقول: ليتك فعلت كالجيران؛ كففت أذاك وكنت مسالماً، إذا ما استطعت البر وما استطعت العطاء وما استطعت إرضاء الوالدين، فعلى الأقل سالمهم وكف أذاك عنهم، لكن نعوذ بالله أن يصل بالإنسان إلى أن يؤذي والده أو يؤذي والدته أو يجفوهما.

ولذلك، فقد رأيت أن أكثر من وُفِّق في الحياة من برّ والديه جميعاً، الرسول ﷺ صُنِعَ له منبر من ثلاث درجات؛ ليرتقي عليه خطيب العالم ومُصْلِحُ الدنيا «**فَصَعِدَ الدَّرَجَةَ الأُولَى فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ جَلَسَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى مَاذَا أَمَّنْتَ؟ قَالَ: لَمَّا صَعِدْتُ الأُولَى أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ فِي الْكِبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. وَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّانِيَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُهُ مَنْ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ**

وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. فَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّالِثَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ». فانظر كيف جعل سبب غفران الذنوب بر الوالدين، ولهذا صار ممن بر بالإسلام سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد العشرة، كان طيب القلب صحيح الطريقة، وهو المقصود بالرجل في الحديث الذي يقول: **«يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»**. فلما جلس معه عبد الله بن عمرو «قال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لَسْتُ كَثِيرَ صَلاةٍ وَلا صِيَامٍ وَلَكِنِّي مَا بِتُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَفِي قَلْبِي غِلّ عَلَى أَحَدٍ»**. كان طيب السريرة وكان باراً بأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما أسلم أبت أمه الإسلام ورفضت وأقسمت ألا تأكل الطعام؛ حتى يرتد عن دينه فأخذها باللين وبرَّها وقبَّل رأسها وسألها بالله، فقالت: أبداً، والله لا آكل الطعام؛ حتى ترتد عن الإسلام. قال: **«يَا أُمَّاهُ، وَاللهِ لَوْ أَنَّ لَكِ شَعْرَ رَأْسِكِ نُفُوساً، فَتَخْرُجُ نَفْساً نَفْساً أَمَامِي عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِي مَا رَجَعْتُ؛ فَكُلِي أَوِ اتْرُكِي»**. وفي آخر النهار أكلت، وقال بعض أهل العلم: ثم أسلمت فيما بعد.

ومنهم أويس القرني قال ﷺ عنه: **«مَنْ أَدْرَكَهُ فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ»**. كان من صالحي التابعين وسيد التابعين، فقال: **«وَلَهُ أُمٌّ هُوَ بِهَا بَارٌّ»**. فكان يبر أمه حتى يقول: إنه كان إذا قرب الطعام لا يضع يده حتى تضع أمه يدها، ويقول: أخشى أن آكل معها فتقع عينها على شيء من الطعام وأنا آكل منه فيتحرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **«وَيَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا، وَكَانَ يَغْسِلُ الْغُبَارَ عَنْ أَقْدَامِهَا»**. فرفع الله ذكره وأعلى قدره.

ولذلك مما تُستنزل به البركات وتُستدر به الرحمات ويرضى به رب الأرض والسموات وترفع الدرجات وتُضَاعف الحسنات وتُكَفّر السيئات بر الآباء والأمهات، ما أحسن أن يقول لك أبوك: بارك الله فيك. وتقول الأم: غفر الله لك. انظر دعوة الأم. لذلك جعل ﷺ للأم ثلاثة أرباع الحق، قال رجل: **«مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ»**. فجعل لها ﷺ ثلاثة أرباع الحق من

التقدير والتوقير والاحترام.

ثـم إنها ضعيفة، يقولون: أعرابي ذهب إلى الحـرم فأخذ يدعو لأمه وأكثر لها الدعـاء، قال له رجل بجانبه: ولأبيك. قال: أبي قوي يدافع عن نفسه. فانظر لجهله يظـن أنه يوم القيامة يريد أن يدافع بقوة، وليـس صحيحاً فكلٌّ يوم القيامة ضعيف ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. لكنها أمثال تُضرب.

وممـن حفظ التاريخ لهم البر رجل من أهل اليمن كان يحمل أمه ويطوف بها عند البيت، في شدة الحر، وعرقه يتصبب فقال لابن عمر «: أتراني- يا بن عمر- وفيْتُ بحقها؟ أي: رددت لها الجميل؟ قال: «وَلَوْ بِزَفْرَةٍ مِنْ زَفَرَاتِهَا». ولو بطلقة من طلقاتهـا وقت الولادة ما رددت هذا الجميل، فنسـأل الله أن يغفر لآبائنا وأمهاتنا وأن يجزينا عنهم خيراً، وأن يتولى برهم ﷻ.

وممن كان يبر بأمه ابن سيرين، فكان مضرب المثل في ذلك، فقال: ما صعدت سطح بيت وأمي تحته في الغرفة أخشى أن أعلو بنفسي عليها، وما أكلت مع أمي من مائدة أخشى أن تشتهي طعاماً فآكله قبلها، وكان إذا كلمته أمه يقف عندها، وكان يخفض رأسه كأنه يستزيدها من الحديـث، وكان لا ينام حتى تنام أمه ويهيئ لها وضوءهـا وماءها وشربها ولبنها، ولذلك تجد أن من الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، ففرج عنهم أولهم رجل يقول: «**يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنِّي أَتَيْتُ بِالإِبِلِ فَأَرَحْتُ إِبِلِـي وَحَلَبْتُ اللَّبَنَ. وَلَهُ شَيْخَانِ كَبِيرَانَ وَقَدْ نَامَا، فَأَتَيْتُ فَإِذَا أَطْفَالِي يَتَضَاغَوْنَ عِنْـدَ أَقْدَامِـي، وَالأَطْفَـالُ يَصِيحُـونَ: اسْقِنَا لَبَنَـاً. فَبَقِيَ حَتَّى بَـرَقَ الصَّبَاحُ، فَلَمَا بَـرَقَ وَطَلَـعَ الْفَجْرُ أَيْقَظَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَسْقَاهُمَا ثُمَّ سْقَى أَطْفَالَهُ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ، فَاكْشِفْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيه**». فانفرج من الصخرة الثلث ثم كمَّـل البقية ففرج الله عنهم ﷻ. فالشاهد بر الوالدين وعظمة هذا البر وما لهم

مـن الحقوق، حتى إنك تجـد أنه مهما فعل الولد مع والديه فلا يمكن أن يُنصِفَهم ولو حج أو اعتمر أو دعا، فدائمًا الحق للوالدة ثم الوالد لعظم ما قدَّموه، فالوالدة حملـت به كرهـاً على كره ووضعته ثـم أرضعته ثم ألحفته، ثـم أدفأته ثم أطعمته ثـم أسقته ثم تولته بحنانهـا، والأب رعاه وأدبه وأنفق عليه وكدّ عليه وكساه وحماه وتـولاه، فنسأل الله أن يتولـى جزاءهما عنده من الغفـران والرضوان فإنه الملك الرحمن عزوجل.

فهـذه رسالة لأناس يعيشون العقوق؛ فإن من عقّ ربه عـقّ والديه، ومن نسي مـولاه نسي أهل الحق الذي يجب عليه، لأن الحقـوق لا بُدَّ من أن تؤدى إلى أهلها، لكـن مـن أعرض عن ذكر الله عزوجل وأدبر عن الهداية واستبدل بها جلساء السوء، ولـم يكن لـه مطالعة في كلام الحكمـاء وكلام أهل العلـم وكلام أهل الفهم ضل سـواء السبيل. وإلا فالعقول تشهد، حتى إنك تجد في عصرنا عن غير المسلمين، مثلاً اليهود والنصارى عندهم من تقدير الوالدين الشيء العظيم وعندهم قصص وأخبار في ذلك. وقد قرأت في كتبهم وفي تاريخهم ما يثير العجب، فأقول: هؤلاء وهم على دين منسوخ ودين محرف، فأين أبناء الإسلام من هذا البر؟!

ومـا زال- والحمـد لله- فـي الجيل والمجتمع مـن البررة مـن يُضرب فيهم الأمثـال في البر، وأعلم أناساً كثيـراً حتى إن منهم من يبتدئ صباحه بتقبيل كف والديـه ويطلب منهمـا الدعاء، فتُفتح أمامـه أبواب الخير وأبـواب الرزق وأبواب التسهيـل وأبـواب التيسير. أعرف كاتباً عربياً لو قلت لكـم: إنه أشهر كاتب عربي لما بالغت، فهو يُشارك في بعض القنوات بلغ قرابة التسعين، حتى إنه يقول: سبب توفيقـي أن أمـي كانت تقـول: الله يفتح لك أبـواب التوفيق. يقول: كنـت آتيها كل صبـاح فأقدم لها الحليـب وأخدمها وأقدم حذاءها، فتقـول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. قال: فما سلكت طريقاً إلا فُتِحَ لِي. لأن هذا دعاء صادق ودعاء حار، حتى إنه يقال: بِرُّوا آباءكم يبركم أبناؤكم.

ومما يُروى في الأخبار الشعبية أن رجلاً سحبه ابن في درج عنده في البيت، فقام الجيران لنجدته، فإذا الابن العاق يسحب أباه في الدرج، فلما وصل الدرجة الثانية عشرة، قال أبوه: قف، والله إني سحبت والدي إلى هذا المكان وهذا جزائي. فيقول هو: أنت جازيتني بجزاء أبي فقد عققت أبي وأنت عققتني، فالجزاء من جنس العمل.

وقد يُقصر الوالد كذلك بأن لم يعلم ابنه ولم يربِّه ولم يعلمه كتاب الله عزوجل ولا سنة رسول الله ﷺ ولا أجلسه عند أهل العلم إنما تركه جاهلاً، ويُذكر في الأخبار عن بعض العلماء أن رجلاً أتى بابن له وإذا الابن سمين بدين متين، قال العالم: ما لك؟ قال: هذا ابني ضربني. قال: سبحان الله! ابنك يضربك؟! قال: اختلفت معه اليوم فمد يده يضربني، فأريد أن تنصحه. فأتى يسأل الابن فإذا هو جاهل بالقرآن وجاهل بالسنة وجاهل بالأدب والحكمة، فالتفت العالم إلى الأب وقال له: عَلَّمْتَه القرآن؟ قال: ما علمته؛ شُغِلْنَا. قال العالم: حفَّظْتَهُ شيئاً من سنة رسول الله ﷺ؟ قال: ما علمته. قال: لقَّنته شيئاً من الأدب الذي يحث على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: هو ظنك ثوراً فضربك؛ بما أنك ما علمته ولا ميزت له.

فيقولون: من الأدب كما يقول سفيان: لاعب ابنك سبعاً، وأدِّبه سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اتركه للتجارب. فالسبعة الأولى لاعبه، ولذلك من المصلحة ألا تدرس ابنك حتى يبلغ سبع سنوات، يقول ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ**». وهذه التربية معمول بها في بعض دول العالم، يصلون للسابعة؛ لأنه يصل إلى حد التكوين لذهنه ولنفسه ولجسمه، ولذلك لا أُؤَيِّد أن يذهب بالأبناء ويُعلمون بالرابعة ويُحشون بالمتون في الخامسة ويتعبون ويرهقون، أنا أرى أن هذه السبع كلها مزاح ودُعَابَةٌ وأخذ بأصول بعض الآداب الخفيفة، فإخوة يوسف عليه السلام يقولون لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]. لأن الطفل حياته في اللعب، وأمامه أوقات للجد، والأيام أمامه بالغموم والهموم فلا تستعجل

عليــه، وأما السبعة الثانية فأدبه أدباً بِلُطْفٍ في الطعام وفي الشراب وفي الجلوس وفي الصلاة وفي قول الكلام وفي النوم وفي النظام وغير ذلك، أما السبع الثالثة (١٤-٢١) فصاحبه يصبح صاحباً لك، تحترمه، تكفيه الكلمة ويكفيه الإنكار، أما بعدها فاتركه للتجارب؛ فقد أصبح رجلاً وأصبح مثلك؛ فإن صلح فالحمد لله وإن كان غير ذلك فلن تستطيع؛ فالهادي هو الله عزوجل.

فهذا كلامهم في البر الذي نُقِلَ إلينا وأخبارهم كثيرة، ولكنهم كانوا يقدرون بــارّ الوالــد وبارّ الوالدة، حتى إنهم يقولون: الرجــل الكريم لا يأنف من ثلاث: من خدمة والده، وضيفه، وَمُعَلِّمِهِ.



openkandl.com

محمد إقبال

محمـد إقبال هو شاعر الإسـلام في العصر الحاضـر، وشعراء العالم في العصر خمسة. ذكر ذلـك الصاوي الشعلان والأعظمي فهم: شكسبير فـي الإنجليـز، وجـلال الدين الرومي فـي تركيا، والسعـد الشيـرازي في إيران، ومحمـد إقبال في باكستان، وظاغور في الهند.

ولنأخـذ بعض النمـاذج، فطاغور له قصيدة عـن الهنـد، يقـول- بعـد ترجمتهـا-: أنـا نزلت إلى شـوارع نيودلهي أطلب ربـي أن يعطيني مالاً؛ لأشـتـري سيـارة، لكننـي رأيت في الشـارع رجلاً

مكسور القدمين على دراجة، فقلت: يا ربِّ كفَى كفَى، قدماي تكفي. أي: بالنعم تحمد الله عزّ وجلّ على ما عندك، فإن الله قد أعطاك مالاً كثيراً وأنت لا تشعر. وجلال الدين الرومي له أبيات، فيقول:

مَا مَرَّ مِنْ طَيْفِ الْهَوَى بِمَسْمَعِي لَوْ سَمِعَتْ وُرْقُ الحِمَى نَاحَتْ مَعِي

يَا مَعْشَرَ الْخِلاَّنِ قُولُوا لِلْمُعَافَى: لَسْتَ تَدْرِي مَا بِقَلْبِ الْمُوجَعِ

ونعود إلى محمد إقبال، فهو من الشعراء الكبار الذين قدموا الكثير للإسلام عبر القافية وعبر الأدب الراقي والإبداع الماتع، وشهد له المسلمون وغيرهم بجودة الشعر.

إن محمد إقبال- حسب بعض الأقوال- شاهد على أن الإسلام يُقَدِّر ويحترم كل من اعتنقه، وأنه يُعلِي قدره، سواء أكان من العرب أو من الهنود أو التركمان أو الأتراك أو أي فئة من فئات العالم، فيقول يرثي للعالم الإسلامي بعد التخلف والرفاهية التي يعيشها الإسلام وانحصار الدروس العلمية، فيقول:

أَرَى التَّفْكِيرَ أَدْرَكَهُ خُمُولٌ وَلَمْ تَبْقَ الْعَزَائِمُ فِي اشْتِعَالِ

يقول: أين التفكير الأول؛ عقول الصحابة وعقول التابعين رضي الله عنهم؟!

وَأَصْبَحَ وَعْظُكُمْ مِنْ غَيْرِ نُورٍ وَلا سِحْرٌ يُطِلُّ مِنَ الْمَقَالِ[1]

يعظ الناس، لكن ليس لوعظهم تأثير في القلوب.

وَعِنْدَ النَّاسِ فَلْسَفَةٌ وَذِكْرٌ وَلَكِنْ أَيْنَ تَلْقِينُ الْغَزَالِي؟

يقصد صاحب الإحياء، فيقول: أنتم تبهرجون بالعبارات والثقافات الإسلامية، لكن أين صدق الغزالي في الإحياء الذي يلذع قلبك، وذاك لا يوجد إلا عند الغزالي.

(١) أي: لا سحر من الكلام.

مَـنَـائِـرُكُـمْ عَـلَـتْ فِـي كُـلِّ سَـاحٍ وَمَـسْـجِـدُكُـمْ مِـنَ الْـعُـبَّـادِ خَـالِـي

أمـا المساجد فكثيرة ولله الحمد ومبنية على أحدث طراز، ومنقوشة ومزينة ومجملـة، وفي الحـي عشرة مساجد، وصـلاة الفجر لا تجد إلا صفـاً واحداً على الأكثر.

وَجَـلْـجَـلَـةُ الْأَذَانِ بِـكُـلِّ حَـيٍّ وَلَـكِـنْ أَيْـنَ صَـوْتٌ مِـنْ بِـلالِ؟

أيـن صوت بلال الذي يأخذ بشغاف القلوب ويتعمق في الأرواح ويأتي بالناس والمصليـن مـن البيـوت، بـلال إذا أذَّن توقف الزمـان، حتى يقول أبـو ريشة في قصيدته المشهورة: أنا في مكة.

لَـمْ تَـزَالِـي عَـلَـى مَـمَـرِّ اللَّـيَـالِـي مَـوْئِـلَ الْـحَـقِّ يَـا عَـرُوسَ الشَّمَالِ
هَـــانَ فِـي خِـــدْرِكِ الْـوَضِـــيءِ الْـتِـفَـاتَـاتُ ذُهُـولٍ وَهَـيْـمَـنَـاتُ ارْتِـحَـالِ
وَاسْـتَـفَـاقَـتْ عَـلَـى صَـبَـاحٍ جَـدِيـدٍ مِـــلْءُ آذَانِـــهِ أَذَانُ بِـــلالِ

فهـو ينعى على الأمة في الأذان وفي الوعظ وفي التعليم والتدريس والصلاة، أي: فـي عصـر الانحطاط. قد زار محمـد إقبال مسجد الرسـول ﷺ وبكى عند القبر، فقال يعتذر:

إِنْ كَـانَ لِـي نَـغَـمُ الْـهُـنُـودِ وَدَنُّـهُـمْ لَـكِـنَّ ذَاكَ الـدنَّ مِـنْ عَـدْنَـانِـي

يقـول: إن كنـت أنـا أتكلم بـكلام الهنـود ولكنة الهنـود ولا أعـرف العربية الفصيحـة، فإن قلبي وروحي مـن ذاك العدناني ﷺ، أنا أعشق رسالته ومبادئها. ويقـول: سبحان الله كيف أن هذا الدين أخرج أمة مـن الأمم كان أهلها مشركين ومع الأوثان يسجدون للصنم؟! يقول في بيت له:

وَأَصْـبَـحَ عَـابِـدُو الْأَوْثَـانِ قِـدْمـاً حُـمَـاةَ الْـبَـيْـتِ وَالـرُّكْـنِ الْـيَـمَـانِـي

فيقول: سبحان الله! كانوا يسجدون لهبل واللات والعزى وأصبحوا الآن حماة البيت وحماة الركن اليماني، يقدمون رسالتهم للعالم الإسلامي كيف تحولوا بهذا الدين الجديد الذي بعث في أرواحهم نوراً، وشعَّ فيهم فجراً جديداً، فأصبحوا هداة ومشاعل حق في البشرية. هؤلاء هم أصحاب الرسول ﷺ.

ويرى أن الحياة لا تساوي شيئاً دون إيمان، ولا قيمة لها دون الإيمان بالله، وأن الإنسان دون إيمان مثل البهيمة إن هو إلا دابة في الأرض، فقال:

إِذَا الإِيمَانُ ضَاعَ فَلا أَمَانٌ ... وَلا دُنْيَاً لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِينَا

وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ ... فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ لَهَا قَرِينَا

تريد حياة دون دين؟! أنت والفناء سواء، تريد حياة دون إيمان؟! أنت والدابة والبهيمة سواء، يقول عز وجل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فالإنسان إن لم يكن عنده ثقة بالله وصلة به، فماذا يريد بالحياة وماذا يريد بالبقاء؟! يأكل ويشرب وينام! هذه فلسفته في الحياة.

وهويمدح دائماً الإيمان والإسلام فيقول:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَوْنٌ ... تَاهَتِ الأَفْلاكُ فِيهِ

يقول: المؤمن مثل الكون، فالمؤمن تجد عنده بصيرة، وعنده فقه بالدين، ومعرفة بالآيات، ومعرفة بالآخرة، ومعرفة بسيرة النبي ﷺ، ومعرفة بالحق والفضيلة يحب العدل.

وَأَرَى الْكَافِرَ تَيْهَاً وَأَرَى ... الْكَاهِنَ تِيهِي

مثل التيه الذي في بني إسرائيل حيران ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى

ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. حيران ممزق قلق لا يهتدي، كالشاة العاذر بين الشاتين ليس له مبدأ، ويدعو محمد إقبال المسلم لأن يجسد من نفسه داعية لمنهاج محمد ﷺ وأن ينشر مبادئ الرسول ﷺ في العالم، يقول:

أَنْتَ كَنْزُ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي ... لُجَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكا

يقول: ما بقي في هذا العالم إلا المؤمن المتبع رسول الله ﷺ، أنت الدرة في البحار وغيرك لا يساوي شيئاً وهم خشب وحطب.

مَحْفَلُ الأَجْيَالِ مُحْتَاجٌ إِلَى ... صَوْتِكَ الْعَالِي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوكا

العالم يحتاج إلى نبرة في الحق والعدل والسلام التي يبعثها المؤمن والمسلم لرفع راية الحق والإيمان في العالم وبث النور في المعمورة.

ثم يقول في أنشودة له: شكوى وجواب شكوى:

حَدِيثُ الرُّوحِ لِلأَرْوَاحِ يَسْرِي ... وَتُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِلا عَنَاءِ

يقول: يا أيها المسلمون، أبث لكم حديث روحي، وسوف أرسل لكم رسالة من أعماقي ومن فؤادي، دعوني أبث لكم شكواي أيها المسلمون.

هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِلا جَنَاحٍ ... وَفَضَّ أَنِينُهُ صَدْرَ الْفَضَاءِ

وَمَعْدِنُهُ رُخَامِيٌّ وَلَكِنْ ... جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لُغَةُ السَّمَاءِ

يقول: في صوتي لغة القرآن، أنا أستشهد بالآيات والأحاديث، ولذلك يكاد صوتي يفض الكون وتهتز له السماء والأرض، هذا لأن معي آية محكمة ورسالة خالدة. أي: يصفها للعالمين، ثم يتكلم عن الأمة الإسلامية وهو يناجي ربه عند المقام في قصيدة اسمها: تاج مكة. أي: البلد المقدس الحرام الكبير تاج مكة، فيقول:

يا ربّ، نحن أمة الإسلام، نحن الذين صلينا على ضفاف النوار وسجدنا في سيبيرنا، نحن الذين رفعنا السيوف لرفع اسمك.

يَا رَبِّ مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارَا

من غير أمة الإسلام أمة العرب الأولى التي ارتفعت سيوفها، فارتفعت كلمة: لا إله إلا الله؟ حتى يرتفع فوق الأفلاك اسم: لا إله إلا الله.

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيْقيَا وَلا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا

يقول: كنا نتقدم في المعارك، فإذا أذن المؤذن وضعنا كل شيء وصلينا. حتى إنه يقول في قصيدة أخرى:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِصَلاتِهِمْ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الأَرْضَ جَامَاً أَحْمَرَا

أي: دماً. فيقول: الحرب مشتعلة والدم يسيل والرؤوس تتساقط وتتطاير الأرواح، فإذا سمعنا: الله أكبر.

فَإِذَا سَمِعْنَا: اللهُ أَكْبَرُ عنت الْوُجُوهُ إِلَى الْحِجَازِ مَسْمَعِ الرُّوحِ الأَمِينِ فَكَبَّرَا

يقول: يُكَبِّر لنا ويكبر جبريل عليه السلام في السماء وتُفتح أبواب السماء وتفتح أبواب الجنة، فيتصل تكبير الأرض بتكبير السماء، وتكبير الملائكة بتكبير المؤمنين.

يَوَمِ الْتَقَى الرَّسُولَ مُحَمَّدٌ قَالَ لَهُ جِبرِيلُ: اقْرَأْ

ذهبت إلى أندونيسيا في جاكرتا في معرض الكتاب من أجل كتاب (لا تحزن) ونائب رئيس الجمهورية هو الذي افتتح المعرض، فقام شابان منشدان من أندونيسيا بلغتهما، ينشد أحدهم، ويرد عليه الثاني، فيقول: اقرأ. فيقول: ما أنا بقارئ. أبكانا جميعاً، ينشد ويقول بالأندونيسي: إن هذا قول جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ يرد عليه، فيقول: اقرأ. فيقول الآخر: ما أنا بقارئ. ويضع يده على فمه، فبكى الناس.

تلـك الليلة بدأ تاريخنا واتصلت الأرض بالسماء وفي تلك الليلة انتهى الظلم فـي العالم وانتهى الكفر، بدأنا مرحلة جديـدة وبدأنا نطل على الكون وبدأنا نقود البشرية، يقول الشاعر الشعبي:

ليـلـة الـغـار جـبـريـل ومـحـمـد وآخـــر الـلـيـل خـيـر مـن اولـه

وَالـمجالس روى مسلم وأحمد والـرسـالـة مـصـالـح مـرسـلـة

أي: مجالسنـا. بـدلاً مـن الحـكاوي والعبـارات الفارغة من درجـات حرارة وغيرها وأسعار التمر والشعير، فقد انتهى موضوعها وما عادت إلا أحاديث رواها مسلم وأحمد. الرسالة السماوية.

فقال إقبال:

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيْقيَا وَلا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالأَرْضُ تَقْذِفُ نَارَا

وَكَـأَنَّ ظِـلَّ السَّيْفِ ظِـلُّ حَدِيقَةٍ خَضْـرَاءَ تُنْبِتُ حَوْلَنَا الأَزْهَـارَا

لَـنْ نَنْسَى طَاغُوتَاً يُحَارِبُنَا .....

يقـول: يوم فتحنا باسم الله الأرض، ويوم عبرنا القارات ومشينا على البحار والقفار بـ(لا إله إلا الله) يقف الطاغوت أمامنا فما نخشاه.

وَلَوْ نَصَبَ الْمَنَايَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

يقول: مهما وضع من منايا، وحاول قتلنا.

أَرْوَاحُنَا- يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكُفِّنَا

يقول: نقدم أرواحنا هدية لله الواحد. كما يقول خلف:

في سوق جاتك ما هي سوق هونا

يقول: «أتينا من فين»؟

وإن دندنت طلبة الحراث دندنا بآيات حق علي وبلال دندنها

وأنا أشكره؛ لأنه يقول في شعب الرسالة:

عندنا شعب يصد الهجوم الصائلات من بغانا بالهزيمة يذل ويهزم

الرسالة عندنا دائماً حكم وثبات نُفْهِم اللي ما فهم وان بغى لا يفهم

فيقول محمد إقبال:

أَرْوَاحُنَا -يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكُفِّنَا نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَماً وَجِوَارَا

يقول: ما أردنا المال، ما جمعنا القصور والدور، بل نريد الجوار عند الله الواحد الأحد. فآسيا صارت مثلاً للمسلمين تقول: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. فهنا يقول هو:

كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ رُؤُوسَنَا لَمْ نَخْشَ يَوْماً غَاشِماً جَبَّارَا

كُنَّا نَرَى الأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَا

لأنه يوم وصل القائد المسلم العسكري بلاد الهند، مرَّ بألف ألف مقاتل، أي: مليون. يفتح بلاد الهند، فجاء ملك الهند، وقال: أريد أن أتصالح معك. قال: وما الصلح؟. قال: أريد أن أعطيك هذه الأصنام من ذهب كلها ودعنا في أرضنا. قال: أي: آخذ الفدية وأترككم على الكفر؟. قال: نعم. قال: حتى يقول الله عزوجل يوم القيامة: يا مشتري الأصنام. بل أكسرها وأكسر رؤوسكم عليها؛ حتى يقول الله: يا مكسر الأصنام. فراغ عليهم ضرباً باليمين، قال:

لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَ كَنْزاً وَصَاغَ الْحُلْيَ وَالدِّينَارَا

يقـول: لو كنا غير مسلمين لرضينا مـا عرض الملك، لكن عندنا رسالة أتينا لإنقاذ الناس، أتينا لبناء دولة العدل في العالم، أتينا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هـذا هو محمد إقبـال، هذا الإبداع هـذا الشاعر الفيلسـوف الحكيم، وكان يحمـل الدكتوراه العالمية في الأدب والفلسفة، عاشـ ردحاً من حياته في ألمانيا، يقـول: كان أبي رجلاً صالحـاً دخل علي وأنا أقرأ القرآن وعنـدي أختي الصغيرة ألاعبهـا وأقرأ في المصحف، فقال أبوه: يـا محمد، اقرأ القرآن كأنه أُنْزِل عليك. فقـال: فهزَّنِي بهـذه الكلمة، وبعدها كلما قـرأت القرآن أبكـي. لأن الواحد الأحد يخاطبـك أنـت من فوق سبع سماوات، من نحن حتى يخاطبنا الله ويرسل لنا هذا الكتاب مع هذا الرسول العظيم؟ لكن أكرمنا الله بهذا الكتاب.

فانظر كيف تربى على هذا القرآن، صحيح أنه ليس بعالم شرعي، لكنه شاعر، لكنه على كل مستوى العالم، وجعل كل قصائده وكل رسائله خدمة للإسلام.



obeikandl.com

النهاية

لكل شيء نهاية، ولكل أمر انقضاء، ولكل حياة موت، والنهاية لا بد أن نقبلها وهي نهاية لهذه الحياة، وقد عبر عنها الحكماء والشعراء والفلاسفة كلٌّ على طريقته، وأفصح من ذلك وأعظم قول الباري عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. لأن كفار قريش كانوا يتربصون بالرسول ﷺ الدوائر ويقولون: اتركوه سوف يموت. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. إلا أن العواقب تختلف عند الباري عزّ وجلّ فهي النهاية. ﴿وَلَا تَدَعُ

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

الشاعر ابن عثيمين يرثي العجيلي العالم يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلاذٌ وَمَهْرَبُ ... مَتَى حُطَّ ذَا عَلَى النَّاسِ ذَاكَ يَرْكَبُ

نُؤَمِّلُ آمَالاً وَنَرْجُو نَتَاجَهَا ... لَعَلَّ الرَّدى مِمَا نُرَجِّيهِ أَقْرَبُ

وَنَبْنِي الْقُصُورَ الْمُشْمَخِرَّاتِ فِي الْهَوَى ... وَفِي عِلْمِنَا أَنَّا نَمُوتُ وَتَخْرَبُ

إِلى الله نَشْكُو قَسْوَةً فِي قُلُوبنا ... وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْدُبُ

عش ما شئت، فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، ليست الخسارة أن يهدم قصر أو تُهدَم دار أو يُحرق مال، الخسارة أن يموت رجل شهم، إما عالم نافع نفع الله به أو سلطان عادل أو منفق كريم أو رجل عابد نفع الله بدعائه الأمة، يقول:

لَعَمْرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مَالٍ ... وَلا شَاةٌ تَمُوتُ وَلا بَعِيرُ

وَلَكِنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ شَهْمٍ ... يَمُوتُ لِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ

هذه هي أعظم الرزايا التي تمر بالناس، وهي مصائب كبرى يتحملها الناس، ولذلك فإن بعض الناس إذا مات، فكأن القبيلة أو الأمة ماتت؛ لما جعل الله عز وجل له من التأثير، حتى يقول أحد القادة يرثي:

مَنْ كَانَ مُغْتَبِطاً بِمقْتَلِ مَالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ ... فِي الْفَجْرِ عِنْدَ تَبَلُّدِ الأَسْحَارِ

يقول: إن كنتم مغتبطين فانظروا إلى البيوت وماذا حصل فيها. ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بكت النساء وارتفع العويل، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتأثر فقال الرجل: ألا تسكت النساء يا أمير المؤمنين؟ قال: «دَعْهُمْ، عَلَى مِثْلِ

أَبِـي سُلَيْمَانَ فَلْتَبْكِ الْبَوَاكِي». مات على الفراش وهو خاض مئة معركة ما كُسِرت له راية ولا فرَّ ولا انهزم، قال: «**لَقَد شَارَكْتُ فِي مِئَةِ مَعْرَكَةٍ، مَا فِي جِسْمِي مَوْطِنُ شِبْـرٍ إلاَّ فِيـهِ ضَرْبَـةٌ بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٌ بُرمْـحٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَـا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِـي كَمَـا يَمُوتُ الْبَعِيُر، فَلا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَـاءِ**». فلما خرجوا به قالت أخته فاطمة وهو على النعش:

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الْقَوْمِ ... إِذَا مَـا كَبَـتْ وُجُـوهُ الـرِّجَـالِ

وَمُهِينٌ لِلنَّفْسِ الْعَزِيزَةِ بِالذِّكْرِ ... إِذَا مَـا الْتَقَتْ صُـدُورُ الْعَوَالِي

فـكلٌّ يرثي على طريقته. وإن أحسن ما أبدع فيه العرب هو الرثاء، حتى تقول الخنساء -رحمها الله- في أخيها صخر:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرَاً ... وَأَذْكُـــرُهُ لِـكُـلِّ غِـيَـابِ شَـمْـسِ

وَلَـــوْلا كَـثْـرَةُ الْـبَـاكِـيـنَ حَـوْلِـي ... عَـلَـى إِخْـوَانِـهِـمْ لَـقَـتَـلْـتُ نَفْسِي

وَمَـا يَـبْـكِـيـنَ مِـثْـلَ أَخِـي وَلَـكِـنْ ... أُعَـزِّي النَّـفْـسَ عَـنْـهُ بِـالـتَّـأَسِّـي

تقول: إنـي أراهم يبكون على القتلى، لكن ليسوا كصخر، فصخر شيء آخر. سطَّرت فيه أحسن الملاحم.

ولما ماتت أخت سيف الدولة رثاها المتنبي، يقول:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِبَاً ... شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِي

والصاحـب بن عباد كان عدواً للمتنبي، وكان وزيـراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكـره المتنبي حسـداً وكانا متعاصرين، وكان المتنبي لا يمدح إلا الملوك، أما

الـوزراء فلا، وربمـا مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بـن عباد، فوقع بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبي أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أتته ستون رسالة من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبي قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة، وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فِيْهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِبَاً ... شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أَنْشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبـي يريـد أن يذهـب إلـى عضد الدولة فـي شيراز، وفـي طريقه الصاحـب بن عباد، يمر به، فلا بد مـن أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبي يريد أن يُعرِّض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَوِ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بُعْرَانَا

فَالْعِيسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ ... عَمَا رَآه مِنَ الإِحْسَانِ عُمْيَانَا

عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحَاً وَإِهْوَانَا

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهْ ... يُغْتَابُ سِراً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلانَا

فالجـواد إذا حضر مدحه النـاس، وإذا غاب اغتابوه، وهـذا هو السيد. قيل للأحنـف بن قيس: من هـو السيد؟ قال: مَـنْ إذا قدِم هابـوه، وإذا أدبر اغتابوه. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

وأذكر من قصص الموت وقصص الرثاء أبياتاً في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنه وإنا لله وإنا إليه راجعون، يقول ابن تيمية: ينبغي لكل مسلم إذا ذكر قاتل الحسين

أن يترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فإنها مصيبة من أعظم المصائب، فأحسن الله عزاءنا في مصيبة قتل الحسين بن علي، فلما قُتِلَ كبر وهلل أحد الجهلة ممن قتلوه، فقال الشاعر:

جَاؤُوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْت مُحَمَّدٍ ... مُتَزَمِّلاً بِدِمَائِهِ تَزْمِيلا

وَيُكَبِّرُونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وَإِنَّمَا ... قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلا

فأصل التكبير والتهليل خرج من بيت الرسول ﷺ.

وصاحب الحماسة أبو تمام له مراثٍ، ومن مراثيه لما قُتِلَ أحد الأعيان قوله:

أَلا إِنَّ عَيْنَاً لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطٍ ... عَلَيْكَ بِغَالِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ

إذا ما بكت العين في المناسبة، فمتى؟!

يقول أبو الطيب في محمد بن حميد:

كَذَا فَلْيَجِلّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

فإذا لم تدمع العين على الأخيار والأبرار والصلحاء وأشباههم، فعلى من تبكي؟ هؤلاء هم الذي يستحقون أن يُبْكَى عليهم، ولكن ربما يتصبر الإنسان، ثم لا يستطيع أمام الحدث الذي أمامه، ولذلك قال جرير لما ماتت زوجته:

لَوْلا الْحَيَاءُ لَهاجَنِي اسْتِعْبَارُ ... وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وَلَقَدْ نَظَرْتُ وَمَا تَمَتَّعَ نَظْرَةٌ ... فِي الْقَبْرِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الإِحْفَارُ

فيقول: ما استطعت أن أكتم شجوني ولا دموعي وآهاتي ولا زفراتي على تلك الصحبة، فاندفعت باكياً.

ومـن أحسن قصائد ابن الرومي الجيمية المطربة المنعشة، رثى فيها خديد ابـن عمر من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قتله العباسيون، خرج عليهم في ثورة وقتلوه، وكان ابن الرومي متشيعاً من أهل البيت، قال:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ ... طَرِيقَانِ شَتَّى مُسْتَقِيمٌ وَأَعْوَجُ

أَبِيتُ إذا نام الخَلِيُّ كأنما ... تَبطَّنَ أجفاني سَيَالٌ وعَوْسَجُ

أيحيى الْعُلَى لَهَفِي بِمَثْوَاكَ لَهْفَةً ... يُبَاشِرُ مَكْوَاهَا الْفُؤَادُ فَتَنْضُجُ

بنفسي وإن فات الفداءُ بك الردى ... محاسنُك اللائي تُمَحُّ فَتُنهَجُ

إلى أن يقول:

مَتَى تَسْتَعِيدُ الأَرْضُ ثَوْبَ جَمَالِهَا ... فَتَبْرُزُ فِي أَثْوَابِهَا تَتَبَهْرَجُ

يقـول: انتهـت زهـرة الدنيـا وانتهـى بهاؤها ومـات الحسن معـك فما عاد الاستقرار فيها.

عَفَاءٌ عَلَى دُنْيَا رَحَلْتَ لِغَيْرِهَا ... فَلَيْسَ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مُعَرَّجُ

أَلَا أَيُّها المُستَبشِرُونَ بِيَومِه ... أَظَلَّتْ عَلَيكُم غُمَّةٌ لا تُفَرَّجُ

أكلُّكُمُ أَمْسى اطمَأنَّ مِهَادُه ... بأنّ رَسُولَ اللهِ فِي القَبْرِ مُزْعَجُ

فَلاَ تَشمتُوا وَلْيَخسَإِ المرْءُ مِنْكُمُ ... بِوَجْهٍ كَأَنَّ اللَّونَ مِنهُ الْيَرَنْدَجُ

فَلَو شَهِدَ الهَيجَا بقَلبِ أبِيكُمُ ... غَدَاةَ التَقَى الجَمْعَانِ والخَيْلُ تَمْعَجُ

لأعطَى يَدَ العانِي أوِ ارمَدَّ هَارِباً ... كَمَا ارْمَدَّ بِالقَاعِ الظَّلِيمُ المُهَيَّجُ

وَلَكنَّهُ مَا زَالَ يَغشَى بِنَحرِه ... شَبَا الحَرْبِ حَتَّى قالَ ذوُالجَهلِ أَهْوَجُ

كَأَنِّي بِهِ كَاللَيثِ يَحمِي عَرِينَه ... وأَشبالَهُ لا يَزْدَهِيهِ المُهَجْهِجُ

يَكِرُّ عَلَى أعْدَائِه كَرَّ ثَائِرٍ ... وَيَطعنُهُم سُلْكَى وَلا يَتَخَلَّجُ

كَدَأْبِ عَلِيٍّ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ... أَبِي حَسَنٍ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخرُجُ

يقـول: جدك عليٌّ قُتِل والحسين قُتِلُ، كلكـم على هذا الطريق. ثم يقول: إنك مع الغصن كالشجرة المباركة. حتى يقول يهدد بني العباس:

سَيُصْغِي لَكُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ نَاصِرٌ وَلله أَوْسٌ آخَـرُون وَخَـزْرَجُ

وهـي أكثر من ثمانيـن بيتاً، وهي من أحسن قصائد ابـن الرومي. وهذا إذا شـاء أن يرسل الحرف أرسله، فهو صاحب الكلمـات المشهورة، حتى إنه مات لما سمـه عبيد الله بن الوزيـر لأنه هجاه، فعندها استدعاه للغـداء ورحب به وقال له الطبيـب: دسّ له السـم ودعه يمت، ففعل، فلمـا أحس ابن الرومـي بالسم عرف أن عبيـد الله سمـه فذهب إلى بيت الخلاء (دورة الميـاه) قال: أين تذهب يا ابن الرومي؟ قال: إلى المكان الذي أرسلتني إليه. فيقول في الطريق:

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مَوْرِدٍ صَـارَتْ مَـوَارِدُهَـا مَـعَ الأَصْـلابِ

وأذكر من أمهات المراثي قصيدة دريد بن الصمة القشيري يرثي أخاه عبد الله، فبنـو عارض قبيلة دريد وأخيه تواعدوا مـع قوم، فقال لأخيه: لا تقم دونهم. أي: إن الأعداء أكثر، فهم نحو ألفين ونحن قليل ما يقرب من مئتين إلى أربع مئة، فرفض رأي دريد؛ إذ كان شجاعاً مقداماً، لكن الرأي كان مع دريد، وخرجوا لهم وخرج أخوه معهم، ولما دارت المعركة وأولئك أكثر قُتِل أخوه عبد الله، قاتل دريد معه، حتى سقط معه جريحاً، فرفعا كلاهما عند أمهما؛ هذا مقتول وهذا مجروح، فقالت: ما أخباركما يا دريد؟ فقال:

أَعاذِلَ مَهلاً بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارْشِدي

وَقُلتُ لِعارِضٍ وَأَصْحَابِ عارِضٍ وَرَهطِ بَني السَّوداءِ وَالقَومُ شُهَّدِي

عَلاَنِيَـةً ظُنّـوا بِـأَلْـفَـي مُـدَجَّـجٍ سَـراتُهُـمُ فـي الْـفَـارِسِـيِّ الـمُسَـرَّدِ

وَقُلْتُ لَهُم: إِنَّ الأَحالِيفَ أَصْبَحَتْ مُـطَـنَّـبَـةً بَـيْـنَ الـسِّـتَـارِ فَـثَـهْـمَـدِ

فَما فَتِئُوا حَتّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً كَرِجْلِ الدّبى فِي كُلِّ رَبْعٍ وَفَدْفَدِ
وَلَمّا رَأَيْتُ الخَيْلَ قُبْلاً كَأَنَّها جَرَادٌ يُبارِي وِجْهَةَ الرِّيحِ مُغتَدِي

يقول: سوف يأتيكم القوم بألفي مسلح، معهم من الخناجر والسيوف والدروع الكثير. فما صدقوني، حتى رأوها عياناً.

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرِجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الأَمْرَ إِلاَّ ضُحَى الْغَدِ

منعرج اللوى: مكان.

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ غُزَيَّةَ إِنْ غَوتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أَرْشُدِ
دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقَعْدَدِ
أَخِي أَرْضَعَتْنِي أُمُّهُ بِلِبانِها بِثَدْيٍ صَفَاءٍ بَيْنَنا لَمْ يُقَدَّدِ

يقول: سمع صوت أخيه: يا دريد. لأنهم رشقوه بالرماح وكان بطلاً فصاح بأخيه لما أحس بضرب الرماح من كل جهة، فأتى وإذا الخيل بينه وبينه، فلما دعاني ما إن سمعت صوته، حتى هببت كالأسد الكاسر:

فَجِئْتُ إِلَيهِ وَالرِماحُ تَنوشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِيِّ فِي النَّسِيجِ المُمَدَّدِ
وَكُنتُ كَذَاتِ الْبَوِّ رِيعَتْ فَأَقبَلَتْ إِلى جَلَدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدَتْ وَحَتَّى عَلانِي حالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ
فَما رِمْتُ حَتّى خَرَّقَتني رِماحُهُم وَغودِرتُ أَكْبُو فِي القَنا المُتَقَصِّدِ

يقول: فأخذت أضرب الخيل وأطعنها؛ لأفتح طريقاً، وأصل إلى أخي، وصارت ثيابي كلها حمراء من كثرة الطعن من كل جهة.

قِتالُ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنَفسِهِ وَيَعْلَمُ إنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

تَنادُوا فَقَالوا أَرْدَتِ الخَيلُ فارِساً ... فَقُلْتُ: أَعَبدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللهِ خَلّى مَكانَهُ ... فَما كانَ وَقّافاً وَلا طائِشَ الْيَدِ

وَلا بَرِماً إِذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... بِرَطْبِ العِضَاهِ وَالهَشِيمِ المُعَضَّدِ

قَليلٌ تَشَكّيهِ المُصِيْبَاتِ حَافِظٌ ... مِنَ اليَومِ أَعْقَابَ الأَحادِيثِ فِي غَدِ

فيقول: وقفت على أخي وإذا هو مُصَرّع، فقال: والله إني صُرعت معه وطُعِنْتُ معه، وأمه تبكي، وهو يعلمها ويخبرها.

أَخِي أَرضَعَتني أُمُّهُ بِلِبَانِها ... بِثَدْيٍ صَفَاءٍ بَينَنا لَم يُقَدّدِ

وحاتم كان له أخ، وكان أخوه بخيلاً، وحاتم أكرم الناس، فقال أخوه: أنا أكرم منك. قالت أمه: كذبت. قال: لماذا؟ قالت: حاتم أكرم منك وهو طفل. قال: كيف؟ قالت: حاتم كان يرضع مع ابن فلانة الذي ماتت أمه، فإذا رفع اليتيم عن ثديي رفع حاتم عن الثدي، وإذا رضع رضعَ معه، فلا يرضع إلا معه، وأنت كنت ترضع معه، فإذا رضع هو بكيت أنت. فوصفته بالبخل.

وَخَفَّفَ وَجْدِي أَنَّنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ: ... كَذَبْتَ وَلَمْ أَبْخَلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

فَإِن تُعْقِبِ الأَيّامُ وَالدَّهْرُ تَعْلَمُوا ... بَنِي قَارِبٍ أَنّا غِضَابٌ بِمَعْبَدِ

فيقول: إن الذي عزاني أني ما قلت لأخي مرة في الحياة: كذبت. ولا بخلت عليه بشيء.



obeikandl.com

الشعر والزهد

سجل الشعراء حكمهم في الدنيا، بعد أن جربوا وعرفوا فناء هذه الدنيا؛ لأن الماشي فيها يغتر، كما يقول المتنبي:

تَحْلُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ

وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَقْنَعُ

فيقول: لا ينخدع في الحياة الدنيا إلا الجاهل، مثل الشاب الذي ما جرَّب، لكن تجد

الحكمـاء والشيوخ الكبار ومـن شاب وأصبح ذا معرفة وجاءته موجعات من الدنيا ومات أصحابه، وينظر كيف تتغير، وإذا الأغنياء يفتقرون، وإذا الحوادث تحصل، حتى يقول أحدهم:

وَمَـنْ كَمُلَتْ فِيهِ النُّهَى لا يَسُرُّهُ نَـعِـيـمٌ وَلا يَـرْتَـاعُ لِـلْـحَـدَثَـانِ

فهم سجلوا هذه الخبرات، حتى المتنبي يقول:

لَحَى اللهُ ذَي الدُّنْيَا مُنَاخَاً لِرَاكِبٍ فَـكُـلُّ بَـعِـيـدِ الْـهَـمِّ فِـيـهَـا مُـعَـذَّبُ

فتجـد صاحـب الهمة معذباً فـي الدنيا، فلذلـك أوصى القـرآن بالزهد في الدنيا ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١- ٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. لكن ليس المقصود منها أن تضيع أموالك، وألا تستخدمها في طاعة الله، بل المقصود أن تجعلها في يدك لا في قلبك، وأن تستعين بها على طاعة الله، وألا تمنـع الحقوق التي وجبت عليـك، وألا تبخل بالمعروف بيـن الناس، وإلا فقد كان في الصحابة ﷺ أغنياء وأسخياء يجودون بالمال، فينبغي أن يعرف الإنسان ذلك، كقوله ﷺ في صحيح البخاري لابن عمر رضي الله عنه: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

فأكثر الشعراء أصدروا حكمة في هذا الباب، ومنهم عمران بن حطان شاعر خارجي، لكنه من أقوى الشعراء شعراً، له كلمة لاغية وإنه كان على مذهب الخوارج الذين أيدوا قتل علي رضي الله عنه أبي الحسن أمير المؤمنين، حتى لما قتله عبد الرحمن ابن ملجم يقول عمران بن حطان:

يَـا ضَـرْبَـةً مِـنْ تَـقِـيٍّ مَـا أَرَادَ بِهَا ... إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّـــي لَأَذْكُـــرُهُ يَـوْمَـاً فَأَحْسَبُـهُ ... مِـنْ خَيْـرِ خَلْـقِ عِبَـادِ اللهِ مِيزَانَا

فردَّ عليه شاعر السنة، فقال:

يَـا ضَـرْبَـةً مِـنْ شَـقِـيٍّ مَـا أَرَادَ بِهَا ... إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ خُسْرَانَا
إِنِّـــي لَأَذْكُـــرُهُ يَـوْمَـاً وَأَلْـعَـنُـهُ ... وَأَلْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ

وعمران يقول في حكمة له عن الدنيا:

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لا يَسْأَمُونَهَا ... عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوَّعُ
أَرَاهَـا وَإِنْ كَانَتْ تَسُرُّ فَإِنَّهَا ... سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ

يقول: الأغبياء دائماً مغرورون بالدنيا. فيغتر أحدهم باللباس ويغتر بالسيارة وبالمنصب ويفرح بالوظيفة، هي غرور كلعبة الأطفال، وهي مسرحية ولكنك لو فكرت بعقل لسألت: أين الملوك؟ وأين الدول؟ أين الذين كانوا معنا وازدانت بهم المجالس؟ أين شبابهم وأنسهم؟ أصبحوا أخباراً، فكل الشعراء يتواصون بذلك، وكان أحدهم يقول:

خُذِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ رَاحَةُ الْبَدَنِ
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الطِّيبِ وَالْكَفَنِ

هل رأيتم تاجراً كبيراً ذهب بأرصدته وسياراته وبالمليارات؟ لا، يذهب مجرداً بالطيب والكفن، وعند الترمذي يقول ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنَاً فِي سِرْبِهِ، مُعَافَىً فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُهُ وَقُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**».
ولذلك يقول أحد الزهاد:

الْجُوعُ يُدْفَعُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ فَعَلامَ أُكْثِرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي؟!

خبـزة تشبع، وكأنك أغنى الناس، تشرب مـاء وتنام على الحصير، هذه هي الدنيا، حتى يقول ابن فارس النحوي:

مَـــاءٌ وَخُـــبْـــزٌ وَظِـــلُّ ذَاكَ النَّعِيـــمُ الأَجَـــلُّ

كَـــفَـــرْتُ نِـــعْـــمَـــةَ رَبِّـــي إِنْ قُـــلْـــتُ: إِنِّـــي مُـــقِـــلُّ

عندك خبز وعندك ماء وعندك حصير تنام عليه فأنت ملك.

يقول أحدهم:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ مَـا هَـذِهِ الـدُّنْيَـا بِـدَارِ قَـرَارِ

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَـفْـوَاً مِـنَ الأَقْـذَاءِ وَالأَكْـدَارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيَّـامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُـتَطَلِّبٌ فِـي الْـمَـاءِ جَـذْوَةَ نَـارِ

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْـكَـتْ غَـدَاً قُـبْـحَـاً لَـهَـا مِـنْ دَارِ

مَـا زَادَ فَـوْقَ الـزَّادِ خُـلِّفَ ضَـائِعاً فِـي وَارِثٍ أَوْ نَـاجِـمٍ أَوْ عَـارِ

هذه الحياة الدنيا، فينبغي أن تأخذ هذه الحكم وتكسبها في حياتك من أناس جربـوا العلم وشعر الحكمة، صاحـب الحكمة أخذها عن علم ومعرفة، فلا بد من أن تستفيد أنت وتستثمرها في حياتك، وفي قصيدة لي قلت:

دُنْيَـاكَ تَـزْهُـو ولا تَـدْرِي بِمَا فِيهَا إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ لا تَـأْمَـنْ عَـوَادِيـهَـا

تَحْلُو الْحَيَاةُ لأَجْيَالٍ فَتُنْعِشُهُمْ وَيُـدْرِكُ الْمَوْتُ أَجْيَـالاً فَيُفْنِيهَا

عَارِيَةُ الْمَالِ قَدْ رُدَّتْ لِصَاحِبِهَا وَأَكْلُفُ الْبَيْتِ قَدْ عَادَتْ لِبَانِيهَا

يَا رَبِّ، نَفْسِي كَبَتْ مِمَّا أَلَمَّ بِهَا فَـزَكِّهَـا- يَـا كَـرِيـمُ- أَنْـتَ هَـادِيـهَـا

هَامَتْ إِلَيْكَ فَلَمَّا أُجْهِدَتْ تَعْبَاً ... رَنَتْ إِلَيْكَ فَحَلَّتْ قَبْلَ حَادِيهَا

إِذَا تَشَكَّتْ كَلالَ السَّيْلِ أَسْعَفَهَا ... شَوْقُ الْقُدُومِ فَتُدْنِي فِي تَدَانِيهَا

فحالة الدنيا أنها لا يغتر بها إلا كل مخدوع.

المهدي الخليفة العباسي ابن أبي جعفر المنصور كان في الليل يسمر، وجاءه وشاة السوء وجلساء السوء وقالوا: إن فلان بن موسى- أحد أهل البيت من ذرية علي بن طالب رضي الله عنه كان عابداً زاهداً ناسكاً يصلي في الليل- يخطط لقلب نظامك وأخذ الملك. فأخذ العسس والشرطة وقال: اقتحموا عليه في منزله واقتادوه في النور. وأتوا وإذا هو على سجادته مستقبل القبلة ودموعه قد بللت لحيته، وهو يقرأ القرآن، فأخذوه إلى المهدي، فلما دخل المهدي قال: سمعنا أنك تريد ملكنا وخلافتنا. قال: والله لا يرضيني إلا ملك في جنات النعيم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. والله ما فكرت في الليل والنهار، والله ما سألت ملكك في سر ولا علانية. ثم أنشده قصيدة عن الملوك وعن الخلفاء:

بَاتُوا عَلَى قَوْلِ أَذْبَالٍ وتَحْرُسُهُمْ ... غُلْبُ الرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمُ الْقُلَلُ

وَاسْتُنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَنَازِلِهِمْ ... إِلَى مَقَابِرِهِمْ يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوا!

كَانَتْ أَسِرَّتُهُمْ تُرْوَى وَأَحْقِيَةٌ ... مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتَارُ وَالْكَلَلُ

أَضْحَتْ ضَعِيْفَةً عِنْدَ الضِّيقِ رَاكِعَةً ... فِيهَا وَمِنْهَا عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ

فبكى المهدي، حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: سامحني، روَّعناك في هذه الليلة. وطلب منه السماح وردَّه إلى سجَّادَته وعبادته، فهذه حال الدنيا، حتى يقول أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْـنَ مِـنْـهُـمْ أَكَـالِـيـلٌ وَتِـيـجَـانُ
وَأَيْـنَ مَـا شَـادَهُ شَـدَّادُ فِـي إِرَمٍ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
أَتَـى عَلَـى الْـكُـلِّ أَمْـرٌ لا عَـزَاءَ لَـهُ ... حَتَّى قَضَوا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

أيـن من شاد، ومن ساد؟ أيـن من ولى وعزل؟ أين من أخذ؟ أين من أعطى؟ أين من أهدى؟ أين الجحافل؟ أين الجنود؟ أين البنود؟ أين الأعلام؟ وأين أقواس النصـر والابتهاجات والاحتفالات؟! كأنها حلـم رأيتها في منامك، ثم استيقظت، وهـي لا شيء، فما هـو المطلـب؟ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ابن تيمية دُعِي إلى السلطان السلجوقي في دمشق، قال ابن تيمية: يقول الناس: إنـك تريد ملكنـا. قال: ملكك أنـت؟! والله ما ملكك وملك آبائـك وأجدادك يساوي عندي فلساً؟ قال: ولم؟ قال: أريد جنة عرضها السموات والأرض. لأن الله عزوجل ذكر في الجنة: خلود بلا موت، شباب بلا هرم، صحة بلا سقم، أمن بلا خوف، غنى بلا فقـر، يوم ينادي المنـادي: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَـدَاً، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدَاً». ولذلك قال الشاعر:

فَاعمَلْ لِـدَارٍ غَـدَاً رِضْـوَانُ خَازِنُهَا ... الْـجَـارُ أَحْـمَـدُ وَالـرَّحْـمَـنُ بَـانِـيـهَا
وَسُـورُهَـا ذَهَـبٌ وَالْمِسْـكُ تُرْبَتُهَا ... وَالـزَّعْـفَـرَانُ حَشِيشٌ نَـابِـتٌ فِيهَا

فتسبيحة تغرس لك شجرة، وتسبيحة تبني لك لبنة، لبنة من فضة ولبنة من ذهـب، وأقل منازل أهل الدنيا في الجنة عشرة أمثـال الدنيا، فاعمل لتلك الدار، وخذ الحكمة من الشعراء الذين عرفوا هذه الدار وعرفوا مصيرها وعرفوا نهايتها ونطقوا بها وأنها فانية وأنها منقضية، وأنها أحلام نائم، يستيقظ المرء فلا يجد

عنده شيئاً، ولذلك كانوا يعظون، حتى إن الواسطي وعظ نور الدين محمود، فقال:

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ.

ونـور الدين محمود زنكي هذا من العدول وكان الخليفة السادس من الخلفاء الراشديـن، بعد عمر بـن عبد العزيز وكان مَثَلاً في العدل والإيمان والتقوى، حتى مدحـه مـؤرخ الإسلام الذهبي وابـن كثير والعلمـاء، وأطنب العلمـاء على ذكره، وطلـب مـن الله الشهادة فرزقه الشهادة، وكان يقوم الثلـث الأخير من الليل وكان يحكـم الشام والجزيرة ومصر واليمـن والعراق وهو تركماني؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. الإسـلام ليس حِكْرًا على أحـد، فالذي ينصر الإسـلام يتفضل مأجوراً ومشكوراً، بلال بن رباح نصر الإسلام وهو مولى حبشي فدخل الجنة، وأبو لهب الهاشمي القرشي دخل النار.

ولذلـك يقول الواسطـي يعظ نور الدين، وذلك يوم مهرجـان كبير، فأراد أن يعظ في يوم لا أحد يستطيع أن يرده، فيأتي يوم المهرجان ومعه عصا قديمة وهو شيـخ كبير مهيب. يقول أحـد السلاطين: والله إني رأيت الأسـد في الغابة ورأيت البحـر إذا هاج وإنـي ما خفت مثلما خفت مـن الواسطي. فيقـدم في المهرجان وهم يلقون فقرات الحفل فيقطع الحفل ويدخل، وينتصف في المنصة ويقول لنور الدين محمود وهو فوق المنصة جالس والناس والأمراء والوزراء والجيوش أمامه وخلفه، فقال:

مَـثِّـلْ لِـنَـفْـسِـكَ أَيُّـهَـا الْـمَـغْـرُورُ ... يَـوْمَ الْـقِـيَـامَـةِ وَالـسَّـمَـاءُ تَـمُـورُ

فَإِنْ قِيلَ: نُورُ الدِّينِ جَاءَ مُسَلِّماً ... فَـاحْـذَرْ بَـأَنْ تَـأْتِـي وَمَـا لَـكَ نُـورُ

ونـور الدين محمود حرَّم الخمر، فلا يُبَاع في دولته كلها، لكن بعض الحاشية قد يرتشون، وسمع ذاك، فقال:

حَـرَّمْـتَ كَاسَـاتِ الْـمُـدَامِ تَعَفُّفاً ... وَعَـلَـيْـكَ كَاسَـاتُ الْـحَـرَامِ تَـدُورُ

يَوْمَاً تَشِيبُ لِهَوْلِهِ الْوِلْدَانُ مِنْ ... فَـزَعٍ وَيَـأْكُـلُ كَـفَـهُ الْـمَـثْـبُـورُ

هَـذَا بِـلا ذَنْـبٍ يَـخَـافُ لِـهَـوْلِـهِ ... كَـيْـفَ الَّـذِي مَـرَّتْ عَـلَـيْـهِ دُهُـورُ

يقـول: الطفـل يخـاف ويشيـب ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. فكيف الذي مرت عليه دهور؟! وكان نور الدين يسمع ويتحرك ويرتفـع عنده الضغط ويغمـى عليه ويسقط من على الكرسي أمـام الناس، ورشه الناس وأجلسوه وقطعوا الحفل.

هـذه حـال الدنيـا، فحـري بنـا الانتهـاء عن غينـا، فأنصـح الشبـاب أن يقـرؤوا الحكمـة وأن يطالعوا الكتب، وأنا كنت مثلهـم، كنت أعجب من الحفلات والمهرجانـات، وإذا رأيـت القصـور والـدور والحدائق قلت: ما هـذا النعيم؟ يا لحظّهـم يـا لقرة عيونهم! ولما قـرأت القرآن والحديث ومعانيـه وكلام الحكماء وكلام المجربيـن والشعراء وإذا الدنيا مسرحية وحلـم في المنام، ونرى الرجل الزعيم يذهب ثم يُدس في التراب، ثم يعود الناس كلهم والحاشية والمواكب وقد نسـوه، ويذهـب العالم الكبير وكأنه ما درَّس وما ألف ومـا علَّم، والغني يُجرَّد من كل شيء.

وقـد عزَّيت فـي تاجر كبير، عنده سبع شركات أي: عنـده مليارات، جُرِّد من ملابسـه وجرِّد من أشيائه ودخل قبره وحيـداً ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وهذا منهج القرآن، فهل ذهب أحد بشيء؟!

الشاهـد أن الشعـر يرسل رسائل من الزهد لمن كان له قلـب أو ألقى السمع وهـو شهيـد، وشعر الحكمة يشـارك نصوص الكتاب ونصوصـ السنة، فكان على الإنسـان ألا يغتـر ولا ينخدع، فأنا لا أدعو للتقشف المـزري في مثل هذا، بل أدعو للزهد الصحيح على منهج الكتاب والسنة منهج محمد ﷺ.



obeikandl.com

obeikandl.com

البخل

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]. وقال ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

البخيل مذموم في الدنيا والآخرة ومذموم في الأرض وفي السماء ويكرهه كل أحد، والبخل خلق

ذميـم، حتـى إن البخيل تظهر معائبـه مضخمة عند الناس، فـلا يقبلون له عذراً ولا يرحبـون به ولا يفرحـون بقدومه، والبخل يكون بطلاقـة الوجه والبخل بالمال والبخـل بالطعام والبخل بالضيافة والبخل بالجـاه، والشعراء أخذوا هذا الجانب بالتهكـم بالبخلاء، ومنهم الحطيئة في الزبرقان الذي كان عاملاً لعمر رضي الله عنه على الصدقـات، والزبرقان فيه خيـر بلا شك، لكنه غاب عن ضيافة الحطيئة، فخلفه الحطيئة عند أسرته وما ضيفوه، فأطلق أبياتاً في الزبرقان يقول فيها:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيَتِهَا وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وهذا من القصيدة التي يقول فيها:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

فشكاه الزبرقان عند عمر رضي الله عنه فاشترى عمر منه أعراض الناس بعدما حبسه، ثم أطلقه بعدما تعهد له ألا يعود، والشاهد في الباب أنه بوابة عظيمة للتهكم.

وأحد العلماء مر برجل اسمه عثمان، وكان عثمان مشهوراً بالبخل وكان عنده مقهى، فقال: أريد كأس شاي. فقال: لم نصنع اليوم شيئاً. لأنه يبيع بيعاً ويعلم أن الشيـخ لا يملـك الثمن. قال: نريد ماء على الأقل. قـال: حتى الماء ما وضعناه في البرادة. فقال:

المَاءُ في بَيْتِ عُثمَانٍ لَهُ ثَمَنٌ وَالشَّايُ يَا صَاحِ، لا يُسْقَى لإنسَانِ
فَاتْفُلْ عَلَى كُلِّ عُثمانٍ تُلاَقِيهِ إلا الخَلِيفَةَ عُثمَانَ بْنَ عَفَّانِ

حتى إن المتنبي يلوم كافورًا فيقول:

جَوعَانُ يأكُلُ من زَادِي وَيَحبِسُنِي لِكَي يُقَالَ: عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ

يقول: هو حبسني في مصر، فهو يأكل من عيشتي ما أعطاني شيئاً، ويقول:

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِي وَجُودُهُمُ مِنَ اللِّسَانِ فَلاَ كَانُوا وَلا الْجُودُ

التي مطلعها:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ ... بِمَا مَضَى أَمْ لأَمرٍ فِيكَ تَجدِيْدُ

يقول: إن كافور جوعان يأكل من معيشتي ويمنعني من السفر؛ كي يقال: إني قصدته في مصر وإنه عظيم القدر مقصود، وإنما جوده مواعيد فقط باللسان. فبعض الناس يعدك ويمنيك الأماني، لكن إذا أتيت إلى الحقائق، فلا تظفر منه بشيء، حتى إن بعضهم يبخل على نفسه في لباسه وفي طعامه وفي إنفاقه.

فينبغي للإنسان أن يحتاط من هذا، ويكون سخياً جواداً، وليعلم أن من أفضل صفات سيد الخلق ﷺ الكرم، الذي ما سُمِع بأكرم منه ﷺ حتى يقول جابر رضي الله عنه: «**مَا قَالَ ﷺ: لا. أبداً**».

اللئيم يُعرف بعلامات، منها أنه يكتئب إذا دخل الضيف عنده، ومنها أنه يُغلق عليه الكلام ولا يستطيع أن يتكلم، ومنها أن يشتد ويغضب من أبنائه فيصيح عليهم ويدعو عليهم بالويل والثبور، ومنها أنه يضخم المسألة، فإذا ذبح شاة أو خروفاً بدأ يخبرك كيف هذا وهذا الوادي وماذا نعمل بالمال إذا ما أكرمنا وحق علينا، ويقول: لا بارك الله في دنيانا إذا ما أكرمنا. ويخبرك متى كان ميلاد هذا، حتى إنهم يقولون: إذا رأيت الرجل يدخل بسكين، ويخرج فاعلم أنه بخيل. لأن إبراهيم عليه السلام لما أتاه الملائكة قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦]، حتى يقول الشاعر:

أُحَادِثُ ضَيفِي قَبلَ إِنزَالِ رَحلِه ... ويُخصِبُ عِندِي وَالمكَانُ جَدِيبُ

وَمَا الخِصْبُ للأَضْيَافِ أَنْ يكثر القِرَى ... وَلَكِنَّمَا وَجهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

أذكر أن الشاعر المشهور حميد الدوسري له قصيدة شعبية عارضتها بقصيدة ثانية، يقول في أحد البخلاء:

الله لا يبقي على الأرض من الرديان أحد　　والله لا يرحم مثاويك يا النذل البخيل

فقلت أنا:

يبرق البارق إذا جيت ويرعد الرعد　　وارضنا تبهج لمقدمك والشاخص يميل
الله من قلب على نغمتك قام وقعد　　كن قولك منهل بارد من سلسبيل
أو كما ألعاب خود على المبســـم برد　　ضاع فيهم مسك والطعم طعم الزنجبيل
جعل عين تنضلك في لونها فيها الرمد　　وجعل قلب ما يحبك يقطع بالصقيل
وش بعد تبغى نحدثك عنا وش بعد　　اقصر الهقوات تكفى ترى المسرى طويل
الله من علم وشعر بصدري له زبد　　هايج ومايج يهيج على دجله ونيل
كل ما قمت احبسه يا قصيدي هدهدْ　　قام يضرب بي بعجره وانا جسمي نحيل

الشاهد في هذا أن البخيل يسرع إليه الذم واللوم من الناس، حتى إنهم دخلوا على بخيل، فقام البخيل يعتذر ويكلم ابنه ويأتي ويذهب وما قدم شيئاً لا طعام ولا غيره، قال أحدهم:

يَا قَائِماً فِي بَيتِهِ قَاعِداً　　مِنْ غَيرِ مَا مَعنَى وَلَا فَائِدَةْ
قَدْ مَاتَ أضيَافُكَ مِن جُوعِهِمْ　　فَاقْرَأْ عَلَيهِم سُورَةَ المَائِدَةْ

لأن المائدة هي الطعام، يقول: ائتِ لنا بطعام.

والجاحظ ألف كتاباً في ذلك والخطيب البغدادي كذلك، حتى إن كتابه يأخذ بالألباب من بلاغته، وقد يبالغ ويأتي بأشياء، لكن أصل القصص موجودة في طبائع الناس.

فمنهم من يقول: من أبخل الناس أهل مرو. فهؤلاء إذا أتيت أحدهم في الليل سألك: هل تناولت وجبة العشاء؟ فتقول: نعم. فيقول: ليتك ما تعشيت؛ لتشاركنا

obeikandl.com

فـي عشائنـا. فإن قلـت: لا، أنا جوعـان. قالوا: لـو أنك تعشيت لشربـت معنا من العصير. فلا شربت العصير ولا تعشيت معهم، وهذه من حيلهم.

يقولـون: إن أبـا الأسود الدؤلـي كان مشهوراً بالبخل، حتـى جاءه غريب مرة فدخـل البيت بلا إذن، أي: غفل هو عن البـاب. فإنه كان متحفظاً ومتحرزاً ويغلق البـاب وليـس عنده جرس عند البـاب ولا يكتب اسمه ويتخفى، فأبـو الأسود غفل ونسـي البـاب فدخل رجل من الغربـاء المسافرين المنقطعيـن فوجد المائدة قد صُفَّـت فجلـس وأكل معهم، فلمـا أكل قال: في أمـان الله، أستودعكـم الله. قال: إلـى أين؟ قال: أريد أن أذهب. قال: أكلت عشاءنـا وتريد أن تذهب وتخيف أناساً غيرنـا؟ والله لا تذهب وأتـركك تؤذي عباد الله؟ فشده بحبـل بيده ورجله وربطه بالباب وقال: حتى لا تؤذي عباد الله.

ومن ذلك الجاحظ يقول: جلس أحد البخلاء على مائدة فقدموا الجدي، فانطلق أحد الضيوف على الجدي فأزال جنبه الأيمن ثم على الأيسر ثم ظهره، وصاحب البيت يتميز من الغيظ، تحطم وانتهى وغاظ، قال: أراك صاحب عداوة، كأن أم هذا نطحتك فتريد أن تنتقم منها. قال: والله إني رأيت شفقتك عليه كأن أمه أرضعتك.

فـلا تكن هذا ولا هذا، بل خير الهدي هديه ﷺ بـأن يقدم الإنسان الموجود ولا يتكلف المفقود، لكن بسط الوجه والحديث الطيب والترحيب أحسن من القِرَى أحيانـاً، فمـاذا تريد من إنسان يقدم لـك الخروف، لكنه مغضـب ووجهه عبوس وجبينـه مقطب ولا يتحـدث لك؟ إن من أدب الضيافة أن تتحدث مع ضيفك، فلما أتى وفد عامر قيس إلى النبي ﷺ يسأله كما في صحيح مسلم قال: «**مَنِ الْوَفْدُ؟**». فأخبروه فقال: «**مَرْحَبَاً بِالْوَفْدِ...**». وأخذ يحدِّثهم ﷺ حتى يأنسوا.

ويستنبط بعض المفسرين من قصة موسى عليه السلام لما قال له ربه: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ**﴾ [طه: ١٧]. والله هـو الذي خلق موسـى وخلق العصى عز وجل، يعلم

السر وأخفى، قال: المقصود من ذلك أنه من باب الإيناس. لأن موسى عليه السلام اندفع يتكلم: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]. فإذا نزل بك الضيف تحادثه وتسأله عن أخباره وعن الأمطار في بلده وعن أبنائه، وعن عشيرته، فيرتاح قلبه وينشرح صدره ويأنس معك.

وفد شاعر إلى يزيد بن حاتم الأزدي وكان مشغولاً وإلا فهو كريم، فذهب من عنده ووصل إلى رجل اسمه يزيد بن حاتم القيسي، وهما أميران، لكن الأزدي هذا من كرماء العرب والقيسي من بخلاء العرب، فردَّه القيسي فيقول في أبيات له:

أَرَانِـي- وَلَا كُـفْـرَانَ للهِ- رَاجِعاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ

فسمع يزيد بن حاتم فقال: إليّ به. فأتي به، فقال: اخلع خفيك الاثنين، فملأهما ذهباً، فقال في القصيدة يكملها؛ لأن يزيد ذاك قيسي، فقال:

أَرَانِـي- وَلَا كُـفْـرَانَ للهِ- رَاجِعاً ... بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمِ
لَشَتَّانَ مَا بَينَ اليَزِيْدَينِ في النَّدَى ... يَزِيدَ بن عَمرٍو وَالأَغرِّ ابْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ الفَتَى الأَزدِي إِتلافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ الفَتَى القَيسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فلا يَحسَبِ التَّمتَامُ أَنِّي هَجَوتُهُ ... وَلَكِنَّنِي فَضَّلتُ أَهلَ المَكَارِمِ

وقصة المثل أن رجلاً مغفلاً من العرب، ذهب بناقته، وفي الطريق رآه حنين الذي كان مستتراً، فقال حنين: سوف أخدعه. فوضع إحدى خفيه في الطريق، فرآها الرجل الأعرابي، فقال: لو كان معها أخرى لأخذتها، فتركها، فلما مشى قليلاً وجد الخف الثانية، فقال: هذه وهذه. فنزل وربط الناقة وأخذ الخف ومشى؛ ليأخذ الثانية، فأخذ حنين ناقته، فرجع بخفي حنين، فصار مثلاً.

وجملة (وَلَا كُفْرَانَ للهِ) احترازية، مثل: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

فقوله: (تخرج بيضاء) فهي قد تخرج بيضاء، لكن من بهق أو برص لكن قال: (مـن غير سوء)؛ أي: ليس فيها بلاء ولا برص ولا مرض. فهذا هو الذي دل عليه؛ لأن البخـل مذموم، وعلى الإنسان أن يقرأ سيـر الأجواد والصالحين الذين بذلوا أموالهم وأعطوا كحاتم الطائي، وهذا في الجاهلية، أما سيد الأجواد في الجاهلية وفي الإسلام وما قبل وما بعد والأحمر والأصفر والأسود، فهو سيد الخلق ﷺ فهو أجود الناس ﷺ لا يُسْأَلُ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ.



obeikandl.com

obeikandl.com

الفراقيات

يقول أبو الطيب المتنبي:

حُشَاشَةَ نَفْس وَدَّعْتُ يَومَ وَدَّعوُا

فَلَمْ أَدرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أُشَيِّعُ

معنى البيت: يقول: بقيت بقية من نفسي، الحشاشة: البقية، فقبل الفراق ما كان عندي إلا بقية من نفسي، وودعت هذه البقية يوم ودع أصحابي وارتحلوا عني، فما أدري أي الظاعنين المرتحلين المسافرين أشيع، ما أدري أأودع نفسي وأشيعها التي ذهبت وارتحلت يوم ارتحل

obeikandl.com

أصحابي وأحبابـي أم أشيع أصحابي؟ فأصبحت في أمر مريج وأصبحت مرتبكاً، أأودع النفـس التي خرجت من بين جنبيّ يوم خرج أحبابي أم أودع أحبابي؟ وهذا مـن بلاغته، وهذا البيت يعدّ من أجمل الأبيـات، وله في الفراقيات كلام عجيب، حتى يقول:

فُراقٌ ومَنَ فَارَقتُ غَيْرَ مُذَمَّمٍ

عندما خرج من عند سيف الدولة إلى كافور، وهذه آخر قصيدة قالها، يقول:

لا أذم سيـف الدولة، لكـن ظروفاً حصلت وأتت أمور ودخل بيننا وبينه حساد أبعدوني عنه، وإلا فالرجل لا أستطيع مفارقته، يقول:

فُـرَاقٌ ومَـنْ فَـارَقْـتُ غَيْـرَ مُـذَمَّمٍ وَأَمّ وَمَـنْ يَـمَّـمْـتُ غَـيْـرَ مُـيَـمَّمِ

يقول: سأذهب إلى كافور ومثله لا يقصد.

وَمَـا مَـنْـزِلُ الـلـذَّاتِ عِندي بِمَنزِلٍ إِذَا لَـمْ أُبَـجَّـلْ عِـنـدَهُ وأُكَـرَّمِ

سَـجِـيَّةُ نَفْسٍ مَـا تَـزَالُ مَـلِيحَةً عَنِ الضَّيمِ مَرمِيّاً بِهَا كُلَّ مَخرَمِ

ثم يقول في الفراق:

رَحَـلـتُ فَكَمْ بَـاكٍ بِـأَجْـفَـانِ شَـادِنٍ عَـلَـيَّ وَكَـمْ بَـاكٍ بِـأَجْـفَـانِ ضَيغَمِ

يقول: بكى علي الرجال والنساء، وهذا من الوهم عنده، وهم العظمة.

وَمَـا رَبَّـةُ الـقِـرطِ المَـلِيحِ مَكَانَةً بِـأَجْزَعَ مِـنْ رَبِّ الحُسَامِ المُصَمّمِ

يقـول: حتى صاحبة القرط تبكي وسيف الدولة صاحب الحسام يبكي، يقول: قلانـي سيف الدولة. أطاع فيّ الحساد. رماني وأنا أريد أن أرميه وأعيد الرمية له فأنتقم منه، لكن ماذا أفعل؟ فعنده قوة وملك، فأنا أريد أن أرد عليه الرمي.

رَمَى واتَّقى رَمِيي ومِن دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كاسِر كَفِّي وَقَوسِي وَأَسْهُمِي

يقول: إن له هوى في قلبي، أنا أحبه وأجله، وهذا الحب يكسر قوسي ويدي وأسهمي.

إِذَا سَاءَ فِعلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُه ... وَصَـدَّقَ مَا يَعتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَولِ وُشَاتِهِ ... فَأَصْبَحَ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمِ

وهو يقول في الفراق:

إِذَا تَرَحَّلتَ عَنْ قَومٍ وَقَدْ قَدِرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

فتجده في الرحيل عاطفياً دائماً، وتجده يذوب رقة خلاف قصائده الحماسية القوية في الهمة والشجاعة، وهذا شأن العبقرية، فإنها تتدرج مع صاحبها مثل الزئبق في الإناء، والله سبحانه هو الذي يعطي المواهب جل في علاه، فتجده في الفراقيات يكاد ينخلع قلبك وأنت تقرأ هذه الفراقيات، وقد أبدع العرب أبدع ما أبدعوا في الفراقيات، حتى يقول ابن زيدون في قصيدته الأخاذة التي يقول ابن كثير: ما قرأها رجل إلا هيجته على البكاء.

أضحَى التنائي بديلاً منْ تدانينا ... ونابَ عنْ طيبِ لُقيانا تَجَافِينا

بِنْتم وبنَّا فما ابتلَتْ جوانحُنا ... شوقاً إليْكُم ولا جفَّتْ مآقِينا

تكادُ حينَ تناجِيكم ضمائرُنا ... يقضِي علينا الأَسَى لَولا تأسِّينا

وله قصيدة أخرى يقول فيها:

ودّع الصبرَ محبٌّ ودَّعكْ ... ذائعٌ مِنْ سرِّه ما اسْتودعَكْ

يا أخَا البدرِ سناءً وسنَا ... رحِمَ اللهُ زماناً أطلعَكْ

إنْ يطلْ ليلُك بعدِي فلقدْ ... كدتُ أشكُو قِصَرَ الليلِ معَكْ

وكان المحبون يشكون من قصر الليل مع أحبابهم، ومن طول الليل إذا فقدوهم، حتى يقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لا أسـألُ اللهَ تغييـراً لما فعلَتْ نامتْ وقد أسهرَتْ عينيَّ عَيناها
فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدُها والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقَاها

وهذا من أجمل القصائد.

وأحدهم صاغ جناساً في هذا الباب، فقال:

ليلِي وليلَى نفى نومُ اختلافِهما في الطُّولِ والطَّولِ طوبانٌ أواعتدلاَ
يجودُ بالطُّولِ ليلِي كلَّما بخلَتْ بالطَّولِ ليلَى وإنْ جادَتْ بهِ بَخِلاَ

وهـذا الجناس لا يستطيعه إلا عباقرة مـن الشعراء، فيجمعون بيـن هذا الكلام وإن كان فيـه تكلـف، فالمتنبـي سبقهم في بعض المعاني، لكن كل العـرب أجادوا في الفراقيات، ولذلك فقصيدة ابن زريق في الفراق من أحسن ما قيل، والتي منها يقول:

أستودعُ اللهَ فِي بغدادَ لِي قَمَراً بالكرخِ من فلكِ الأزهارِ مطلعه ودعته
وَدَّعْتُـه وبـودِّي لـو يـودِّعُنِـي صفـوُ الحيـاةِ وأنِّـي لا أودعُـه

معنى البيت: يقول: ودعت حبيبي وليت صفو الحياة ودعني أنا وفارقني، وأني مـا فارقت هـذا الحبيب، وقصيدة ابـن زيدون هي من أجمـل القصائد وهي من عيون الشعر، وإنما قالها في الفراق لما ترك أهله وقد جاء من الأندلس إلى بغداد فجاء بهذا، حتى يقول أحد المعاصرين:

وكـانَ صـوتُ الفـراقيـاتِ نسمعُهُ فـلا نُحِـسُّ بـكـاءً مِنْـه يُبكِينـا
حتَّى أصاخَ لسانُ الدهرِ مُرتجِلاً أضحَى التنائِي بديلاً منْ تدانِينا

فضمن بيت ابن زيدون هذا.

ولذلك كان عليـه الصلاة والسلام يودع أصحابه يقـول: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، وكان يقول في بعض الأحاديث: «**أستودعكم الله الذي**

لا تضيع ودائعه»، فهو أحسن من ودع عليه الصلاة والسلام، حتى إنه ودع عبد الله ابن رواحة فبكى عبد الله بن رواحة، وقال للرسول ﷺ وقد كان شاعراً رضي الله عنه:

ألفُ السلامِ على امرئٍ ودّعتُه ... فِي النخلِ خيرِ مُودِّعٍ وخليلِ

يقول: السلام والصلاة على خير خليل وخير صاحب وخير إمام وأفضل إنسان سيد الخلق ﷺ، وذهب ابن رواحة ليصب دمه في سبيل الله في مؤتة في الأردن رضي الله عنه وأرضاه، وكان من الشهداء الكبار.

فالشاهد أنه ﷺ كان يعلم أصحابه كيف يودعهم وكيف يودعونه عليه الصلاة والسلام.

ومرة أتاه أعرابي كما في سنن الترمذي، فقال: «يا رسول الله، إني أريد سفراً فزودني» الأعرابي على الناقة يريد السفر، يريد طعاماً.. تمراً.. دقيقاً.. زبيباً.. ورسول الله ﷺ لا يملك في ذلك الوقت شيئاً، كانت تمر على النبي ﷺ أوقات لا يجد فيها شيئاً، وأحياناً يأتيه ما أعطاه الله من المال والغنائم فيعطي، قال: فحاله ﷺ على أحسن من ذلك، قال: فزودني، فقال ﷺ: «**زودك الله التقوى**» فاستملح الأعرابي واستعذب هذا الكلام، قال: «**زدني، قال: وغفر ذنبك، قال: زدني، قال: ويسر لك الخير حيثما كنت**» فصارت أحسن من الدنيا وما فيها.

وفي الترمذي أن عمر رضي الله عنه أراد أن يعتمر، فاستأذن النبي ﷺ فقال له ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» سيد الخلق ﷺ صاحب المقام المحمود يقول لعمر وهو حسنة من حسنات الرسول ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» قال عمر وهو يتذكرها بعد وفاته ﷺ ويبكي، يتذكر هذه الكلمة: محمد ﷺ يقول لك: يا أخي، فقال عمر: «قال كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها»، يقول: والله لا أريد بهذه الكلمة الدنيا كلها، فمن قالها أشرف وأطهر وأحسن وأحلى فم وأصدق فم، نطق بها سيد الخلق ﷺ، يقول لعمر: يا أخي، فهو يتذكر ويبكي.

فكان المتنبي مبدعاً في هذا الباب، فيأتيك بمعانٍ لا تدري من أين أتى بها، ثم إنه يجدد ولا يكرر ما قال، يجدد في المطالع ويجدد في الطرح ويجدد في أغراض القصيد، وأحياناً يجعل في القصيدة ثلاثين غرضاً، فهو لا يتقيد بالوحدة الموضوعية، كما يفعل بعض الشعراء، إنما يسهب ذات اليمين وذات الشمال، فيبدع في كل باب، حتى إنك لو أخذت بيتاً من أبياته لكان علماً بارزاً وصار مشهداً مؤثراً ولوحة هائمة في الحسن وحدها، ولذلك فالأبيات السائرة في الناس هي أبيات أبي الطيب هذا الشاعر الأسطورة.

وإلا فقد سبق كثير من الشعراء المتنبي، لكن منهم من أجاد في الفراقيات ومنهم من سار عادياً. وجرير من أحسن ما قاله في الفراق وفي الشباب وفي الرثاء قوله:

يا أمَّ ناجيةَ السلامُ عليكمُ قبلَ الرحيلِ وقبلَ لومِ العُذَّلِ

لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدِكم قبلَ الرحيلِ فعلتُ ما لَمْ أفعلِ

قالوا: ماذا تفعل؟ قال: أقتل نفسي. هذا من كلام الشعراء، وإلا فلن يقتل نفسه ولن يجرح نفسه، لكنه كذب.

فأبياته مؤثرة في الفراقيات، حتى إنه يقول -وأريدك أن تقف لحظة مع هذا البيت وجمالياته وهو يسيل رقة وعذوبة وفصاحة وأثراً وجاذبية وسحراً حلالً-:

ذمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللوى والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيامِ

يقول: عشنا مع أناس من الأحباب في ديارهم وفي خيامهم، يقول: كلما أنزل بعدها ديارا أذمها، لا ترحب بتلك الأيام بغير منازلهم. فلم يعد للعيش طعم بعد أولئك الملأ الذين عشنا معهم، حتى يقول لبيد في أصحاب رافقوه وأناس نزل فيهم:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهم وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجربِ

يقـول: كنت صاحبت أناساً عشنا فـي أكنافهم وفي كرمهم وفي سعة خواطرهم وعذوبـة أخلاقهم، ثم تخلفت في ناس مثل جلـد الأجرب، إن أخطأت أمسكوا الخطأ وإن أحسنت دفنوه، فهم مثل جلد الأجرب مبعثر مشقق، وهذا كلٌّ يشتكي من زمانه.

قالت عائشة مستشهدة بهذا البيت كما في الصحيح: «يقول لبيد»:

ذهـبَ الـذيـنَ يُعـاشُ فـي أكنافِهم وبقـيتُ فـي خلْفٍ كجلدِ الأجـرْبِ

كيـف لـو رأى زماننا لبيـد؟» فأتى عروة ونقـل عن عائشة قـال: كيف لو رأت عائشـة زماننـا؟! فأتى هشـام بن عروة فقال: كيـف لو رأى عـروة زماننا؟! فأتى الزهـري راوي البيت فقال: كيف لو رأى هشام زماننـا؟! إلى أن نقله عشرة رواة. وأقول أنا: كيف لو رأوا زماننا؟

فكما قال القائل: «كلما أتى زمان كان الذي قبله أحسن منه، حتى تلقوا ربكم» قالـه أنس عن سيد الخلق ﷺ، وكما جاء في الحديث الآخر: «**خيرُ القرونِ قرني ثمَّ الذينَ يلونَهم ثمَّ الذينَ يلونَهم**» حديث صحيح.

لكـن أحياناً يأتي أفراد في القـرن المتأخر أحسن من بعض الأفراد في القرن المتقدم، لكن في جملة الناس القرن المتقدم أكثر خيرية، ففي كل عام وفي كل سنة يرذل الناس وتضعف مواهب الناس وخير الناس وإمكانيات الناس، حتى نلقى ربنا.

ومـن أحسن ما قيل في الفراقيات قـول متمم بن نويرة في أخيه مالك، يقول بعدما قتل أخوه مالك:

وكنَّـا كنـدمـانَي جذيمـةَ بـرهـةً مِنَ الدهرِ حتَّى قيلَ لنْ يتصدَّعَا

وعشْنَا بخيرٍ فِي الحياةِ وقبلَنا أصابَ المنايا رهطَ كِسْرى و تُبّعَا

فلـمَّـا تـفـرقْـنـا كـأنِّـي ومـالـكـاً لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معَا

أقرأتم مثل هذا السحر الحلال؟!

يقول متمم بن نويرة وكان له أخ اسمه مالك بن نويرة قتل، فرثاه متمم برثاء مفجع، حتى إن عمر رضي الله عنه كان إذا دخل عليه متمم قال: «ما بلغ من حزنك على أخيك يا متمم؟! قال: والله يا أمير المؤمنين، إني بكيت عليه حتى بكت عيني العوراء» وكان عنده عين مصابة، بكت وهي جافة يابسة، لكن من كثرة البكاء بكت الصحيحة، حتى أبكت أختها العوراء، كما قال الأول:

بكتْ عينِي اليمنَى فلمَّا زجرتُها ... عنِ الجهلِ بعدَ الحلمِ أسبلتَا معَا

يقول: نصحت عيني اليمنى، كأنه يقول لها: انظري إلى العين اليسرى العاقلة لا تبكي مثلك، فأنت ماذا حصل لك! لا تبكي، قال: فلم أمكث حتى بكت اليسرى كأختها.

مثلما يقول الأعور السلمي لما فقد ولده، بكى بكى، وكان له عين صحيحة وأخرى مريضة، فقال:

بكيتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ ... وعينٍ بهَا ريبٌ منَ الحَدَثَانِ

مريضة، مصابة من الحوادث.

عذيرُكِ يا عينِي الصحيحةَ بالبُكَا ... فمَا لكِ يا عوراءُ والهَمَلان

يقول: عذرناك أيتها العين الصحيحة، عندما تبكين؛ لأنك تستطيعين البكاء، ولكن ما الذي دفعك للبكاء أيتها العين المصابة العوراء؟ وهذا أيضاً من أجمل الأبيات.

وهناك السعد الشيرازي شاعر إيراني عالمي له ديوان، وذهبت إلى طهران قبل مدة؛ لآخذ هذا الديوان، وهو عندي، من أجمل الأبيات، يقول:

بكتْ عينِي غداةَ البين دمعاً ... وأخرى بالبُكَا بخلَتْ علينَا

فعاقبتُ التِي بالدمعِ ضنتْ ... بأنْ أغمضتُها يوم التقَينا

يقول: إن إحدى عيني بكت يوم ودعت أصحابي، والعين الثانية لم تبكِ، وعندما عدنا للسلام على الأصحاب بعد سنة أغمضت العين التي لم تبكِ؛ لكي لا ترى؛ لأنها لم تساعدنا بالبكاء قبل.

وله مقطوعة أخرى يقول فيها:

ما مرَّ منْ طيفِ الهوَى بمسمعِي لو سمعتُ وُرْقَ الحِمَى ناحتْ معِي

يَا معشرَ الخلانِ قولوا للمُعافَى: لستَ تدرِي ما بقلبِ المُوجَعِ

وبيت:

بكتْ عينِي اليمنَى فلمَّا زجرتُها عنِ الجهلِ بعدَ الحِلْمِ أسبلتَا معَا

للصمة الكسيري، من قصيدة يقول فيها:

بنفسِي تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبَى! وما أحسنَ المصطافَ والمُتَربَّعا!

فالمتنبي له في الفراقيات أبيات أخرى يقول من ضمنها:

يَا مَن نُعيتُ علَى بُعدٍ بمجلسِه كلٌّ بما زعمّ الناعُونَ مُرْتهَنُ

فيرى أنهم كرهوه بعد الفراق، ما وفوا له، يعني: ما ذكروا عهده الجميل وصحبته؛ لأن بعض الناس إذا وقع بينك وبينه شجار أو نزاع ترك تلك الصحبة الجميلة ونسي ذاك الوفاء والأيام الخالدة، يقول: سمعتم بلاغاً أني مت، فسررتم وفرحتم، وسوف تموتون مثلما أموت، وهل في الموت شماتة؟!

أيُّها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ أأنتَ المبرّأُ المَوفُورُ

يعني: ألن تموت؟! فيقول:

يَا مَنْ نُعيتُ علَى بُعْدٍ بمجلسِهِ كلٌّ بما زعمَ النَّاعونَ مرتهنُ

يَاكَمْ قُتلتُ ويا كَمْ مِتُّ عندكُمُ ثمَّ انتفضْتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

وهي من قصيدته البديعة الذائعة التي يقول فيها:

بِمَ التعلُّلُ لا أهلٌ ولاَ سكنُ وَلا نديمٌ ولا خلٌّ ولا وطنُ

أريدُ مِنْ زمنِي ذا أن يُبلِّغَني مَا ليسَ يبلغُه مِنْ نفسِه الزَّمَنُ

إلى أن يقول:

مِمَّا أضَرَّ بأهلِ العشقِ أنَّهُمُ ... هَوُوا وما عرَفُوا الدُّنْيا ومَا فَطِنُوا

يقول: يعشقون الدنيا وهم في الحقيقة لم يعرفوا الدنيا، لمَ يعشقونها؟ فهي غدارة.. غرارة.. مكارة.. وهي كلما رفع الإنسان علامات، فإذا علا مات، وهي تصبح بحال وتمسي بحال، وفيها فراق وفيها مرض وفيها فقر، إلى أن يقول:

تفنَى نفوسُهُمُ شوقاً وأدمعُهُمْ ... في إثرِ كلِّ قبيح وجهُهُ حسنُ

تحمَّلُوا حِمْلَكم فِي كلِّ ناجيةٍ ... فكلُّ بينٍ عليَّ اليومَ مُرْتَهنُ

سهرتُ بعدَ رحيلِي وحشةً لكُمُ ... ثمَّ استمرَ مريرِي وارعوَى الوَسَنُ

يقول: عندما فارقتموني سهرت ليالي وبكيت عليكم، ثم نسيت شيئاً فشيئاً، حتى عاد إليّ النوم وبدأت أعود كما كنت، والحمد لله.

وأكثر الناس على هذا المنوال، يفقد الوالد ولده فيقول: والله بعدك ما أذوق النوم، فيمر وقت يسير يسلو.

وتجد الشاب يموت أبوه فتجده يقول: لم أعد أرتاح في هذه الحياة بعد والدي، والدي زينة البيت، والله ليس لها طعم بعد والدي، لا أبنائي ولا حياتي، ويظل يبكي، وبعد أيام وأشهر ينسى أباه.

فلا يغررك كلام الناس، ولذلك ترى في أبيات المتنبي عمق الدلالة، ترى فيها من العبقرية أنه يصل إلى المعاني، حتى يقول الشوكاني في بعض رسائله: فلا إله إلا الله ما أدق نظره! ولا إله إلا الله ما أقوى حكمه! عنده دراسة عجيبة لنفسية الإنسان؛ لأن عبقريته أوصلته إلى هذا النفوذ.

لا تلقَ دهرَكَ إلا غيرَ مكترثٍ ... ما دامَ يصحبُ فيهِ روحَك البدنُ

فما يديمُ سروراً ما سررتَ بهِ ... ولا يردُّ عليكَ الغائبَ الحزنُ

يقـول: لا تكترث بشيء ولا يهمك شيء، فالدنيا كلها أوهام في أوهام، إذا لم تفـرج فقل: إنـا لله وإنا إليه راجعون، سوف نموت جميعـاً، لا تفرح بما أوتيت، ولا تجـزع إذا أدبرت، فالدنيا كلهـا زائلة، ونحن في مسرحية اسمهـا الحياة الدنيا، فـإذا سررت فلا يدوم السرور، كم عمر السـرور؟! تسر بزوجة.. بابن.. بنجاح.. بمال.. بثروة.. بمنصب.. ثم أيام معدودة فينقلب الحال، ولا تدوم، ولا يرد عليك الغائـب الحزن، تحزن على إنسان، هل سيرد الحزن الغائب عليك، هل سمعتم أن الحزن رد ميتاً أو أعاد ثروة ذهبت، فيقول:

مـا كـلُّ مـا يتمنَى المـرءُ يـدرِكُه تجرِي الرياحُ بما لا تشتهِي السفنُ

هذا بيت الباقعة هنا أتى به في هذه القصيدة، وإنما ذكرته؛ لأنه في قصيدته هذه اللامعة التي سطع بها نجمه مع قصائده الأخرى.

والمتنبـي استخدم في قصائـده طرابلس، طرابلس التي فـي الشام وليست التي في ليبيا، يقول المتنبي:

أكـارمُ حسدَ الأرضَ السماءُ بهِمْ وقصرتْ كلُّ مصرٍ عنْ طرابلسِ

يقـول: إنكم في طرابلس، حتى السماء حسدت الأرض لأنكم في الأرض، وكل مدينة في العالم حسدت طرابلس؛ لأنكم أنتم في طرابلس، يعني بني عبيد الله.

يفـدِي بنِيكَ عَبِيد الله حاسِدكم بجبهةِ العيرِ يفدِى حافرَ الفرسِ

إلى أن يقول فيها:

لـو كـانَ جـودُ يـديـهِ جـودَ غـاديـةٍ عزَّ القطا فِي الفيافِي مَوضِعَ اليبسِ

يقـول: لـو كانت يده مثل الغيمة فـي الكرم لكانت صبت ماءهـا حتى ما تجد القطـاة وهـي تمشي في الأرض مكانـاً يابساً، فهذا مـن دقته فـي المعنى، وهو يرسـم بريشته، يرسم لوحة هائمة بالحسن، ويلاحق معك الحرف، ثم يصور لك المشهد، ويسلمه لك جاهزاً، وما عليك إلا أن تتدبر ما يريد أن يصل إليه.

فأتى شاعر آخر فنظم على القافية فقال:

أحبابَنا إنْ بعدتُم عنْ زيارتِنا أنَّا بمصْرَ وأنْتمْ فِي طرابلسِ

وسار على نفس النسق، وذكر ياقوت الحموي مدينة طرابلس، فأتى بقصيدة أبي الطيب الرائعة البديعة، وأتى بهذه القصيدة.

وإنما قلت الفراقيات؛ لأن العلماء والشعراء والعقلاء أجمعوا على أنه لا قرار في هذه الحياة وعلى أن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا.

وإذَا أتَتْكَ مِنْ البلاءِ بليَّةٌ فاذكُرْ مصابَكَ بِالنَّبِيِّ محمَّدِ

فما بعد موت النبي ﷺ يجزع على ميت، وما هناك مصيبة أعظم من مصيبتنا في النبي ﷺ، ولذلك كتب الله الفراق على هذه الدار: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وإنما آتي بالشعراء خاصة هذا المتنبي؛ لأننا نهتم بأدبه موقفاً موقفاً ومشهداً مشهداً، موقفه من المديح ومن الفخر ومن الكرم وفي الحب وفي الرثاء وفي الوصف وفي ذكر الديار والمعاهد وفي الحكمة.. ونحو ذلك.

وجدناه في هذا الباب مبدعاً، حتى إنه غلب كثيراً من الشعراء في الفراقيات.

ولكن بعض النقاد والحساد يأتي ببعض الأبيات الرخيصة وينبه عليها؛ ليبين ضعف المتنبي، يقول محمود شاكر صاحب كتاب المتنبي: إن هذا الرخيص من أبياته أظهر عظمته في الأبيات الأخرى، مثل الحطب بجانب الجوهر والدرر، فلا بد من هذه الأبيات الضعيفة؛ لتقوم عبقريته وعظمته في أبياته.

فهذا المتنبي مثل ذلك، وإلا فله أبيات أخذت عليه، مثل قوله:

فقلقلتُ بالهمِّ الذِي قلقلَ الحشَى قلاقِلُ عِيْسٍ كلهنَّ قلاقِلُ

فلو لم يأتِ بهذا البيت وارتاح لكان أراحنا وأراح نفسه. ومثل هذ البيت قوله:

فحمدانُ حمدونٌ وحمدانُ راشِدٌ وراشِد لقمانٌ ولقمانُ حارِثُ

يقول: أنت مثل أبيك، وأبوك مثل جدك، وجدك مثل أبي جدك، وجد أبي جدك مثل جد جد جده..!

وهذه العبقرية لا بد لها من فلتات وعثرات، فللعبقرية فلتات وتشققات، ولها كبوات، حتى إن أبا تمام وهو مبدع- لكن أبا الطيب يعلو عليه، فأبو الطيب ملك الشعراء وحامل ناصية الأدب وحامل ناصية الحكمة، لكن أبا تمام يأتي بعده- له أشياء عجيبة من الحكم، لكن لامه العلماء في التكلف أحياناً، حتى إنه سهر في خراسان ليلة من الليالي؛ ليأتينا ببيت، قالوا: ليته نام تلك الليلة وأراحنا وريَّح المسلمين، فمن صلاة العشاء يتقلب على فراشه؛ لكي يأتي بهذا البيت، وأتى الصباح وأذن المؤذن، فقال:

سلمَى سلمْتِ منَ العاهاتِ ما سلمَتْ سلامُ سلمى وَمَا قد أورقَ السلمُ

وإلا فهو يبدع، ومن ذلك:

مرَّتْ سنينٌ بالسعودِ وبالهنَا فكأنَّها مِنْ قصْرِها أيَّامُ

أيام الشباب والغنى والثروة.

ثمَّ انثنتْ أيامُ هجرٍ بعدهَا فكأنَّها مِنْ طولِها أَعْوامُ

ثمَّ انقضَتْ تلكَ السنينُ وأهلُها فكأنَّهم وكأنَّها أَحْلامُ

هذه الحياة، لخصها في ثلاثة أبيات، وهو صاحب البيت:

وَإذَا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويَتْ أتاحَ لهَا لسانَ حسودِ

يقول: إذا أراد الله أن ينشر فضائلك في الناس سلط عليك حساداً يجلدونك جلداً بالقصائد وغيرها، فتظهر عظمتك ومكانتك، يسبونك فينشرون فضائلك.

ويدلل على هذه الأبيات فيقول:

لَولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كانَ يُعرفُ طِيبُ عرْفِ العودِ

ففوح العود والبخور إذا لم تضعه على النار، لما كان شاع وذاع في الناس. ويقول:

وطولُ مقامِ المرءِ فِي الحيِّ مُخلقٌ لديباجتَيهِ فاغتربْ تتجدَّدِ

يقول: لا تبقَ باستمرار في قريتك دون أن تسافر، سيملك الناس ويكرهك أهلك، لا تستفيد ثروةً ولا علماً ولا معرفةً ولا خبرةً، ولذلك من يسافر يجد العلوم والخبرات والتجارب والثروة، وهو يدلل على هذا فيقول:

أفمَا رأيتَ الشَّمسَ زِيدَتْ محبةً إلى الناسِ أن ليسَتْ عليهِمْ بسرمدِ؟

لو كانت الشمس دائمة ليل نهار لملّها الناس.. لكن إذا أظلم الليل وأمضينا ما يقارب اثنتى عشرة ساعة طلعت علينا الشمس، فالكل يهفو إلى طلعتها؛ لأنها تجددت علينا، فأنت جدِّد من حياتك بالترحال والتنقل تطلب المعرفة والفائدة. فهذه من فوائد الأسفار.

وقصدي في هذا الباب أن المتنبي قد أبدع:

فلو لم يكن له إلا قوله:

فُراقٌ ومن فارقتُ غيرُ مذمَّمٍ وأَمٌّ ومَنْ يمَّمتُ خيرُ ميمَّمِ

لكان أحسن وأجاد وكفى.



الوعظ

المتنبي هذا الشاعر المشهور أصبح كالأسطورة في الناس ذيوعاً وانتشاراً وأصبح مثلاً في الحكمة والاستشهاد بشعره في كل محفل، ونقف هنا مع بعض أشعاره في الوعظ، وهو قليلاً ما يعظ، فهو مشغول بشهرته، مشغول بلموعه، مشغول بالدنيا، مشغول بإعداد مكانة له في المجد الدنيوي المنتهي المنصرم، حتى إنك تجده عندما يبحث عن المعالي، تجده قتل روحه وأضنى جسمه، وهو يبحث عن الإمارة ويبحث عن منصب، خلاف الذين يريدون الآخرة، يقول في الوعظ:

أبـنِـي أبـيـنَـا نـحـنُ أهـلُ مـنـازلٍ أبـداً غـرابُ الـبـيـنِ فـيـهَـا يـنـعِـقُ

يقول: نحن عشنا في هذه الدنيا وغراب الفراق الموت دائماً معنا.

ثم يقول في موضع آخر:

نبكِي علَى الدنيا وما مِنْ معشرٍ جمعتْهمُ الدُّنيا فلِمْ يتفرَّقُوا

ثم يستمر في ضرب الأمثال، قائلاً:

أينَ الأكاسرةُ الجبابرةُ الأولى كنزُوا الكنوزَ فلاَ بقينَ ولا بقُوا

مِنْ كلِّ مَنْ ضاقَ الفضاءُ بجيشِه حتَّى ثـوَى فـحَـواه لـحـدٌ ضـيِّـقُ

خُرْسٌ إذا نُودوا كأنْ لَمْ يعلمُوا أنَّ الـكـلاَم لـهـم حـلالٌ مُـطْـلـقُ

يقول: إذا أصبح هؤلاء الجبابرة والسلاطين والذين عاشوا ملوكاً أمواتاً أصبحوا في القبور خرساً، لا يتكلمون عندما تناديهم، تقول: السلام عليكم، كيف حالكم؟

إنِّـــي أتـــيـــتُ أحـبَّـتِـي بـيـنَ الـهـوَى فِـي مـنـبـتِـي

نـــاديـــتُ أيـــنَ أحـبَّـتِـي فـوجـدتُ أيـــنَ أحـبَّـتِـي

يعني: لا يوجد إلا الصدى، إلا الصدى لمصوّت.

يقول: أتيت إلى القبور، فقلت: أين أحبتي؟ فرد علي الصوت الصدى من الوادي قائلاً: أين أحبتي؟ نفس صوتي أنا، ما أجابوا.

وهذه القصيدة ابتدأ بها المتنبي بالحب والغزل وانتهى بها يمدح معن بن أوس، يقول فيها وهي من أحسن قصائده:

أرقٌ علَى أرقٍ ومثلِيَ يأرقُ وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ

جهدُ الصبابةِ أنْ تكونَ كمَا أرَى عينٌ مسهدةٌ وقلبٌ يخفقُ

ما لاحَ بـرقٌ أو ترنَّمَ طائرٌ إلا انثنيتُ ولِي فؤادٌ شيقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتَّى ذقتُه فعجبتُ كيفَ يموتُ مَنْ لا يعشقُ
وعذرتُهم وعرفتُ ذنبِي أنَّنِي عيرتُهم فلقيتُ منهُمْ ما لقُوا

كنت ألوم الناس: لماذا تعشقون؟! حرام عليكم، لا ينبغي أن تعشقوا، ضيعتم أوقاتكم، ثم يبدأ بالحكمة:

أبنِي أبينَا نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فيهَا ينْعِقُ
نبكِي على الدُّنيا وما مِنْ معشرٍ جمعتهُمُ الدُّنيا فلمْ يتفرَّقُوا

يقول: يا بني آدم، يا إخواني يا زملائي، نحن سنفارق هذه الحياة.. انظر كيف انتقل مباشرة، لكي يصدم الممدوح بالصدمة الأولى بالمديح فيعظ، لأنه أتى إلى أناس فضلاء من أهل العلم والحكمة، فيريد أن يتبجح بأنه رجل زاهد ويعرف أن الموت حق. إلى آخر ما قال. وقد سقت لكم الأبيات والشاهد منها قوله:

كبّرتُ نحوَ ديارِهم لمَّا بدتْ مِنْها الشموسُ وليسَ فِيها المشرقُ

يقول: عجباً رأيت الشموس ورأيت الجمال ورأيت هناك وجوه الناس.

الشاهد هنا: أن الرجل وعظ بالفراق في الموت وأن الإنسان قد ينتهي من هذه الحياة، وأن الدنيا ليست بدار قرار، وقد سبقه عدي بن زيد في الجاهلية، حتى يقول ابن المبارك العالم الرباني الزاهد المحدث: والله إن قصيدة عدي ابن زيد الجاهلي أحسن عندي من قصر الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين لو كان لي.

قصره طبعاً في خراسان شيء مذهل، مثل برج إيفل. إذا ذكرت برج إيفل فهو مشهور جداً، يقول: تعجبني قصيدة عدي بن زيد هذه أحسن من قصر

عبد الله بن طاهر بن الحسين الأمير، عدي بن زيد الجاهلي يقول في صفة الحياة. وكأن المتنبي أخذ منه هذا المعنى، يقول:

أيُّها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ ... أأنتَ المبرأُ الموفورُ

يقول: يا من يشمت بنا إذا أصبنا بنكبات ومصائب، أأنت مبرأ لا يأتيك شيء؟ عندك عهد من الله ﷻ ألا تأتيك نكبة، يا من شمت بنا إذا مات أبناؤنا أو أصبنا أو أتتنا كوارث وأزمات، أأنت لا يصيبك شيء؟!

هلْ رأيتَ المنايا خلدنَ أمْ مَنْ ذَا ... عليهِ مِنْ أنْ يُضامَ خفيرُ

يقول: أمن أحدٍ عليه خفير فلا يضام؟! أحد عليه وكيل ألا تأتيه بلوى؟! كلنا مشتركون في هذه المصائب، كل دار ملئت حبرة لا بد أن تمتلئ عبرة، تحت كل خصة غصة، هذه شيمة الدار.

تقول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي ... علَى إخوانِهم لقتلتُ نفسِي

وما يبكينَ مثلَ أخِي ولكنْ ... أعزِّي النفسَ عَنْه بالتأسِّي

فالناس أكثرهم في بلاء، من لم يبتلَ في جسمه ففي عقله.. في علمه.. في دينه.. في ماله.. في تجارته.. في أبنائه.. في كل وادٍ بنو سعد.

فهذا يقول: لا تقل: إنك تشمت بنا، سوف يقع لك مثل ما وقع لنا.

مر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ببابل، فوجد قصور بابل قد تهدمت، كان فيها مملكة هاروت وماروت اللذين ذكرا في القرآن، سحر بابل هاروت وماروت، وكان فيها حضارة عظيمة، فهدمت القصور وماتت الأشجار وهاجرت الأطيار وذبلت الأزهار. ما بقي في الدار شيء. بكى علي وتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفور قال:

جرتِ الرياحُ علَى محلِ ديارِهم فكأنَّهم كانُوا علَى مِيْعادِ

يقول: كأنما وقت لهم الزمان أن يذهبوا، لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، كل أمة لها أجل، سبحان الله! جعل الله لكل أمة ولكل شعب ولكل دولة ولكل إنسان أجلاً، مثل أجل الإنسان الفرد.

فمثلاً: أخذت الدولة البيزنطية مرحلتها، وكذلك دولة حمورابي، الأشوريين.. الكندانيين.. الكنعانيين.. الفراعنة.. كل منهم أخذ مرحلته، ثم لما أتت الساعة انتهى أمرها وسقطت، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]. ولما أفناهم سبحانه وتعالى قال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

ونعود إلى عدي بن زيد، فيقال: جلس النعمان بن المنذر– وهذا من شعراء النعمان بن المنذر – وكان النعمان جاهلياً، وهو الذي مدحه شعراء كثر منهم النابغة، فجلس في حديقة غناء في الصحراء في يوم ربيع، وإذا الخزامى وإذا الشيح وإذا الأزهار قد فاحت والطيور قد صدحت والنعيم هناك، والمنظر بهيج، قال عدي بن زيد وقد كان صاحب حكمة: يا أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ طبعاً الشجرة لا تقول شيئاً، لكنه قال هذا لكي يعرض له، قال: ما أدري ما تقول؟ قال: تقول:

رُبَّ ركبٍ قَدْ أناخُوا حولنَا يمزجونَ الخمرَ بالماءِ الزلالِ
عبرُوا حِيناً ومرُّوا زمناً ثمَّ صارُوا جُثَثاً تحتَ الرمالِ

يقول: تقول: كم جاءنا من وفد وذهبوا، وكم قافلة مرت من هنا، وكم من ملك جلس عندنا يمزجون الخمر بالماء الزلال.

قال النعمان بن المنذر: والله لقد نغصت علي عيشي. فأمر بالخيام فقوضت، ثم جاءه بؤس وأسف وندم؛ لأنه وعظه وقال له: لا تغتر، أنت الآن تجلس هنا تلهو

وتلعب، قد مرَّ من هنا قبلك أناس وأمم وأجيال، ثم ذهبوا، قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨].

فنحن في هذا المشهد مع المتنبي أحياناً يعظك، أحياناً ينبهك أن هناك فراقاً وأن الدنيا ليست بدار قرار. فهذه الدنيا لا تبقي على أحد، ولا يدوم على حال لها شان.

كما قال أبو البقاء الرندي:

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ منْ يمنٍ ... وأينَ منهُم أكاليلٌ وتيجانُ

وأينَ ما شادَه شدادُ فِي إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان

أتَى علَى الكلِّ أمرٌ لا قضاءَ لَه ... حتَّى قضُوا فكأنَّ القومَ مَا كانُوا

يعني: أصبحوا حلماً، وهذه يتداولها الشعراء كثيراً، لكن المشكلة أن الإنسان قد يؤمن بهذه الأفكار ولكنه لا يطبقها في حياته، تجد أكثر الناس يقول: إن الموت حق ونحن سنموت، لكنه لا يعمل لما بعد الموت، وتجده يقول: هذه الدار ليست بدار قرار، وإنها دار غدارة خوانة غرارة، مع العلم أنه مجتهد في جمع الدرهم والدينار، ويعبد هذا، مع أن الإسلام يبيح لك أن تجمع المال من حله وتنفقه في حله، لكن أن يتحول الإنسان إلى خادم وإلى عبد وينسى حقوق الله وحقوق عباده، وينسى لقاء الواحد الأحد فهذا مذموم، ولذلك يقول ابن عيذون الأندلسي الشاعر المشهور في رثائه للمعتمد بن عباد ذاك الملك المضطهد المظلوم الذي انتهى بمأساة وكان مملوءاً حكمة وعلماً ومجداً ونخوة وصرامة، ثم انتهى به المطاف إلى السجن أسيراً في أغمات، سجنه ابن تاشفين، ملك المرابطين، فكانت بنات الملك ابن عباد يمشين في الكافور في القصر، يعجن لهن الكافور فيمشين في القصر ويمشين فيه، فلما سجن أخذت بناته وطردن وأصبحن أسيرات ويعملن ويغزلن بالأجرة الثياب للناس، خياطات، وأتين يوم العيد يزرن هذا الملك المهيب،

الملك العجيب، الذي كأنه بدر السماء، أتين فلما رآهم من السجن مقبلات يزرنه حافيات، ما وجدن ثمن حذاء! انظر إلى الدنيا وتقلباتها، فالإنسان لا يثق بالدنيا، لكن بالإيمان والعمل الصالح، أي شيء لا تثق به، لا الصحة.. ولا الشباب.. ولا الأبناء.. ولا الثروة.. يبقى معك الإيمان والعمل الصالح.. الذكر الحسن.

فلما رآهن وإذا الثياب مشققة، وهن حسيرات كسيرات بكى وتفجع وقال مخاطباً نفسه:

بالأمسِ كنتُ بالأعيادِ مسروراً ... فزارَك العيدُ فِي أغماتَ مأسوراً

تـرَى بناتَك فِي الأطمارِ باليةً ... يطأَنْ فِي الطينِ ما يملكْنَ قِطْميراً

يطأْنَ فِي الطينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كأنَّها لَمْ تطأْ مِسْكاً وكافُوراً!

يعني: أما مر أن هذه الأقدام قد مشت من قبل على المسك والكافور، ما لهذا الدهر تغير؟! حتى يقول الأعشى وقد كان في منفوحة في الرياض، وذهب يمدح الرسول ﷺ في قصيدة، لكنه ما تمكن من إلقائها، صرفه حب الدنيا، أعطاه أبو سفيان مئة ناقة فترك الإسلام والرسالة ورجع بمئة ناقة، وسقط من على ناقة في منطقة ديراب هنا قريباً من الرياض ومات، فهو يقول في أول قصيدته:

شبابٌ وشِيبٌ وافتقارٌ ولذَّةٌ ... فَلَلَّهِ هذِي الدارُ كيفَ تردَّدا

فقصدي من هذا الشاهد أن ابن عيذون الأندلسي يرثي ابن عباد يقول:

الدهرُ يفجعُ بعدَ العينِ بالأثرِ ... فما البكاءُ علَى الأشباحِ والصُّورِ

أنهاكَ أنهاكَ لا آلوكَ موعظةً ... عَنْ نومةٍ بينَ نابِ الليثِ والظفرِ

يقول في آخرها وهو يتحدث عن المنية: إنها ما تبقي أحداً، تزور صاحب القصر وصاحب العيادة وصاحب المتجر والطبيب والمهندس والفيلسوف والشاعر.. تختطف أرواحهم، ثم يقول فيها:

فليتَها إذْ فدتْ عمراً بخارجةٍ فدتْ علياً بمنْ شاءتْ منَ البشرِ

انظر إلى هذا اللغز التاريخي! ليتها فدت عمراً وهو عمرو بن العاص، وخارجة كان أشبه بمدير الشرطة أو رئيس الشرطة لعمرو بن العاص؛ لأن الخوارج أرادوا قتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعاوية وعمرو بن العاص، فجهزوا ثلاثة في ليلة واحدة، فأما قاتل علي وهو عبد الرحمن بن ملجم فوجد علياً فقتله، فصار علي شهيداً، وغضب الله على عبد الرحمن بن ملجم ولعنه، وهو الخارجي.

وأما عمرو بن العاص فذهب له الخارجي في مصر؛ ليقتله وكان عمرو بن العاص قد مرض -سبحان الله، هي الأقدار!- تلك الليلة بحمى، فأرسل مدير الشرطة؛ ليصلي بالناس الفجر، فحسب الخارجي أنه عمرو بن العاص فقتله.

فمقصود ابن عيذون: لما فدت المنية عمرو بن العاص وجعلت خارجة مكانه، فليتها أيضاً أخذت من شاءت من البشر، وتركت لنا علي بن أبي طالب أبا الحسن.

وعلى ذكر علي فقد كان آية في الزهد، وهو صاحب الكلمات الواصلة التي إلى القلوب حاصلة، حتى إن البخاري في كتاب الصحيح في الرقاق بدأ كتابه بقوله:

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».

ويقول في كلمة له: «يا دنيا دنية، غري غيري، طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها، زادك حقير، وعمرك قصير، وسفرك طويل، آه من وحشة الزاد وبعد السفر ولقاء الموت».

ولذلك قال المتنبي:

أبداً تستردُ ما تهبُ الدُّنيا فيَا ليتَ جودَها كانَ بُخْلاً

هذه فلسفة المتنبي. يقـول: إذا أعطتك الدنيا شيئاً تسترده من جهة أخرى، يصـح عنـدك الابن تموت البنـت، يتشافى عنـدك البصر يذهب السمـع، فليتها أمسكـت رأسـاً برأس، كفافاً لا لي ولا علي، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سكرات الموت: «يـا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علـي» أي: من الخلافة، وقد كانوا يبشرونه، يقولـون: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت فـكان إسلامك نصراً، وهاجرت فكانت هجرتك فتحاً، وتوليت فكانت ولايتك رحمة.

وهـذا صحيح، كل ما قالوه صحيح، فبكى وقال: «يـا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي».

فالمتنبي جمع هذه المعاني وقال:

أبـداً تسـتـردُ مـا تـهـبُ الـدُّنْـيـا فـيـا لـيـتَ جـودَهـا كـانَ بُـخْـلاً

الآن يبارك للإنسان في المنصب، لا يكاد يمكث فيه، وإذا بالعزل يفاجئه.

فهـذه فلسفة المتنبي إذا أراد أن يعظ، فهو يتكلم في الوعظ أحياناً، ولا يكثر في ذلك.

والمتنبـي له في أبواب الوعظ والموت فصـول، ولكنه يجيد صراحة إذا أراد وإذا كان صادقـاً فـي الرثاء، وإذا كان يحب هذا الميـت، فإنه يصدق في الدموع ويصـدق في إخراج الآهات والزفـرات واللوعات عليه، حتى قال في قصيدة يرثي وزيراً عند سيف الدولة اسمه: يماك، يقول:

وقَـدْ فـارقَ الـنـاسَ الأحـبـةُ قبلَنا وأعـيَـا دواءُ الـمـوتِ كـلَّ طبـيـبِ

يقـول: كل إنسـان فارق خليله، فالموت لـم يستطع حتى الأطبـاء أن يكتشفوا له حلاً، اكتشفوا حلاً للأمراض وللآلام.. وعقاقير.. وأدوية.. والعلاج.. لكن الموت لا.

يقول الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب فرحاً.

فكل إنسان مهدد بالموت، فالمتنبي أجاد في نظمه ذاك، إلى أن قال:

ولَا فضلَ فِيهَا للمروءةِ والنَّدى وصَبْر الفتَى لَولا لقاءُ شعوبِ

وشعوب: المنية، الموت من أسمائه شعوب، يقول: لو أنه لم يكن موت لما كان هناك خير للفضيلة وللجود وللشجاعة وللذكاء والبراعة، لكان الناس سواسية. لكن لما كان هناك موت وحساب صار الجواد أحسن من البخيل، والشجاع أحسن من الجبان. ثم يصف الدنيا قائلاً:

تورَّثَها الآتِي تورُّثَ سالبٍ وفارقَها الماضِي فراقَ سليبِ

يقول: ابنك يأتي بعدك يتورث، فكأنه سلبك ملكك. والوالد مسكين فهو مسروق، ابنه يأتي إلى الدنيا فيسلبه سلباً.

وهذه الفلسفة عند الشعراء يكثرون منها ولكنهم في الغالب يصدقون؛ لأن الموت هو ساعة الصفر كما يقول الطنطاوي، ساعة الصفر يعني ساعة الموت، يذعن فيها المتكبر ويلين فيها القاسي، ويتواضع فيها الجبار، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني.. فهي لحظة في الحقيقة تزول بهارج النفس فيها.

حتى إن فرعون الهيلمان.. والقوة.. القائل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] لما أتت ساعة الصفر قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] انظر كيف حقق! لأنه وصل إلى درجة وإلى ساعة وإلى لحظة تنتهي الزخارف والادعاءات والإغراء وطغيا، النفس وجبروت الخاطر.. كل هذا ينتهي، يقول كعب بن زهير:

كلُّ ابنِ أنثَى وإنْ طالَتْ سلامتُه يوماً علَى آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

يقول: مهما طال عمر الإنسان ومهما عمر وشاد وساد واغتنى وذهب وشمخت نفسه.. فسوف يحملونه على خشب وهي الآلة الحدباء وسيذهب إلى الآخرة، هذه

قصــة الموت. ولذلك فقد وقفت معه؛ لأن المتنبــي وقف معه في بعض أبياته وفي بعض قصصه وهو يتحدث عن الفراق، حتى إنه لما ماتت أخت سيف الدولة وكان مسافراً، كان في العراق، فيقول:

طوى الجزيرةَ حتَّى جاءَني خبرٌ فزعتُ فيهِ بآمالِي إلى الكذبِ

ولا يقصــد الجزيــرة العربية، بل بلدة فــي العراق، يقول: قلــت أسأل الله أن يجعلــه كذبــاً، إن شاء الله ليس هذا الخبــر صحيحاً. وهذا مجاملــة ونفاق، يريد أن يجامــل سيف الدولــة يقول: لما ماتت أختكم والله لقــد جاءني من الهم والغم وجاءنــي من الإزعاج، حتى قلت: أســأل الله أن يكون هذا الخبر غير صحيح، لكن انظر إلى الإبداع اللفظي مع هذا الرجل، حتى في مطلع القصيدة يقول:

يَا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عنْ أشرفِ النسبِ

طوى الجزيرةَ حتَّى جاءَني خبرٌ فزعتُ فيهِ بآمالِي إلى الكذبِ

حتَّى إذا لَمْ يدَعْ لِي صدقُه كذباً شرقتُ بالدمعِ حتَّى كادَ يشرقُ بِي

الله أكبــر! مــن أين يأتــي بهذه المعاني وهــذه الألفاظ.. وهــذه الإبداعات.. يقــول: والله إني غرقت بالدمع حتى صــار الدمع كأنه يغرق بي أنا، وهذا من غاية ما يفعله.

يقــول أحــد الآباء لابنه: يا بني، إيــاك والشعر الفاتر، إمــا جامد مثلج يكسر العظام، وإلا حار يقطع المصران.

أما الشعر الفاتر فلا حماسة له. وغالب شعر المعاصرين تجده فاتراً.

والصاحــب بن عباد كان عدواً للمتنبي، وكان وزيــراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكــره المتنبي؛ حسداً فقد كانــا متعاصرين، وكان المتنبي لا يمدح إلا الملوك أمــا الوزراء فــلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بــن عباد، فوقع

بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبي أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أتته ستون رسالة، من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبي قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَر ... فَزِعتُ فيهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِبَاً ... شَرِقْتُ بِالدَّمع حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أَنْشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبي يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز وفي طريقه الصاحب ابن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبي يريد أن يُعرّض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَو اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بُعْرَانَا

فَالْعِيسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ ... عَمَا رَآه مِنَ الإِحْسَانِ عُمْيَانَا

عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحَاً وَإِهْوَانَاً

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّد الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهْ ... يُغْتَابُ سِرَّاً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلانَا

فالجواد إذا حضر يمدحه الناس وإذا غاب يغتابونه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إذا قدم هابوه وإذا أدبر اغتابوه. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

فانظر إلى هذه العظمة التي فيه، وهو فقير وصعلوك، لكنه لديه عبقرية.

يقول: لا يغررك كوني يتيمًا، فأنا قوي ولا أقبل أحداً، وأنا مصمم على ألا

يسبقني أحد. هذه عبقرية نادرة.. وهذا أصبح له وجود في الساحة، ولذلك لا تلغي أحداً من المؤثرين، فإنك لا تستطيع فعل ذلك أبداً؛ لأن له أتباعاً وله شرائح وله مشاهدين وله من يسمع وله من يقرأ وله من يحب، فهذا المتنبي لا بد أن تعترف به، وهذا الذي فعله الصاحب ابن عباد لعقله ولو كان عدواً له.

ومن المعاصرين كان ابن عثيمين، ليس العالم، بل شاعر آخر اسمه محمد ابن عثيمين، يقول:

هوَ الموتُ ما مِنْه ملاذٌ ومهربُ متَى حطَّ ذا عنْ نعشِه ذاكَ يركبُ

يقول: لا تكاد تنتهي الجنازة الأولى، حتى تلحقها أختها، ونظل ننتقل من العمار إلى الدمار، من القصور والدور إلى القبور.. وهكذا.

فالموت وراءك أينما ذهبت، تذهب في السفينة فهو وارءك، وفي الطائرة معك، وفي المكتب، تدخل الغار خلفك، تجلس في العيادة معك، لا يفارقك.

وانظر إلى الأسلوب القرآني الراقي الذي هو أجل من الشعر، وارتفع عن النثر، وعظم عن الأدب، يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨] إذا فررت من الشيء فأين يكون هذا الشيء؟ يكون وراءك، تفر من الأسد والأسد وراءك، تفر من الثعبان والثعبان يطاردك، فانظر إلى أسلوب القرآن: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وهو في الحقيقة أمامكم وليس خلفكم، فأنتم تفرون إليه، كما قال القائل: **فرّ مِنْ الموتِ وفي الموتِ وقَع.**

فأنت تفر إلى الموت، قرأت في قصص سليمان بن داود عليه السلام أن ملك الموت نزل في مجلسه، قال لملك الموت: إلى أين تذهب؟ قال: أمرني ربي أن أقبض رجلاً من رعيتك في فلسطين بأرض الهند، وقد بقي على أجله أيام والله أمرني أن أقبض روحه في الهند، وهو معك في فلسطين، فكيف هذا! وبينما هو جالس

وإذا برجل أتى ودخل على سليمان وهو هذا الرجل المحكوم عليه بالموت من الله، قال: يا نبي الله، أريد أن تأمر الريح أن تنقلني إلى الهند لغرض لي هناك، فتبسم سليمان وأمر الريح بنقله إلى الهند، كما قال سبحانه عنها: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢] ويركب سليمان والأمراء والعسكر والجنود كلهم على بساط الريح، فإذا أرادت أن تنزل قال: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦] يعني: تهدأ شيئاً فشيئاً، حتى تصل المدرجات بهدوء، فقبض روحه بعدما انتقل.

وبالمناسبة مر أحد الشعراء في مصر بقبر الإمام محمد عبده المفسر الكبير غفر الله له، وقال بيتاً جليلاً سبحان الله! وقد كان مر على وفاته أربعون ليلة، فوقف الشاعر وبكى كثيراً، قال لمحمد عبده يخاطبه وهو في القبر مدفون من أربعين ليلة:

لِمَ لا تجِيبُ وقَدْ دعوتُ مراراً ... يكفِي سكوتُك أربعينَ نهاراً؟!

يقول: سلمنا.. سألنا عنك.. كيف أخباركم.. يا إمام.. تكلم.. رد علينا التحية.. هذا من الشجن.. هو يعرف أنه لن يرد عليه التحية، لكنه يريد أن يقطع قلبك؛ لأن هذا كان رجلاً مؤثراً مفسراً، وكان مصلحاً، يقول: منذ أربعين يوماً ونحن نمر على قبرك.. ولم ترد علينا السلام مرة واحدة!

حتى المتنبي كما مر معنا يقول:

خرسٌ إذا نودُوا كأنْ لَمْ يعلمُوا ... أنَّ الكلامَ لهُمْ حلالٌ مطلقُ

يقول: نسلم على الملوك والجبابرة والعلماء والكبار يقول: الكلام حلال فلم لا تتكلمون؟! ليس الكلام حراماً، لكنهم لم يستطيعوا، يقول علي بن أبي طالب عندما سلم على القبور: «كيف أخباركم؟ ثم قال: سكتوا والله! ولو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]».

فإذا أردت أن تعرف الحياة، فمر بالمقبرة.

يقول إستيفن كوفي: مررت بمقبرة في كلفورنيا، فرأيت قبر رئيس الجمهورية بقبر الفقير، واللاعب المشهور الكبير بقبر اليتيم، كلهم سواء، يقول الشاعر:

أتيتُ القبورَ فناديتُها: فأينَ المعظَّمُ والمحتقَرْ؟!
تفانُوا جميعاً فما مخبِرٌ وماتُوا جميعاً ومات الخَبَرْ
فيَا سائِلي، عن أناسٍ مضُوا أمَا لكَ فيما مضَى معتبَرْ
تروحُ وتغدُو بناتُ الثَّرَى فتمحُو محاسِنَ تلكَ الصُّوَرْ

القبور من ظاهرها سواء، وفي داخلها وزير.. وحارس عمارة.. ورجل بسيط.. ومجنون.. وقائد الجيش.. كلهم سواء! المسكين.. والمتملق.. وآخر ذكي عبقري فيلسوف.. وآخر أحمق.. لكن القبور سواء.

وكل إنسان له أن يتجهز بصورة ظاهرية، ويحاول أن يجمل هيكله ولباسه، فهذا مطلوب في الإسلام، يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: «**إن الله جميل يحب الجمال**» لكن عليك أن تجمل روحك، ما دمت تجمل الهندام والشخصية والهيكل، فلا بد من أن تجمل روحك بالفضيلة.. بالبر.. بالتقوى.. بعمل الصالحات.. بحب الخير للناس.. بالرحمة بعباد الله عز وجل.. بالتواضع.. بحسن الخلق..؛ حتى تكون هناك سمات إسلامية تميزك.

فالمتنبي يجرك في هذا الحديث؛ لأنه يسوقك بحكمته وبإبداعه إلى موضوع، فيستولي على الموضوع نفسه فيكون أحسن ما يقول في الباب، وإلا فقد سبقه شعراء، فأبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء بالطاعون، فسهر وبكى حتى قال:

أَمِنَ المنونِ وريبِها تتوجَّعُ؟ والدهرُ ليسَ بمعتب مَنْ يجزعُ
قالتْ أميمةُ ما لجسمِكَ ناحِلٌ منذُ ابتليتَ ومثلُ مالِكَ ينفعُ

أميمــة هذه زوجته، تقــول: ما لك سهرت وتفجعت! قــال: كيف لا أتفجع على أبنائي! سبعة ماتوا بالطاعون في سنة واحدة! حتى يقول:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

يقول: إذا جاء الموت فلا تنفع تميمة ولا رقية ولا حرز ولا علاج ولا عقاقير ولا شيء.. لو يأتون بأكبر أطباء العالم، فإنهم لا يستطيعون فعل شيء.

فلذلــك ينبغــي عليــك أن تعرف هذه الحقيقــة، لا بد من أن نصــل إليها كما ذكرهــا المتنبي وغيره من الشعراء؛ لأننا نكتب في مجــال الأدب، وإلا فقد وعيت نصوصاً كتاباً وسنة.



obeikandl.com

الكتاب

يقول أبو الطيب المتنبي:

أعزُّ مكانٍ فِي الدُّنَا سرجُ سابحٍ

وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كتابُ

وهـذا مـن قصيدته التي مـن أبياتها الكلام المشهور، يقول:

وللسرِّ منِّي موطنٌ لا ينالُـه

نديمٌ ولا يفضِي إليهِ شرابُ

إلى أن يقول:

وفِي النَّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فطانةٌ

سُكُوتِي بيانٌ عندهَا وخِطابُ

obeikandl.com

وهو يخاطب بذلك كافور والشاهد هنا: أنه يقول: (**وخير جليس في الزمان كتاب**)، وهي من الحكم التي سارت عند العلماء والمفكرين والمثقفين وصدقوها، وهي من دقائق ما وصل إليه في حكمته البناءة، فيقول: أحسن من تجالسه الكتاب، وهذا معنى مطروق، لكن يأتي شاعر في حجم المتنبي وفي قامته ويأتي بهذه الحكمة ويهديها للناس فيكون لها وقع خاص؛ لأنه يهتم بالمعرفة ويهتم بالعلوم، حتى يمدح العلماء.. يمدح القضاة.. يمدح الكتاب الذين يهتمون بالعلم والثقافة، يقول لأحد العلماء:

علامةُ العلماءِ واللججِ الذي ... لا ينتهي ولكلِّ لجٍّ ساحلُ
افخرْ فإنَّ الناسَ فيكَ ثلاثةٌ: ... مستعظمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ
وإذا أتتْكَ مذمَّتي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

وتجده أيضاً يشيد بالمعرفة وبالكتابة وبالخبرة العلمية، فلما وصل إلى ابن العميد وهو الكاتب المشهور يقول:

بادٍ هواكَ صبرْتَ أم لَمْ تصبِرا ... وبكاكَ إذ لَمْ يجرِ دمعُك أو جَرَى

ثم يقول:

مَنْ مخبرُ الأعرابِ أنِّي بعدَهم ... جالستُ جَالِنْيُوسَ والإسْكندَرا
ودرستُ بطليموسَ دارسَ كتبِه ... متعلماً متبدياً متحضراً
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نوّرا

الشاهد قوله: أحسن من تجلس معه الكتاب، حتى يقول أمير الشعراء شوقي:

أنَا مَنْ بدَّلَ بالكتبِ الصِّحَابَا ... لَمْ أجِدْ لِي وافِياً إلاَّ الكِتَابا

وهـذا يحصل للإنسان بعـد تجربة طويلة، فيجد أن الوفـاء في الناس قليل، وأن أحسـن مـا يفعله الإنسان بنفسه أن يصاحب كتابـاً نافعاً مفيداً، وأجل الكتب وأحسنها وأنفعها وأفيدها وأبركها كتاب الله سبحانه وتعالى؛ حتى يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، إذا ذكرت الكتب.. إذا ذكرت المصنفات.. إذا ذكـرت المؤلفـات فذلك الكتاب، إذا سمعت بتأليـف علمي، أو بديوان شعري، فأجلّ من ذلك الكتاب، وأشار بالبعد تعظيماً لهذا الكتاب المحكم الذي أنزله على سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

وهناك كتابـان: كتاب وحي مكتوب شرعي وهو القرآن الكريم، وكتاب مفتوح وهـو كتاب الكون فيه حـروف القدرة، قلم القـدرة خط أسطـر الوحدانية وجمل الصمدانية وحروف الإبداع فأنت تقرؤه، حتى يقول إيليا أبو ماضي:

وكـتـابُ الـفـضـاءِ أقـــرأُ فِيـه ... صـــوراً مـا قـرأتُـهـا فِـي كـتـابِ

لأن فـي الكون علامـات وأحرفاً وأسطـراً وأبياتاً تدلك علـى الواحد الأحد، الزهـرة تشير إلـى عظمة الله.. الورقـة.. اليرقـة.. السناء.. المـاء.. الضياء.. الظلماء.. السماوات.. الأرضون، كلها.

وفِـــي كـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ ... تـــــدلُّ عـلَـى أنَّـــــه واحِـــدُ

فَـيَـا عجباً كيفَ يُعصَى الإلـهُ ... أَمْ كيفَ يجحدُه الـجاحِـدُ؟!

نعـود إلى أبي الطيـب المتنبي وهو يمدح الكتاب والمكتبـة، فيقول: حاول أن يكون عندك كتب تعاشرها وتقرؤها وتنفق الوقت فيها.

ابـن عبد البر أمضى في كتـاب الاستذكار والتمهيد ثلاثيـن سنة عند رأسه يحبر فيه، والعجيب أنهم يذكرون عن ابن دريد أن كتاب الجمهرة جلس معه يحبر فيه ويجمعه ستين سنة، يقول:

أنستُ بهِ مِنْ بعدِ ستينَ حِجَّةً فيَا طُولَ شوقِي بعدَه وحنينِي!

لأنــه باعــه فيما بعد، باع الجمهرة لماذا؟ كانوا فقــراء، حتى باع خشباً عنده في البيت؛ ليقوت أهله، يأكل خبزاً هو وأطفاله، بعدما انتهى الخشب باع مطرفته، بــاع أدوات البيت، ثم باع الفراش، لم يبــقَ إلا كتاب الجمهرة جمع فيه ستين سنة تعباً وسهراً وعناء بالجهد والعرق والتضحية والسهر، ثم باعه؛ لكي يطعم أطفاله، ورجع يبكي في البيت وينظم قصائد وهو يبيع، كتب أبيات على الجمهرة يقول:

أنستُ بهِ مِنْ بعدِ ستينَ حِجَّةً فيَا طُولَ شوقِي بعدَه وحنينِي

وما كنتُ أرجُو أَنْ أعيشَ بدونهِ ولو خلَّدتْنِي في السُّجونِ دُيونِي

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ نفائسَ مِنْ ربٍّ بهنَّ ضنينِ

يقــول: حاجــة الفقر، وهذا البيــت لجاهلي اسمه السلمي بــاع إبلاً حمراء له فلامته زوجته واسمها أم مالك، فقال:

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ نفائسَ مِــنْ ربٍّ بهنَّ ضنينِ

يعني: من القائم عليها؛ لأنه محتاج مع أنه يغليها.

يقولــون: إن الصاحب بــن عباد جاء فيما بعد، فقرأ هذه الأبيات فبكى بعدما مات المؤلف، والصاحب بن عباد كان أميراً موسراً، فبكى وقال: ليتني أدركت ابن دريد كنت ملأت بيته ذهباً. كان جواداً.

والعجيــب أن ابن دريد أديب وشاعر وهو صاحــب المقصورة المشهورة التي هي أشهر مقصورة في تاريخ الأدب العربي التي يقول فيها:

يَــا ظبيــةً أشبــهَ شــيءٍ بالمهَا ترعَى الخزامَى بينَ أشجارِ النَّقَا

إلى أن وصف الشيب.

واشتعلَ المبيضُ فِي مسودِه مثل اشتعالِ النَّارِ في جزلِ الغَضَا

إلى أن يقول:

والـنـاسُ ألـفٌ مـنـهُـمُ كـواحـدٍ ... وواحـدٌ كـالألـفِ إنْ أمـرٌ عَـنَـا

وإنَّـمـا الـمـرءُ حـديـثٌ بـعـدَه ... فـكُـنْ حـدِيـثاً حسـنـاً لـمَـنْ وعَـى

وكان لـه زميل وصديق يحسـده- فبعض الأصدقاء يحسـدون- وهو في ثوب صديق، لكنه عدو، وهو من أقرانه اسمه ابن نفطويه نحوي، فقال:

ابـــنُ دريـــدٍ بـــقـــرَة ... ألّـــفَ كـتـابَ الـجـمـهـرَةْ

وهـــوَ كـــتـــابُ الـعـيـنِ ... إلا أنَّـــه قَـــدْ غـيّـرَهْ

كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، يقول: إنك سرقت كتاب العين، وهو ليس لك أصلاً، لكنك أدخلت وغيرت، فرد عليه بأبيات، واسم ذاك نفطويه، فإذا قسمت الاسم صار نفط/ويه، وفي آخر القصيدة قال فيه:

أحـرقَـه اللهُ بـنـصـفِ اسـمِـه ... وجـعـلَ الـبـاقِـي عـويـلاً علَيه

وأما سيبويه فإنه ألف الكتاب.

وبالمناسبـة فمن العجـز الثقافي عند الأمة قولهم: طالب فـي الثانوي سأله الأستاذ: الكتاب لسيبويه من ألفه؟ قال: الله ورسوله أعلم!! فهذا ورع مظلم، هذا هـو الورع المظلم الذي يعيشه هؤلاء، ولذلك تجد أن بعض الناس لا علم عنده ولا ثقافة، لكنه يخرج دائماً ولسان حاله يقول:

أنَـا ابـنُ جـلاَ وطـلاعُ الـثَّـنـايَـا ... مَـتَـى أضـعِ الـعـمـامـةَ تـعـرفُـونِـي

ولكنـه لا يحفظ في جانب الشريعة آية الكرسي، وفي جانب الفهم والثقافة لا يعرف ابن رشد ولم يسمع به ولا بابن خلدون، فدل على أنه ينبغي أن نهتم بالكيف، ولا نهتم بالكم على حساب الكيف: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] إن الدبكة الشعبية والسهرات الضائعة وقصائد المديح على منهج:

(**ألستم خير من ركب المطايا**) لا تخرج لنا عقولاً نيرة، إنما العقل النير يخرج بالعلم النافع، وخيره وأساسه الذي بعث به الرسول عليه الصلاة والسلام، وانظر إلى علمائنا كيف يشق الواحد منهم حياته مع الكتاب، ثم يترك لنا كتاباً يبقى يحبر فيه ثلاثين.. أربعين.. خمسين سنة.

ابن حجر العسقلاني الحافظ خاتمة حفاظ الدنيا في الحديث ألف فتح الباري في ثنتين وثلاثين سنة، شرح فيه صحيح البخاري، هذا الكتاب أعجوبة، مراجعه أكثر من ألف كتاب، حبَّره وقدَّمه للأمة، ويأتي الجيل الجديد يعجز، يعجز بعض الطلبة أن يقرأ عشر صفحات، أن يتبرع بعشر صفحات.

فهذا العمر الذي صرفه فيه ثنتين وثلاثين سنة؛ سهر وتعب وتحقيق وتدقيق، ثم لا يتبرع أحد منا أن يقرأه مجرد قراءة، هل وضعت في مخططك أن تطلع على هذا الكتاب، وأن تقرأ بعض الفوائد فيه؟

والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على ما فيه، وأنا أعترض على التشويه العقدي في الأغاني وعلى السوء الأدبي، أعني: الأدب المنهجي وعلى المجازفة في النقولات، لكن لا يزال فيه قصائد وفيه قصص وفيه تراث أدبي، حتى ابن خلدون يقول: إنه منتهى ما وصل إليه الأدب، يعني: الأغاني، هذا ألفه في خمسين سنة وقدمه للملوك هدية، أرسل لملك مراقش وسيف الدولة ابن حمدان وأرسل إلى أهل العراق، وأرسل إلى أهل المشرق، أرسل لكل نسخة، لم يكن هناك مطابع، يقول الصاحب بن عباد: كادت كتبي تحمل على اثني عشر جملاً، فلما اقتنيت كتاب الأغاني اكتفيت بهذا الكتاب، وإنما القصد من ذلك أنهم كانوا ذوي همم في التأليف.. همم في القراءة.. همم في التكرار.

انظر إلى ابن المبارك إذا صلى العصر دخل منزله ونشر كتب الحديث، فقال له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، ما تجلس معنا؟ قال: أنا أجلس مع

الرســول ﷺ ومع الصحابة، أنتم تغتابون النــاس، قالوا: كيف تجلس مع الرسول ﷺ والصحابة؟! قال: أجلس مع الكتب، كتب العلم، كتب الحديث، فكأنك جلست مع الرسول ﷺ ومع أصحابه.

وكان الإمــام أحمد يوصي من سافر: خذ معك كتبــاً، حتى لا تستوحش. فهم يحفظون أوقاتهم بهذا، لم يكونوا يقلبون من قناة إلى قناة، ولا من فن إلى فن، ولا من موضة إلى موضة، إنما كانوا يجتهدون في طلب الفائدة، ويعلمون أن أعمارهم تذهب سريعاً، وكانوا يعدون الثانية والدقيقة، كما يقول شوقي:

دقــاتُ قلـبِ الـمـرءِ قـائـلـةٌ لـهُ ... إنَّ الـحـيـاةَ دقـائـقٌ وثـوانِ

فارفعْ لنفسِك قبل موتِك ذكرَها ... فـالـذكـرُ لـلإنـسـانِ عـمـرٌ ثـانِ

ويقول أبو الطيب الأسطورة في ذلك:

ذكرُ الفتَى عمرُه الثانِي وحاجتُه ... ما قاتَه وفضولُ العيشِ أشغالُ

من قصيدته التي مطلعها:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ ... فليُسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ

وفي ذاك البيت الفريد الذي لا يستحقه إلا رب العزة سبحانه وتعالى، يقول:

استوجبَ الحمدَ حتَّى ما لمفتخرٍ ... فِي الحمدِ حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ

وهــذه من سيرتهــم في العلم والمعرفة، حتى إن الجاحــظ- على ما سبق لنا من كلام أبي الطيب- يرى أنه أفضل جليس، فهو الذي لا يطريك، ولا يؤذيك، ولا يملُّك، ولا يضجرك، ولا يفشي لك سراً.

وصفــه بوصف ما سبق لــه. حتى الجاحظ هو إمام البيان عند العرب على ما فيــه من المجازفات في بعضــ نقولاته، لكنه في صنع الكلمــة وفي الجملة لا يؤتى

مثلـه في النثر، حتى يرى أبو حيان التوحيدي أنه بارز في بابه مثلما أن عمر رضي الله عنه بـارز في العدل، والحسن البصري بـارز ظاهر ورمز في الوعظ، فيجعل الجاحظ في هذا الباب.

والجاحـظ كان يقرأ ليـلاً ونهاراً حتى أثمر لنا هذه الثقافة وهذا البيان وهذا الإبداع، وقد بلغ من ولهه بالكتاب أن سقطت عليه مكتبته ومات تحت الكتب.

فلله درُّ هذه الهمم التي تركت خيراً كثيراً، وتركت أدباً، وتركت بياناً، والأفضل من هذا أهل العلم الشرعي النافع، كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة ومالك.. وأمثال ذلك غفر الله للجميع.

جلست مع الشيخ الأديب الكبير علي الطنطاوي في مكة، ومعي بعض الفضلاء، فكان يحدثنا عن مسيرة حياته في العلم والمعرفة والقراءة، فقد ذكر في مذكراته أنـه عاش عمر القـراءة والمطالعة، له مـا يقارب السبعين سنة، يقـرأ في كل يوم شيئاً محدداً خمسين صفحة، غير ما يزيد من الاطلاع العام، قال: فانظر السنوات واضربها في الأيام ثم اضربها في خمسين فأثمر عنده موسوعة في العلوم والفنون والأخبار والآداب ومعرفة الأمم، فهذا الذي يفهم عن الله عز وجل رسالته ويفهم كتاب الله عز وجل، يوم يكون أفقه واسعاً، وإنما تأتي هذه القراءة بالكلفة، ثم تصبح ألفة.

لا بـد للإنسـان من أن يرتـب لنفسه جزءاً مـن الوقت يومياً؛ حتـى يستطيع الكتابـة، وعنـد بعض الناس جَلَد في القـراءة، حتى إني قرأت كتابـاً اسمه: كيف أصبحـوا عظمـاء للدكتور الكلابي، يتحدث عن عظمة الأمـم وأنهم يصبرون، ثم ذكـر عن واحد ياباني أستاذ ثـورة الصناعة عندهم اسمه أوكايو أوساهيرا عامل بسيط، ذهب يدرس في ألمانيا، قال: وذهبت إلى صاحب ورشة في ألمانيا، فأجرت نفسـي عنده خمس عشرة ساعة في اليوم على وجبة واحدة، وكان يهينني ويذلني، فصبـرت؛ لأني أريد أن أنقل الحضارة الصناعية لليابـان، خمس عشرة ساعة من

العمل.. من العرق.. من الجهد.. من الإذلال، وبعدها اكتشف كيف يصنع المحرك، كيف يتحرك؛ لأن هذا أساس الصناعة، قال: فرسمت المحرك وامتلأت غرفتي التي أسكن فيها بالأوراق، وأخيراً اهتديت وأرسلت لليابان كيف يعمل المحرك، فلما وصل الخبر وجئت إلى أهلي استقبلني إمبراطور اليابان، قال: فصنعت المحرك لهم، فسمع الصوت إمبراطور اليابان، قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي. وابتدأت انطلاقتهم من تلك المدة، فهؤلاء صبروا، وعلماء الإسلام كانوا أصبر وأصبر، أعني: مضوا إلى الأقاليم وجمعوا الحديث، منهم من كان يمشي حافياً إلى اليمن، إلى خرسان، إلى القاهرة، إلى الشام، إلى بغداد، إلى مكة، إلى المدينة يطلبون العلم.. يطلبون الحديث.. يسهرون.. تتقطع أقدامهم.. تلفحهم الريح.. يجدون المرارة والعنت، وهم كما يقول أبو الطيب وهو يزور ممدوحاً:

جزَى اللهُ المسيرَ إليكَ خيراً وإنْ تركَ المطايَا كالمزادِ

الشيخ أبو غدة ألف كتاب: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل. وإنما نأتي بهذا لبيت أبي الطيب: (**وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كتابُ**).

الذهبي ذكر أن أحد علماء الأندلس كرر في حياته صحيح البخاري سبع مئة مرة، والنيسابوري كرر صحيح مسلم مئة مرة، وابن إدريس ختم القرآن في حياته أربعة آلاف مرة، وابن سينا يقول: قرأت كتاب ما وراء الطبيعة للفارابي أربعين مرة، ما من مرة إلا اكتشف حلاً للغز في الكتاب، والمزني قرأ كتاب الرسالة للإمام الشافعي يقول: قرأته خمس مئة مرة، ما من مرة إلا يظهر لي فائدة لم أكن استفدتها من قبل.

إنها الهمم.. إنه توقد الذهن.. إنها معرفة قيمة الحياة، ولذلك صرفوها في النافع المفيد، فقل لي بربك: مَن مِن الجيل الآن يكرر كتاباً خمس مرات أو عشر مرات؟! بل تجد الواحد منهم عنده مكتبة، لكن كما يقول المثل الهندي: المرعى

أخضر والعنز مريضة، يعني: عندنا آيات بينات.. عندنا وثيقة سماوية.. عندنا قرآن لو خوطب به صخر لتفجع، ولو ألقي على حجر لتصدع، فكيف بإنسان من لحم ودم لا يستفيد من هذا الكتاب الخالد؟! سنة محمد عليه الصلاة والسلام.. الأحاديث النبوية الشريفة.. كلام أهل العلم.. التاريخ.. الأدب.. الثقافات الأخرى التي تؤيد الرسالة والتي فيها الخير؛ لأن «**الحكمة ضالة المؤمن**»، فهل آن لنا أن نعود إلى القراءة، إلى الاستفادة؟! إن العقل إذا لم يقرأ فسوف يبقى صغيراً محدوداً ولن يتطور أبداً، فالأمس كاليوم كالغد ما لم يقرأ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فلم يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام ولم يأمره أن يدعو إلا بهذا: الزيادة من العلّ، يقول الأندلسي عن العلم:

هوَ العذبُ المهنَّدُ ليسَ ينبُو ... تصيبُ بهِ مَقاتِلَ مَنْ أردتَا
وكنزٌ لا تخافُ عليهِ لِصاً ... خفيفُ الحملِ يوجدُ حيثُ كنتَا
يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منْهُ ... وينقصُ إنْ بهِ كفّاً شددْتَا

إلى آخر ما قال، ولذلك اعتنى السلف. فالإمام الشافعي لما سكن هو وأمه في غرفة في مكة، فقير يتيم مات أبوه، الشافعي هذا على مذهبه ما يقارب أربع مئة مليون في العالم الإسلامي، هذا الإمام الأعجوبة الذي مات وعمره ثنتان وخمسون سنة، إنه العبقرية في منتهاها، صفاء الذهن، إنه الطموح كل الطموح، حتى يصف حياته يقول: إنه لا يأبه بالمال فكأنه التراب عنده، أعطاه هارون الرشيد كيساً من الذهب، فوزعه على الفقراء عند القصر ورمى بالكيس، وقال:

أمطرِي لؤلؤاً سماءَ سرنديبَ ... وفيضي آبارَ تكرورَ تِبرَا
أنَا إنْ عشتُ لستُ أعدمُ خبزاً ... وإذا مِتُّ لستُ أعدمُ قبرَا
هِمَّتِي همةُ الملوكِ ونفسِي ... نفسُ عزمٍ ترى المذلَّةَ كفْرَا

غفر الله للشافعي، كان يتيماً، ولد في فلسطين في عسقلان، هاجرت به أمه إلى مكة وهو مطَّلبِي يلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الخامس، وسكنوا في غرفة واحدة، مجردة من كل تسهيلات العيش الآن، فكان يأخذ اللخاف والخشب والعظام ويكتب فيها الفوائد والحديث والشروح والأبيات ويجعلها في البيت، وأخذ البيت يضيق، قالت أمه: سنخرج للطريق، وكتبك واللخاف هذه والعظام سوف تحتل البيت، فسمع الكلمة فحفظ كل ما هو مكتوب في الخشب وفي الجرائد وعلى هذه اللخاف والحجارة حفظها، ثم أخرجها إلى الخارج. ويقول عن حفظه:

علمِي معِي حيثُما يممتُ يتبعُنِي ... قلبِي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ

إنْ كنتُ في البيتِ كانَ العلمُ فيهِ معِي ... أوكنتُ فِي السوقِ كانَ العلمُ فِي السوقِ

وصدق، فسبحان الذي أعطاه، تعلم حتى الطب، تعلم الفراسة في اليمن، وتعلم الأدب، يقول: حفظت شعر هذيل، حفظت لثلاثين شاعرًا من هذيل، وبقي يتعلم اللغة في هذيل، فصار أعجوبة الأعاجيب في فهم كتاب الله سبحانه وفهم سنة رسول الله ﷺ، وهو الذي ألف الرسالة وقعّد لأصول الفقه، وردّ على المخالفين، ونصر الإسلام، ودحض شبه الملاحدة، فأسأل الله ﷻ أن ينور ضريحه أن يقدس روحه هو وإخوانه من أهل العلم.

ومقصودي: هذه الهمم الكبرى التي حظي بها أهل العلم، لماذا؟ لأن صاحبنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كتابُ).

نأتي إلى أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وهو شيخ لابن الجوزي، وكان أعجوبة، ألف كتاب الفنون سبع مئة مجلد، هذا فقط في وقت الراحة، جمع أوراقاً

عند رأسه إذا أراد أن ينام، فالقلم جاهز والأوراق جاهزة مرتبة، فيكتب ما مر به في اليوم من خاطرة، أو فهم آية، أو قراءة، مثل المذكرات اليومية، قال: أفتيت فلاناً، وقال لي فلان، فسبحان الله الذي أعطاه هذا التوثيق، يجمع الأوراق، يسجل الملاحظات، ويسجل ما يفهم من الفنون أو ما يتذكر: في النحو.. في الأدب.. في التفسير.. في الفقه.. في علوم القرآن.. في الشعر.. في القصص.. في الأخبار.. في الاستنباط، فأخرج كتاب الفنون سبع مئة مجلد طبع منها الآن ما يقارب سبع مجلدات، والبقية سوف تطبع إن شاء الله، هذا في وقت الراحة!

يذكرون عنه في سيرته أنه كان يأكل الكعك، وأحياناً يأكل لقمة ويقرأ، فقيل له: لماذا لا تأكل الخبز؟ قال: بين أكل الكعك والخبز مقدار قراءة خمسين آية، فترك هذا علماً كثيراً؛ لأنه عرف قيمة الزمن، قيمة الدقائق والساعات والأيام، فصرفها فيما ينفع؛ ولذلك تركوا أسماءهم، حفروا أسماءهم في ذاكرتنا وفي تاريخنا وفي أيامنا ولياليا بجهدهم وبعرقهم، ولذلك العظمة هي قطرات من المعاناة والجهد والعرق والبذل والعطاء، والفشل زخات من التسويف والإحباط والكسل والفشل.

وإذا بدأت في هذا المشروع مشروع الإنتاج والإبداع والعلم والمعرفة والثقافة وصار لك اسم، فسوف يأتي الجبناء والحساد يرمونك بأقواس النقد، فإذا فعلوا ذلك فاعلم أنك قربت أو أنك وصلت إلى بلاط العظمة وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة؛ احتفاء بقدومك، كما يقول أبو الطيب:

وَإِذَا أَتَتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ فهيَ الشهادةُ لِي بأنِّي كاملُ

ويقول:

إنِّي وإِنْ لمتُ حاسدِي فما أنكرُ أنِّي عقوبةٌ لهمُ

يقول: الله عاقبهم بي؛ بسبب ما عنده من السطوع واللموع وتوهج البيان.

وقفــة إجلال لــكل أهل العلم والمعرفــة الذين عاشوا مــع الأدب، وعاشوا مع العلم، وعاشوا مع الكتاب؛ لأن صحابنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كتابُ).

فبالكتــاب وصلوا إلى مــا وصلوا إليه، لكن الكتاب النافــع المفيد هو القرآن، وأول كلمة نزلت على رسولنا ﷺ هي ﴿اقْرَأْ..﴾ [العلق:١] فهل آن لنا أن نقرأ؟ أترك إجابة السؤال للجيل.



obeikandl.com

obeikandl.com

العدو الصديق

يقول أبو الطيب المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أَنْ يرَى
عدواً له مَـا مِنْ صـداقَتِـهِ بُدُّ

يقـول: من شؤم هـذه الحياة الدنيـا الدنيئة أنهـا تلجئ كل حر وصاحب مروءة إلى أن يصادق العـدو؛ لأنـك تجـد عـدواً لا بـد أن تصادقه؛ كي تقضي أمورك وتصلح حالك.

يقول ابن حزم الظاهري عن نفسه، وقد كان أبوه وزيـراً في الأندلس، فأتـى رجل من خصومه الأولين عند أبيه، وكتب خطاباً، كتب فيه:

obeikandl.com

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى عـدواً لَـهَ مَـا مِـنْ صـداقـتِه بُـدُّ

يقصـد والد ابن حزم، والواجب ألا يذكره بهذا؛ لأن معناه أنك عدو لنا، لكنا نصادقـك ونجاملك. فكيف تريد من إنسان خدمة وتريد منه مصلحة وأنت تكتب له هذا الكلام؟!

قال: فقلب أبي البيت وقال:

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى صـديقاً لَـه مَـا مِـنْ عـداوتِـه بُـدُّ

يقول: كنـت صديقنا، لكن الآن نعاديك؛ لأنك أظهرت لنا العداوة، ولكن هذا البيت للمتنبي من أبيات فائقة انتشرت في الناس وأثنى عليها الأدباء ووقف معها أهل الحكمة موقفاً.

والبيت في مجموعه يدلك على أن الكثرة الكاثرة من الناس- ولو أظهروا لك الصداقة- ليست على بابها وليست على إطلاقها، ولأن المتنبي نفسه يقول:

ومَـنْ عـرفَ الأيَّـامَ معرفتِي بهَا وبالنـاسِ روَّى رمحَه غيرَ راحمِ

فليسَ بمـرحومٍ إذا ظـفِـرُوا بـهِ ولا فِي الرَّدى الجارِي عليهِم بآثمِ

وهـذا خطأ، يقول: لو عرفتـم الناس مثلما أعرفهم لـروى أحدكم رمحه من دمائهـم. وهـذا يدعو إلى سفك الـدم، وهذا منهج خاطئ، وهـذه نظرة تشاؤمية وليسـت تصالحيـة، والقـرآن ينهى عن هـذا المسلـك، فيقول سبحانـه وتعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤] ويقـول سبحانـه: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] هـذا هـو المنهج الصحيح، لكننـي أذكر بعض ما يناسب استشهاداته على بيته.

وابـن صمادح أمير أندلسـي جرب الناس في ولايته فـي الإمارة ونظم ثلاثة أبيات من أجمل الأبيات، يقول:

وزهّدني فِي الناسِ معرفَتي بهِمْ ... وطولُ اختباري صاحِباً بعدَ صاحبِ

فلَمْ تُرِنـي خـلاً تسـرُّنـي ... مبادِيه إلا ساءني فِي العواقبِ

ولا قلتُ أرجُـوه لكشفِ ملمَّةٍ ... منَ الدهرِ إلا كان إحْدى النوائبِ

أي: صار مصيبة ثانية. فهو يقول هذا الكلام بعد تجربة.

حتى إن امرأ القيس يقول:

أرَى أمَّ عمرٍو دمعُها قَدْ تحدَّرا ... بكاءً علَى عمرٍو وما كانَ أصبرَا

بكَى صاحبِي لمَّا رأَى الدربَ دونَه ... وأيقنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرَا

فقلتُ لهُ: لا تبكِ عينَك إنَّما ... نحاولُ ملكاً أو نموتُ فنُعذَرا

فللهِ دهْرِي ما أصاحِبُ صاحباً ... من النَّاسِ إلا خانَنِي وتغيّرا

وهـذه طبيعة الناس، حتى يقـول سبحانه وتعالـى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ويقول سبحانـه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ويقـول: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، فأكثرهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، والقليل النادر هو الذي معك في الحق أو يقف معك في الأزمات.

حتى الحريري صاحب المقامات يقول في مرض الموت يوصي ابنه:

لا تغترِرْ ببنِي الزَّمانِ ولا تقلْ ... عندَ الشدائدِ: لِي أخٌ وحميمُ

تقـول: لي إخـوان وأقارب، بعضهـم يأتيك ويقـول لك: رقبتي سـدادة، وإذا حصل شيء لا تراه، بل تجده يشمت بك. أو تجد آخر يتعشى معك ويشرب الشراب

ويعجبه. فيقول لك: الدم سداد. نفديك بأرواحنا، لكن إذا جد الجد فلا تجده أبداً، ثم يقول لابنه موصياً:

جرّبتُهم فَإِذَا المعاقرُ عاقرٌ والآلُ آلٌ والحميمُ حميمُ

يقول: جربتهم فإذا العاقر الذي يسمر معك أول من يعقرك، والآل القرابة مثل الآل وهو السراب الذي تجده في الصحراء، والحميم: الصديق المقرب، تراه كالحميم: الماء في أشد درجات غليانه.

حتى تجد الأحيمر السعدي يقول:

درَى اللهُ أنِّي للجليسِ لكارُهُ وتبغِضُهم لِي مقلةٌ وضميرُ

يقول: الله يعلم أني لا أريد أحداً أن يجلس معي، أحب كتابي..

عوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوَى وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطِيرُ

يقول: أنا لا أسأل أحداً شيئاً، وكان ذا نظرة اشتراكية.. حتى إذا أردت شيئاً، فلا أطلب إنساناً، بل أطلب الله الذي خلق الجمل، وإذا أردت شاة أخذت من الغنم؛ لأن الله الذي خلقها، هكذا يقول! وهذا خطأ، هو جاهلي، مجتمع الغابة التي لا تحكمها شريعة، يقول:

وَلاَ أسألُ العبدَ الفقيرَ بعيرَه وبعرانُ ربِّي فِي البلادِ كثيرُ

فهذا البيت من أجمل ما قيل، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم، للشعبي العالم الكبير: أين أنت يا شعبي؟ يوم الفتنة التي بين الأشعث وبين الحجاج وعبد الملك، وقد كانوا نقموا عليه، لكنه أتى بالسحر الحلال والعذر المقبول، فانطلى عليهم العذر فتركوا له المجال في نفع الناس، فقال: كنت أيها الأمير في مكان حيث يقول الشاعر:

عوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوَى وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطِيرُ

ولذلك كانوا يحذرون من أن تفتح المجال لكل من هب ودب أو تثق بكل أحد، حتى يقول الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين وهو عالم أندلسي:

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيدُ شيئاً ... سوَى الإكثارِ من قيلٍ وقالِ

فأقلِلْ من لقاءِ الناسِ إلاَّ ... لأخذِ العلمِ أو إصْلاحِ حالِ

أمـا أن يبقى الإنسان وكأنه في السـوق، كل من لقيه أعطاه من وقته.. أعطاه مـن جهده.. وذهب معه، وتحدث معه، وأخذ مـن أخباره.. العمر محسوب، ينبغي علـى الإنسـان أن يعرف من يجالسهم، أو يستفيد منهـم، أو يمكن من يبني معهم مشروعاً، أو من يستثمر معهم عملاً نافعاً، أما أناس يضيعون الزمان، ويوصلونك إلـى بعض الذنـوب والخطايا، ويجرونك إلى ما لا تحمـد عقباه، فهم جلساء سوء يجب أن يجتنبوا، ثم إن الحسد في الناس منتشر، حتى إن المتنبي نفسه يقول:

سُوى وجعِ الحُسَّادِ داوِ فإنَّه ... إذا حلَّ فِي قلبٍ فليسَ يحولُ

ولا تطمعَنْ مِنْ حاسدٍ فِي مودَّةٍ ... وإنْ كنتَ تبدِيها لَهُ وتمِيلُ

حتى ولو أظهرت له البشاشة والمحبة وتحاول أن تستصلحه، فقلبه لا يستطيع أبـداً؛ لأنه التف عليه الحسد وأظلـم بالحسد، فهو لا يستطيع أبداً، حتى ولو حاول أن يجاملك، فلن يستمر على هذه المجاملة. يقول الأحوص:

ما أكثرَ الناسَ عندِي بَلْ ما أقلَّهم ... اللهُ يعلمُ أنِّـي لَـمْ أقُـلْ فندَا

ما قلت كذباً، ما قلت إلا الحقيقة.

إنِّـي لأفتحُ عينِي حينَ أفتحُها ... علَى كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحَدا

حتى فـي الحديث الصحيح يقـول عليه الصلاة والسلام كمـا في البخاري: «الناسُ كإبلٍ مئةٍ لا تجدُ فِيهَا راحلةً» الناس مثل الإبل المئـة، قطيع ذود من

الإبل أمامك، لكن لا راحلة تستطيع أن تركبها وتحمل عليها أغراضك، فتجد الناس كثيرة أعدادهم، طوابير وجماعات كثيرة، لكن قلّ أن تجد الرجل الحصيف العاقل المؤمن الصادق المنيب، يقول ابن دريد:

والـنـاسُ ألـفٌ مـنـهُـمُ كـواحـدٍ ... وواحـدٌ كـالألـفِ إنْ أمـرٌ عنا

فدل على أن الناس لا يُغتر بظاهرهم.

ونعود إلى بيت المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عـدواً لـه مـا مِـنْ صـداقـتِـه بُـدُّ

فإن الإنسان في الحياة يبتلى بأشياء، فالمؤمن مبتلى؛ لأن هذه الدار دار مكدرة، حتى لا يصفو فيها أحد، فلا بد أن يمزج حلوها بالمر، وسعدها بالشقاء، وراحتها بالتعب، فهي دار تمزج بين الطيب والخبيث، وبين السعادة والشقاوة، ثم في الآخرة تجمع السعادة والطيب والخير والراحة في الجنة، والشر والخبث والعذاب في النار أعاذنا الله من ذلك، فالمتنبي بعدما عاش وجرب الحياة يقول:

ومن نكد هذه الدار وشؤمها أنا أحياناً نضطر إلى أناس ونعرف أنهم أعداء لنا، لكن لا بد أن نتخذهم أصدقاء؛ لتقوم مصالحنا وتسهل أمورنا؛ حتى إن زهيرًا يقول:

ومَنْ لَم يصانِعْ فِي أمورٍ كثيرةٍ ... يضرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأْ بمنسمِ

يقول: إذا لم تدارِ فلن تستطيع أن تقوم بجميع أمورك.. فأحياناً يكون هناك إنسان تافه وحقير، لكنه قد يقف لك وقد يؤذيك، حتى إنه يقول: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد.

فابن الجوزي يقول: لا تحتقر أحداً، لا تحاول أن تصنع بينك وبين أحد عداوة؛ لأنه يأتي يوم من الأيام يتربص بك الفرصة، فيوقعك في مشكلة أو داهية دهياء، فحاول أن تبني جسور المودة مع الناس، وإذا أتتك كلمة معادية من عدو، فاجعل

مكانها كلمة لطيفة ولينة، كما هو منهج القرآن: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤] يعني: يأتيك أحياناً إنسان هائج مائج يقول: أعرف أنك تتربص بي، وأعرف أنه كذا وكذا. فقل: لا، ليس الأمر كما بلغ، فبيننا وبينك من الوفاء ومن المحبة، اتقِ الله يا أخي، فنحن بيننا جسور مودة، فلا بد من أن تقلل من العداوة وتجتث هذه العداوة ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

يقولون: إن معاوية بن أبي سفيان إنما حكم الرجال بالحلم وبالمنهج اللين والرفق الذي ورثه عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

فإذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

فقد روي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَلْيَقْبَلْ عُذْرَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَذِبَهُ**».

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَا تَلُمْ أَخَاكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْعُذْرُ فِي مِثْلِهِ.

وقال الحسن بن عليٍّ: لو أنّ رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر إليّ في أذني الأخرى لقبلتُ عذرَه.

قال الأحنف: إن اعتذر إليك معتذر فتلقَّه بالبشر. وقال الشاعر:

يلومُني الناسُ فيما لو أخبرَهم ... بالعذرِ منِّي فيه لَمْ يلُومُوني

وقال آخر:

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ مُعْتَذرًا ... إنْ بَرّ عندكَ فيما قالَ أو فجرَا

فقدْ أطاعكَ مَنْ يرضيكَ ظاهرُه ... وقَدْ أجلَّكَ مَنْ يعصيكَ مستَتِرا

واعلـم أنه لا مبرّأ من سهوٍ وزللٍ، ولا سليم من نقصٍ أو خللٍ، ومن رام سليمًا مـن هفوةٍ، والتمسـ بريئًا من نبوةٍ، فقد تعدّى على الدّهـر بشططه، وخادع نفسه بغلطه، وكان من وجود بغيته بعيدًا وصار باقتراحه فردًا وحيدًا.

وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقًا لا عيب فيه.

وقيـل لأنوشـروان: هل من أحدٍ لا عيـب فيه ؟ قال: من لا موت لـه، وإذا كان الدّهـر لا يوجـده ما طلـب، ولا ينيله ما أحـبّ، وكان الوحيد في النّاس مرفوضًا قصيًّـا، والمنقطـع عنهم وحشيًّـا، لزمه مساعـدة زمانه في القضـاء، ومياسرة إخوانه في الصّفح والإغضاء.

روي عن رسـول اللّه ﷺ أنّه قال: «**إنّ اللهَ تعالى أمرني بمُداراةِ النّاسِ كما أَمَرني بأداءِ الفرائضِ**».

وقـال بعضـ الأدباء: ثـلاث خصالٍ لا تجتمـع إلّا في كريـمٍ: حسن المحضر واحتمال الزّلّة وقلّة الملال.

قال ابن الرّوميّ:

فعـذرُك مبسوطٌ لذنبٍ مقدّمٍ ... وودّك مقبولٌ بـأهْـلٍ ومـرْحبِ

ولـو بلّغتني عنكَ أذنـي أقمتُها ... لـديّ مـقـامَ الكاشحِ المتكذّبِ

فلستُ بتقليبِ اللّسانِ مصارِمًا ... خليلا إذا ما القلبُ لَمْ يتقلّبِ

فكأن قول المتنبي السابق إجماع بين الشعراء وأهل الحكمة، حتى يقول بعضهم:

فسدَ النـاسُ والـزمـانُ جميعاً ... فعلَى النـاسِ والـزمـانِ السلامُ

فمـع من تصلح العلاقـة؟ مع الواحد الأحـد، حتى إن بعضـ الشعراء يقول، وبعضـ الأبيات هي لأبـي الطيب، وهي متنـازع فيها بين أبي فراسـ وأبي الطيب المتنبي وبين رابعة العدوية، فيقول مخاطباً رب العزة سبحانه:

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَك ترضَى والأنامُ غِضَابُ

وليتَ الَّذِي بينِي وبينك عامرٌ ... وبينِي وبينَ العالمِينَ خرابُ

إِذَا صحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هينٌ ... وكلُّ الذِي فوقَ الترابِ ترابُ

فكل من تشاهده الآن فوق التراب هو في الحقيقة تراب، الناس.. الأعيان.. الوزراء.. الأغنياء.. الأثرياء.. العلماء.. المفكرون.. كلهم تراب يمشون على تراب، ما معك إلا الواحد الأحد.

وأنا ضد النظرة التشاؤمية التي غلفها بعض الشعراء على الناس جميعاً، نقول: لا، ما زال الأخيار والأبرار وأهل الوفاء وأهل الأمانة، لكن ابحث عنهم أنت، أما أن تثق بكل أحد وأن تعدّ كل من أتاك ولقيك وسلم عليك صديقاً فهذا ليس بالمنهج الصحيح.

حتى فولتير الكاتب المفكر الفرنسي يقول: اللهم احمني من أصدقائي، أما أعدائي فسوف أتولى أمرهم.

فهم أحياناً ما لا تعلم بهم. كما يقول القائل:

احذَرْ عدوَّك مرّةً ... واحذَرْ صديقَك ألفَ مرّةْ

فلربَّما انقلبَ الصديقُ ... فكانَ أعلمَ بالمضَرَّةْ

يعرف من أين تلدغ، ويعرف نقاط الضعف فيك ويعرف المداخل، فيضرب ضربته، أما العدو أحياناً فتخفى عليه نقاط الضعف فيك، ولهذا يقول الطغرائي:

وإنَّما رجلُ الدُّنْيا وواحدُها ... مَنْ لا يعَولُ فِي الدُّنْيا علَى رجلِ

يقول: إن الرجل الثابت القوي هو الذي لا يعول على أحد، إنما يعتمد بعد الله على نفسه، فهو يكون نفسه، أما أن يكون الإنسان تكلة على الناس ويعتمد عليهم

ولم يدرب نفسه بعلم أو بمهنة أو بحرفة أو بإبداع أو بإنتاج فهذا فاشل، من يعتمد على الناس فاشل، اعتمد على الواحد الأحد، ثم كون نفسك: «**احرصْ علَى ما ينفعُك**» كما قال سيد الخلق ﷺ في صحيح مسلم.

وينبغي أن نعتني بشيء في الصداقة مع الناس، لا نذهب وراء بعض الشعراء الذين ينظرون بنظرة سوداوية للمجتمع، كلهم فسدة.. كلهم خونة.. كلهم غشاشون.. ليس بصحيح، بعض الناس تجده إذا حصل له عداوة يقول: أهل القرار والمسؤولون هؤلاء ظلمة، والتجار يتلاعبون، والدعاة مدلسون ملبسون على الأمة، والعلماء غشاشون. فهذا في الحقيقة مريض، يقول المتنبي:

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجدْ مُراً بهِ الماءَ الزُّلالا

إنسان مريض وفمه يسيل صدى وقيحاً ومراً، يشرب ماء عذباً زلالاً، قال: هذا الماء مر، قلنا له: فمك المر، أما الماء فعذب.

يقول البوصيري:

قَدْتنكرُالعينُضوءَالشمسِمنْرمدٍ ... وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ مِنْ سقَمِ

الرمد في العين وليس في الشمس. فالمشكلة أصلاً في نفسية الإنسان، إذا اندثرت صار ينظر إلى الآخرين بما ينظر إلى نفسه، حتى يقول الشمري:

يا حسين خلك من خيار الخويين ... ترى الخوي يا حسين مثل الأمانهْ

ما يستشك يا حسين كود الرديين ... والا ترى الطيب وسيع بطانهْ

يعني: أن الطيب دائماً ينظر للناس ويقول: فيهم خير، لكنه لا يسرف أيضاً في هذه الخيرية ويكون ساذجاً، لكن ينظر بنظرين وباعتدال، يعرف أن هناك خيراً وهناك سوء، وأن هناك أخياراً وهناك أشرار، هذا خلق الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول بشار بن برد:

إذَا أنتَ لمْ تشربْ مِراراً على القَذَى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفُو مشارِبُه؟!

يقـول: إذا أنت لم تصبر على الزلة وتعفو عن الخطيئة وتصفح فلن تستطيع أن تعايش الناس، فاصبر وجامل.

ومَنْ ذا الذي ترضَى سجَاياه كلُّها كفَى المـرءَ نُبْلاً أن تُعدَّ معايبُه

تريـد إنسانـاً كاملاً معصومـاً ليس فيه خطـأ! تريد صديقاً تشتـرط فيه أن يكـون صادقاً.. أميناً.. كريماً.. وفياً.. حافظاً.. تاليـاً لكتاب الله.. باراً بوالديه.. متفانيـاً.. بـذولاً.. نصوحـاً.. لن تجد هـذا، لا يكتمل هذا إلا فـي النبي ﷺ، فهو المعصوم ﷺ، أما في باقي الناس فتعرف وتنكر.

ولهـذا ينبغي أن تناضـل في الجوانب الحسنة، وإذا غلبـت الجوانب الحسنة علـى الجوانب السيئة فهذا هو الشريف المقـدم، إذا غلبت محاسن الإنسان على مساوئه فهذا المطلوب، أما إذا غلبت مساوئه فاجتنبه، فهذا يقول:

(**كفَـى المـرءَ نُبْلاً**) يكفيك شرفاً أن يعد النـاس معايبك، يقولون: فيك كذا وكذا.. فمعناه أن لديك محاسن كثيرة، ولذلك ولقلة المساوئ التي فيك عدّها عليك الناس، أما بعض الناس من كثرة مساوئه فيقول الناس: كم تعد وكم تترك؟! ماذا ستأخذ ومـاذا ستبقي؟! تارك للصلاة.. عاق لوالديـه.. بخيل.. جبان.. شرس.. غـدار.. خوان.. نعـوذ بالله من ذلك، فهذا هـو الشرير، والنـاس شهداء الله في أرضـه كما قـال عليه الصلاة والسـلام: «**أنتم شهـداءُ الله فِي أرضـه**»، لما مروا بالجنـازة وأثنى عليها الناس خيراً قال: «**وجبـت**» يعني: الجنة، وأثنوا على جنازة أخرى شراً فقال: «**وجبت**» يعني: النار.

يقـول النابغة الذبياني في قصيدته البائيـة الماتعة الرائعة التي يخاطب بها النعمان:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمه ... علَى شعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

فإنْ بلغَ الواشُون عنِّي وشايةً ... لمبلغُكَ الواشِي أغشُّ وأكذبُ

يقول: أبلغك عني الوشاة وهم كذابون وغشاشون. بعد أن قال: (أي الرجال المهذب) أي: من هذا الذي هو سالم من العيوب.

مَنْ ذا الذِي ما ساءَ قَطْ ... ومَنْ لَهُ الحسنَى فقَطْ

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١].

من الذي ما كبا جواده ونبا سيفه؟! من الذي لم يخطئ؟! من الذي ليس فيه عيب؟! الذي ليس فيه عيب هو الله وحده سبحانه وتعالى، الواحد الأحد الذي مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أما الإنسان الذي خلق من الطين ومن الماء المهين فخطّاء.

أبونا خلق من التراب، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يفتخر ويشمخ بأنفه، إذا افتخرت ففكر في أصلك وأنه من التراب، ثم من ماء مهين، وبعد ذلك تسحب إلى المقبرة وتجرد من الملابس والساعة والقلم والغترة (الشماغ).. ويسحب ويلف في قطعة قماش، ويسحبونه إلى التراب، ويدخل إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤]، ولذلك يقول الشاعر:

تريدُ مُهذَّباً لا عيبَ فيهِ ... وهَلْ عودٌ يفوحُ بِلا دُخَانِ؟!

ضع عود الطيب من أزكى أنواع الطيب، فإنه سيفوح منه دخان، وهذه طبيعة الإنسان، لا بد أن يكون فيه نقص، لا بد أن يكون فيه تقصير في جانب من الجوانب، لا يوجد في العالم أحد مثلاً يكون ذكياً.. أريباً.. داهية.. شجاعاً..

وفياً.. باراً.. مصلياً.. ذاكراً.. هذا لا يكون، حتى العلماء الأجلاء لم يستولوا على كل الفضائل جميعاً، إنما استولى عليها جميعها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، والله جل وعلا هو الذي جمع له ذلك، فزكى قلبه، وزكى سمعه وبصره، وطهر طريقه، وصحح منهجه، وتولاه وحفظه ورعاه وسدده وعصمه، هذا هو الوحيد عليه الصلاة والسلام. أما البقية فلا بد أن نعترف بأننا بشر.

فلكي لا يصاب الإنسان بإحباط أمام ما يواجه من النقد أو ما يواجه من عداوات لا بد من أن يتسلح بالصبر والثقة بالله عز وجل حتى إن أحد العلماء يقول:

فلَمْ أرَ فيما ساءَني غيرُ شامتٍ ولَمْ أرَ فيما سرَّني غيرُ حاسدِ

يقول: كلما ساءني شيء ما وجدت إلا شامتاً، وكلما سرني ما وجدت إلا حاسداً. ولكن هذا الحكم ليس على إطلاقه ولا يقبل دائماً، هناك أناس إذا عثرت أو ساءك شيء وقفوا وتضامنوا وغضبوا وندموا وتأثروا وبكوا، وهناك أناس أيضاً إذا سرك شيء فرحوا واستبشروا وأحبوا لك الخير، لكن هم يشكون من كثير من الشرائح في المجتمع أنهم يشمتون بالنكبة وأنهم يحسدونك على النعمة.

حتى عروة بن الزبير رضي الله عنه خرج من المدينة، قالوا: «ما لك خرجت؟ قال: مجالسكم لاهية، وأسواقكم لاغية، وما بقي إلا شامت بمصيبة أو حاسد على نعمة».

فغالب الناس على هذه الشاكلة.

ولذلك المتنبي يصل به العمر إلى أن يقول لنا:

(ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ..)

وانظر إلى اختيار الكلمات.. نكد.. أعجوبة هذا الأسطورة الشاعر.. يختار الكلمات مثل نسج الدر، فيؤلف بينها، يختار الحبة اللامعة الغالية الثمينة، فيضعها واسطة العقد.

ما قال: من تعب الدنيا، أو من سأم الدنيا.. أو من ملل الدنيا..

و لـم يقل: على المـرء، بل: على الحـر؛ لأن الحر دائماً فيه صفـات الشهامة والمروءة، ومع ذلك أحياناً يذل ويهان، وأحياناً تجد في الناس من لا يؤبه بهم، وإذا هم يتطاولـون ويشمخون، فتضطر لنكد هذه الدنيا وشؤم هذه الدنيا أن تصانعهم وتظهر لهم الصداقة، وأحياناً تذهب إلى إنسان ليس له قيمة، فلا بد أن تكنيه. كيف حالك يا أبا فلان.. الله يبقيكم لنا، وأنتم ما شاء الله نفع الله بكم الناس جميعاً.. وهو في الحقيقة لم ينفع الله به أحداً، بل هو نكد على العباد، وهو عقوبة على الأمة وعقوبة على العباد والبلاد، لكن لكي تقضي أمورك لا بد من هذه المصانعة.

وخيـر من ذلك كلـه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦] بكلمة.. بحركة طيبـة وقـورة.. بتصرف سليم.. حتـى يفهم منك أنك تريـد أن تطفئ الشر منه، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤]، «**ما كانَ الرفقُ فِي شيءٍ إلا زانَه وما نزِعَ مِنْ شيءٍ إلا شانَه**».



الناجح محسود

يقول أبو الطيب المتنبي يمدح كافوراً:

عدوُّك مذمومٌ بكلِّ لسانِ

ولو كـانَ مِنْ أعـدائِكَ القمرانِ

ولله سـرٌّ فِي علاكَ وإنَّما

كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ

في قصيـدة طويلـة شاهقة، يـرى الواحدي أنها من أجمل قصائد المتنبي على الإطلاق وأنها مـن أكثرها مدحاً في كافور، ففي مطلع القصيدة يقول:

obeikandl.com

(عدوُّكَ مذمومٌ بكلِّ لسانِ) يقول: إن من عاداك يا كافور، يذم من الناس؛ فهو مخطئ؛ لأنه يتجرأ على صاحب مجد وصاحب مكرمات ورجل له مثل قامة كافور. فيذم من كان عدوك حتى لو عاداك القمران: الشمس والقمر، وإنما يقال لهما: القمران تغليباً، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فهذا من باب التغليب، يقول: لو عاداك الشمس والقمر فهما مذمومان. ثم يقول: إنه سبحانه وتعالى أعطاك هذا الحظ لسرٍّ رآه سبحانه وتعالى فيك.. وهذا من المجاملات الشاعرية والمبالغات. وإن الذين ينالونك من الأعداء إنما يقولون هذيان الكلام الذي لا حقيقة له، وهذا يدلك على أنه ينبغي لصاحب المجد أو المكانة ألا يأبه ولا يعبأ بكلام الحساد ولا بكلام الناس، وقد أكثر الناس في هذا الباب، وخير من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] فالكلام الذي يأتي به الحساد إنما هو أذى لا يضر المصلح إذا استمر في مكانته، بل كما يقول أبو تمام:

وإذَا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاحَ لهَا لسانَ حسُودِ

وقصيدة المتنبي هذه جميلة في أبياتها؛ لأن كافورًا قتل قائداً شجاعاً اسمه شبيب، خرج عليه في مصر، وكان شبيب هذا من أشجع الناس، ولكنه لما حضر المعركة أتته نوبة كالصرع، فسقط السيف من يده وفارقه فغلب وانهزم، فانتصر عليه كافور، فأتى المتنبي يمدح كافورًا ويصف هذه الواقعة مع شبيب، قال:

برغمِ شبيبٍ فارقَ السيفَ كفُّه وكانَا علَى العِلاَّتِ يَصْطَحبانِ

السيف وشبيب دائماً أخوان شقيقان؛ لأنه لما أتى وصرع في المعركة يقول: أصابته ضربة شمس وهو يقاتل كافورًا، كان من أشجع الناس كالأسد الهصور، لكنه قضاء الله وقدره، فأتته فأصابه كالإغماء وكالصرعة، فسقط السيف من يده، ثم أغمي عليه، فسقط فذبح، قال:

كأنَّ رقابَ الناسِ قالت لسيفِهِ: رفيقُكَ قيسيٌّ وأنتَ يمانِي

لأن شبيباً قيسي والسيف يماني، وقيس واليمن بينهما إشكالات وبينهما عداوات يفترقان ولا يتفقان، وهذا من البلاغة ومن التزويق اللفظي ومن جماليات الأدب.

وهذا البحر الذي ينظم عليه هو من أجمل البحور، حتى ذكر ابن الوزير محمد بن إبراهيم العالم اليمني بيتاً فريداً في العواصم والقواصم لأحد الشعراء على هذا البحر، يقول:

ومنْ كملَتْ فيهِ النُّهى لا يسرُّه نعيمٌ ولا يرتاعُ للحدثانِ

يقول: إذا كمل عقل الإنسان فإنه بعد ذلك لا يسره النعيم؛ لأنه يعرف أنه سوف ينقضي نعيم الدنيا وكل شيء له نهاية. ولا يتأثر للمصائب التي تقع. فلا السرور يستخفه ولا الفرح يطير به، وأيضاً المصائب لا يجزع منها؛ لأنه أصبح عاقلاً ويعرف الدنيا ومجرباً لها، ليس كالطائشين من الشباب أو خفيفي العقل، فتجدهم إذا أتاهم شيء مفرح فرحوا وطاروا به فرحاً، وتجدهم إذا أتت المصيبة جزعوا.

وهذا البحر قد نظمت عليه قصيدة، منها:

سلا القلبُ عنْ غيدٍ صفَتْ وحِسَانِ وأهملَ ذكرَ المنحنَى وعُمانِ

وما عادَ يلهينِي الصَّبا بأريجِه ولو فاحَ بالرَّيحانِ والنَّفلانِ

وخَّط برأسِي الشيبُ لوحةَ عاشقٍ يقولُ: احذرونِي أيُّها الثقلانِ

والشعراء يرتاحون لهذا البحر؛ لأن فيه من الجمال الأخاذ الفاتن الخلاب الذي لا يدركه إلا أهل البيان، حتى إن عروة بن أذينة قال:

جعلتُ لعرافِ اليمامةِ حكمَه وعرافِ نجدٍ إنْ همَا شفيانِي

يعني: من الحب والعشق.

فـوَاللهِ مَـا مِـنْ رقـيـةٍ يعلمانِها ولا شـربـة إلا بـهـا سـقـيـانـي
فـقَـالا: شـفـاكَ اللهُ، واللهِ مـا لنَا بمكنونِ ما تَحْوِي الضُّلوعُ يدانِ

و للبحتري قصيدة على هذا البحر يقول:

كـأنَّ رقِيباً منكَ يـرعَى مَسامعِي وآخـرَ يـرعَـى مـنطـقِي وجَـنـانِـي

والقمران كما قلت الشمس والقمر، ويسميان الفرقدين.. حتى يقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

وكـلُّ أخٍ مـفـارِقُـه أخُـوه لـعـمـرُو أبـيـكَ حتَّـى الـفَـرْقَـدانِ

يعني: حتى القمر والشمس سوف يتفارقان، وقد صح أنهما يكوران، ثم يرمى بهما في نار جهنم. وقوله السابق:

(وإنَّما كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ) أن من له مجد ومكانة يسب دائماً.

قيـل: من هو السيـد؟ قال: من إذا غاب اغتابـوه، وإذا حضر مدحوه، أو: إذا حضر هابوه وإذا غاب سبُّوه.

فتجـد الشجاع وصاحـب المنزلة العالية ترك له حسـاداً، إذا غاب وقعوا في عرضـه، فـإذا حضـر قالوا: مرحبـاً.. أهلاً أبا محمـد.. نحن اليـوم مرتاحون.. شرفتنـا.. لأنـه مهيب وله مكانة، ولكن ما إن يغادر حتى يلدغوه بسياط النقد، أما التافه فيقول فيه أحدهم:

وشكوتُ مِنْ ظلمِ الوُشَاةِ ولنْ تجِد ذا سُـؤدد إلا أُصِـيـبَ بحُسـدِ
لا زِلـتَ يا سبطَ الكرامِ محسَّداً والـتـافهُ المسكينُ غيرُ مُحَسَّدِ

لأن الصفر لا يؤبه به، يحضر المجلس أو يغيب فالأمر سيان، ليس عنده كرم ولا أخلاق ولا تواضع ولا علم ولا يصلح بين الناس، فهو سواء إن حضر أو غاب، لا

يـدرون به أهو ساكن في القرية أم لا، إن حضر المجلس.. إن سافر.. إن ارتحل.. فهذا صفر، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

وقـد تعرض الأخيار على طول التاريـخ للسب، حتى إن موسـى عليه السلام كلـم ربه فقال: يـا رب، أسألك أن تكف ألسنة بني إسرائيـل فلا يتكلموا ويسبوني إذا غبـت، قـال الله سبحانـه: يا موسـى، إني خلقتهـم ورزقتهم وإنهـم يسبونني ويشتمونني! ما اتخذت ذلك لنفسي.

وكمـا جاء فـي صحيح البخـاري قال: «يسبنـي ابن آدم وما ينبغـي له ذلك، ويشتمني وما ينبغي له ذلك، أما سبه إياي فإنه يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار كيف أشاء، وأما شتمه إياي فيقول: إن لي صاحبة وولداً، وأنا الله لا إله إلا أنا لم أتخذ صاحبة ولا ولداً؛ لأنه أحد فرد صمد.

فالشاهـد: الواحد الأحد الذي له صفات الكمال والجمال والجلال.. الفرد.. الصمد.. الحـي القيوم.. ويسب من الخليقة الناقصـة المذنبة الجاحدة، إلا من رحم ربك، حتى يقول أحد الشعراء:

وتَرى الكريمَ مُشتَّماً لَم يقترِفْ شتمَ الـرجالِ وعرضُـه مَشْتُومُ

فالنـاس يقعون في عرض الكرماء، ولكن الكريم كالنخلـة الباسقة الطويلة السامقـة، التي تطلـع بالتمر وبالرطب، فإذا تناولتهـا بالحجارة ردت عليك رطباً وتمـراً، وهـذا شأن الأخيار علـى منهـج: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] وهنـا علم أن الناس إنما يقعون فيمن لـه شهرة، لكن الصحيح أن من كانت محاسنـه أكثر فهو العدل الثقة الثبت؛ وأما من كثر سابوه له وكثرت نقائصه وكثرت معائبه، فهو الذي نزل عن مرتبة العدالة والثقـة، وإلا فـلا يسلـم من العيب أحـد في النـاس، ولكن الذي يجتهـد ويواصل ويستثمـر وقته وماله وجهده في الخيـر، فإنه لا يعدم من الحاسد، وكلام الحاسد

يسقط أصلاً؛ لأنه يتكلم بغير عدل، يقال: أظلم الناس هو الحاسد؛ فإنه يحكم عليك لا لك، ويحكم قبل أن يسمع الدعوى وقبل أن يستمع من الشهود، وإذا ذكرت له فإنه يسرع في قدحك وفي إنزالك من قدرك، ويرفعك الله بسبب نيل الحاسد لك.

ولهـذا فهو يسلي كافورًا، ويظهر أن كافورًا بدأ يتعرض لنقد وتجريح وتشهير من الناس، فمثلما يقول حاتم:

وكلمةُ حاسدٍ مِنْ غيرِ جرمٍ سمعتُ فقلتُ مُرّي فانفذِيني

وعابُوها عليَّ ولم تعبنِي ولَمْ يندَ لَها أبَداً جَبينِي

فالحاسد أبداً هو عدو النعمة، حتى يقول الشاعر:

هُمْ يحسدُوني علَى موتِي فواأسفًا حتّى علَى الموتِ لا أخلُو مِنَ الحسدِ

فهو يقول: والله لو أخبرت الناس أني سأموت لحسدوني على الموت، قالوا له: ليس بصحيح. قال أحدهم: رأيت في المنام – وهو لم يرَ في الحقيقة- أن فلاناً الوزير صلب، وأن فلاناً الغني التاجر الثري صلب، وأنني صلبت معهم، فقال الجلوس: أنت تصلب معهم؟! أنت أقل وأذل من أن تصلب مع الوزير ومع الثري، فقال:

هُمْ يحسدُوني علَى موتِي فوا أسفًا حتّى علَى الموتِ لا أخلُو مِنَ الحسدِ

ولذلك فأبو الطيب دائماً يذكرك بهذه ويقول:

سُوَى وجعِ الحسَّادِ داوِ فإنّه إذا كانَ فِي قلبٍ فليسَ يحولُ

يقول: حاول أن تداوي كل شيء تستطيع أن تداويه.. فالبخيل قد تشجعه بعض النصوص، تستطيع أن تداوي مثلاً الغضبان بأن ترضيه.. الذي هجرك لأمر يمكن أن يزول عن هجره وقطيعته لك، إلا الحاسد.

ولا تطمعَنْ مِنْ حاسدٍ فِي مودَّةٍ وإنْ كنتَ تبدِيها لهُ وتُنيلُ

تحتضنه وتعانقه وتدعوه وتكرمه وتهدي له.. ولكنه لا يزداد إلا غياً؛ لأنه يريد شيئاً واحداً وهو أن تزول عنك النعمة.

حتى يقول أحد الشعراء:

أعطيتُ كلَّ الناسِ مِنْ نفسِي الرِّضا ... إلا الحسودَ فإنَّه أعيانِي

ما لِي لَه ذنبٌ علي علمتُه ... إلا تتابعَ نعمةِ الرحمنِ

وأبَى فما يُرضِيه إلاّ ذِلَّتي ... وذهابَ أموالِي وقطعَ لسانِي

يقول: ليس هناك مصالحة معه؛ لأن الحسود لا يمكن مصالحته، كما يقول القائل:

اصبرْ علَى كيدِ الحسودِ ... فإنَّ صبرَك قاتلُه

فالنارُ تأكلُ نفسَها ... إنْ لم تجِد ما تأكلُه

فهو ظالم في ثوب مظلوم، يحترق هماً وغماً، بعض الناس مركب على الحسد، إذا رأى مالاً لإنسان حسده، إذا رأى ذا علم حسده، إذا رأى فصيحاً.. وإذا رأى رجلاً جميلاً.. وإذا رأى رجلاً مشهوراً.. وإذا مدح الناس إنساناً فهو عدو.. يقول ابن تيمية: بعض الناس كالذباب لا يقع إلا على الجرح.

لا يحب الجوانب المشرقة، يفرح إذا جاءت العثرات، حتى إذا نظر في الأسهم ورأى الأحمر حمد وقال: لك الحمد يا رب، فإذا جاءت وهي خضراء مرتفعة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعنده التجار غشاشون.. والعلماء مدلسون.. والدعاة ملبسون.. والمسؤولون ظلمة.. فهو الذي يحب العيوب ويحب الأخطاء، والرجل إنما ينظر دائماً إلى الجوانب المشرقة ولا ينظر إلى الجوانب المظلمة في حياة الناس.

والمتنبي لما قال:

عــدوُّك مَــذْمــومٌ بـكـلِّ لـسـانِ ولـو كـانَ مِـنْ أعـدائِـك القَـمَـرانِ

ذكرني هذا البيت بقصيدة علـى البحر والقافية، يقولون: كان ابن الأعرابي النحـوي اللغـوي المشهـور الأديـب يدرس في مجلـس الحديـث، وكان الناس في مسجـد كبير، وهناك طلاب في آخـر المسجد، طالبان يتكلمان في أثناء الدرس، قـال: اسكتا، ثم قال: من أين أنتما؟ قـال أحدهما: أنا من الأندلس قدمت بغداد؛ لطلـب العلم، يعنـي: أصبحا صديقين، وقـال للآخر: من أين أنت؟ قـال: أنا من خراسـان، خراسان في آخر المشرق والأندلس فـي آخر المغرب! قال: قفا واكتبا هذه الأبيات، تناسب المشهد، وكان راوية حافظاً، فقال:

نـزلْـنَـا عـلَـى قـيـسـيَّـةٍ يـمـنـيَّـةٍ لها نسبٌ فِي الصالحينَ هجانُ
فقالتْ وألقتْ جانبَ الخدرِ بيننَا لأيَّـةِ قـومٍ أم مَـنِ الـرَّجُـلانِ؟
فقلتُ لَها: أمَّـا تـمـيـمٌ فأسـرتِي سلمتِ وأمَّـا صاحبي فيمانِي
رفيقانِ شتَّى ألَّـف الـديـنُ بينَنا وقَـدْ يلتقِي الشتَّى فيجتَمِعانِ

فهو يقول: لقد ألف الإسلام بينكما وصرتم أخوين، وأتى بهذا الشاهد، كيف تألفـا وليس بينهما أبـوة ولا نسب ولا رضاع، فألف الإسلام بينهما، فأحياناً الدين هـو الذي يؤلف، وأحيانـاً يؤلف بين الناس أشكال ومذاهب، لكن أخوة الإيمان هي أعظم أخوة، حتى يقول أبو تمام:

إنْ يختلفْ ماءُ الوصالِ فماؤُنا عـذبٌ تـحـدَّرُ مِـنْ غـمـامٍ واحـدِ
أو يـفـتـرِقْ نسـبٌ يـؤلِّـفُ بيننَا أدبٌ أقـمـنَـاه مـقـامَ الـوالـدِ

يقـول: الأدب الذي بيننـا صار مثل الأب في النسب، وليتـه قال: (دين) بدلاً من (أدب).

وبالمناسبة، فقد ألقيت هذه المقطوعة في صنعاء لما قرأت عليهم المقامة اليمانية من المقامات قبل سنوات، ثم طلبوا مني أن أقف وقفات مع بعض شعرائهم، كالزبيري، محمد بن محمود الشاعر المشهور، فإنه خرج من اليمن مع الثورة وذهب إلى إذاعة باكستان وألقى قصيدة أرسلها إلى اليمن، يقول من ضمن أبياتها:

الشاعريّةُ فِي رواعِي سحرِها ... أنتَ الذِي سويتَها وصنعتَها
أنتَ الذِي بسناكَ قَدْ عطَّرْتها ... وأشعتَها بينَ الورَى وأذعتَها
أبعدتنِي عَنْ أمةٍ أنا صوتُها الـ ... ـعالِي فلَو ضيَّعتَنِي ضيعتَها
ما قالَ قومِي آه إلا جئتَني ... وكويتَ أحشائِي بها ولسعتَها
عذبتنِي وصهرتنِي ليقولَ عنك ... الناسُ: هذِي آيةٌ أبدعتَها

وله قصائد أخرى في الحنين، عندما خرج من وطنه، يقول:

مزقينِي يا ريحُ ثمَّ انثرِي ... أشلاءَ جسمِي فِي جوِّ تلكَ المعانِي
وزعينِي بينَ القدودِ والأغصانِ وصلِي ... جيرتِي وأحبابِي وقصِّي عليهِمْ مادهانِي
هَلْ رثانِي هزارُها هَلْ بكانِي ... ورقُها هل شجاهُ ما قدْ شجانِي
ليتَ للروضِ مقلةً فلعلَّ ... الدهرَ يبكِيه مثلمَا أبكانِي

وهذا من جيد شعراء اليمن، وقد جمعت أشهر ما قيل في ثوراتهم وفي حروبهم التي انتشرت بين الناس وبين الجمهور، ومنها قصيدة ذكرها صاحب هجر العلم ومعاقله والأكوع، وذكرتها في بعض المناسبات لما هاجم الإنجليز مدينة عدن واحتلوها ثم أخذوا يضربون الشمال، يريدون احتلال الشمال، فخرج لهم عالم اسمه يحيى بن محمد الإرياني، وهو من أبناء عبد الرحمن الإرياني الذي تولى رئاسة اليمن بعد السلال، المقصود أنه خطبهم خطبة بليغة واستحثهم لمقاتلة

الإنجليز، فلما سمعوا هذه القصيدة قاموا عن بكرة أبيهم، وقاتلوا الإنجليز، حتى هزموهم، كانت بريطانيا تضرب مدن اليمن منها صنعاء، فيخاطبها بالقصيدة القوية ويخاطب الجمهور:

يا بريطانيَا رويْداً رويْدا ... إنَّ بطشَ الإلهِ كانَ شديدًا
إنّ بطشَ الإلهِ أهلكَ فرعونَ ... وعاداً مِنْ قبلِكم وثمُودا
لا تظنُّوا هدمَ المدائنِ يودِي ... عزمَنا أو يلينُ بأساً شديداً
إن تبيدُوا من البيوتِ بطيّا ... راتِكم ما غَدا لدينا مَشِيدا
فلنا فِي الجبالِ تلكَ بيوتٌ ... صنعَتْها أجدادُنا أَنْ تبِيدا

ثم التفت إلى الطيارين في السماء، فقال:

فالنزالَ النزالَ إن كنتمُ مِمَّنْ ... لدى الحربِ لا يخافُ البرُودا
لترَوا مَنْ يبيتُ منَّا ومنكُمْ ... مُوثَقاً عندَ خصمِه مصْفُوداً

(ما خضعنا للترك) يقول: أنتم الإنجليز على غير مذهبنا من الكفار، والترك والدولة العثمانية كانت مسلمة، ومع ذلك لم نخضع للأتراك، بل طردناهم:

ما خضعْنا للتركِ مع قربِهم ... في الدينِ منَّا فكيفَ نرضَى البعِيدا!
وهُمْ فِي الأنامِ أشجعُ جيشاً ... فاسألُوهم هَلْ صادفُونا فُهُودا
أفترجُو إنجْلْترا فِي بلادِنا ... تباً لسَعْيِها أَنْ تبِيدا
كذبتَ والإلهِ لا كانَ إلا ... بعدَ إلا تُبِيدنا أو نَبِيدا
بعدما تسفكُ الدماءُ علَى الأرضِ ... ونرمِي سهولَها بالنُّجُودا
يا بنِي قومِنا، سراعاً إلى اللهِ ... فقدْ فازَ مَنْ يمُوتُ شَهِيدا
سارِعُوا سارِعُوا إلَى جنَّةٍ ... قد فاز من جاءها سعيداً شهيداً
والبسُوا حلَّةً مِنَ الكَفَنِ الغالِي ... وبيعُوا الحياةَ بَيْعاً مَجِيداً

فخرجـوا وقاتلوا الإنجليـز، وكان معهم الحضراني الأديـب الكبير المشهور الـذي عاش مئة وثلاثين سنة، ومن أبنائه الشاعـر إبراهيم بن أحمد الحضراني وهو رجل موسوعي، وقد زار أحمد هذا المملكة مرات عدة وتوفي فيما بعد، وحضر المعركـة، ثم أخذ بسلاحه البسيط وكانت بعضـ الطائرات مكشوفة على الطراز القديـم مثـل الداكتوتا وغيرهـا، فأرسل الرصاصـة فوقعت في جمجمـة الطيار الإنجليـزي فسقط وسقطت الطائرة، فمدح من جميـع الناس شعراً عربياً وشعراً عاميـاً شعبياً، من ضمن الشعر الشعبي يقـول أحد الشعراء من تهامة يرسل لهذا الحضراني يمجده ويمدحه أنه أسقط الطائرة، يقول:

لك الحمد يا منشي من النوة المطر ورازق جميع الخلق في البر والبحور

يقول المعنى طار في عيني السهر بعد رقدة السمار دارت لي الفكور

(وبالله يا باهي على طلعة القمر)

يقصد الفارس الذي يذهب بالرسالة وبالتبريك وبالتهنئة..

وبـالله يـا بـاهـي على طلعة القمر على ادهم محجل في الضنك يثني الصخور

تصل سوق شمر ذا على بابهم غفر تنشد على القاضي ووقت البلى هصور

إذا قلت قاضي عنده اللون والدرر من العلم وان جات المشاكل فهو صبور

من آل كبيشن ذا يعدين في الغور ويعدين في الضيقات عداية الصقور

فيقول: إنه قاضٍ وقد أصاب الطائرة.

وقاضي يصيب الصيد ما يخلف النظر ونمر النمارة عادته ياكل النمور

في قصائد طويلة، لكن هذه من الذكريات؛ لأننا انتقلنا إلى مسألة اليمن.

لأن الأدب أصـلاً لا ينبنـي على مسألة العلم الأكاديمـي المفصل على أبواب وفقـرات وفصول.. لا، الأدب كالبستان، الأدب أن يكون كما يقول علي الطنطاوي: الدرس فوضى، تذهب ذات اليمين وذات الشمـال.. حديث.. قصص.. إبداعات متنوعة، يعني أنه كالحديقة الغناء، زهر.. وفل.. وخمائل.. وعصافير.. وقمري.. وبلابل.. وهكذا.. وإلا فلو حصرناه كدرس الفقه لما سمي أدباً، ولا سمي سمراً.

المتنبـي يذكر كلاً بما فيه، فدائماً يذكر سيـف الدولة بالشجاعة؛ لأن سيف الدولـة بارز الشجاعـة، فلذلك ركز أبو الطيب المتنبي على هذا الجانب في سيف الدولة، فيقول مثلاً:

وقفتَ وما فِي الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنَّك فِي جفنِ الـرَّدَى وهوَ نائِمُ

تمرُّ بك الأبطالُ كلْمَى هزيمةً ... ووجهُك وضاحٌ وثغرُك باسِمُ

وإذا أتى العلماء فلا يمدحهم بالشجاعة؛ لأن العالم تمدحه بالعلم، بالتحقيق العلمي، بالفهم، بإفادة الناس والنفع، قال:

علامةُ العلماءِ واللججُ الذِي ... لا ينتهِي ولكلِّ لجٍّ ساحِلُ

افخَرْ فإنَّ الناسَ فيكَ ثلاثةٌ: ... مستعظِمٌ أو حاسِدٌ أو جاهِلُ

وإذَا أتَتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشَّهادةُ لِي بأنِّي كامِلُ

وحين يأتي ابن العميد الكاتب المشهور، لا يمدحه بالشجاعة؛ لأنه كاتب ومن الكتـاب المثقفيـن وصاحب إبداع، فلا ينبغي أن يقول: أنـت الذي يقتل الأبطال.. وهو لا يقتل الأبطال ولا يبارز ولا يقاتل.. فمدحه بالأدب والكلمة، قال:

مَنْ مخبرُ الأعـرابِ أنِّي بعدَهم ... جالستُ جالينوسَ والإسْكَندَرا

ودرستُ بطليموسَ دارِس كتبِه ... متعلِماً متبدِّياً متحضِّرَاً

قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نوّرَا

ويأتي مثلاً إلى عضد الدولة الملك وهو من أكبر الملوك، وكان جباراً ظلوماً عسوفاً داهية مهيباً، يمدحه بالقوة والتفرد على الملوك والتفرد على زعماء عصره، فقال:

فِدًى لكَ من يقصرُ عن مَدَاكا ... فما ملكٌ إذاً إلا فداكَا
ولو قلْنا فِدًى لك مَنْ يساوِي ... دعَونا بالبقاءِ لمَنْ قلاكَا
أروحُ وقد ختمتُ على فؤادِي ... بحبِّك أن يحلَّ به سِواكَا
وقدْ حمَّلْتنِي شكراً ثقِيلاً ... طويلاً لا أطيقُ له حَرَاكَا
أحاذرُ أن يشقَّ علَى المطايَا ... فلا تمشِي بنا إلا ابترَاكَا
إذَا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ ... تبينَ مَنْ بكَى ممَّنْ تَبَاكَى
إذَا استشفَيْتَ من داءٍ بداءٍ ... فأقتلُ ما أعلَّك ما شفَاكَا

فقصدي أنه ينتقل على حسب الأغراض وحسب الممدوح.

ونعود إلى أصل القصيدة؛ لأنه لما قال:

عدوُّكَ مذمومٌ بكلِّ لسانِ ... ولو كانَ مِنْ أعدائِك القمرانِ

يقول في آخرها:

قضَى اللهُ يا كافُور، أنَّك أولٌ ... وليسَ بقاضٍ أن يَرى لك ثانِ

وهذا خطأ؛ فإنه لم يطلع على قضاء الله وقدره، والله يقضي ما يشاء، والعبد ليس له علم بقضاء الله عزوجل، ومن أخبر هذا العبد الضعيف، فهذا من تجاوزاته، وهذا من جموحه، وهذا من خطئه، وهذا من تعديه وبغيه، فإن الله يقضي ما يشاء ويقدر سبحانه وتعالى، لا غالب لأمره سبحانه وتعالى، ولا رادَّ لقضائه، فإنه فعال لما يريد جل في علاه، لكن هذه الجرأة، بل الله يقضي ما يشاء، وأتى قبل

كافور وبعده من هو خير منه ديانة وإصلاحاً وعملاً ومجداً وعطاءً وبذلاً وشجاعةً، وانظر إلى التناقض، بالأمس يقول هذا الكلام، وفي الغد ينقضه بسب من أفحش السب في كافور، وهذا شأن الذي لا ينطلق من مبدأ ولا من رسوخ علمي ولا من يقين معرفي، وليس عنده رسالة في الحياة ولا قضية، ولكننا نأخذ إبداع المتنبي وعبقريته وحكمه التي قالها، لكن المسالك الخطأ التي نهجها كالغلو في المدح، والغلو في الهجاء، وسرعة التذبذب والتردد، مرة يمدح ومرة يسب، مرة يرضى ومرة يغضب، فإننا لسنا وراء هذه الشخصية القلقة المتقلبة الماردة الثائرة، فشخصيته شخصية عبقري.. ثائر.. متمرد.. غضوب.. مزاجي.. حاد، لكننا نريد أن نقوِّم هذا؛ لأن عندنا رسالة ربانية، وسنلتقي مع المتنبي في أحد المجالس من هذا الكتاب، سوف نلتقي معه في محكمة الإنصاف ونقرأ دعاويه، ونقيم البينة على صدق ما قلنا من النقد، ونثبت له ما قال من محاسن ومن حكم، فنحن أمرنا بالعدل، وسوف نحاكمه بالميزان الذي هو ميزان الشريعة، وهذا الذي نطمح إليه ونحن تحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.



أهل العزم

يقول أبو الطيب المتنبي:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ

وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارِمُ

وهـذه من أرفع قصائـده وأجلها عند الأدباء وأهـل النقـد، بـل يجعلونهـا أحيانـاً الأولـى فـي قصائـده، حتى إن المطلع يبهرك، وكان يمدح بها سيف الدولة، من ضمن أبياته الشائقة الرائقة، بل الذائعة الشائعة، بـل الرفيعة البديعة قوله لسيف الدولة، وهو في المعركة لما قاتل الأعداء:

obeikandl.com

وقفتُ وما فِي الموتِ شكٌّ لواقفِ كأنَّك فِي جفنِ الرَّدَى وهوَ نائِمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمَى هزيمةً ووجهُك وضاحٌ وثغرُك باسِمُ

والشاهد من هذا أنه يتكلم عن علو الهمة في أول القصيدة، فيقول: (**علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ**): فعلى قدر ما عندك من همة يكون لك من النتائج المرضية؛ لأن همتك أوصلتك إلى مراقي الصعود للمجد.

يقولون: ليست الهدية على قدر من أهديت له، ولكن على قدر المهدي نفسه، فدل على أنه من أراد أن يتبوأ المجد الدنيوي والمجد الأخروي فليأتِ بهمة عالية، وهذا أمر متفق عليه عند جميع العقلاء، و هو كان يشيد في قصائده بهمته، ولكن للأسف أنها انحرفت عما ينبغي أن تكون عليه من الإيمان والعمل الصالح والإصلاح في الناس والفضيلة، انحرفت إلى طلب المجد الدنيوي والعلو في الأرض وطلب المنصب والجاه والشهرة والظهور.. حتى يقول:

أطاعنُ خيلاً مِنْ فوارسِها الدهرُ وحِيداً وما قولِي كذا ومعِي الصَّبرُ
وأشجعُ منِّي كلَّ يومٍ سلامتِي وما ثبتتْ إلا وفِي نفسِها أمرُ
تمررتُ بالآفاتِ حتّى تركتُها تقولُ: أمات الموتُ أم ذعرَ الذعرُ
وأقدمُ إقدامَ الأتي كأنَّ لِي سُوى مهجتِي أو كانَ لِي عندَها وترُ

والأتي هو السيل، فيا لها من همة! إلى آخر ما قال، ثم قال:

وتتركُ فِي الدُّنْيا دوِياً كأنَّما تداولُ سمعَ المرءِ أنملُه العشرُ

الشاهد أن الشعراء نهجوا هذا المنهج من قبل ومن بعد، لكنه تفوق في أنه يأخذ العبارة فيضعها في قالب جميل أخاذ جذاب، ولذلك فاق الشعراءَ بمعانيه وبجمالياته في الجملة، وإلا فبعض مفردات الشعراء قد يغلبونه فيها، لكن في

جملة قصائده هو يغلبهم بلا شك، فصار هو سيد الشعراء وإمبراطور الشعور وملك الشعراء.

والشريف الرضي يقول أيضاً مخاطباً نفسه:

أقسمتُ أنْ أوردَها حرَّةً ... وقاحةً تحتَ غلامٍ وقَاح

إمَّا فتىً نالَ المُنَى فاشتفَى ... أو فارسٌ زارَ الرَّدَى فاسْتَرَاح

الوقاح من لا يستحيي من طلب الشيء حتى يدركه. وقاحة يعني: في جرأة صارمة إلى درجة أنه لا يرده رادّ، وقد نظم بعض المتأخرين عليه قصائد كالشوكاني في نيل الأرب، ونظمت بيتين قلت فيهما:

إذا سألتَ اللهَ فِي كلِّ مَا ... أمَّلتَه نلتَ المُنَى والنَّجَاح

بهمَّةٍ تخرجُ معَ الصَّفَا ... وعزمةٍ ما شابَها قولُ آح

همة من لا يتعب ويقول: آح، من المعركة أو من المجد أو من السهر أو من التعب؛ لأن طريق العلياء محفوف بالمخاطر والأشواك والنكبات، أما طريق الانحراف فهو منحدر، ولذلك فهو سهل.

ولذلك تجد من يسقطون كثيراً، أما الذين يصعدون فإنهم قليل، حتى يقول الصينيون: الجالس على الأرض لا يسقط، بل هو مرتاح، إنما يسقط الذي يذهب إلى القمم أو يصعد الجبال العالية. ومثله مثل الذي يأتي إلى المجد، حتى يقول المتنبي نفسه:

لَا يدركُ المجدَ إلّا سيدٌ فطنٌ ... لمّا يشقُّ علَى الساداتِ فعّالُ

لَولاَ المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ ... الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتّالُ

فأوصي العقلاء والأدباء والحكماء بأن يكون عندهم همة وثابة، وإلا فالناس متشابهون في اللحم والدم والصور الظاهرية والأجسام، إنما يختلفون في الهمة،

أن يكـون عند الواحد همة فترقـى به، فتجد بعض الناس يفوق الآلاف المؤلفة من البشر بهمته، وتجد آلاف البشر لا يساوون رجلاً واحداً، كما يقول ابن دريد:

والـنـاسُ ألـفٌ مـنْـهـم كـواحـدٍ ... وواحـدٌ كـالألـفِ إنْ أمـرٌ عَنَا

حتى يقول الشاعر:

فـكـنْ رجـلاً رجـلُـه فِـي الـثَّـرَى ... وهـمـةُ هـامـتِـه فِـي الـثُّـرَيّـا

أنـت جالـس على الأرض، لكن اجعل همتك فـوق النجوم، حتـى إن المتنبي يقول، وانظر إلى كلماته العذبة وتناسقها:

إذَا غـامـرتَ فِـي شـرفٍ مـرومٍ ... فـلا تـقـنَـعْ بـمـا دونَ الـنُّـجـومِ

هذه حرب النجوم عند المتنبي، يقول: دون النجوم لا ترضَ، بل فوق النجوم، يعنـي: لا يحدك حد، فهو يرى في الدنيـا ألا تطلب الشيء ميسراً مسهلاً، حتى إن ابـن الجـوزي تكلم على الهمة العالية فقال: لو أن النبـوة تكتسب كسباً لكان وجب علـى الناس أن يطلبوها، لكـن النبوة هبة من الله موقفـة، وختمها برسولنا ﷺ، فـلا تؤتـى لأحد بعده عليه الصـلاة والسلام؛ أي: لو كانت كسبـاً لكان وجب على النـاس أن يطلبوهـا، لكن عند النـاس أمرين: العمل الصالـح والعلم النافع، هذا الذي يطلب، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «**مثلُ ما بعثنِي اللهُ بِه مِنَ الهُدى والعلمِ..** » فجعل الهدى العمل الصالح، والعلم النافع.

فهنـا يقـول: إذا غامرت... أي: مـا دمت تدخل في الموضـوع، ما دمت تشق طريقـك إلـى النجاح، ما دمت ستسهـر.. فلا تفنِ نفسك على شـيء تافه وحقير وبسيط، حتى يقول:

فطعمُ الـموتِ فِـي أمـرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الـموتِ فِـي أمـرٍ عظيمِ

الموت واحد، وسوف يموت الإنسان إما تخمة بأكله، أو يموت شريفاً عابداً أو يمـوت زاهداً، أو يموت ماجداً، أو يمـوت شهيداً، أو يموت بسبب مخدرات، فلا بد

من أن يموت، فهو يقول: فاجعلها ميتة شريفة، حتى يقول الحسن البصري رضي الله عنه: لا تجعل لنفسك ثمناً غير الجنة.

يعني: مهما ساوموك فلا تطلب إلا الجنة. ولذلك لام الله أعداءه من الذين زوروا في الكتاب، فقال: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة:٩] الدنيا كلها ثمن قليل كما يقول كثير من المفسرين، فهو يلوم من كان هذا فعله، يقول: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، مثل: الكهنة.. مثل العرافين.. السحرة.. مثل من يرتشي.. مثل من يرابي.. أخذ ثمناً قليلاً، لو أعطي الدنيا كلها وترك الدين لكان ثمناً قليلاً، ولذلك من وصل حتى في عالم الدنيا فهو من همتهم العالية.

يقول المأمون: أدهى الناس اثنان: الإسكندر المقدوني، نقل الحكم من دولة إلى دولة، يعني إلى دولة اليونان مقدونيا، نقلها من الرومان، وأبو مسلم الخراساني نقل الدولة من بني أمية إلى بني العباس. وأبو مسلم الخراساني أعجمي، كان عمره ثمانية عشر عاماً يتقلب وأمه في البيت، لا ينام إلا قليلاً ثم ينقلب على شقه اليمين ثم على اليسار، عندما ينقلب على اليسار كأنه حية، حتى يأتي الفجر، فتقول أمه: ما تنام؟! فيقول: همة تنطح الثريا، وعزم يدك الجبال، فبعد مدة يكون حرسه الخاص عشرة آلاف مسلح، ويقلب الدولة وعمره ثمانية عشر، وفوق هذا هو أعجمي وليس بعربي، كان يمشي والطوابير أمامه، وخطب مرة وعليه عمامة سوداء، فقام أحدهم يتكلم أمام هذا الذي يسفك الدم مثل الماء، قال: أيها الأمير، لا تلبس السواد، فشعار دولة بني العباس السواد، فقال: حدثنا فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر: «**أن رسول الله ﷺ دخل عمرة القضية وعمامته سوداء على رأسه**» يا غلام، أعطني رأسه، فقطع رأسه وسقطت الجثة بين الصفوف.

فصاحب الهمة هذا أبو مسلم تقول أمه: لماذا لا تطلب الهمة؟ قال: يمنعني العقل، يقول: أفكر أحياناً لكن العقل يردني، حتى إن المتنبي يقول وهو يمدح

أحـد الفاتكين واسمه المجنــون، من شجاعته سماه الناس المجنون، إذا دخل في المعركة يطيش عقله فيخبط في الناس خبط عشواء، فيسمونه المجنون، فيمدحه المتنبي، قائلاً:

سمَّاه حاسدُه المجنونَ مِنْ ولهٍ إذَا اختلطْنَ وبعضُ العقلِ عقّالُ

يقـول: بعض العقول تمنـع صاحبها؛ لأن بعض الناس تـراه يحذر. فتقول له: اخطـب.. فيقـول: والله إني أخشى إذا خطبت أن يبرز لـي حساد، ثم يفهمون أني أريد أن أظهر.

فتقـول: ألّف كتاباً، قال: أنا لا أعجـز عن أن أؤلف كتابًا، لكن افرض أني ألفت كتابًـا، ثم وقـع فيه أخطاء، ثـم رد عليه العلماء، ثـم بدّعونـي، فسأصير بعد ذلك مبتدعاً، فكل شيء له احتمالات لديه ووساوس، ما يأتي بالمجد إلا جرأة، كما قال:

سمَّاه حاسدُه المجنونَ مِنْ ولهٍ إذَا اختلطْنَ وبعضُ العقلِ عقّالُ

يقول: بعـض العقل يقيِّدك مرة إلى أن يجعلك لا تستطيع أن تتصرف، العقل الكريم السديد هو الذي يجعلك جريئاً بحكمة.

ويقول آخر:

هِـمـةٌ تـنـطـحُ الـثـريَّـا وعـزمٌ نـبـويٌّ يـزعـزعُ الأجْـبَـالا

لمـاذا قال نبوي؟ لأن أرفع الناس همة هو محمد ﷺ، همة عظيمة، حتى إنه يعلمنـا في الدعاء في قوله للصحابة والمؤمنين مـن أتباعه ﷺ: «**إذا سألتم اللهَ الجنـةَ فاسألُوه الفردوسَ**» يعني: حتى فـي الدعاء لا ترضَ إلا بالفردوس، «فإنها أعلـى الجنة ووسـط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، ومنه تفجـر أنهار الجنان» فـلا تقل: اللهم، أدخلني الجنة وفقط. لا، قل: اللهم، إني أسألك الفردوس الأعلى مـن الجنة، حتى النبي ﷺ وهـو في سكرات الموت قال: «**بلِ الرفيـقَ الأعلَى بلِ**

الرفيقَ الأعلَى» ما هذه الهمة! سبحان الذي أعطاه، الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، جبال الذهب، جبال الفضة.. الغنائم.. الدراهم.. الجيوش.. الدول.. لا تساوي شيئاً، أرفع الناس همة، لحقه الأعراب بعدما انتصر ﷺ في حنين وحصل على سبعة آلاف رأس من الإبل وأربعة وعشرين ألف رأس من الغنم، وحصل على ذهب وفضة وغنائم وسبايا فأخذ يقسمها، خذ يا فلان.. مسلمة الفتح أسلموا الآن، قال: خذ مئة ناقة، قال آخر أعطني: قال تنظر الغنم التي بين جبلين، خذها لك، قال آخر.. قال خذ مئة ناقة، وقال لآخر: خذ أنت ألف شاة، فتعلق رداء النبي ﷺ والأعراب يطاردونه. وهو ﷺ لم يأخذ شاة ولا رغيفاً من الخبز، ولا أخذ ثوباً، قال: «**فكوا علي ردائي، والذي نفسي بيده لو كان مثل جبال تهامة ذهباً وفضة لوزعتها، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً**» عليه الصلاة والسلام، ثم يذهب من الدنيا ولم يأخذ شيئاً، ولا أبقى شيئاً، ولا ورث شيئاً بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، في غرفة من الطين.

كفاكَ عَنْ كلِّ قصرٍ شاهقٍ عمدٌ بيتٌ منَ الطينِ أو كهفٍ منَ العَلَمِ

تبنِي الفضائلَ أبراجاً مشيدةً نصبَ الخيامِ التِي مِن أروعِ الخيمِ

فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وصلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون.

فنحن ما زلنا في ظلال بيت أبي الطيب وفي سياقه:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهو في بيت آخر من قصيدة أخرى يقول:

وإذَا كانتِ النُّفوسُ كِبَاراً تعبَتْ فِي مرادِها الأجْسَامُ

إذا كانت النفس كبيرة وشريفة ولها مطالب عالية من العمل الصالح والإيمان والعلم والمعرفة والمروءة والخصال الجميلة.. ثناء حسن في الناس.. وسيرة

جميلة يتعب جسمه؛ لأن هذه الهمة تحتاج إلى تعب، وتحتاج إلى حضور للصلاة.. ولحفظ القرآن.. وإلى طلب العلم.. وإلى بذل الخير في الناس.. وإلى الإصلاح فيما بينهم.. وإلى التصدر بالفضيلة.. وإلى نشر المعرفة.. وإلى التعلم والتعليم.. فيتعب جسمه، أما الخامل الساقط التافه فليس يهمه شيء، قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤]، ويقول الشاعر:

لا بأسَ بالقومِ مِنْ ضخمٍ ومِنْ عظمِ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

فهذا مثل الذي ليس عنده همة وليس عنده نفس كبيرة. فهو دائماً ينبه في قصائده على الهمة العالية، لكن ليته صرفها في الأحسن والأجمل، إنما تهالك المسكين، حتى إن ابن الجوزي العالم الرباني الواعظ الكبير في صيد الخاطر يرثي للمتنبي، يقول: بحثت عن همته وإذا الرجل طامح بهمته وقتل نفسه، ثم بحثت عنه فإذا به يريد إمرة أو منصباً.. يريد دنياً.. يريد ذهباً.. ثم ماذا؟! من ملك إلى ملك، من كافور إلى سيف الدولة إلى عضد الدولة إلى ابن العميد إلى فلان.. كله في سبيل هذه الدنيا، قال: فنظرت إلى همته، فإذا هي أرقى وأعظم وأجل –يعني نفسه– لأني أطلب العلم النافع وأريد العمل الصالح وأريد أن أصلح قلبي وقلوب الناس ونحو ذلك، وصدق ابن الجوزي، فلا مقارنة بين ابن الجوزي العالم الرباني الموسوعي الكبير، وبين المتنبي اللوذعي العبقري الشاعري الأعجوبة، ولكنه صرفها للدنيا ولجاه الدنيا وشهرة الدنيا، فكما يقول الأول:

ألا بلَّغَ اللهُ الحِمَى مَنْ يريدُه ... وبلَّغ أكنافَ الحِمَى مَنْ يريدُها

كما يقول سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] ويقول القفال الشاشي:

اطلُبْ ولا تضجَرْ مِنْ مطلبٍ ... فآفةُ الطالبِ أنْ يضجَرا

يعنـي: إذا أردت مطلباً عالياً عظيماً فاطلب، والموت أن تضجر من المطلب، استمـر في عمل دنيوي صالـح مفيد، في حرفة.. في مهنة.. في إنتاج.. في عمل.. في فن علمي..

أمَـا تـرَى الحبلَ بطولِ المدَى علَى صليبِ الصخرِ قَـدْ أثَّـرا

الحبـال التي فـي السواني التي تخرج المـاء من الآبار هي جلـد، فيأتي هذا الحبـل مـن الجلد علـى الصخر، لكثرة ما يذهـب ويأتي أخذ له طريقـاً وأخدوداً فـي الصخر، وكذلـك الطالب والمجتهد والباذل والمضحـي والمثابر سوف يشق طريقه إلى المجد لا محالة إذا استمر وإذا صبر، حتى إن أحد العباد يقول لغلامه في الليل، وقد كان يصلي فقال:

طال الليل علينا، قال:

طاول بها الليل ضن ما لليل أو جنحا وما طل الجفن جاد الجفن أو سمحا

فإن تشكت فعلمها المجرة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

فعند الصباح يحمد القوم السرى؛ إذا طلع الفجر تذكر أحدنا أنه قام البارحة وصلـى حزبه من القرآن، وتنفـل وبكى ودعا في السحر وأرسل سهام الدعاء وفتح عليـه. ففي الضحـى لا يحس للتعب بمعنـى ولا طعم، أما من ينـام ويصبح جيفة فيأتـي فـي الصباح، فأين لذة النوم التي ذهبت منـه؟ وأين الخمول الذي عاشه؟ وأيـن الكسل الذي قدمه وآثره؟ فلذلك من يتعب سوف يجني تعبه ثمراً من الثناء الحسن والأجر والثواب عند الله، والذي يكسل عن الصالحات سوف يجنيه ندامة وخيبة وحسرة، حتى يوم العرض الأكبر على الله.

انظر إلى امرئ القيس وهو جاهلي، ويطلب دم أبيه من بني أسد الذين قتلوا والده وذهب إلى قيصر يريد أن ينتصر له، كما يذهب الواحد منا الآن إلى أمريكا؛ ليستعين بها على عدو، فذهب.. يقول:

ولَـوْ أنَّـما أسـعَى لأدنَـى معيشةٍ كفانِي- ولم أطلبْ- قليلٌ منَ المالِ
ولـكِنَّـني أسـعَى لـمجـدٍ مـؤثـلٍ وقَدْ يدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالِي

يقـول: أسعـى لمجد أبي؛ لأن أباه كان ملكاً في كنـدة، فقتله بنو أسد في نجد وكان أصلهـم من اليمن من حضرموت، فلما أتاه الخبر كان يشرب الخمر، فقال: اليـوم خمر وغداً أمـر، وقال: أما أبي فما أنصفني، ضيعنـي صغيراً وحمّلني دمه كبيـراً، فأراد أن يستنجد بالعرب فما وجـد أحداً، فذهب برجل معه صديق اسمه عمرو بن قميئة، فبكت أم عمرو؛ لأنه سيسافر معه إلى قيصر الروم، وهذا السفر طويل، فقال:

أرَى أمَّ عمـرٍو دمعُها قَـدْ تحدَّرا بكاءً علَى عمـرٍو وما كانَ أصبرَا
بكَى صاحبِي لمَّا رأَى الدربَ دونَنا وأيـقـنَ أنَّـا لاحـقـانِ بقيصـرَا
فقلتُ لَـه: لا تبـكِ عيناكَ إنَّـما نـحـاولُ ملـكاً أو نـمـوتُ فنعـذَرا

يعني: إما أن نحصل على ملك أو نموت شرفاء.

كما يقول العامي: يخرج الفارس، إما ذاق موت الشرف والا سلم.

فإمـا أن يعيش الإنسـان سعيداً منعماً في الخير والثنـاء الحسن، وإلا فليمت ليلقى ربه سبحانه وتعالى أحسن من حياة المهانة.

لكـن الشاهد: إنـك عندما تسمـع امرأ القيـس تقول: سبحـان الله! ما هذا المجـد وهـذا الإصلاح؟ وهو جاهلي.. سفـك دم.. وسرقات.. ونهـب.. وثارات.. واغتيالات.. ونحو ذلك.

فلما جاء الإسلام أخبرنا ﷺ كيف تكون الهمة العالية، كيف يكون الطريق إلى المجـد الباقـي عند الواحد الأحد، كما جاء في القـرآن: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ

﴿يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧] ويخبرنا سبحانه وتعالى بالمسارعة، ليست كمسارعة امرئ القيس إلى الخمر والضياع وسلب القبائل وسفك الدماء والسرقات، وإنما قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران:١٣٣]، كما قال ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعاً**»، «**اغتنم خمساً قبل خمس**» هذا منطق الوحي كتاباً وسنة، أن تبادر إلى معالي الأمور في الصف الأول في المسجد:

مَنْ لِي بمثلِ سيرِك المدلَّلِ تمشِي رُوَيداً وتجِي في الأوَّلِ

قراءة القرآن.. كثرة الذكر.. عمل الصالحات.. الصدقة.. الإصلاح بين الناس.. بر الوالدين.. الرحمة بعباد الله ﷻ.. إيصال النفع إليهم.. كف الأذى عنهم إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً.. هذه هي معالي الأمور التي بعث بها عليه الصلاة والسلام. فإن الله سبحانه وتعالى أمر بمعالي الأمور وكره سفسافها وحرم ذلك.

حتى المتنبي يلوم من ليس عندهم همم، وهو يقصد همم الدنيا، قال:

وفِي الناسِ مَنْ يرضَى بميسورِ عيشِه ومركوبه رجلاه والثوبُ جلدُه

وَلَكِنَّ قَلباً بَينَ جَنبَيَّ مالَهُ مَدىً يَنتَهي بِي فِي مُرادٍ أَحُدُّهُ

يقول: قلبي هذا ليس له مراد يحد أبداً، همته عالية ووسيعة وفسيحة وآفاقه مرتفعة.

أحاولُ أنْ أكسَى ثياباً تشفُّه فيختارُ أَنْ يكسَى دروعاً تهدُّه

له حكم في هذه القصيدة، حتى علم الناس البخل وهو يريد أن يعلمهم الحكمة، قال:

فلا مجدَ فِي الدُّنْيا لمَنْ قلّ مالهُ ولا مالَ فِي الدُّنْيا لمَنْ قلّ مجدُه

فلا ينحلِلْ فِي المجدِ مالُكَ كلُّه فينحلَّ مجداً كانَ بالمالِ عقدُه

ودبِرْه تدبيرَ الذِي المجدُ زندُه إذا قاتلَ الأعداءَ والمالُ مجدُه

وهو كان من أبخل الناس، جمعها ثم ذهب وتركها، جمع أكياساً وقناطير مقنطرة من الملوك ومدحهم، ثم ذهب مقتولاً في صحراء بين خراسان وبين بغداد، ولو كان أنفقها وبنى بها مساجد أو حفر بها آباراً لكان أفضل له.

فيقول عليه الصلاة والسلام: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس**» وأعود إلى همته ﷺ. ماتت أمه وهي راجعة إلى مكة، فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام يجلس عليه فيأخذه أعمامه؛ ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا بني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

فلما شرف الله ﷻ نبيه ﷺ بالرسالة وأتى في حنين بعد النبوة وقاتل هوازن ضاقت عليه الأرض بما رحبت هو، والصحابة، وجاء جيش هوازن نحو عشرة آلاف، وجاء الرمي من الجبال، ففر كثير من الصحابة، فرت بهم خيولهم، جاء رمي السهام عليهم مثل السحاب، فضاق المكان، ولكن النبي ﷺ لم يفر هو وقلة من الصحابة، أما البقية ففروا، قال: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

حتى إنه لما أراد العرب أن يباركوا لسيف بن ذي يزن، ملك العرب ملك أهل اليمن، سيف بن ذي يزن طرد الأحابيش، الذين احتلوا اليمن، فأتى فجمع القبائل العربية وصدم الأحابيش وأجلاهم من اليمن، فاجتمعت القبائل وقالوا: نريد أن نذهب ونبارك لسيف بن ذي يزن في قصر غمدان، وقصر غمدان قصر

مشهور في صنعاء، وكان الملك فيه، قالوا: نختار عشرة من سادات العرب وقبائل الجزيـرة كلها، فاختاروا سيدهم عبد المطلـب، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ، قالوا: نريـد سيـداً ليس في السادات مثلـه، قالوا: عبد المطلب، قالـوا: وشاعر لا يعدله فـي الشعراء، قالوا: أمية بن أبي الصلت في الطائـف من ثقيف، قالوا: وخطيب، قالوا: عمرو بن الأهتم، قالوا: وشريفهم الذي يصلح بين الناس، قالوا: حاجب بن زرارة، فذهبوا، فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذى ذكره أمية بن أبى الصلت في قوله:

فاشربْ هنيئًا عليك التاجُ مرتفعًا ... فِي رأسِ غمدانَ دارًا مِنْك مِحْلالا

واشربْ هنيئًا فقَدْ شالَتْ نعامتُهم ... وأشبلَ اليومَ فِي بردَيْك إِشْبالا

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ مِنْ لبنٍ ... شِيبَا بماءٍ فعَادَا بعدُ أَبْوالا

والملك متضمخ بالعبير يلصف وبيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران مرتدياً بأحدهما مؤتزراً بالآخر، سيفه بين يديه، وعن يمينه وعن شماله الملوك.

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنّا لك.

فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك، محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخـاً باذخاً، وأنبتـك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومتـه، وثبت أصله، وبسق فرعـه، في أكرم موطن وأطيب معدن، فأنت- أبيـت اللعن- ملك العرب، وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمـل مـن هم سلفه ولن يهلك مـن أنت خلفه، ونحن أيها الملـك، أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابن أختنا؟ قال: نعم.

قال: ادنُ.

فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً، وناقةً ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً.

قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب، إني مفضٍ إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبحْ به.

ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اختزناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، مثلك سر وبر، فما هو، فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر؟ قال: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

قـال عبـد المطلب: أبيت اللعـن، لقد أُبت بخيـر ما آب به وافـد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمـه، ويكفله جده وعمه، ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعـز بهم أولياءه ويذل بهم أعـداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبـد المطلب: أيها الملك- عز جدك، وعـلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهذا نجاري، فهل الملك سار لي بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح.

فقـال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجـب والعلامات على النصب إنك يا عبد المطلب، لجده غير كذب.

فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسسـت شيئـاً مما ذكرت لك؟ فقـال: أيها الملك، كان لي ابـن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قـال ابـن ذي يزن: إن الذي قلـت لك كما قلت، فاحتفـظ بابنك واحذر عليه اليهـود، فإنهم لـه أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكتـه، فإني أجـد في الكتاب الناطق والعلـم السابق أن بيثـرب استحكام أمره وأهـل نصرته وموضع قبره، ولـولا أني أقيه الآفات وأحذر عليـه العاهات لأعلنت

علـى حداثة سنه أمره ولاوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

قـال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وبمئة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً.

وأمـر لعبـد المطلب بعشرة أضعـاف ذلك وقال له: إذا حـال الحول فائتني، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول.

فـكان عبـد المطلب كثيراً ما يقول: يـا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيـل عطاء الملك وإن كثر؛ فإنه إلى نفـاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه.

فإذا قيل له: متى ذلك؟ قال: سيعلم، ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جلبْنَا الصنحَ نحقبُه المطَايا ... عـلَـى أكـوارِ أجـمـالٍ ونُـوقِ
مـقـلـفـةً مـراتـعُـهـا تـعـالَـى ... إلـى صـنـعـاءَ مِـنْ فـجٍّ عميقِ
تـؤمُّ بـنـا ابْـنَ ذِي يـزنٍ وتـفـري ... بـذاتِ بـطـونِـهـا ذمَّ الـطـريـقِ
وتـرعَـى مِـنْ مـخـايـلِـه بُـرُوقـاً ... مـواصـلـةَ الـوميـضِ إلَـى بـروقِ
فـلـمَّـا واصـلَـتْ صـنـعـاءَ حلَّـتْ ... بـدارِ الـمـلـكِ والـحسـبِ الـعـريـقِ

فهذا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام عبرة لكل معتبر بعُلوّ الهمة.



شمس الشعر

يقول أبو الطيب المتنبي:

وكيفَ يصحُّ فِي الأذهانِ شيءٌ

إذَا احتاجَ النهارُ إلَى دليلِ

معنى الأبيات: كيف تصح الحقائق في أذهان بعض الناس إذا أنكرت الأدلة إلى درجة أن تقول: هذا نهار، فيقال: ليس هذا بنهار، اضرب لي دليلاً، أو أعطني برهاناً على أنه نهار، فما دامت الحقائق المعلومة تنكر عند بعض الناس إذاً، فلن تصح حقيقة، تلغى الأدلة ولا يبقى هناك دليل للمحاجة، وعليك أن تقطع الجدل مع من هذا شيمته.

obeikandl.com

وعلى ذكر النهار فإن له أبياتاً في النهار، وفي الشمس على وجه الخصوص، حتى إن مساحة الشمس في شعره كثيرة، فهو يقول:

رأتْ وجهَ مَنْ أهوَى بليلِ العواذلِ فقُلنا: نرى شَمْساً وما طلعَ الشمسُ

يقـول: إن عواذلي رأين وجه محبوبي، فلما رأين هذا الوجه المنير قلن: نرى الشمس، لكن الفجر لم يطلع، فكيف نرى الشمس في الليل؟!

وله تجرؤ في ضرب الأمثلة إلى درجة أنه أحسن كثيراً، وانتُقِد كثيراً من بعض النقاد، حتى قال مرة:

نثَرتْ ثلاثَ ذوائبٍ مِنْ شعرِها فِي ليلةٍ فأرَتْ ليالِيَ أَرْبعَا

واستقبلَتْ بدرَ السماءِ بوَجْهِها فأرتنِيَ القمرينِ فِي وقتٍ معَا

وهـذا من تشبيهاته ومـن أبياته الجميلة، وهذان البيتان فـي ألف ليلة وليلة، يقـول: إنها قيلت فـي الجاهلية، مع أنها مـن المتنبي في عهـد الإسلام. حتى إن الشمـس لشهرتها وبهائها عبدت مـن دون الله ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧] وإن الهدهـد أنكـر على بلقيس وأهل سبـأ أنهم يعبدون الشمس من دون الله، قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤] فلجلاء الشمـس وظهورها عبدت من دون الله عند بعض القـوم، حتى يقول يوشـع بن نون في الحديـث الصحيح: «**إن الله حبـس الشمس ليوشـع بـن نون حتـى يقاتل**» وهذا فـي البخاري، وكان نبياً مـن أنبياء الله ﷻ، فكادت الشمس أن تغرب وهو يلاقي أعداء الله ﷻ، فنظر للشمس، ثم قال: «**إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم، احبسها علي. فحبسها الله سبحانه وتعالى حتى فتح الله عليه، ثم غابت**».

ولذلك بعض الطوائف يقولون: «إن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نام عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فلما قام وصلى قال: «**اللهم، رد علي الشمس، فردها الله فصلى ثم غابت**».

وهذا تدليس، والحديث لا يصح بحال، وقد اغترّ به مثل الطحاوي وغيره. حتى يقول ابن كثير: من اغتر بتصحيح الحديث فعلى مذهب الحريري الذي يقول عن بعض الأعراب: شرب خمراً فسكر فأخذ يهذي ويقول:

إنْ كنتُ أدري فعلَيّ بدنهْ ... مِنْ كثرةِ التَّخليطِ أنِّي مِنْ أنهْ

واغتر بعض الناس بمثل هذا، ومنهم أبو تمام. مع العلم أن أبيات أبي تمام من أجمل الأبيات، فهو وظف هذه المعلومات الخاطئة، لكن جماليات الأبيات تبقى، يقول:

فردَّتْ علَينا الشمسُ والليلُ راغمٌ ... بشمسٍ لهم فِي جانبِ الخِدْرِ تلمعُ

محاضوؤُها كسْفَ الدُّجمةِ وانبرَى ... لبهجتِها ضوءُ الصباحِ المرجعُ

فواللهِ ما أدرِي علىَّ بدَا لنَا ... فردَّتْ لنا أَمْ كانَ فِي القومِ يوشعُ

فصحيح أن يوشع ردت له، أما علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فلم ترد له.

فمضى الشعراء على هذا، يذكرون الشمس بالعظمة، حتى يقول أحدهم في المكتفي الخليفة العباسي، وقد كان آية من آيات الله في الجمال، وربما ستر وجهه؛ خوفاً من العين، حتى يقول أحد الشعراء فيه:

واللهِ لو كلَّمْتها لو أنَّها ... كالبدرِ أو كالشمسِ أو كالمكتفِي

حلفتْ لنا ألاّ تخونَ عهودَنا ... فكأنَّها حلفَتْ لنَا ألاَّ تفِي

فجعل الخليفة العباسي قريناً للشمس والقمر في حسنه، وهذا من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطى يوسف شطر الحسن، حتى قال المتنبي في ذلك:

جميلٌ كـأنَّ الحسـنَ كـانَ يحبُّه فآثـرَه أو زارَه فِي الحسنِ قاسمُ

وهذا فيه تعدّ وطغيان، ولكن جماليات القصيدة في جانبها الآخر.

والنابغة الذبياني يقول للنعمان:

فـإنَّـك شمسٌ والـنـجـومُ كواكـبٌ إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

قال ذلك في قصيدته الماتعة التي من أحسن أبياتها:

ولـسـتَ بمستبقٍ أخـاً لا تلمُّه علَى شعثٍ أيُّ الـرجـالِ المهذَّبُ

يقـول: إذا لم تقبلنا بعلاتنا وتجاوزت عن أخطائنـا البشرية فلن تلقى أحداً مهذبـاً، لا يوجد في الناس أحـد مهذب إلا الأنبياء عليهـم الصلاة والسلام، هل يوجـد في النـاس من هو سالم من العيب أو من الخطـأ والزلل؟ لا يوجد أحد، إلا الأنبياء المعصومون، فهذا بيت جميل، وقبله يقول:

حلفتُ فلمْ أتـركْ لنفسِك ريبةً وليسَ وراءِ اللهِ للمرءِ مذهبُ

وهذا أحسن ختام.

يقول: حلفت لك بالله، أتريد وراء الله مقصداً؟ هل تعلم أكبر أو أعظم من الله؟! هل تعلم له سـمياً؟! ولذلك كانوا يقسـمون بالله في الجاهلية، وكانوا يعظمونه، ولكنهم لم يفوا بهذا التعظيم، بل أشـركوا معه سـبحانه وتعالى في الألوهية، فبعث الله الأنبياء وسيدهم ﷺ لتقرير التوحيد.

وطرفـة بـن العبد كان يـوم قتل عمـره ستة وعشـرون عاماً، وهـي العبقرية المتمـردة الثائـرة التـي ولدت في حجرهـا وفي شبابهـا وفي ريعانهـا، يقول في قصيدته الدالية:

ووجـهٍ كـأنّ الشمسَ حلَّتْ رداءَه عليـهِ نـقـيٍّ الـلـونِ لـمْ يـتـخـدَّدِ

أرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ وينتقِي حليلةَ ما لِلْفاحشِ المتشدِّدِ

يقـول: هذا الموت لا يفرق.. يأخذ الكريـم، ويأتي للبخيل الذي يكنز الأموال ويأخذه على طريقه. ثم يقول:

ولَولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ عيشةِ الفَتَى وحقِّك لَمْ أحفِلْ متَى قامَ عُوّدِي

فمنهنَّ سبقُ العاذلاتِ بشربةٍ كميتٍ متَى ما تُعْلَ بالماءِ تزبُدِ

إلـى آخـر ما قـال.. وقد سمع عمر بـن عبد العزيـز بهـذا.. لأن هذا منطق الجاهليـة، يقول: لـولا ثلاث في الحياة كنت وددت أني أمـوت، لأن طرفة جاهلي: المرأة الحسناء والخمر وأن يلاقي العدو.

فملاقاة العدو يعني أن هناك سفكاً للدماء.

قـال عمر بن عبد العزيز في منطـق أهل الإيمان.. منطـق الربانية.. منطق العلم النافع والعمل الصالح.. الخليفة الزاهد المجدد.. قال: وأنا والله لولا ثلاث لـم أحفل متى قام عوّدي، فمنها: تمريغ وجهي فـي السحر داعياً لربي، ومجالسة أقـوام ينتقون أطايب الحديث كما ينتقـى أطايب التمر، ومزاحمة العلماء بالركب في حِلق الذكر.. أو كما قال.

فهذا هو منطق أهل الإيمان، وذاك منطق أهل الجاهلية.

وأحدهم يمدح قومه فيقول:

نحنُ وجهُ الشمسِ إسلامٌ وقوَّةْ نسـبٌ حـرٌّ ومـجـدٌ وفـتـوَّةْ

فإذا مدحوا أحداً جعلوه مثل وجه الشمس أو ارتفاع الشمس.

ونزار قباني يقول:

اركبِي الشمسَ يا دمشقُ، حصانًا حسبُك اللهُ حافِظاً وأمِينًا

في قصيدة له طويلة.

فهم يجعلون الشمس منتهى المجد الذي يصل إليه الإنسان، فأحياناً ينكر الإنسان الحقائق، ولو كانت مثل الشمس، حتى يقول البوصيري:

قَدْتنكرُالعينُضوءَالشمسِمنرمد وينكرُ الفمُّ طعمَ الماءِ مِنْ سقمِ

العيب ليس في الشمس إنما العيب في العين، فالعيب في المتلقي وليس في الدليل الذي أمامه أو في البرهان، تعرض له الآية.. الحديث.. الواقعة.. الحادثة.. تشرح المسألة.. فيقول لك: لم أفهم، هذا خطأ. والحقيقة أن الخطأ فيه، هو المعوج، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

ومَنْ يكُ ذَا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجدْ مُراً بهِ الماءَ الزُّلالا

فالمرارة التي فيه حوّلها للماء، ثم اتهم الماء أنه مر وهو ليس بمر، يقول أحدهم:

فقلْ للعيونِ الرُّمْدِ: للشمسِ أعينٌ تراها بحق في مغيب ومطلع

وسامِحْ عيوناً أطفأَ اللهُ نورَها بأهوائِها لا تستفيقُ ولا تَعِي

وبشار بن برد يمدح قومه، فيقول:

إذا مَا غضبْنا غَضْبةً مضريَّةً هتكْنا حجابَ الشمسِ أو تقطرُ الدَّمُ

يقول: تصل سيوفنا إلى الشمس، نغطي الشمس بسيوفنا.

حتى يقول زهير مادحاً أبناء هرم بن سنان:

لو كانَ يقعدُ فوقَ الشمسِ منْ كرمٍ قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا

محسَّدونَ علَى ما كانَ مِنْ نعمٍ لا ينزعُ اللهُ منْهم ما لَه حُسدُوا

وهـذا آخـر المدح، يقول: لو كان هنـاك أناس من البشـر بكرمهم ومجدهم يجلسـون على الشمس، لأنتم أولى يا أبناء هـرم بن سنان، أن تجلسوا على بساط الشمس، وإنما قال الشمس؛ لأنها أرفع ما يكون عند العرب وأبهى ما يكون وأجمل ما يكون.

فعلم في المسألة قول المتنبي:

وكيفَ يصحُ فِي الأذهـانِ شيءٌ إذَا احتـاجَ النـهـارُ إلـى دليـلِ

فـإذا وصـل الإنسان عنده من الحيـرة وتبلد الإحساس والغفلـة والغباء أنك تقرر له الحقائق المعلومة وتظهر له البراهين والأدلة فيتعامى ويتجاهل وينكر ما هو معلوم من الدين والعقل بالضرورة، فاذكر كفارة المجلس وأنهِ الكلام معه.

وكعـب بن الأشرف لما أنكر نبوة رسول الله ﷺ، سأله أهل مكة: نحن أهدى أم محمـد؟ قـال: لا، أنتـم أهدى. فانتهى الحـوار معه في القرآن، قـال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٥٢] فهو ملعون؛ لأنـه ينكر الحقائق والبراهين. أهـل الوثـن وأهل الصنم والخرافـة والقتل والسفك والسرقـة والسلب أهدى من صاحـب المحجة البيضاء والدليل والبرهان والهداية الربانية؟! سبحان الله! أين عقله؟! كيف يكون الحوار بعد هذا؟!

هذه هي نهاية الغباء والحمق والعياذ بالله، ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] فألغى الأدلة كلها معهم وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٥٢] فإذا لعن الإنسان، فلا يقبل الحق ولا يستمع لدليل ولا يمكن أن يقرأ البرهان، فينتهي الموضوع معه.

فقصدي بهذا أن المتنبي أحسن بهذا، فالحقيقة أن البيت صار مثلاً رائداً وصار شائعاً، ومن ثم اكتسب المتنبي هذا الشيوع والذيوع؛ لذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد بقوله عندما يعارضه خصومه، فيقول:

وكيفَ يصحُّ فِي الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النَّهارُ إلَى دليلِ

وفي حوار مع الغزالي أتى بمثل هذا، وابن الجوزي وغيره من العلماء، كل يختم مجلسه بقول المتنبي ذاك.

الحوار والمناقشة العلمية تجلية لمسائل غامضة فيها لبس، أما أن تأتي وتقرر للناس مسائل معلومة بالضرورة، فتقول لهم: السماء من فوق والأرض من تحت.. فيقول لك: أعطني دليلاً! فقل له: اعذرني.. لا أستطيع أن أواصل معك الحوار.

هذه بعض الاستطرادات عن الشمس التي نتفيأ بشعاعها وتغمرنا بنورها وبهائها، والإنسان يقرأ عظمة الباري في هذه الشمس التي هي مثل الأرض أربعين مرة وقيل أكثر من ذلك بكثير، وهذه الدراسة قبل ثلاثين سنة عند علماء الفلك.

فسبحان الذي خلق الشمس، قال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

وعلى ذكر الشمس، استطراداً:

فللشمس أحكام في الشريعة الإسلامية:

ففيما يروى عن النبي ﷺ، وهو حديث يقبل التحسين: «**أن النبي ﷺ رأى رجلاً اسمه أبو إسرائيل جالساً في الشمس، قال: من هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد وألا يتكلم وأن يجلس في الشمس، قال: مروه فليستظل وليتكلم وليتم صومه**».

فالنبـي ﷺ أقـره على مواصلة الصوم ومنعه من أمريـن حادثين ليس لهما أساس، وهما: السكوت دائماً، والبقاء في الشمس.

وكسفـت الشمس في عهد النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، ولو كان غيـره ﷺ مـن أهل الدنيا وأهـل الجاه وأهل التطاول والعلـو في الأرض لكان اهتبلهـا فرصـة ووظـف الحدث؛ لأن بعض العامة قالـوا: كسفـت الشمس لموت إبراهيـم، يعني اهتز الفلـك وتغير الكون، حتى كسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبـي ﷺ لمكانتـه ولما له من فضل، فكسفت مـن أجله الشمس، لكنه ﷺ جمع الناس، وقال: «**إن الشمس والقمر لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما من يشاء**».

فانظـر إلى التجـرد والتواضـع والصدق والإخلاص والصراحـة منه عليه الصلاة والسلام.

ونهـى ﷺ عن الصلاة عنـد طلوع الشمس وعند غروبهـا، تلك اللحظة؛ لأن الكفار كانوا يسجدون لها، فنهانا عليه الصلاة والسلام أن نشابههم.

وفـي حديث مسلم عن عقبة بن عامر: «إذا أصبحت الشمس في كبد السماء قبـل الـزوال فإنه قـام قائم الظهيرة» فعند ذلـك لا تصلّ حتى تـزول قليلاً. هذه أحكام مختصرة من أحكام الشمس.

وأبو تمام رأى أن الشمس أحياناً تحجب بالغيم، فقد أتى إلى المعتصم فتأخر والحاجب لم يدخله؛ لأنه كان هناك حجاب وحراسة في تلك العصور، فقال:

ليسَ الحجابُ بمقصٍ عنكَ لِي أملاً إنَّ السماءَ ترجَى حينَ تحتجِبُ

يقول: ما نترجى السماء إلا إذا احتجبت بالغيوم فيأتي الغيث، فأنت ما دمت احتجبت علينا فسيأتينا خير منك مثلما أن الشمس تحتجب بالسحاب، فهذا دليل على أن الغيث والمطر سوف ينزل. وهذا طبعاً من مبالغة الشعراء.

وهـذا مـن أجمل أبياته، وهي مشهـورة وهي سبعون بيتاً، قـال ابن القيم في مفتـاح دار السعـادة: أعطـاه المعتصم على كل بيـت ألف دينار. يعنـي كأنها في زماننا الآن: مليون.

فيقول فيها:

السيفُ أصـدقُ أنبـاءً مِـنَ الكتبِ فِي حدِّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ

وعبد الله البردوني شاعر اليمن المعاصر عارضه بقصيدة، لكنه رفع القافية الباء، يقول:

مهلاً- فُديتَ- أبا تمَّام تسألنِي كيفَ احتفَتْ بالعِدا حِيفا أَوِ النقبُ

ماذا فعلنْ أأغضبْنا الرجالَ ولم نصدقْوقَدْصدقَالتنجيمُوالخطبُ

وأطفـأتْ شهبَ النيـرانِ أنجمُنا وشمسُنا وتحدَّت نارَها الخطبُ

وقاتلَتْ دونَنا الأبـوابُ صامدةً أما الرجالُ فماتُوا ثم أو هربُوا

إلى أن يقول:

مهلاً ستصغِي لنا الدُّنْيا بأكملِها إنَّ السماءَ تُرجَى حينَ تحتجبُ

فأتى بهذا التوظيف لأبي تمام.

الشاهـد: إن الناس يستبشرون إذا احتجبت الشمس واستترت بالغيم، قالوا: هذا بشير خير وبشرى، إن شاء الله سينزل الغيث.

والمتنبي استخـدم الشمس كثيراً في ديوانه، أكثر من ثلاثين مرة، يقول عن سيف الدولة:

الشمسُ مِنْ حسادِه والنصرُ مِنْ قـرنائِـه والسـيفُ مِـنْ أسـمائِـه

يقـول: إن الشمـس تحسد سيف الدولة! وانظر إلى المبالغـة التي ليس لها حد ولا أساس، والنصر من أصدقائه وجلسائه، والسيف من أسمائه؛ لأن اسمه سيف الدولة.

أيـنَ الثلاثةُ مِـنْ ثـلاثِ فخارِه مِــنْ عــزِّه وجـمـالِـه وبـهـائِـه

يقول: هو أكثر من الشمس بهاءً، ومن النصر بقاءً، ومن النصر مضاءً، وهذه من المبالغات.

الشمسُ مِنْ حسادِه والنصرُ مِنْ قـرنـائِـه والـسـيـفُ مِـنْ أسـمـائِـه
أيـنَ الثلاثةُ مِـنْ ثـلاثِ فخارِه مِــنْ حسـنِـه وإبـائِـه ومـضـائِـه
مضتِ الـدهـورُ ومـا أتـيـنَ بمثلِه ولـقَـدْ أتَـى وعـجـزْنَ عَـنْ نظرائِه

أما هذه فلا تكون إلا في الرسول ﷺ، أما سيف الدولة فلا، أتى مثله وسبقه ملـوك وأتى بعده ملوك ومثله حكام ألوف، وقبلـه وبعده، أما سيد الخلق ﷺ فإنه النبي الخاتم والمعصوم، وأشرف خلق الله، وأبر من خلق الله، وهو أطهر وأحلم، عصـم الله قلبـه، وزكـى فؤاده، وسـدد كلامه، وصحـح منهجه، وطهـر ضميره، وحفظـه وتولاه وأنعـم عليه، وجعله هو الخاتم والشفيـع المشفع، صاحب الحوض المـورود واللـواء المعقود والمقام المحمـود، فماذا نقول؟ نكتفـي أن نقول: صلى الله وسلم عليه، إن أحسن ما تفعله إذا أتيت عند هذا المقام أن تكثر من الصلاة والسـلام عليه ﷺ؛ ولذلك يقول ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابـن مريـم إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا: عبد الله ورسوله**» ولما مدحه بعض الوفـود قال: «**أيها الناس، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم**» فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

فالـذي أعظم مـن سيف الدولة هو محمد سيد الخلـق ﷺ، إذا ذكر محمد ﷺ فلينصـت الدهر وليتوقف التاريخ ليكتب وليتواضـع الزعماء وليخشع العلماء وليسكت الأدباء وليخرس المتكلم؛ حتى ننتهي عن وصفه عليه الصلاة والسلام، فهو ﷺ ليس بحاجـة لوصفنا، فهو عبد الله ورسوله، رفعه سبحانه وتعالـى، والله أثنى عليه قبل أن

يثنـي عليه المثنون، حتى يقـول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] بالله ماذا يجدي مـدح شاعـر الآن أو كاتـب في رسـول الله ﷺ، والواحـد الأحد فوق العرش سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] عظيم خلقك، عظيم صبرك، عظيم تواضعك، عظيم كرمك، الله يزكيه ويقول له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ويقول له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، يقول: سوف يبعثك يوم القيامة مقاماً محموداً وهو موقف الشفاعـة التـي يغبطه الأولـون والآخرون عليهـا- بأبي هو وأمي ﷺ- حتـى تأتي كل الأنبياء يعتذرون من الشفاعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كلٌّ يقول: نفسـي نفسـي، فيأتي الخلائق كلهم: أمة نوح وأمة إبراهيـم، وأمة موسى، أمة كل نبي وأمـة عيسـى عليهم السلام، فيقولون: «يـا رسول الله، اشفع لنـا، اشفع لنا عند ربك يقضـي بيننـا هذا اليوم، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما أصابنا؟ قال: أنا لها أنا لها، فيأتـي ﷺ ويسجد تحت العرش ويفتح الله عليه مـن الثناء والمحامد، فيقول له ربه: ارفع رأسك، وسل تُعطَ، واشفع تشفع».

هـو نبي معصوم عليه الصلاة والسلام، وضح به المحجة وقام الدليل ودخل دينـه فـي كل مكان وسمعت منه العجـوز، مثلما سمع منه الملـك، مثلما سمع منه الأمير، مثلما سمع منه العالم، كما قال أبو الطيب:

خذْ ما رأيتَ ودعْ شيئاً سمعتَ به ... في طلعةِ البدرِ ما يغنيكَ عَنْ زُحَلِ

جاءتـك الشـريعة الإسـلامية المحمدية الخالدة، وتبحـث عن آراء سـقراط وبقراط وجالينيوس الذين مـا اهتدوا أصلاً، ضلال في ضلال، هم في التخمين والشك وأتانا نور ساطع على يدي رسول الله ﷺ.

فالمتنبـي شاعر بـلا شك لكننا لاحظنـا عليه كغيرنا ملاحظـات؛ لأنه بشر يتكلـم ببشريته وليـس بنبي معصوم، ولو أنـا نعترف بقدرتـه وبعبقريته وبلموعه

ولذلك سميناه الأسطورة، فأنت تجريه كما أردت؛ لأنك تأخذ منه الحكمة والمديح والهجاء، ولكنني أوصي من يطالع ديوان هذا الرجل أن يحاكمه إلى الشريعة، وأن يأخذ منه ما وافق الكتاب والسنة، وأيضاً يستفيد من إبداعاته وفصاحاته في أسلوبه في كتابته، وقصدي هذا القارئ إذا كتب إذا خطب، إذا وعظ، إذا حاور، فإن له فرائد من الأبيات سارت بها الركبان وشهد له العلماء وأقر له النقاد، حتى كان عند الكثير منهم الشاعر الأول في مجموع الشعراء، لا أعلم شاعراً في الإسلام ولا في الجاهلية سار شعره في الناس وسارت حكمه على المنابر وفي بطون الدفاتر وحمله أصحاب المحابر مثل هذا الرجل.

وتعجبني كلمة لابن حزم الظاهري أبي محمد علي بن أحمد من أهل الأندلس، المجدد في علم الحديث والأثر، وهو عبقري بلا شك لولا بعض الأخطاء التي لا يسلم منها البشر، وهو صاحب المحلى، وهو أديب موسوعي نظار.. محدث.. يقول:

وإنِّي لشمسٌ فِي السماءِ مضيئةٌ ولكنَّ عيبِي أنّ مطلعِيَ الغربُ

فهو من الأندلس نشأ هناك، يقول: أنا لست من المشرق، وإنما جئت خلاف ما تأتي عليه الشمس، فالشمس تأتي من المشرق، وأنا جئت من المغرب.

والعظماء والعباقرة دائماً يجدون أحياناً قهراً اجتماعياً وعدم اعتراف من الآخرين، فيجعل الواحد منهم يعبر عن نفسه بنفسه، وبعضهم ينتظر أحداً يمدحه، فإذا لم يجد أحداً يمدحه استعان بالله سبحانه ومدح نفسه.

ويقول أحدهم في ممدوحه:

إِذَا حلَّ الشتاءُ فأنتَ شمسٌ وإِنْ حلَّ المصيفُ فأنتَ ظِلُّ

ولا يُدْرَى مِنَ التجويدِ يوماً أيكثرُ فِي عطائِك أَمْ يقِلُّ

يقول: أنت لا تدري عن عطائك، هل تهب كثيراً أو لا من كثرة السماحة وكثرة العطاء، فأنت عندنا مثل الشمس في الشتاء. فالشمس في الشتاء من أحسن ما يكون.

وقد قرأت لأحد السجناء الذين سجنوا ما يقارب خمسة عشر عاماً، وهو من المفكرين المعاصرين الكبار، يقول: كنا في الحبس لا نرى الشمس، فكان في الباب ثقب في جهة المشرق، فينسل منه كالدرهم علينا، فكنا نتناوب نحن السجناء سريعاً قبل أن ترتفع الشمس فيختفي هذا الضوء من ثقب الباب، حتى نجعله على أجسامنا، علنا ندفأ! لا يجدون الشمس إلا في هذه المدة، الدقائق البسيطة، تنعش أجسامهم، ثم يقول: وأنتم أيها الأحياء، الذين خارج السجن، أنتم تسبحون في نهر الشمس وفي ضوء الشمس وفي شعاع الشمس وذهب الشمس.. ألا تشكرون رب الشمس سبحانه وتعالى، سبحان الذي أعطانا الضياء والهواء والماء والغذاء والدواء وسخر لنا جميع الأشياء، وأعطانا من كل ما سألناه تعالى رب الأرض والسماء. وهذا من نعم الشمس التي نراها!

وحدثنا مفتي ألبانيا يقول: سجنه الشيوعيون في يوغسلافيا، وكان الرئيس هذا اسمه تيتو، سجنه عشرين سنة تحت الأرض، يقول: لم أرَ الشمس عشرين سنة، مع الأعمال الشاقة، حتى إن أظفاره كانت محدبة من كثرة ما كان يعمل في الأعمال الشاقة، قال: كنت إذا أردت أن أصلي فإني أختفي عن الجنود الشيوعيين، وأدخل في طرف غرفة، قريباً من دورة المياه، فأصلي الصلاة سريعاً؛ لأنه كان صاحب عقيدة وصاحب إيمان، ثم أخرجه سبحانه وتعالى.

فانظر لهذه المشاهد التي نراها الآن ولا نتفكر، وسبحان الله فكثير من الناس لا يتفكر، وإلا فإن الشمس آية عظيمة على قدرة الباري جل في علاه لا إله إلا هو، يقول سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس:٤٠] ففي حسبان الواحد الأحد أنه لا يمكن يوماً من الأيام أن تصطدم الشمس بالقمر، لا يمكن هذا، كما قال القائل:

فَلا تلهِكَ الدُّنْيا بلهوٍ فإنَّه ... يعاقُ مسيرُ الشمسِ بالدَّورانِ

يقـول: أحياناً يأتـي نجم كبير فيعوق الشمس فيأتـي الكسوف، عند بعضهم، وبعضهم يقول: إن الأرض تحل بين الشمس والقمر، فقلت في هذا أبياتاً:

لا تـلـهِـكَ الـدُّنْـيـا بـلـهـوٍ فـإنَّـه ... يـعـاقُ مـسـيـرُ الـشـمـسِ بـالـدورانِ

فقَدْ هَدَّ قِدماً عرشَ بلقيسَ هدهدٌ ... وخـــرَّبَ فـــأرٌ مـا بـنَـى الـيـمـنـانِ

لأن صاحـب اليمـن لما بنى سـد مأرب خربه الفـأر، والهدهـد دل على مملكة بلقيـس، وهذا من تفاهة الدنيـا، والبعوضة قتلت النمرود بن كنعان، والذباب تحدى الله به العالم، والحمار جعله الله وصفاً لأعدائه، والكلب جعله وصفاً للعالم السوء.

فهـذا يبين لك ببساطة كيف يهدم الله سبحانه مجد الظلمة والطغاة بأشياء بسيطـة مـن الحيوانات والزواحـف والحشرات، حتـى تحداهم سبحانـه وتعالى بالذباب، وجعل العنكبوت مثلاً لقوتهم وقدرتهم، فسبحان القادر، لا إله إلا هو!

يقـول: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

فـكل بحسبـان، وكل بأجل مسمـى، وكل بمنـازل معلومة محسوبـة محدودة معـدودة، حتى إن أينشتاين المشهور صاحب النظرية النسبية يقول: إن من ينظر إلـى الكـون فينظر إلى إبداعـه وينظر إلى تناسقه وجماله يعلـم أن مبدعه حكيم سبحانه لا يلعب بالنرد.

والنرد هي اللعبة المعروفة، تتفق أو لا تتفق، لا! كل شيء بحسبان، ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨] فالعزيز العليم بعزته سبحانـه حكم، ولعلمه قضى بإتقان وإحسان وإبداع في الكون، فعزة بلا علم فيها هـوج وطيش في غير صفات الله، وعلم بلا عـزة ضعف، ولا تكون العزة والعلم إلا لله سبحانه وتعالى.

يذكـرون أن الشمس اشتد ضياؤها مرة في عهد النبي ﷺ واشتدت الحرارة على الناس وأصابهم قحط بسبب شدة الشمس، فلا سحاب ولا غيم في السماء، ولا موسم لنزول الغيث؛ لأنه في شدة القيظ والصيف، فرسول الله ﷺ كان يخطب الناس في خطبة الجمعة، فدخل أعرابي من باب المسـجد، فصاح بأعلى صوته.. والرسـول ﷺ يتكلم عن الإيمان ويرسخ العقيدة فـي قلوب الناس، لم يتكلـم عن الغيث عليه الصلاة والسلام أو القحط، فنادى بأعلى صوته: «يا رسول الله، - وقيـل لجفائه قال: يـا محمد،- جاع العيال، وضاع المال، وتقطعت السبل، فـادعُ الله أن يغيثنا، فقضى ﷺ كلامه، ثم قال: اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا اللهم، أغثنـا» بيديه الطيبتين المباركتين، فما هي إلا لحظات حتى فار كالترس من جبل سلع المعروف، فغطى المدينة وغشاها وأبرقت وأرعدت وأزبدت وهلت غيثاً، فنزل الماء في لحظة وصب الماء من على وجه النبي ﷺ الشريف، وكان يقول: «**أشهدُ أنِّي رسولُ اللهِ**».

فنشهـد أنـه ﷺ رسوله ونبيـه المصطفى وخليله، إنما قلـت هذا على سبيل ذكر الشمس.



المتنبي في الميزان

محاكمة المتنبي تعني النظر إلى معانيه، فسوف نضعه أمام العدالة، لكننا لن نظلمه ولن نبخسه حقه، فقد اعترفنا له كمعظم النقاد بأنه مبدع، اعترفنا بأنه عبقري، اعترفنا بأنه إمبراطور الشعراء، أنه قائدهم، أنه متفوق عليهم بلا شك، وجئنا بمحاسن شعره وبحكمه، ولكن وجب علينا أن نقف معه وقفة؛ لأنه تجاوز الحد في بعض الأبيات وطغى به فرسه وجمح به، وزل به قدمه، فخشية أن يغتر الجيل ببعض الأبيات في ديوانه أردت أن أعقد مناظرة ومحاكمة له

obeikandl.com

بإنصاف وبعدل فلا نظلمه؛ لأنه ليس عالم شريعة حتى يعرف الخطوط المرسومة والخطوط الحمراء، وليس هو طالب علم وإنما أراد الشهرة وأراد الدنيا وعنده ملكة في الشعر، وعنده قوة وعنده فصاحة وبلاغة، فتجاوز في كثير من الأبيات ولذلك نبه عليها الأدباء، حتى بعض النقاد الكبار من غير علماء الشريعة، نبهوا على تجاوزاته هذه، ومن ضمنها قوله في بعض الأبيات:

يترشفْنَ مِنْ فمِي رشفاتٍ هنّ فيهِ أحلَى منَ التوحيدِ

وهذا عند الكثير أنه يقصد التوحيد الذي هو الدين والشريعة، توحيد الله سبحانه وتعالى الذي بعث الله به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقال بعضهم: إنه لا يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، بل يقصد نوعاً من التمر في العراق اسمه التوحيد، وقيل العنب من أسمائه وهذا بعيد، وقيل المسكر، وبعضهم حمله على محامل أخرى، لكن الظاهر المتبادر للذهن أنه يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، سبحان الله! هذه الرشفات التي في فمه أحلى من التوحيد الذي بعث الله به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو حق الله على العبيد، ولذلك- حتى ولو كان يقصد تمراً مثلاً أو يقصد خمراً أو يقصد عنباً- لا يجوز الإيهام على الناس في مثل هذه الألفاظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤] فلما كان اللفظ موهماً، (راعنا) مثل انظرنا، أي: انتظرنا وراعنا أي: اصبر علينا، لكن اليهود لما استخدموه استخداماً آخر، فقالوا: راعناً، يعني: من الرعونة والحمق، أمر الله عباده المؤمنين ألا يأتوا بهذا اللفظ؛ لأنه ملتبس، فإذا كان اللفظ فيه شبهة، فلماذا تقف عنده؟ لماذا تحير الناس؟

القارئ البسيط والمبتدئ يفهم أنك تقصد التوحيد الذي هو أعظم الرسالات المنجية من غضب الله وهو الذي يدخل العبد في جنات النعيم، وهو دعوة الأنبياء عليهم الصلاة السلام، وهو الذي تقوم به الشرائع، وهو حقه سبحانه وتعالى على الخليقة، فهذا مما أخذ عليه، ونقول: إن كان يقصد هذا، فلماذا ما اختار اللفظ؟ المتنبي مقتدر على صنع الحرف وعلى إبدال الجمل فلماذا يقف عند هذه؟

ثم انظر إلى قصيدة أخرى يقول:

أبَـــداً أقـطـعُ الـبـلادَ ونجـمِـي ... فِـي نُـحُـوسٍ وهـمَّـتِـي فِـي سُـعُـودِ

يقول: أنا أمشي دائماً من بلدة إلى بلدة ومن موطن إلى موطن، لكن العجيب أن نجمـي في نحوس، فكأنـه يأخذ بتأثير النجوم، «**ومن تعلم شعبة من النجوم تعلم شعبة من الشرك زاد ما زاد**» كما ورد عن سيد الخلق ﷺ، فالذي يؤمن بأن النجوم مؤثرة فهو مخطئ ضال منحرف عن منهج الله ﷻ وهي شعبة من الشرك لمن يتعلمها ويرى تأثيرها في الناس، حتى إن أبا تمام- ولو أن المتنبي أشعر منه في الجملة- أقرب إلى الدين والهداية منه؛ فهو يقول:

أيـنَ الـروايـةُ أم أيـنَ الـدرايـةُ كَـمْ ... صاغُوه من زخرفٍ فيها ومِنْ كذبِ

بـــهـــارٌ وأحـــاديـــثٌ مـنـمـقـةٌ ... ليستْ بنبعٍ إذا عُـدّتْ ولا غربِ

يقول: المنجمون قالوا للمعتصم: لا تغزُ، فخالفتهم أنت وغزوت، قال: هذا كله تدليس وكله كذب، لكن انظر لهذا يقول: (**أبداً أقطعُ البلادَ ونجمِي فِي نحوسٍ**) يعنـي: مشؤوم منحوس، لا يتفق له شيء، فلا يوفق ولا ينجـح. قال: (**وهمَّتِي فِي سعـودِ**) فهـو سعد، يمدح همتـه يقول: أنا مـا قصرت من جانبـي، لكن حظي أن نجمي هكذا؛ لأن بعض الجهلة والضلال يرون النجوم تؤثر في الناس، ثم العجيب أنه متناقض في قصيدة ثانية يرد على أهل النجوم، ويقول:

فـتـبـاً لـديـنِ عـبـيـدِ الـنـجـومِ ... ومَـــنْ يـدَّعِـي أنَّـهـا تـعـقـلُ

يقول: كذبهم الله وخيب سعيهم، الآن يناقض نفسه في قصيدة ثانية. يقول: هي لا تعقل ولا تدري، كما يقول أبو تمام:

يقضونَ بالأمرِ عَنْها وهيَ غافلةٌ ... ما دارَ فِي فلكٍ مِنْها وفِي قطبِ

لـو بَـيَّـنـتْ قـطُّ أمـراً قـبـلَ موقعِه ... لم تُخفِ ما حلّ بالأصنامِ والنصبِ

يقـول: لـو أنها تبيـن لعلمت الـروم أن المعتصـم سوف يغزوهـم ويدوسهم بالخيل، فإنه يقول: يقضون عنها وهي غائبة. النجوم زينة للسماء ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوم للشياطين، ثلاث فوائد، أما من يعلق عليها غير ذلك فقد أخطأ وافترى على الله وكذب وأساء، فهنا رجع يقول:

(**فتباً لدينِ عبيدِ النجومِ**) الذين يظنون أنها تؤثر، يقول: خيب الله سعيهم، سحقـاً لهم، هي لا تؤثر أبـداً وهو في البيت الأول يقول: إنهـا تؤثر، (**ونجمِي فِي نحوسٍ**)، ثم يقول: ومـن ادعى أنها تعقل فقد ضل؛ فهذه مخلوقات من مخلوقات الله ﷻ، لا تؤثـر فـي الحمـل، لا تؤثـر فـي الحظـوظ، لا تؤثر فـي الأرزاق ولا في الإنجـاب ولا فـي شيء، هـي مخلوقة كالجبـال وكالشجر، يقول فـي بيت آخر من قصيدة أخرى- وانظر الطغيان والجموح، والإنسان إذا ما لم يكن عنده رابط من وعي ومن عقل ومن إيمان ومن شريعة، فإنه يتجاوز الحد- يقول:

فاطلبِ العزَّ فِي لظَى وذرِ الذُّلْ لَ ولَـو كـانَ فِـي جِنَـانِ الخُلـودِ

يقول: اطلب العـز في الدنيا ولو كان في جهنم، همه فقط الرئاسة الدنيوية، الشهرة، الظهور، الصدارة في الناس، لا والله بل يُطلب رضا الله وطاعته سبحانه وتعالى ولو كان الإنسان خادماً، ولو كان ينام على الرصيف، ولو كان يحمل الحطب علـى ظهره، أهم شيء أن يرضي الله؛ لينال جنات النعيم. فما يوصلك إلى الجنة إلا كل عمـل طيب، وليس الذل هـذا؛ لأن العمل الصالح الـذي يوصلك إلى الجنة كلـه خير ورفعة، ومهمـا يقم به الإنسان؛ بأي خدمة شريفـة فإنه في عز، لكن هو انعكست عنـده الأمور، يريد الشهرة الظاهرية وشرف الدنيا، وجاه الدنيا، فنسي تلـك المنازل، فلذلـك عاد يتجاوز ويجمح بـه جواده حتى لامـه السقاف صاحب العود الهندي في شـرح مجالس الكندي، الكندي: يقصد أبا الطيب المتنبي؛ لأنه من كندة هو، اسمه: أحمد بن حسين الكندي، فشرح له بكتاب العود الهندي الذي هـو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، وهذا عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

مـن حضرموت توفـي قبل خمسين سنـة، كتابه في ثلاث مجلـدات، فلامه وبكّت المتنبـي في هـذا، يقول: كيف تطلب العز في جهنم، بـل العز يكون في طاعة الله الموصلة إلى رضوانه وجناته، فهذا أخطأ فيه، ونرده ونقول للجيل: انتبهوا لأبيات عند المتنبي ما يقارب مئة بيت قفوا عندها ولا تغتروا بها، يكفي أنه أبدع في مئات الأبيات، لكن هذه نحذر عندها.

يقول في القصيدة نفسها:

أنَـا فِـي أمـةٍ تـداركَـهـا اللـ ـهُ غـريـبٌ كصـالـحٍ فِـي ثـمـودِ

يقول: إن الأمة تداركها الله بالمتنبي.

وهـذا خطأ، فإن الـذي أنقذنا الله به هو محمد عليه الصـلاة والسلام، وهو النبـي المعصوم المؤيد بجبريـل عليه الصلاة والسلام، أمـا المتنبي فشاعر من الشعراء ويجهل كثيراً من قضايا الدين، بل لو تسأله عن سجود السهو، هل هو قبل السـلام أم بعده، ربما لا يعرف ذلك، ومـا يحفظ كثيراً من القرآن، الرجل مهموم بالشهـرة وعنده إبداع في القافية وعنده تلاعب بالألفاظ وعنده قوة في الفصاحة والبلاغـة، لا ننكر ذلـك فهو سيد الشعـراء، أما في الشرع فلا، ثـم ما هو مردود المتنبـي علـى الأمة؟ فلو لم يكن المتنبي موجوداً، فمـاذا سيضير الأمة؟، حتى إن ابـن تيمية يقـول: لو ما خلق الله البخاري ومسلم لم ينقصـ من الدين شيء، دين الله تـام، وديـن الله كامل، بل نـزل على الرسول ﷺ فـي عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣] قبل الأئمة الأربعة وقبل أن يأتي البخاري ومسلم، فضلاً عن المتنبي الذي هو شاعر لم يشتغل بعلوم الشريعة، ولـم يحفظ القرآن، ولم يقرأ الحديث، فكيف يكون غريباً كصالح فـي ثمود؟ يقصد النبـي صالحاً عليه السلام في قومه ثمـود، وهذا غاية البطلان والخسران والخذلان، فقد رفع الله قدر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وأتى يمدح رجلاً آخر، وانظر الآن إلى الطغيان والجموح، يريد الجائزة، يخلع قلب الممدوح هذا؛ لكي يعطيه أي شيء من الذهب، اسم الممدوح محمد قال:

لَمْ يخلقِ الرحمنُ مثلَ محمدٍ أبداً وظنِّي أنَّه لا يخلقُ

أي: وظني أنه لن يخلق مرة ثانية.

تعالى الله سبحانه وتعالى. أولاً: قد خلق الله من هو خير من هذا الرجل وهو سيد الخلق ﷺ محمد، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدون، والصديقون، والشهداء والأولياء والعباد الزهاد، أما قد خاب ظنك وأخطأ حدسك، بل الله سبحانه وتعالى له الحكمة المطلقة، وله المشيئة وهو على كل شيء قدير، وأنت لا تعرف الناس، وأنت أجهل من أن تتحكم في القدرة، وتقوم آلاف السنوات التي مرت ومليارات البشر الذين فيهم البر والراشد وفيهم الصالح والطالح، فالواجب أن يؤدب على مثل هذا المدح.

ويمدح رجلاً آخر، فقال:

ألا كلُّ سمحٍ غيرَك اليومَ باطلٌ وكلُّ مديحٍ فِي سواكَ مضيَّعُ

بل مدح الله ﷻ ليس مضيعاً وهو الأعظم، وعند مسلم في الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله» ولذلك مدح نفسه سبحانه وتعالى، وعند الإمام أحمد عن الأسود بن سريع في المسند: «أما إن ربك يحب المدح».

والذي يستحق المدح أيضاً بعد الله ﷻ أنبياء الله ورسله والأخيار، لكنه الجموح وطغيان اللفظ وعدم مراقبة الله ﷻ فيما يقول.

ويقول في بيتين له ثانيين:

يَـا مَـنْ ألُـوذُ بـه فيمَا أؤمِّـلُـه ... ومَـنْ أعـوذُ بِـه مِـمَّـا أحـاذِرُه

لا يكسرُ الناسُ عظماً أنتَ كاسرُه ... ولا يهيضونَ عظماً أنتَ جابِرُه

وهـذا هو غايـة الخذلان، يقول لبشر: إنـي ألوذ بك فيما أؤملـه، ولا يلاذ إلا بـالله، ولا يُسـأل إلا الله، ولا يعاد فـي الملمات إلا للواحد الأحـد؛ لقوله ﷺ عند الترمـذي وأحمـد: «**إذا سألـت فاسـأل الله، وإذا استعنت فاستعن بـالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعـوا علـى أن يضروك لم يضروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقـلام وجفت الصحـف**». فهذا مما تجاوز فيه، يقول ابن تيمية لما سمع البيتين هذيـن: إنـي أدعـو بمضمونهما في سجـودي لله رب العالمين، يعنـي: بمعناهما، فكيـف هذه التي لا تصلح إلا للواحد الأحد؟ كيف يأتي هذا البشر فيصرفها لبشر مثله لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهـو يمـدح ممدوحاً آخـر ويتجاوز أيضـاً ويستمر في الطغيـان اللفظي وفي الجنوح المعنوي يقول:

يـا مَـنْ نلـوذُ مـنَ الـزمـانِ بظلِّه ... أبَـداً ونـطْـردُ بـاسْـمِـه إبْـلِيسـا

يقـول: إذا داهمنـا الخطـر، ووقعـت بنـا ملمات مـن الدهر- علـى مذهب الدهريين- لذنا بك، يقصد ممدوحاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، مخلوق ضعيف بشـر، لكن انظر إلى المجاملـة الزائدة والإفراط في المـدح إلى درجة المحرم، تجـاوز الحد في الشرع؛ فلا يلاذ إلا بظـل الواحد الأحد، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، ولا يكشف البلوى إلا هو جل في علاه.

ولا يطـرد إبليس إلا باسـم الله، وأعوذ بـالله، وبالأذكار الشرعيـة، والآيات القرآنيـة، والأحاديـث النبوية، أما اسم البشر فلا يطرد بـه إبليس. وهؤلاء أصلاً

قاصـرون، هـؤلاء بشر يهجم عليهـم الشيطـان ويأتيهم الغضـب والضعف ونحو ذلك، فالعجيب أنه بالغ لقلة الورع عند الرجل وقلة الإيمان والتقوى وعدم مراقبة الواحـد الأحد، وهو غريب من هـذا الأسطورة في بيانه وإبداعه وحكمه وعبقريته وفصاحتـه ونبوغه، والهدف التنبيه على الأشياء التـي وجدت فيه، كبشر كشاعر كإنسان يخطئ، فمنها هذا البيت.

ويقول في القصيدة نفسها في آخرها:

أو كانَ صادفَ رأسَ عازرٍ سيفُه فِـي يـومِ معـركةٍ لأعْـيـا عيسَى

يقـول: إن من شجاعتك لو أنـك أيها الشجاع، قتلـت عزرائيل الذي هو ملك المـوت بسيفك، وجاء عيسى عليه السلام الذي يحيي بـه سبحانه وتعالى الموتى بإذنه لما استطاع أن يرد رأس هذا ويحييه لقوة ضربة السيف.

أعـوذ بالله، أعوذ بـالله من المبالغة، ولا أدري كيف يرضـى هذا الممدوح بهذا الكلام الذي لا يوافق عقلاً ولا نقلاً، بل يخالف شرائع الله سبحانه وتعالى، إنسان بشر بسيفـه يقتل ملك الموت، ملك الموت الذي يدخل علـى الملوك ويدخل على الأقوياء، ويدخل على الجيوش، ويدخل على الدول، وهذا يا هو الهجاء، إذ كيف يصدق الممدوح هذا، ويسكت على العبارة. والله أعلم إن كان قالها أو دسّت في أشعاره.

ويقول في قصيدة أخرى يرثي:

وكأنَّما عيسى ابـنُ مـريـمَ ذكـرُه وكـأنَّ عـازرَ شـخصُـه المـقبـورُ

أنبيـاء الله أجـلّ وأعظم، وملائكتـه سبحانه وتعالى كذلـك، فانظر إليه في المبالغة، يقول: إنك مثل عيسى ابن مريم، وذكرك مثل ذكر عيسى، أعوذ بالله، بل أنبياء الله أعظم وأرفع، الله شرفهم وعصمهم سبحانه وأيدهم بالنبوة، ونزههم من العيوب ومـن الأخطاء وطهَّر قلوبهم وزكَّى ضمائرهم سبحانه وتعالى ووفقهم

وألهمهم وسددهم وأرشدهم، فتأتي إلى بشر مقبور مرتهن بعمله، ضعيف عن المدافعة عن نفسه، مقيد بحسناته وسيئاته وتصفه بهم؟ وعازر: يقصد عزرائيل، يقول: كأن ملك الموت مات في هذا القبر، وهذا كله جموح، حتى الجماليات لا توجد في القصيدة، خلاف قصائده التي كان فيها اعتدال وكان فيها نبوغ وكان فيها حكمة، التي سارت في الناس، ولذلك تجد هذه الأبيات في ديوانه ميتة ما سارت في الناس، وما جعل الله لها الانتشار مثل أبياته القوية التي يقول فيها:

مَنْ يهُنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ ... ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُه ... فربَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعللِ

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ ... وتأتِي علَى قدرِ الكِرامِ المكارمُ

ومِنْ نكدِ الدنيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عدُواً لهُ ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

أعزُّ مكانٍ فِي الدُّنَا سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كِتابُ

لا خيلَ عندَك تهدِيها ولا مالُ ... فليسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ

وإذَا أتتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لِي بأنِّي كاملُ

إذَا ساءَ فعلُ المَرْءِ ساءتْ ظنونُه ... وصدّقَ ما يعتادُه من توهُّمِ

ونحو هذا اللموع، لكنه أساء بهذه الأبيات التي ما نقلت ولا حفظت وليته ما قالها، ونعوذ بالله من هذا الخذلان الذي وقع فيه في هذه الأبيات، يقول:

ملكٌ تصوَّرَ كيفَ شاءَ كأنَّما ... يجرِي بفصلِ قضائِه المقدورُ

يقول: إن هذا الملك قد تصور كما شاء، يعني: هو صور نفسه في بطن أمه، جنين يصور نفسه، إنسان لا يدري متى يموت ولا يدري عن رزقه ولا أجله أشقي هو أم سعيد؟!

يقـول: كأن المقاديـر تجري على قلـم هذا الملك، تعالـى الله عن ذلك علواً كبيـراً، والله علـى كل شيء قدير، بـل الذي قدر الله وحده سبحانـه، وسبق علمه المقاديـر والكتابة والتقدير، والقضـاء، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كل شيء في كتاب مسطر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، هذا قضاؤه سبحانه وتعالى، لكن هذا من تجاوزه وجموحه.

ويقول في قصيدة أخرى:

فما ترزقُ الأقدارُ مَنْ أنتَ حارمٌ ولا تحرمُ الأقدارُ مَنْ أنتَ رازِقُ

هـذا الكـذب، يقول: إنك إذا حرمت إنساناً ومنعته فـإن الله لا يرزقه، يعني: كأن الـرزق منك. إذاً من رزق الخليقة منذ خلق السمـوات والأرض؟ وهذا البشر جـاء من ضمن المليارات من البشر عمره خمسون أو ستون سنة مثل ذرات الرمل فـي العالم، وهم مليارات البشر، هذا الذي يرزق العالم. يقول: وإذا رزقت إنساناً فإنـه لا يُحرم أبداً، وهذا هـو الخطأ والتجاوز؛ فالذي يرزق الخليقة هو الله وحده سبحانـه، وهو يقول سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وفـي جامع العلوم والحكم: (يقول الله لموسـى: يا موسى، يقول بنو إسرائيل: إني فقيـر) سبحانـه، (وكل الخليقة منذ خلقت السموات والأرض أرزقهم ولم يفض ممـا في يميني...) أو كما ورد في الحديث، فدل على أن الرزق من عند الله ﷻ، لا إنسان يمنعه ولا يقدمه ولا يمكن أن يملك الإنسان حرمان الناس، فإن كتب الله لك رزقاً لتأخذنه على أنوف العالمين أجمعين، وإن حرمك من رزق فلن تناله أبداً وإن اجتمع الناس أجمعون، وإنما أتيت بهذا لأنبه على هذا الطغيان وهذا التجاوز غير المشروع.

ويقول: مادحاً قوماً:

ولَو يمّمْتَهم فِي الحشرِ تجْدُو لأعطُوك الـذِي صلُّوا وصامُوا

يقـول: من كرمهم فإنك لو أتيت يوم القيامـة وتقول: أعطونا حسنات، قالوا: خذ أجر صلاتنا وصيامنا، وهذا كذب، فإن الإنسان يتنكر حتى لأمه التي أرضعته وربتـه وحملته واحتضنته يقول: نفسي نفسي، والأب يقول لابنه الذي هو أعز شيء عنده: نفسي نفسي، يطلبه حسنة.

فهذا هو الكذب وهذا هو العدوان؛ لأن المتنبي لا ينطلق من ثقافة شرعية، ولا علم بالكتاب والسنة، فتجاوز الحد، فأنبه على ذلك؛ حتى لا يؤخذ كل نتاج المتنبي، وتنشـر في الخطب والمساجـد، وإلا فإن العلمـاء أكثر شعر يستشهـدون به شعر المتنبي حتى ابن تيمية، الغزالي صاحب الإحياء، ابن حزم الظاهري، الشوكاني، الصنعانـي، ابن الوزيـر، علماء الإسلام الكبار والصغـار كلهم يستشهدون بهذا، ابـن القيم، ابن الجوزي، كلٌّ يأخذ وينهل من هذا العبقري الشاعر العجيب، ولكن لا يقولَـنَّ إنسـان: أصبح كلام المتنبي مسلّماً، بعد هـذه السقطات الموحشة التي تجرح في المعتقد والتي لا يوافقها عقل.

ويقول في بيت آخر:

فلقَدْ دُهشِـتْ لِمَـا فعلتُه دونَـه ما يدهشُ الملِك الحفِيظُ الكاتِبُ

يقول: إني لما رأيت كرمك أصابتني الدهشة واعتراني الذهول، فلو كنت تفعل أقل من هذا الفعل في الكرم لدهش به الملك الحفيظ الكاتب الذي يكتب الحسنات والسيئـات. سبحـان الله! الملك موكل بالحسنات والسيئـات لا يدهش، أعطاه الله القـدرة فيحصي أعمال النـاس، ويكتب الحسنات والسيئـات ولا يصيبه خوف ولا وجل ولا حيـرة ولا ذهول ولا اندهاش، إنما يندهش مثل المتنبي وأمثاله من البشر الضعـاف المحاويج المهازيل، أما ملك يخلقه سبحانه للحسنات والسيئات، وملك يخلقه للقطر ليكيل القطر، وملك يخلقه للوحي مثل جبريل عليهم السلام أجمعين، فإن الله يعطيهم من القدرة ويعطيهم من الثبات، ومن القوة ما لا يعطيه لغيرهم.

يقـول سبحانه في جبريـل: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم:٦] شـدة، فتوافق، توافق الأوصـاف- حسـب بعض التفاسيـر- الجسدية، فلا تباين فـي الأعضاء، ونقل في الصحيح أن جبريل رآه ﷺ بصورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح، كل جناح سد ما بين المشرق إلى المغرب، فأغمي على رسولنا عليه الصلاة والسلام.

وهذا تجوّز غير مقبول ومرفوض ومردود على شاعرنا، ونعوذ بالله من ذلك.

ويقول في بيت آخر:

نفذَ القضاءُ بِمَا أردتَ كأنَّه لكَ كلَّما أزمعتَ شيئاً أزمعَا

يقـول: القضاء نفذ بما أردت أنت، فأنت إذا نويت شيئاً جاءك القضاء مثلما نويت، وهذا كذب وبهتان وخذلان، الإنسان أحياناً يريد أن يكسب شيئاً فلا يكسب، فيقول للممدوح: القضاء طوع أمرك وأبشر.

مـن هو؟ أهو نبـي مرسل يتكلم عن علـم الغيب؟ فهذا خطـأ وكذب وخذلان وتجاوز فننبه عليه.

ويمدح آخر، فيقول:

مَنْ يـزُرْه يـزرْ سليمانَ فِي الملْ ـكِ جلالاً ويوسُفاً فِي الجَمَالِ

يقول: زارك أيها الملك، في الملك فكأنك سليمان بن داود عليه السلام الذي ملك الدنيـا والذي يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥]، والذي أجرى الله له الريح، وسخر له الجن والإنس، والذي أعطاه سبحانه وتعالى من العطاء ومن الكنوز ما الله به عليم.

(**ويوسُفاً فِي الجَمَال**) يوسف الذي أعطاه الله شطر الحسن. فانظر إلى هذا التطـاول وهذه المبالغة، يقول: أنـت كأنك سليمان بن داود في قوتك وملكك، علماً

بأن أحداً لا يعرف هذا الممدوح، ويقول: (**يوسُفًا فِي الجَمَالِ**) وتجد أنك إذا رأيت هذا الممدوح لا تأكل التمر ثلاثة أيام، انظر فقط هكذا خذلان وتجاوز وطغيان.

وإنما المقصود ألا يغتر الناس بشعر هذا العبقري؛ إذ إنه لا يخلو من سقطات وفلتـات وجدت في ديوانـه وإن كان قالها فقد علمها الله، كمـا يعلم من دسّها في ديوانه إن كانت كذلك.



obeikandl.com

obeikandl.com

حكم وصور

عقـدت في كتـاب المقامات مقامـة للمتنبي تستطيـع أن تقـول: إنهـا مقابلـة معه، هـو يجيب بالشعـر ونحـن نسأله بالنثر وهـذه المقامة بينت لنـا شخصيته وأظهـرت لنا طموحـه، نسأله نثراً فيجيبنا شعراً.

السـؤال الأول: مـن أنـت؟ هـي البطاقـة الشخصيـة، نسألـه عن نفسه، وإنمـا ركزت على المتنبـي؛ لأنه صار له وقع في الأدب العربي وصار هـو قائد زمام الشعر والحكمة، وكثير من الشراح قدموه أو مِنَ النقاد مَنْ يجعله إمام هذا الفن؛ فن

الشعر وفن الحكمة، وسموه تسميات: كملك الشعراء، إمبراطور الشعراء، ووقع له من الحظ والشيوع، حتى إنه ما شرح ديوان مثلما شرح ديوانه، قلت: من أنت؟ قال -يجيبنا بشعره-:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلَى أدبِي وأسمعَتْ كلماتِي مَنْ بِهِ صممُ

قلت: أما ترى السفهاء ينالون العظماء؟ قال:

وإذَا أتتكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ فهيَ الشهادةُ لِي بأنِّيَ كامِلُ

تستطيع أن تقول نثراً كثيراً بدلاً من هذا البيت، لكنه لن يحفظ ولا ينقل، ولا يستشهد به، تستطيع أن تقول في محاضرة: يا إخوة، إذا رأيتم الناس السفهاء ورأيتم التافهين ينالون الكرماء والعظماء والأخيار والعلماء فهذه شهادة صدق لهؤلاء العلماء أنهم على حق وعلى خير؛ لأن الذين نالوهم هم أهل سوء، وأهل سفه وأهل طيش، ثم تبدأ في هذه المعاني، وهو يختصر لك هذا كله ببيت.

فلذلك إذا رأيت أهل الانحراف ينالون أحداً، فاعرف أنه من أهل الاستقامة، وإذا رأيت أهل الاستقامة يجمعون على انحراف شخص فاعرف أنه هو من أهل الانحراف... وهكذا.

قلت: أراك تعبت في طلب المجد! قال:

وإذَا كانتِ النفوسُ كِباراً تعبَتْ فِي مرادِها الأَجْسامُ

ليس الكبر الحسي، إنما كبر المعنوي، يعني: النفس كبيرة، النفس لها طموح، لها همة، فلا يرضيها القليل مثلما يقول هو:

إذَا غامرْتَ فِي شرَفٍ مرومٍ فلا تقنَعْ بمَا دونَ النُّجومِ

اجعلها حرب نجوم، الحياة غِلَاب، مثلما يقول أحمد شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتَّمنِّي ولكِنْ تؤخذُ الدُّنيا غِلاَبا

فلن يهدي لك المجد أحد على طبق من ذهب، ولا يمكن لأحد أن يعطيك النجاح ويرسله لك رسالة هدية، النجاح عرق وجهد وسهر وتعب، سواء في العلم أو في الدنيا، أو في المال، أو في أي حرفة أو مهنة أو فن أو عمل، فهذا هو، يقول: وسبحان الله ترى منازل الناس في الجنة على حسب هممهم في الدنيا، بعضهم لا يرضى بالقليل، أنا رأيت من بعض الناس لا يرضى بحفظ ثلثي القرآن أو نصف القرآن، بل لا بد من أن يحفظه كله، وإذا حفظه قرأ القراءات السبع، وتجده في الحديث لا يكتفي بالأربعين النووية، فنفسه كبيرة، حتى تجد عنده أحياناً من الضمور والهزال في الجسم، لكن له همة تمر مر السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨] ولهذا يقولون: إن أبا إسحاق الشيرازي العالم الشافعي هذا الرباني كان نحيف الجسم، يقولون: إنما هو جلد على عظم، قالوا: لماذا هذا النحف والهزال؟ قال: والله ما من درس أدرسه طلابي إلا أكرره مئة مرة قبل أن أدرسه، وإني أعيد القياس الواحد ألف مرة، وكان يسهر الليالي، حتى حفظ علوماً كثيرة.

رآه شاعر فإذا هو جلد على عظم، فقال:

تَـرَاه مِـنَ الـذكاءِ نحيلَ جسمٍ عَـلَـيـهِ مِـنْ تـوقُّـدِه دَلِـيـلُ

إِذَا كـانَ الفتَى ضخمَ المعالِي فليسَ يضرُّه الجسمُ النحيلُ

وهذا مثل قول المتنبي يقول لسيف الدولة:

كفَى بجسمِي نحُولاً أنَّنِي رجلٌ لَولا مخاطبَتِي إيَّاكَ لَمْ ترنِي

يقول: إنك تسمع صوتي وإلا فأنا نحيف، كان نحيفاً، فقط ثياب على عظام وعصب؛ لأنه مشبوب وعبقري، لكنه صرفه في غير الوجهة التي ينبغي أن تكون،

صرفها للدنيا وللظهور وللشعر، بخلاف همة مثل الشافعي وابن تيمية كيف صرفوها للآخرة ومرضاة الله، لكن سيقول لي سائل: فما دام أنك تؤمن بهذا وترى أنه صرفها في الدنيا، فلماذا أشغلتنا بهذه الأبيات من شعره؟

قلت: لنأخذ الحكمة كما أخذها العلماء، ونأخذ منه المعاني، وتنفعنا في دعوتنا، وفي رسالتنا، وفي محاضراتنا، وفي دروسنا، كما استفاد من شعره العلماء الراسخون الربانيون في كتبهم وفي دروسهم، فالرجل -بلا شك- دقيق النظر وحكيم، ما تجد عالماً يأتي بمثل هذه المعاني ولو حفظ الكتب الستة؛ لأنها مواهب يقسمها الله ﷻ، يعطي هذا فقهاً، وهذا حديثاً، وهذا خطابة، وهذا أدباً، وهذا شعراً، وهذا حكمة، وهذا مالاً، وهذا جاهاً، وهذا شهرة، يوزعها سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

فهنا يقول: إذا كانت نفس الإنسان كبيرة ولها طموح ولها همة فإن جسمه يتعب، يتعب عالي الهمة، تجده يريد الصلاة في الليل ويحضر صلاة الجماعة من أول الصف، ويحفظ القرآن، ويبر والديه، ويزور أرحامه، ويدعو إلى الله، ويصلح بين الناس، ويضيف، وينفق، ويؤلف، ويدعو، ويذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً، أما الخامل فلا شيء، عطل الحقوق، جثة هامدة: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١]، يخرج للمسجد وإذا الناس خارجون، تقول له: زرت الوالدة؟ قال: سأزورها، سمعت أن أخبارها طيبة، ولا يصلح بين أحد، ولا يهتم بأحد، ولا يضيف أحداً، ولا يحفظ شيئاً من قرآن ولا حديث، فهو يعيش هكذا، فهم أصفار.

قلنا له: أما ترى المجد يُتعب؟

لو كان غيره يجيب عن السؤال لقال: نعم، المجد يتعب كثيراً، ويسهر الإنسان، ويجعل الإنسان دائماً متلهفاً، ودائماً سهران، ودائماً يواصل جهده وكفاحه، فهو يعرق وهو يبذل من الطاقة. وهو اختصر ذلك، فقال:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

يعني: لو أن الأمور تتحصل بلا مشقة لكان الناس كلهم أخياراً وأبراراً، لكن انظر في الكرم الآن تجد الكرماء قليلاً، لماذا؟ لأن إنفاق المال نذير بأنه يتلف المال، وأيضاً كانوا شجعانًا، لكن الشجعان قليل، لماذا؟ لأن الشجاعة توصلك إلى أن تفقد نفسك، الإقدام قتّال، يعني: أنك تخاطر بنفسك، فيقل أهل المجد بسبب هذه المشقة.

قلت: أرأيت السلف يتأثرون عند سماع القرآن ونحن لا نتأثر؟

لو كان غيره يجيب لقال: السلف على خير وعلى بر، وهم أخيار وأبرار، ونحن ابتعدنا عن الصواب والسنة، وعن التقوى والورع، والخشية والمراقبة. لكنه قال:

لا تعذلِ المشتاقَ فِي أشواقِه حتَّى يكونَ حشاكَ فِي أحشائِه

يقول: إذا رأيت إنساناً مشتاقاً مولهاً، إنساناً يعيش معاناة، وتجد عليه آثار هذه المعاناة فلا تعذره، فقلبك ليس في قلبه وأحشاؤك ليست في أحشائه، هو يعيش معاناة أنت لا تدري بها، فأنت لم تعش التجربة، فلا تلمه.

قلت: أرى المنافق أحياناً يبكي؟ فبعض الناس يتصنع البكاء، حتى بعض السلف يقول: إن المنافق يرسل دموعه متى شاء، أما المؤمن فتغلبه دموعه. قال:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ تبيَّنَ مَنْ بكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

يقول: سوف يظهر مع الأيام الدمع الصادق من الدمع الكاذب، وتجد من حالة الإنسان وهو يبكي أنه صادق أو كاذب، بعضهم يفتعل، لكن الدمع الصادق يغلب الإنسان، تجد ما افتعله الإنسان، له وقع، لكن دمع المجامل الكذاب ينكشف مباشرة، تجد على آثاره التمثيل، وتجد أنه يهول، وتجد أنه يريد أن يحسن من صورته ومن مظهره أمام الناس.

قلت: أرى واحداً من الناس يعدل أمةً في الفضل؟

بإمكانـه أن يقول: نعم لأن الله سبحانه وتعالـى يعطي بعض المواهب لبعض الناس فيفوق كثير من الناس بما عندهم من العلم أو العقل أو القدرة أو الموهبة. لم يقل هذا، ولكن قال:

وإن تـفـقِ الأنـامَ وأنـتَ مـنـهُـمْ فـإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الـغـزالِ

هـو يمدح سيـف الدولة، يقول: أنت أصلاً من الأنـام، وأنت من البشر مثلهم وهـم مثلك، خلقت مـن آدم وحواء، وهم خلقوا من آدم وحـواء، وأصلك من طين وهم من طين، لكنـك تفوقت عليهم، فالمسك الذي يتهاداه الملوك وهو من أغلى ما يكون في العالم من دم الغزال.

قلت: أرى لك حساداً كثراً؟

فيقول يرد على حساده:

إنِّـي وإنْ لمْتُ حاسـدِي فما أنـكـرُ أنِّـي عـقـوبـةٌ لَـهُـمْ

يقول: صحيح أني ألوم حاسدي لكن الله أرسلني عقوبة لهم، الله عذبهم بي، يريد أن يشفي جراحه في هذه المسألة، ويقول في موطن آخر:

أبدُو فيسجدُ مَنْ بالسوءِ يذكرُنِي فـلا أعـاتـبُـه صَـفْـحاً وإهـوانَـا

هـو لم يسجد له أحـد، لكنه يريـد أن ينتصر، تحس حين تقـرأ الديوان أنه مقهـور، وأنـه مظلوم، وأنـه ما أخذ حقه من المجـد، وأنه شخصيـة منسية، وأن الواجب على الناس أن يعيشوا قضيته، ويعترفوا به، ويكون الأول.

يقول: أصفح عنهم ولا أهينهم ولا أعاتبهم؛ لأنك إذا أتيت إلى الحاسد وتركته وأخملتـه ولم تلتفت له قتلته موتـاً؛ ولذلك إذا أتتك قصيدة هجاء فاتركها، وكلمة

سب فلا ترد عليها، ومقالة تتعرض لك فلا تحاول أن ترد عليها، وكلمة سفيه تبدر منه فتغافل، فإنك تميته بهذه الطريقة، ويبقى عرضك مصوناً وتبقى مكانتك محفوظة، والناس يقدرون لك صبرك.

قلت له: بعض الناس غلب عليه سوء الظن فتجده لا يرى إلا بنظارات سوداء. شاكّ في الناس، يرى الناس عنده عقدة مؤامرة ويرى الناس متآمرين عليه، متربصين عليه، وهو دائماً مظلوم، حتى إذا ذهب إلى المحكمة قال: القاضي متربص بي وإلا ما قال كلمة الحق، لو قال كلمة الحق لكان عرف، وإذا قابلته قال: ما أعارني انتباهه، وإذا بايع إنساناً قال: غشاش، فالناس كلهم يغدرون إلا هو، والناس يظلمون إلا هو، فالمتنبي يجيب:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ وصدّقَ ما يعتادُه مِنْ توهُّمِ

فهو لسوء عمله يتصور أن الناس سيئون، ويصدق الوهم الذي يحمله فيقع في الخطأ وهو واهم؛ لأنه ما اتبع الحقيقة وما وقف مع الحق.

نطرح على المتنبي سؤالاً آخر في هذه المقابلة، فنقول: القوميون العرب يهددون إسرائيل من خمسين سنة؟

هو يجيب فيقول:

وإذَا ما خَلا الجَبانُ بأرضٍ طلبَ الطعنَ وحدَه والنِّزَالا

إنسان ليس عنده من يبارزه، فقط عبر الإذاعات حتى يقول البردوني في العرب:

وقاتلَتْ دونَنا الأبواقُ صامِدةً أمَّا الرجالُ فماتُوا ثَمّ أو هربُوا

فقط الإذاعات والبيانات والتنديد والشجب، يقاتل الأشباح ويقاتل الهواء، لكن إذا جد الجد فلا شيء.

قلت: أعرف أغنياء ألسنتهم سخية وأيديهم بخيلة؟

قال يجيب:

جودُ الرجالِ منَ الأيدِي وَجودُهُمُ مِنَ اللسانِ فلا كانُوا ولاَ الجودُ

بعض الناس جيد باللسان سخي، يقول: نتبرع وأبشروا بخير، والرقبة سدادة، ولا يهمكم يا إخوان، وإذا جاء الجد جاء بسبعين عذراً، لا يعطيك شيئاً ولا ترى شيئاً، فهذه مشروعات شفوية، حتى إن بعض البخلاء يلوم الكرماء، إذا تبرع إنسان قال: هذا رياء وسمعة، الإخلاص لك أنت، وإذا ألقى محاضرة قال: أشغلونا يا أخي، الدين معروف مفهوم، فهو دائماً يتصيد العيوب، وهؤلاء يسمون أعداء النجاح، فهذا يرد عليهم.

قلت: من يتأمل الشريعة يملكه حبها؟

قال هو:

وما كنتُ ممنْ يملكُ الحبُّ قلبَه ولكنّ مَنْ ينظرْ عيونَك يعشَقِ

فإنه يقول: أنا من عادتي لا أملك الحب، لكنه لما غلب الجمال والحسن، فقد أسر في حبها. فقط الإنسان يتأمل في مقاصد هذا التشريع العظيم، وهذه الحكم في الكتاب والسنة، وهذا الدين الخالد، وهذه الرسالة الربانية في كل ناحية من مناحي الحياة، والله إنه يحبها ويعشقها قلبه، ويسير وراءها في كل شأن: في المال، في الأسرة، في الولاية العامة، في العلاقات الاجتماعية، في القضاء، في الحياة الزوجية، في حياة الطفل، في الأخلاق، في الآداب، في السلوك، في كل أموره، حتى مع البهائم والحيوانات، تقول: سبحان الله! أشهد أنها شريعة من عند الله.

قلت: أسمع لأعداء الإسلام شبهات يثيرونها عنه؟ يثيرون شبهاً ضد الإسلام، لكن أبشركم الإسلام يجتاح العالم، الدين الأول هو الإسلام، أكثر كتاب يوزع الآن

فـي العالـم وينشر هو القرآن الكريـم، الإسلام هذا دين من عنـد الله يقبله أهل العقـول، ولهذا يقول أحـد العلماء: أبشروا أيها المسلمـون، وأملوا، فأفق الإسلام أوسـع من أوطانكم، وغد الإسلام أطول من أراضيكم، الإسلام أكبر من هممكم، الإسلام سوف يبقى أمام الزحف، ولذلك يقول هو يجيب هنا:

وللهِ سـرٌّ فِـي عـلاكَ وإنَّـما كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ

يقول: هو كذب كلام الورى في هذا الدين الخالد.

قلت: فما رأيك في الدنيا؟

الآن فلسفته في الدنيا، ما هو قوله؟ قال:

لحَى اللهُ ذِي الدنيا مناخاً لراكبٍ فكلٌّ بعيدِ الهَمِّ فِيها معذَّبُ

يقول: لا بارك الله فيها، كل إنسان له همة عالية يعذب فيها تعذيباً؛ لأنها دنيا غدارة غرارة، لا يسكن فيها إلا الجبناء، حتى يقول هو في مشهد آخر:

تصفُو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عمَّا مضَى مِنْها وما يتوقَّعُ

ولمَنْ يغالطُ فِي الحقائقِ نفسَه ويسومُها طلَب المحالِ فتقنَعُ

يقـول: والله لا تصفـو الحياة إلا لجاهل أو غافل، جاهل بآثارها، أو غافل عن مصائبها، وغافل عما مضى منها، فلا يفكر في شيء؛ وإلا لو عرف الإنسان حقيقة الحيـاة لارتدع؛ لأن صاحـب العقل تجده متوجساً دائماً خائفـاً يفكر في الحساب ولقـاء الله ﷻ لا يريد أن يخطئ، إذا أخطأ نـدم، إذا أذنب تأسف، إذا عثر تاب، أما هذا المجرم، فالذنوب عنده مثل الطاعات، ويضحك حتى يقول:

ذُو العقلِ يشقَى فِي النعيمِ بعقلِه وأخُو الجهالةِ فِي الشقاوةِ ينعمُ

تجد العاقل وهو في النعيم يريد عملاً؛ فإذا فاتته تكبيرة الإحرام أقام الدنيا ونـدم، ما صلى الفجر في جماعة، قـال: الله المستعان، حسبنا الله ونعم الوكيل،

بعض السلف كان يمرض شهراً إذا فاتته تكبيرة الإحرام في الجماعة، بعضهم تفوته صلاة الفجر فيبقى مريضاً، الآن يقول أحدهم يضحك ويمزح: يا إخوان، ما انتبهت اليوم إلا وصليت الساعة العاشرة، سبحان الله! يا إخوان النوم، في الشتاء بركة؛ لأن النوم في البرد طيب، ولا درى أنه ارتكب إثماً! هذه المصيبة، تقول له: كم قرأت؟ قال: والله يا أخي، سبحان الله من زمن ما قرأت المصحف أقرأ يوم الجمعة، يا أخي، الحمد لله الدين هذا طيب يقول: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠] ولو آية يا أخي، لكن أموره في الدنيا كما يقول ابن القيم: بعضهم يستخدم أنواع الإنكار الثلاثة في الدنيا: القلب واللسان واليد، فهؤلاء أموات أصفار، يقول:

عددُ الحصَى والرملِ فِي تعدادِهم ... فإذا حسبْتَ وجدْتهم أصْفارَا

مِنْ كلِّ مفتونٍ علَى قيثارةٍ ... كلاًّ وجدتَ بفنِّه بيطارَا

قلت: ألا تحتاج الدنيا إلى مجاملة؟

قال: نعم.

ومنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أَنْ يرَى ... عَدوًّا لَه ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

يقول: من شؤم هذه الحياة نعوذ بالله منها، ومن نكدها: أنك تبتلى بإنسان عدو لكن تجامله حتى تسير أمورك، فلا صفاء إلا في جنات النعيم، اطلبوا داراً غير هذه الدار، اطلبوا دار الوفاء، دار الصفاء، دار الخلود، لا مرض فيها، لا نصب، لا وصب، لا همّ، لا غم، لا حزن، هذه:

دارٌ متَى ما أضحكَتْ فِي يومِها ... أبكَتْ غداً قبحاً لهَا مِنْ دارِ

قلت: كان للعلماء قدر عند الناس واليوم جهل قدرهم؟

قال:

أتـى الـزَّمـانَ بـنُوه فِـي شبيبتِه فسـرَّهُـم وأتـيـنَـاه علَـى هـرمِ

يقـول: زماننا هذا مدبـر، العلم فيه والمعرفة والكـرم والجود قليل، هذا في القرن الرابع، فكيف لو أدرك زماننا، حتى يقول لبيد كما في الصحيح:

ذهـبَ الـذيـنَ يعـاشُ فِـي أكنافِهم وبقيتُ فِـي خلْفٍ كجلدِ الأَجْـربِ

قالـت عائشة: «كيف لو أدرك زماننا لبيـد» قال عروة: كيف لو أدركت زماننا عائشـة؟! قال الزهري: كيف لو أدرك زماننا عـروة؟! فأخذ الرواة يمشون به إلى أن وصلـوا إلى أبـي نعيم الفضل بن دكين وغيره من العلماء، أقول: كيف لو أدركوا زماننـا نحـن، فيقول: كان قبلنـا أجواد كثير والأخيـار، أما نحـن فأتينا الزمان، فسرهم وأتيناهم على هرم.

قلت: أرى العظماء لا يبالون بالمصاعب؟

قال:

إذا اعتـادَ الفتَى خوضَ المنَايا فـأَهْـونُ مـا يمـرُّ بـهِ الـوحـولُ

يقـول: إذا كان الإنسـان معتاداً علـى المصائب والأزمـات والمنايا والموت، فأهـون شـيء الوحل هذا الطين الذي يمشي فيه، فتجـد بعض الناس همته عالية قوية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف:١٨]، ابن تيمية أتته حمى هزته، فدخلوا، قالوا: يا أبا العباس، ماذا أصابك؟ قال:

تـمـوتُ الـنـفـوسُ بـأوصـابـهـا ولَـم يَـدْرِ عُـوّادُهـا مـا بِـهَـا

ومـا أنـصـفَـتْ مـهـجـةٌ تشتَكِي أذاهَـا إلَـى غـيـرِ أحـبـابِـهـا

الشكوى لله سبحانه وتعالى.

فلذلـك يقول هنا: (إِذَا اعتـادَ الفتَى) إن كان الفتى معتاداً على المنايا وعلى الصعوبـات فبقية الأمور عنده سهلة، حدثوني عن رجل من الأعيان، له أولاد كثر،

ومشهـور عنه الصلابة، فجاءتـه مصائب مات له أبناء في حوادث سيارات، يقول بعض المشايـخ: والله إنا جالسون في مجلس معه والقهـوة تدار وهو يذكرنا بالله عز وجل يقـول: كأنـه جبل، قال: ودخل ابنه الذي أتي مـن المستشفى، قائلاً: أخي قتل في حادث سيارة ومات، قال: الله المستعان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وإذا به صابر، قال: أين أنتم؟ قال: في المستشفى، قال: أنهوا الإجراءات وأعلموني، قال: وما التفت لهم، قال: يا إخوان، سبحان الله قضاء وقدر.

فهذا متعود عنده صبر وعنده احتمال وعنده قوة، لكثرة المراس.

قلت: بعض الناس يستفيد من نكبات الآخرين؟

يقول هو يرد:

كذَا قضتِ الأيـامُ ما بينَ أهلِها مصـائبُ قـومٍ عنـدَ قـومٍ فوائِـدُ

فالعاقل الحصيف يستفيد من المصائب التي تقع عند الآخرين، إن مصائب الآخرين التي تكرهها تثمر لك حكماً وتجارب أنت ما قمت بها، والسعيد من اتعظ بغيره، ولهـذا يقول سبحانه وتعالـى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ [الأحقاف:٢٧] يقول: انتبهوا أما ترون القرى كيف وقع فيها ما وقع من بين يديها وما خلفها وجعلناها موعظة.

فأحيانـاً تقع مصيبة عند قوم، لكن الجيران منهم وبعض الناس يستفيد من هـذه المصيبة فـي أن يجعلها فائـدة يستثمرها وتجربـة وعبرة ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢] ولذلـك ذكر الله سبحانه وتعالـى أن أهل الأبصار يعتبرون بمصائب الآخرين.

قلت: ما رأيك في الزمان؟

قال:

ربَّما تحسنُ الصنيعَ لياليـ ـهِ ولكنْ تكدّرُ الإحْسانا

يقول: الأيام تأتي لها حلاوة أحياناً، أحياناً يأتيك منصب، أحياناً يأتيك مال، تبشر بولد، تبشر بثروة، ولكن بعد مدة وإذا بك يأتيك حادث سيارة في الولد، ومرض في الجسم، والثروة ذهبت والرصيد ذهب في الأسهم لم يبقَ شيء، بشرت بولاية مثلاً ومنصب وإذا برقيات التهنئة، قليلاً وإذا العزل، قال: الله المستعان، يقول:

تَولاَّها وليسَ له عدوٌّ وفارقَها وليسَ لَه صديقُ

يقولون على ذكر الولاية: تولى القضاء قاضٍ من الظلمة الكبار فضاق الناس في دمشق في القرن الخامس، فأتى أحد الشعراء فقال:

ولمَّا أن توليتَ القضايَا وفاضَ الظلمُ مِنْ كفيكَ فيضَا

ذبحْتَ بغيرِ سكينٍ وإنَّا لنرجُو الذبحَ بالسكينِ أيضَا

لأنه يقال: من تولى القضاء، فقد ذبح بغير سكين.



obeikandl.com

الكلمة الأخيرة

يقول أبو الطيب المتنبي:

كفَى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافِياً

وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانِيا

تمنيتَها لما تمنَّيتَ أن ترَى

صدِيقاً فأعيَا أو عدوًّا مداجِياً

يقول: إذا وصلت إلى مرحلة أن تتمنى الموت، فقد بلـغ بك الداء مبلغاً عظيمـاً والوجع والضنى والمرضـ والألم إلى أن طلبـت أن يكون علاجك من ذلك هو الموت، فإذا أصبح الإنسان في مرحلة يطلب الموت فهو في أشـد البلاء، وحسب الموت فظاعة ورزية أن يكون أمنية يتمناها الإنسان.

obeikandl.com

ثم قال: لقد وصلت إلى حالة من الإحباط إلى درجة أنك لم تجد حتى صديق، فضاقت عليك الأرض بما رحبت وأصبحت الحياة ضيقة عليك، وأغلقت عليك الأفق وانغلقت عليك الآمال، حتى ما تلقى صديقاً ولا عدواً مداجياً، حتى العدو الذي يستخدم معك المجاملة ما تلقاه، فما ثمة إلا عداء ظاهر مكشوف، حينها إذا انقطع الإنسان وأصبح بلا صديق ولا رفيق ولا مؤانس فإن الحياة تضيق عليه، لكنه نسي ملمحاً آخر أنه إذا ضاقت عليك الدنيا وقطعك الأصدقاء والخلان والأحباب والأصحاب بقي معك الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فالزمْ يديكَ بحبلِ اللهِ معتصماً فإنَّه الركنُ إن خانَتْك أركانُ

فحسب الإنسان ربه سبحانه وتعالى وهو كافيه إذا توكل عليه وصدق في الإيمان به جل في علاه.

يقول في هذه القصيدة: إن بعض الناس يطلب الموت، فهذا أبو العلاء المعري تلميذه من المعجبين به، يقول:

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسُ جِدِّي إنَّ أمرَكِ هازلُ

يقول بعدها:

إذَا عيّر الطائيَّ بالبخلِ مادِرٌ وعيّر قساً بالفهاهةِ باقِلُ

الطائي يقصد حاتم الطائي، يقول: إذا وصل الحال عند الناس أن يعيب مادرٌ أبخل العرب حاتماً الطائي الذي هو أكرم العرب، إذا وصل الحد إلى ذلك وصار السفهاء يتطاولون على العظماء وأن التافهين ينالون من الأخيار الصالحين المصلحين فعلى الدنيا السلام.

وباقل من أعيا الناس لا يستطيع الكلام، يصاب بالحصر وبالإعياء والانقطاع إذا تكلم، وقس بن ساعدة خطيب العرب في الجاهلية، الذي إذا تكلم بذَّ الخطباء

وغلبهم وأفحم كل الأدباء، فيقول: إذا وصل الحال إلى أن باقلاً هذا يعيب قساً بالفصاحة ويقول: أنت لست بفصيح يا قس، فعلى الدنيا السلام.

وقالَ الدُّجَى للشمسِ فأنتِ كسيفةٌ وقالَ الدُّجَى للبدرِ: وجهُك حائِلُ

يقول: إن الليل إذا قال للشمس: أنت كسيفة وهو ليل أسود بهيم والشمس ساطعة لامعة. والدجى وهو ظلمة الليل قال للبدر: ليس فيك نور؛ فعلى الدنيا السلام.

إذا وصل الحال إلى هذا، فما عاد للإنسان قيمة وأصبح هناك أناس لا يقدرون صاحب الموهبة ولا يقدرون من له مكانة ولا من له مناقب عالية، لا يقدرون الشيخ الكبير، ولا المسؤول المقسط العادل ولا العالم الرباني ولا حامل القرآن ولا الخيّر ولا العابد ولا الجواد.

وعلى ذكر تمني الموت، فإن أهل النار- والعياذ بالله- إذا دخلوا النار واشتد عليهم حرها تمنوا الموت: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] من شدة حر النار والعياذ بالله، من شدة العذاب والنكال وما وجدوه هناك من حريق وسعير وزمهرير، قالوا لمالك الذي هو خازن النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] يقولون: نسألك يا مالك، أن تسأل الله أن يقضي علينا فيميتنا؛ لأن الإنسان فيها لا يموت فيرتاح ولا يحيا حياة كريمة طيبة، ولا يخرج منها، وهذا عذابه سبحانه وتعالى الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فالواجب على الإنسان أن يخاف ويخشى هذا ويأخذ كل العدة؛ لينجو من النار، وذلك بطاعة الله وذكره، وبالتوبة النصوح، بالاستغفار، بفعل الحسنات، بترك الخطايا والذنوب، بالاستعداد للقاء الواحد الأحد.

ولذلك يقول مرة أحد الأخيار، بعدما انقطعت به الحال وكثرت عليه الديون وخانه أصدقاؤه وأصاحبه، فمر بمقبرة:

أَلا موتٌ يباعُ فأشتريه فعيشُ حياتِنا لا خيرَ فيهِ

فكأنه يطلب الموت فيشتريه منه.

ألا رحمَ المهيمنُ نفسَ حرٍّ تصدَّقَ بالوفاةِ علَى أخيهِ

يقول: جزى الله خيراً من تصدق علينا بالموت، حتى نخلص من هذه الحياة.

يقول المتنبي: (**كفَى بكَ داءً أنْ ترَى الموتَ شافِياً**).

إذا وصلت إلى هذه الحالة فقد وصلت إلى حالة ما بعدها حالة من المرض، ومن الإعياء ومن المصائب ومن النكبات، حتى يصل بعض الناس إلى درجة الانهيار والانتحار، تغلق أمامه الأبواب، أكثر ما يكون هذا عند من يشك في قدرة الله ومن يقل الإيمان عنده، ومن لا يرجو ثواب الله عزوجل، ومن ليس عنده عمل صالح، فيصل إلى درجة الله أعلم بها، ولكن المؤمن بالله لا ينتحر؛ لأنه يعرف أن الله يغفر الذنوب وأن مع العسر يسراً وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وأن هناك فرجًا وأن هناك غداً مشرقاً، وأن هناك أملاً، وأن هناك فتحاً قريباً بإذن الواحد الأحد، لكن هذا الذي ييأس من رحمة الله ويقنط من روح الله ويصيبه التشاؤم، وذلك بسبب بعده عن التدين وعن الإيمان، تجده يقدم على الانتحار، وأحياناً يوجد مثل هذا الفعل من بعض الصالحين، فقد يتمنى الموت، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنى، وإلا فإن في الصحيحين يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إن كان خيراً فلعله أن يزداد، وإن كان على سوء فلعله يستعتب -يعني: يتوب- ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**» فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت عند الرخاء، فالأصل في الإنسان كلما ازداد عمره كان خيراً له؛ لأنه يصلي الصلوات الخمس ويذكر الله ويقرأ القرآن ويفعل الخير. فتضاف له حسنات، وإذا كان الإنسان مقصراً فلعل الله أن يمنّ عليه بتوبة وباستغفار فيعود إلى الله، لكنه يجوز للإنسان عند العلماء في الفتن، لكنه لا يطلقها، وإنما يقول: اللهم، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي.

أمـا عمر بن الخطاب فقد صح أنه تمنى رضي الله عنه لما خاف أن يضعف في العدل بين الرعية، وربما يقع في فتنة أو مشكلة لا يستطيع القيام بها، قال رضي الله عنه: اللهم، إنـه رقَّ عظمي وشـاب رأسي فاقبضني إليـك غير مفرط ولا مفتـون، اللهم، إني أسألـك ميتـة في بلـد رسولك وشهادة فـي سبيلك. فيقـول له أصحابـه: يا أمير المؤمنين، تطلب الشهادة وتشترط أن تكون في بلد رسول الله ﷺ! - لأن المعلوم أن مـن يطلب الشهادة يطلبها في الثغور في ساح الوغى في ملاقاة الأعداء- قال: هكذا سألته وأسأل الله أن يلبي لي ما سألت.

فرزقه الله الشهادة في صلاة الفجر في المحراب، وهو إمام المسلمين، وهو طاهـر في كل وقت رضي الله عنه، في عدله وهو يصلـي بالناس، وفي الركعة الأولى وقيل الثانية، وفي بلد رسول الله ﷺ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة.

مولَى المغيرة لا جادَتْك غاديةٌ ... من رحمة الله ما جادت غواديها

قُلْ للملوكِ: تنحُّوا عَنْ مناصبِكم ... فقدْ أتَى آخذُ الدُّنْيا ومعْطِيها

فالشاهد أنه رضي الله عنه سأل ذلك.

والتعلق بالحياة جانب آخر. فمن لا يريد ملاقاة الله فهو عاصٍ ومسرف على نفسـه وخـادم للدنيا وهذا دليل علـى الإفلاس والإحباط، حتـى قال الله عز وجل عن اليهـود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقـرة:٩٦] يعنـي أنهم أكثر حرصاً على الحياة حتى مـن وثنيي العرب مشركي العرب، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقـرة:٩٦] يقـول: يتمنى أحدهم أن يبقى في الحياة ألـف سنة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦] افرض أنه عمَّر ألف سنة، المعذب سوف يعـذب، إذا مات فسوف يعذبه ربه، هل يمنعـه أن يعيش ألفـاً أو ألفي سنة، أليـس المصير إلى الله؟ أليـس الملجأ إليه؟ أليست النهاية الموت؟

فلذلك يقول: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

أما على ذكر الموت فإن للناس توقيعات في الموت للأبرار وللفجار، للمؤمنين وللكفار، كلمات صادقة في سكرات الموت؛ لأن سكرات الموت يصدق الإنسان فيها، فينتهي فيها الطلاء، ينتهي البهرج، ينتهي الزخرف، ينتهي الدجل والخرافة والكذب، يبدأ الإنسان يصدق، سكرة الموت أو ساعة الموت هي ساعة الصفر التي يجبن فيها الشجاع ويضعف فيها القوي ويفتقر فيها الغني، إلى درجة أن فرعون قال وهو ذاك الطاغية لما رأى الموت وهو في البحر: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] ولم ينفعه ذلك؛ لأنه قال ذلك في الوقت الضائع.

فهنا سيد الصالحين وسيد الأخيار محمد ﷺ يقول في سكرات الموت: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**» وقال: «**اللهم أعنّي على سكرات الموت**» وقال: «**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**» هذا كلام أصدق الناس أجمعين ﷺ.

ونقل عن الصالحين مثل الشافعي الإمام المعتبر رضي الله عنه وأرضاه لما حضرته سكرات الموت يقول:

ولمَّا قسَا قلبِي وضاقَتْ مذاهبِي ... جعلتُ الرَّجا ربِّي، لعفوِك سلَّما

تعاظمَنِي ذنبِي فلمَّا قرنتُه ... بعفوِك ربِّي، كانَ عفوُك أعظمَا

وهذا من أجمل الأبيات التي فيها من الرجاء ومن حسن الظن بالله؛ لأنه صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» فمن حسن الظن بالله في سكرات الموت أن تظن بالله خيراً، وأنه يغفر الذنوب، وأنه يتجاوز عن السيئات، وأنك تقدم على رب كريم، فمن هذا المعنى أخذ الشافعي وهو الإمام البحر العلامة غفر الله له وأكرم نزله.

وذكروا عن أبي نواس المقصر المسرف الذي بان ذلك من شعره، نسأل الله أن يتجاوز عن جميع المسلمين، يقول:

إن كانَ لا يرجُوك إلا محسنٌ ... فبمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرِمُ

ما لِي إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجا ... وجميلَ عفوِك ثمَّ إنِّي مسلمُ

وهذا من الكلمات الجميلة، وإلا فقد ذكر عنه أنه قال كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير أنه ذكر في بعض الرؤى أن الله غفر له، قالوا: بماذا؟ قال: بوصفي الوردة النرجسة، قلت فيها:

تأمَّلْ فِي نباتِ الأرضِ وانظُرْ ... إلَى آثارِ ما صنعَ المليكُ

عيونٌ مِنْ لجينٍ شاخصاتٌ ... بأحداقٍ هيَ الذهبُ السبيكُ

علَى كثبِ الزبرجدِ شاهداتٌ ... بأنَّ اللهَ ليسَ لَه شريكُ

وهذا من أجمل الأبيات في الوحدانية، فإن كل زهرة ووردة وورقة ويرقة وقطرة ماء ونسمة هواء وقطعة ظلماء تدل على رب الأرض والسماء. وصدق القائل:

وفِي كلِّ شيءٍ لَه آيةٌ ... تدلُّ علَى أنَّه الواحِدُ

فيَا عجباً كيفَ يعصَى الإلهُ ... أم كيفَ يجحدُه الجاحِدُ

ففي سكرات الموت كلام ينقل للأدباء والعلماء والحكماء والشعراء.

ومالك بن الريب الذي يرثي نفسه في قصيدة مؤثرة قالها بعدما لدغ بحية وهو في سكرات الموت، كان مالك بن الريب هذا من اللصوص الذين يقطعون طريق القوافل، فهداه الله سبحانه وتعالى، رأى جيش عمرو بن عثمان بن عفان، وقيل: أبان بن عثمان بن عفان ذاهباً للغزو، وقال بعضهم: بل سعيد بن عثمان ابن عفان ذهب يقاتل في الشمال مجاهداً، فتاب على يديه، وترك اللصوصية

والسرقات، ولما سار في الطريق وجاء الليل لدغته حية، فغشيه السم وتغير لونه وأشرف على الوفاة، وحفروا قبره، وأرسل رسالة للناس في قصيدة صادقة لا تجد في الشعر العربي أصدق منها تأثيراً ووقعاً، حتى يقول:

فللهِ درِّي يومَ أتركُ طائعاً ... بنيَّ بأعلَى الرقمتينِ ومالِيَا

أبناؤه وأمه وأبوه كانوا بأعلى الرقمتين، فاستبكى الحضور، واستدر الدمع من الناس، حتى رثى الفرس ورثى سيفه ورثى حياته:

وأشقرَ خنديدَ يجرُّ لجامَه ... إلَى الماءِ لم يتركْ له الموتُ ساقِيا

يقولُون: لا تبعِدْ وهُمْ يدفنونَنِي ... وأينَ مكانُ البعدِ إلاَّ مكانِيا

فإن من عادة العرب أن يقولوا: لا تبعد.

ولا يوجد أبعد من مكاني، هذا هو البعد كله، فهذا الذي قاله في سكرات الموت، وهي كلمات صادقة مؤثرة.

وقد نقلوا في حديث صحيح: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما حضرته الوفاة أتت عائشة ابنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «صدق الشاعر يا أبتاه!» وكانت فصيحة وأديبة، وكانت تحفظ الشعر، وعندها من الأدب الرصيد الكثير، وهذا البيت لحاتم الطائي، قالت:

لعمرُك ما يغنِي الثراءُ عنَ الفتَى ... إذا حشرجَتْ يوماً وضاقَ بِها الصدرُ

يقول: والله ما ينفع المال إذا خرجت الروح أو كادت. فحاتم يقول في قصيدته لزوجته ماوية:

أمـاويُ إنَّ المالَ غادٍ ورائحُ ... ويبقَى منَ المالِ الأحاديثُ والذكرُ

يعني: السمعة، يريد السمعة والثناء الحسن والمديح والذكر الجميل. أي: والله لا ينفع المال ولا القناطير المقنطرة ولا الأرصدة البنكية إذا ضاق الصدر بها.

وعلى ذكر الحشرجة فقد بنى هارون الرشيد قصراً مشيداً في بغداد جميلاً، وقال للشعراء أن يدخلوا؛ ليمدحوا القصر ويمدحوه، فدخلوا وأثنوا ومدحوا وباركوا وهنؤوا، ولما خرجوا دخل أبو العتاهية فوقف أمام هارون الرشيد، فقال:

عِشْ ما بَدا لك سالِماً ... فِي ظلِّ شاهقةِ القصورِ

قال هارون: هيه! أي: إنه طرب وانتعش واهتز بهذا المطلع الفخم والتبريك والتهنئة.

قال:

تجرِي عليكَ بما أردْ ... تَ مع الغُدوِّ معَ البكورِ

فاهتز وانتعش.

قال:

فَإذَا النفوسُ تغرغرَتْ ... بزفيرِ حشرجةِ الصدورِ

فهناكَ تعلمُ موقِناً ... مَا كنتَ إلا فِي غرورِ

فدمعت عيناه.

والآن أين أبو العتاهية؟! أين هارون الرشيد؟! أين القصر الذي بناه؟ أين الوزراء الذين حضروا؟ أين العلماء الذين احتفلوا؟ أين الشعراء والأمراء؟ أين الأغنياء الذين حضروا ذلك المكان؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

وإنما أقول هذا على ذكر الكلمات التي تحضر الناس عند الموت.

ونعود إلى المتنبي الذي يقول:

كفَى بك داءً أن ترَى الموتَ شافِياً وحسبُ المنايَا أَنْ يكنَّ أمانِيا

في أبيات جميلة، وهذه بعض منها، يقول مادحاً نفسه:

خلقتُ ألُوفاً لَو رجعتُ إِلى الصِّبا لفارقتُ شيبِي مُوجعَ القلبِ باكِيَا

أنـا فـي وفاء دائم- والله أعلم بـه- ومن وفائي أنني لو شبـت وطلب مني أن أرجـع إلى الصبـا؛ لأن الصبا محبب عند الناس، لكنت فارقـت الشيب وأنا أبكي عليه؛ لأني إذا صاحبت أحداً وفيت له ولا أغدر.

ومن ضمن القصيدة هذه ذكر الوصل إلى كافور، يقول:

قطعتُ الفيافِي والشَّنَاخيبَ دونَه وجُبتُ هجيراً يتركُ الماءَ صادِيا

الفيافي والشناخيب: يعني الجبال. والهجير: يعني: القيظ والصيف وشدة الحر.

أبَا كُلِّ طِيبٍ، لا أبا المسكِ وحدَه وكُـلّ غـمـامٍ لا أخـصُّ الـغـوادِيـا

يقصد نوعاً من الطيب، والمسك نوع من الكافور.

ثم يقول في القصيدة:

وللنفسِ أخـلاقٌ تـدلُّ علَى الفتَى أكـانَ سخاءً مـا أتَـى أم تساخِيَا

يقـول: يُعرف الإنسان من حركاتـه أهو سخي جواد أم يجامـل ويتساخى ولا يستمر؛ لأن بعض الناس يظهر الكرم، فتجده يرحب لكنه لا يستمر، ينقلب ويرجع إلى حاله.

وتجده يتكلف ويحاول لكنه لا يقدر، تجده إذا أتاه ضيف يهلل ويكبر ويخرج من البيت يكبر ويدخل يهلل. ويذبح ذبيحة ويسـتعين بالله ﷻ، ويتعوذ من الشـيطان قائـلاً: أعـوذ بالله منك يـا شـيطان، اللـه يخـزي هذا الشـيطان، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، هل الأحسن أن يذبح شاة

أم الأحسن ألا يذبح، ثم يأتي يسن الشفرة، ثم يدخل على الضيف يقول: إن الدنيا فانيـة– لأنه قد ذبح هذه الشاة– ويقوم بإلقـاء مواعظ، فإذا ذبحها دمعت عيناه من خشية الله وخاف. فيقول المتنبي: تظهر هذه العلامات على الإنسان البخيل، ليس مثل إبراهيم عليه السـلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات:٢٦] سبحـان الله! ما هذا الكرم؟! ذهـب إلى هذا الثور الكبير وقدمـه لهم بمجرد أن دخلوا عليه وألقوا عليه السلام.

ويقـول في سورة هـود: (حنيـذ)، وإبراهيم لـه روغتـان: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣] علـى الأصنـام التـي عبدهـا الجهلـة والكفـرة، حطمها، والروغة الثانية روغة الكرم، فكان كريماً شديد الكرم، يقدم أحسن ما عنده وفوق هذا يقول: سامحونا على التقصير.. أما البخيل فيخرج العشرة الريالات ثم يطلق ثلاثاً ألا يحاسب إلا هو..! وإن جاء الشاي بريال ونصف فيقسم بالطلاق ألا يتولى الحسـاب إلا هـو، ثم يلقي محاضـرة بعدما يحاسب.. يقوم قائـلاً: يا أخي، ماذا نريـد بالمال؟ هذا واجب علينا، وعسى الله يعوضنا خيرًا، والدنيا ذاهبة، ما عند الإنسان إلا أخلاقه وكرمه.

أمـا السخي فتجده في جبلته يحب الكرم، يحب الجـود، تجده رحباً.. وأهلاً وسهلاً.. كأنك تعطيه، كما يقول أحدهم:

تَـــرَاه إذا مـا جِئتَـه متهـلِّلاً كأنَّكَ تعطِيه الـذِي أنـتَ سائِلُه

وفي بيت من قصيدة أخرى يقول:

ولَـو لَـمْ يكُنْ فِي كفِّه غيرُ روحِه لـجادَ بِـها فلـيتـقِّ اللهَ سـائِلُـه

فبعضـ الناسـ سبحان الـذي أعطـاه! سهل فـي أخلاقه، فـي خدماته، في كرمـه، يقول: ما عملنا شيئاً، سامحونا على التقصير، يغدي.. ويعشي.. ويعطي.. ويهـدي.. ويقول فـوق ذلك: سامحونا علـى التقصير، أما البخيـل فسبحان الله!

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] فهو وإن أخفى ما في نفسه فلا يستطيع أن يخفيه كثيراً.

والصالحون كان لهم كلمات في سكرات الموت، فمعاذ بن جبل قائد علماء الجنة رضي الله عنه وأرضاه العلامة البحر، قائد العلماء وقبلهم برمية حجر، والذي قال له ﷺ كما في السنن: «**إني أحبك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهمّ، أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» فمعاذ رضي الله عنه يقول في سكرات الموت: «اللهم، إنك تعلم إني لم أحب الحياة لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور، وإنما أحببت الحياة لأمرغ وجهي ساجداً لك في السحر وأجالس أقواماً ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب التمر، وأصوم لك يوماً شديد الحر» هذه الربانية، هذا الاهتداء، يقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩] أي: لا تكونوا كالبطالين العاطلين ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] فجزاه الله خيراً وجزى إخوانه من الصحابة من المهاجرين والأنصار خير الجزاء وجمعنا بهم في جنات النعيم.

ومنهم المأمون الخليفة العباسي، فإنه قال كلمات في سكرات الموت قوية مؤثرة لما حضرته الوفاة، قال: أخرجوني إلى العسكر وإلى الجيش، فأخرجوه، قال: يا من، لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه.

لا الجيش ينفعه ولا الأطباء ولا الأمراء ولا الأثرياء ولا الثروة ولا العسكر ولا السيوف.. كل شيء ذهب، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] فالبقاء لله سبحانه وتعالى، إنما هذه بعض الكلمات التي قالوها.

وفرعون في سكرات الموت قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

وعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يقول في سكرات الموت: يا ليتني ما توليت الخلافة. فسمع سعيد بن المسيب هذا الكلام وهو سيد التابعين.. العالم.. المجتهد.. البحر.. المحدث.. الزاهد.. العابد.. قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت ولا نفرّ إليهم. ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وسمع مرة عبد الملك وهو في مرض الموت غسالاً.. وكان في قصر في دمشق، والرجل في وادٍ، سمع الرجل يغني، وليس عنده خبر بالخلافة ولا بعبد الملك أنه في مرض الموت، ينشد مرتاحاً، ليس عنده إلا ملابس يغسلها للناس ويأكل وينام مرتاحاً، قال عبد الملك: يا ليتني كنت غسالاً، يا ليتني ما توليت الخلافة، يا ليتني ما عرفت الملك.

وأذكر أن المحدث أبا زرعة رحمه الله وهو من الحفاظ الكبار، وقرين لأبي حاتم، حضرته سكرات الموت فأغمي عليه، فأراد الطلاب أن يذكروه بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لأنه كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» فاستحيوا أن يذكروه؛ لأنه عالم وحافظ وبحر، فأتوا بالحديث لكي يروه فنسوا سند الحديث، قالوا: حدثنا فلان.. فغلطوا، فاستفاق من غيبوبته وقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**» ثم قال: لا إله إلا الله، ثم مات. رضي الله عنه وأرضاه.

ومسلم صاحب الصحيح، مسلم بن الحجاج، وهو عالم رباني، رزقه الله القبول مع صحيح البخاري، أراد أن يبحث عن حديث ليلة من الليالي، حديث للرسول ﷺ يبحث عن صحته، فأتى بالكتب وعنده سلة كبيرة من التمر، هناك نوع من التمر من خراسان حار، إذا أكثر منه الإنسان يؤثر فيه، فنسي مع البحث عن الحديث نفسه وذهل، وأخذ يأكل التمر.. ثم أكل، حتى انتهى من السلة كلها،

ولما أصبح الصباح أثر عليه وهو يبحث الحديث، فقال: آه. ثم مات- غفر الله له- مات في سبيل طلب الحديث وطلب العلم، يخدم سنة النبي ﷺ، ولذلك أعطاه الله من القبول هو والبخاري، والآن في كل مسجد، في كل قناة.. في كل مجمع.. في كل جامعة.. في كل مجلس.. في كل مدرسة.. رواه البخاري ومسلم، فجزاهما الله خيراً على ما قدماه.

يقول أحد المحدثين، وقد كان في سكرات الموت، فسمع طلاب علم وراء جدار يقولون: حدثنا.. حدثنا...،... وكان في حياته يقول: حدثنا...؛ لأن المحدثين يستخدمون كلمة حدثنا وأخبرنا، قال: أسندوني أسندوني، يعني: انتعش، وهو في سكرات الموت، فلما أسندوه قال:

سقُونِي وقالوُا: لا تغنَّ ولَو سقُوا جبالَ سليمٍ ما سقيتُ لغنَّتِ

والبيت هذا لأحد العرب؛ لأنه سقوه مسكراً فقاله.

يقول: لو سقوها ما سقيت من الخمر لغنت. فنسأل الله عز وجل أن يلطف بنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها.



زائر الليل

يقول أبو الطيب المتنبي:

أزورُهم وظلامُ الليلِ يشفعُ لِي

وأَنثنِي وبياضُ الصبحِ يغرِي بِي

فـي قصـيدة بديعـــة له من ضمنهـا يقـول –يخاطب نفسه–:

كَمْ زورةٍ لكَ فِي الأعراب داهِيةٍ

أدهَى وقَدْ رقدُوا مِنْ زورةِ الذيبِ

لأن الذئب يزور سريعاً ويعود سريعاً، يخطف خطفاً.

obeikandi.com

فشبه ظلام الليل بشخص يعاونه ويستره، يقول: فإذا رجعت فضحني ظلام الصباح وأغرى بي حتى يدركوني، يحاولون أن يلحقوا بي، فالظلام يسترني يشفع لي عند محبوبي حين أزوره.

وهذه من أحسن المقابلات في الأدب العربي، وعد هذا البيت من أجمل أبياته على الإطلاق، وهو صاحب فرائد، إذا أراد أن يبدع أبدع، ويتوسط أحياناً، وأحياناً قليلة يسف في أبياته ويضعف شأن العبقريات والأعمال العظيمة التي ينتجها مثل هؤلاء العباقرة، فإن أجل ما ينتجونه هو من جنس العبقرية ومن جنس الإبداع، حتى إن له أبياتاً يقول فيها:

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

ورد عليه ابن المحصد فقال:

فالتجأنا إلى خيامٍ محبٍّ ألجأتنا من أعينِ اللوَّامِ

فالقصد أنه صاحب إبداع في الزيارات وفي الهجر وفي المحبة ونحو ذلك؛ لأنه مقتدر على الكلمة، مقتدر على الكلام، حتى إنه في الزيارة يقول عن الحمى، أتته الحمى وهو في مصر، ذهب إلى كافور، فأطلق لنا القصيدة البديعة قصيدة الحمى، وسبحان الله! ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩] رب ضارة نافعة، فلولا أن قدر الله عليه هذه الحمى لما أخرج لنا ذلك الإبداع البياني الخلاب الجذاب الذي قاله في قصيدة الحمى، يقول:

ملومُكما يجِلُّ عَنِ المَلامِ ووقعُ كلامِكم فوقَ الكلامِ

إلى أن يقول:

وزائرتي كأنَّ بِهَا حَياءً فليسَ تزورُ إلاَّ فِي الظلاَّمِ

الغالب في الحمى أنها لا تأتي إلا في الليل.

بذلتُ لَها المطارِفَ والحشَايا فعافَتْها وباتَتْ فِي عِظَامِي

أبنتَ الدهرِ عندِي كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلْتِ أنتِ منَ الزحامِ

يقول: عندي مصائب وعندي أزمات ومشكلات، فكيف وصلت من هذه المصائب حتى وصلت إلى جسمي، لأن حولي أزمات في جسمي، وحولي مشكلات وكربات، فكيف استطعت أن تنفذي من هذه المشكلة حتى وصلت إلي، ومن ضمن الأبيات الجميلة في هذه القصيدة:

وآنفُ مِنْ أخِي لأبِي وأمِّي إذا مَا لَمْ أجِدْه مِنَ الكِرَامِ

يقول: أغضب عليه وتأخذني غيرة إذا لم أجده كريماً شهماً، ولو كان أخي لأبي وأمي، لا أرضاه إذا لم يكن عنده من المكارم.

ولمَّا صارَ ودُّ الناسِ خِبًّا جزيتُ علَى ابتسامٍ بابتِسَامِ

يعني: الخداع والمكر والمجاملة، وليس حقيقياً، وليس نابعاً من القلب.

رددت البسمة مثلها، كلها مجاملات، وضحكت لمن ضحك لي، ومزحت لمن مزح لي، مثل تصرفاتهم هم.

وصرتُ أشكُّ فيمَنْ أصطفِيه لعلمِي أنَّه بعضُ الأنَامِ

يقول: كل واحد أختاره للصداقة أشك فيه؛ لأنه من جنس الناس، سوف يعود لطبيعة الناس، سوف تأتيه طبائع الناس من الغدر والختل والمراوغة وعدم الوفاء؛ لأنه طبع في الناس، لكن الإنسان لا يعرف عيب نفسه.

ثم جاء بالبيت الفريد الذاهب الشارد في الحكمة، حتى إني قرأت في الأدب الفرنسي أن بنبيدو الرئيس بعد فلرسكارد ديستان أمر أن يترجم هذا البيت ويكتب على الدبابات الفرنسية:

ولم أرَ فِي عُيُوبِ النَاسِ عيبًا كنقصِ القادرينَ علَى التَّمَامِ

أكبر عيب أن تستطيع أن تكون وافياً وناجحاً ثم تنقص، تستطيع أن تكون مبدعاً فلا تفعل، عندك قدرات عندك مواهب ولا تستغلها فهذا عيب كبير، ما دمت لا تستوفي طاقتك ولا تدفع بقوتك وجهدك لتكون ناجحاً، فتنقص عن هذا فهذا عيب كبير.

فذكرني بهذه الزيارة بالشهرزوري وله قصيدة بديعة في الزيارة، حتى يرى علي الطنطاوي أنها أجمل قصائد الزيارات والبدائع، حتى ذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان، يقول وهو يتكلم عن زيارة الأحباب في الظلام:

لمعَتْ نارُهم وقَدْ عسعسَ الليـ ـلُ ومـلَّ الحادِي وحارُ الدليلُ

يقول: الذي يحدو الإبل تقطع وتعب، والدليل ضيعنا في الصحراء، حتى لمعت نارهم ورأينا نارهم وقد كنا شارفنا على الموت.

فتأملتُها وفكري مـنَ البيـ ـنِ عليلٌ وطرفُ عينِي كَلِيلُ

وفؤادِي ذاك الفؤادُ المُعَنَّى وغرامِي ذاكَ الغرامُ الدَّخيلُ

فهذا من أجمل ما قيل، والشهرزوري هذا كان ذا علم وفقه وشعر. يقول أحد الشعراء:

وكنَّا قاصِدينَ إلَى المُحَيّا إلَى بلدِ المعنَّى الشَّهرزورِي

وعدتِ أنْ تزورِي كلَّ شهرٍ فهذَا قَدْ تقضَّى الشهرُزُورِي

الشهرزوري الأول هو العالم الفقيه القاضي. أما الثاني: فيعني: تقضى الشهر وزال الشهر، فزوري، وهذا هو الجناس، وهو مثل الشقر في الجنوب؛ الكلمة واحدة والمعنى مختلف.

وعلي بن جبلة العكوك هذا شاعر يستولي على القافية، يقول عندما زاره حبيب في الليل:

بأبي من زارني مكتتماً ... حذراً من كلّ واشٍ جزعا

يقول: جاء يزورنا خائفاً من اللوام والعذال والجيران.

يقرعُ السنَّ على تلكَ الخَطا ... ثمَّ ما سلّمَ حتَّى ودَّعا

يقول: لم يمكث طويلاً عندنا. فما لبث أن ودعنا.

وهو صاحب البدائع، وقد قتله شعره هذا، فهو من الشعراء الذين ذكرتهم في قصائد قتلت أصحابها، علي بن جبلة؛ لأنه مدح أبا دلف الأمير بقصيدة لم يقل مثلها، التي يقول فيها:

ذَادَ وِرْدُ الْغَيّ عَنْ صَدَرٍ ... فَارْعَوَى والْغَيّ مِنْ وَطَرِه

دَعْ جدَا قَحْطَانَ أَوْ مُضَرٍ ... فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِه

وَامْتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلاً ... حجرُ الأَيَّامِ فِي حُجَرِه

الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ ... وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفُرِهْ

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ بادِيه وَمُحْتَضَرِهْ

فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ

كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ

مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

يقول: كل العرب يكتسون المفاخر منك، كل العرب كباراً وصغاراً لا يأخذون المجد إلا منك أنت، فهو الأمير، وكان الخليفة المأمون، فمعنى ذلك أن المأمون يدخل في هذا، فغضب المأمون واستدعاه وأتى بالناس وحكم عليه بالإعدام، قتله بسبب هذا البيت.

لكـن المأمون طبعاً أمام الـرأي العام لا يظهر أنه قتله من أجل هذه الأبيات، قال: ابحثوا عن أبيات له في المعتقد؛ لكي نقول للناس وللأمة:

أنـتَ الـذي تـنـزلُ الأيـامُ منزلَها ... وتنقلُ الدهرَ مِنْ حالٍ إلَى حالِ

ومـا كـتـبْـتَ بـأقـلامٍ مـرتـلـةٍ ... إلا قـضـيـتَ بـــأرزاقٍ وآجـــالِ

قدح في الشريعة، وقد أخطأ في هذا وغلط، وأعوذ بالله، أتى بكلام يحاسبه عليه الله، فضرب رأسه على هذا.

ونعـود إلى الشاهد وهو الزيارة، أبو نواس ذهـب إلى الخصيب وهو أمير في مصر من قبل هارون الرشيد، فانطلق أبو نواس وقصده الجائزة، يقول بعد أن بدأ يتكلم عن فراق زوجته في العراق:

تقولُ التِي مِنْ بيتِها خَفَّ مركبِي: ... رحيلُكَ فِي هـذِي الفلاةِ عسِيرُ

دعينِي أسلّ الهمَّ عنْكِ بسفرةٍ ... إلَـى بلدٍ فيها الخصيبُ أميـرُ

إِذَا لَمْ تزرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا ... فـــأيُّ ديـــارٍ بـعـدَهـنّ تـــزورُ

فتًى يشترِي حسن الثناءِ بمالِه ... ويـعـلـمُ أنَّ الـــدائـــراتِ تـدورُ

فـإِنْ أنـتَ أعطيتَ الثناءَ فأهلُه ... وإلا فـإنِّـــي عـــاذِرٌ وشـــكـورُ

وهي من أحسن الأبيات، وقصدي هنا منها الزيارة.

وقد كان جبريل يزور رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين يقول ﷺ: «**ألا تزورنا يـا جبريـل، أكثر مما تزورنا؟!** قـال: ﴿وَمَانَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤]» يعني: نزولـه بأمر من الله وبحكمة منه سبحانه وتعالى، فهو عبد مأمور، ينزل متى كتب الله سبحانـه وتعالـى نزوله، حتى إن الصحابة يعيشـون الذكريات في زيارة سيد الخلـق ﷺ لهم، فكان عليـه الصلاة والسلام يزور أصحابه، يقول أبو ذر: «**زارني**

رسول الله ﷺ مرة فما وجدني في بيتي، فدخلت وهو ﷺ على سريري...» انظر إلى معلم الخير ﷺ سيد البشر، يزور أحد أصحابه، وتفاجأ وإذا بسيد البشر ﷺ على سريرك وفي بيتك! قال: «**فلما رآني التزمني فكانت أحسن..**» أي: كانت أحسن من الأولى، كان في الغالب أن النبي ﷺ يصافحه، لكن لما تأخر عليه التزمه، فكانت أحسن ما يكون.

وزار عليه الصلاة والسلام أبي بن كعب بعدما أظلم الليل، أمره الله ﷻ أن يذهب إلى أبي بن كعب سيد القراء من الأنصار، هو سيد القراء في التلاوة على الإطلاق، أبي المنذر، حتى إنه ﷺ سأله قال: «**يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم. فأعاد السؤال، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾**[البقرة:٢٥٥] **فضرب ﷺ على صدره وقال: ليهنك العلم أبا المنذر**»، فزاره النبي ﷺ وطرق الباب فخرج، فلما رأى النبي ﷺ حياه واستقبله، جلس أكرم ضيف في العالم، قال: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة. قال: وسماني في الملأ الأعلى؟! قال: نعم سماك. فبكى أبيّ، بكى من هذا الفرح، هذا العبد الصالح يسميه ربه سبحانه وتعالى؛ إكراماً له في الملأ الأعلى عند الملائكة! ويأمر رسول الله ﷺ أن يذهب ويقرأ عليه سورة البينة، فيكون هو سيد القراء رضي الله عنه وأرضاه. فهذه من الزيارات.

ويقول أنس: «**زارنا رسول الله ﷺ في بيتنا، وعندي أخ اسمه أبو عمير، وعنده طائر اسمه النغر، فمات النغر هذا فحزن أبو عمير، فقال النبي ﷺ: يا أبا عمير، ما فعل النغير**» والحديث في البخاري، يداعبه ويؤانسه عليه الصلاة والسلام، ويعيش قضيته، كأن القضية تخص الرسول ﷺ، وهو مشغول بإصلاح العالم ﷺ، قال: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**».

حتى يقول الملاحدة: إن أهل السنة والمحدثين يروون أحاديث لا معنى لها مثل: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**» وهي في البخاري، فذكر الشافعي ما يقارب ستين فائدة من هذا الحديث.

فقصدي أنه ﷺ كان يزور أصحابه، وصلى بهم ﷺ ومع أنس عجوز، قال: «**فصففت أنا والغلام في الصف الأول خلف رسول الله ﷺ والعجوز من ورائنا**».

وكان الشافعي يزور الإمام أحمد، والشافعي أكبر سناً من الإمام أحمد، فقال له بعض أصحابه: يا أبا عبد الله، كيف تزور الإمام أحمد وهو أصغر منك سناً وأنت أجل وأكبر؟ فقال:

قالُوا: يزورُك أحمدٌ وتزورُه ... قلتُ: الفضائلُ لا تغادِرُ منزِلَه

إنْ زارنِي فلفضلِه أو زرتُه ... فلفضلِه فالفضلُ فِي الحالينِ لَه

وهذا من تواضع الشافعي غفر الله له، وإلا فمنزلته عالية، وأحمد يعرف من هو الشافعي ويقدره، ويدعو له في السحر، حتى يقول أحمد رحمه الله لابن الشافعي: أبوك من السبعة الذين أدعو الله لهم في كل سحر.

فهذا يحترم وهذا يحب وهذا يتولى. حتى كتب الشافعي لأحمد بن حنبل مقطوعة يقول فيها:

أحبُّ الصالحينَ ولستُ منهُمْ ... لعلِّي أنْ أنالَ بهِمْ شَفَاعَةْ

وأكرهُ مَنْ تجارتُه المعاصِي ... ولو كنَّا سواءً فِي البِضَاعَةْ

تعمَّدْنِي بنصحِك في انفرادٍ ... وجنِّبنِي النصيحةَ فِي الجماعةْ

فإنَّ النصحَ بينَ الناسِ نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعهْ

فإنْ خالفْتَنِي وعصيَت أمرِي ... فلا تجزَعْ إذا لَمْ تُعْطَ طاعةْ

فرد عليه أحمد بأبيات منها:

تحبُّ الصالحينَ وأنتَ منهُمْ ومنكُمْ قدْ تناولْنَا الشفاعَةْ

فإنه من بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: الشفاعة تخرج من بيتكم والعلم النافع والنور والهداية، ويجعلون السلام ينوب عن نصف الزيارة، حتى يقول أحدهم:

جدْ لنا بالسَّلامِ إنْ لَمْ تزرْنا إنَّ بذلَ السلامِ نصفُ الزِّيارَةْ

وفي حديث حسّنه بعض أهل العلم، وذكره الألباني في الجامع الصحيح: «زر غباً تزدد حباً» يعني: قلل الزيارة يزدد حبك عند الناس؛ لأن من يكثر الترداد كما يقول ابن دريد يواجَه بالملل، مثلما يقول العامة: خفف درجك يحلُ هرجك.

فأنت إذا أكثرت من الزيارة على الناس ملّوك، فالواجب أن تقتصد في ذلك وأن تكون في أوقات محددة برتابة، «زر غباً تزد حباً» على أن بعض المحدثين يجعله موقوفاً على بعض السلف، وبعضهم يحسنه.

ولأحدهم قول عندما لم يستطع أن يزور بعض محبيه، قال:

فِي حالةِ البعدِ نفسِي كنتُ أرسِلُها تقبّلُ الأرضَ عنكُمْ وهيَ رائدتِي

يقول: أنا لم أستطع أن آتي بجسمي فأرسلت نفسي لكم، وهذا من مبالغات الشعراء. ثم زار فيما بعد فقال:

وهذهِ دولةُ الإصباحِ قَدْ حضرَتْ فامدُدْيمينَك؛ كَي تحظَى بها شفتِي

يقول: أريد أن أقبل يمينك بشفتي، وعلى ذكر ذلك يقول عمارة اليمني الشاعر المشهور، للمعز الفاطمي عندما ذهب إليه من مكة من الحرم، وقد كان المعز الفاطمي يحكم مصر، فلما وصل إلى هناك قال:

فهل درَى البيتُ أنِّي بعدَ فرقتِهِ ما سِرْتُ مِنْ حرمٍ إلا إلَى حرمِ

وهذه من المبالغات، ولما خرج من عنده قبّل يده وقال:

وإذَا لثمتُ يمينَه وخرجتُ مِنْ أبوابِه لثَمَ المُلُوكُ يمينِي

يقول: لأني قبلت يده يأتيني الملوك يلثمون يميني. وهذه مبالغات على جمال الشاعرية عنده.

وعلى ذكر الزيارة يقول أبو العلاء المعري وقد ذهب إلى الشريف المرتضى وهو من المعجبين بأبي الطيب المتنبي، فذهب يزور الشريف المرتضى في العراق قال:

وردْنَا ماءَ دِجْلةَ خيرَ ماءٍ وزرْنا أشرفَ الشَّجرِ النَّخيلِ

يقول: أنت أيها الشريف المرتضى، شريف في الناس مقدم فيهم مثلما أن النخل يشرف على سائر الشجر، ولهذا يذكر السقاف صاحب العود الهندي على أبيات الكندي يقصد المتنبي، وهو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، قال مقطوعة في الشريف المرتضى، والشريف الرضي غير الشريف المرتضى، أو جده علي بن موسى الرضا الذي كان ولي العهد في عهد المأمون، المأمون كان ذا ميل لأهل البيت، فجعل ولي العهد منهم ولم يجعله من بني العباس بعدما اختلف مع أخيه الأمين، فأتى أبو نواس ومدح الوزراء والأمراء ونسي ولي العهد الذي هو علي بن موسى الرضا، من بيت النبوة على نبينا الصلاة والسلام، قال له الناس: تترك يا أبا نواس، علي بن موسى الرضا وهو من بيت النبوة وتمدح فلاناً التاجر وفلاناً البقال وفلاناً الحطاب..! فأتى يعتذر وذهب إلى علي بن موسى الرضا يعتذر لنفسه، قال:

قِيلَ لِي أنتَ واحدُ الناسِ في كلِّ معنَى منَ الكلامِ بدَيه

لـكَ فِـي جوهـرِ الـكـلامِ بـدِيـعٌ ... يثمـرُ الـدرَّ فِـي يـدَي مجتنِيهِ
فعـلامَ تـركـتَ مـدحَ ابـنِ موسَى ... بـالـخصـالِ الـتِـي تـجـمّـعْـنَ فيهِ
قـلـت: كـيفَ أهـتـدِي لـمـدحِ إمـامٍ ... كـانَ جـبـريـلُ صـاحِـبـاً لأبـيـهِ

قـال السقاف بعد هذه القصيدة: يكسر القلم من جودتها ويحرق القرطاس، ليس بعدها شيء، فهو أنصفه ومدحه مدحاً راقياً.

وأبو العـلاء عندما صار عند الشريف المرتضـى، والشريف المرتضى يكره المتنبـي حسداً منه، فلما وصـل أبو العلاء في البـلاط، وكان الشريف المرتضى يعـرف أن أبا العلاء يموت حباً فـي المتنبي، قال: شيخك الضـال الذي تستشهد به... وهو يقصد المتنبي شيخه وأستاذه.

قال: لا تسبه أيها الأمير، لو لم يكن له إلا قصيدته الرائعة التي يقول فيها:

لكِ يا منازلُ في القُلوبِ منازلُ ... أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهِلُ

قال الشريف: اطردوه من المجلس، فلما أخرجوه قالوا: يا أيها الأمير، ما قال بأساً، إنما قال قصيدة فقط، فقال الأمير: لا! هو قصده آخر القصيدة:

وإذَا أتـتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لِي بأنّيَ كامِلُ

فانظر إلى بداهة وقريحته كيف فهم! وإلا فللمتنبي أجمل من هذه القصيدة، لكن أبا العلاء المعري يريد نفس هذا البيت، وهذا ذكاء يوجد عند الشعراء يدركه بالذائقة بعض الأذكياء، مثل أبي جعفر المنصور الذي اعتمر، ثم ذهب إلى مدينة الرسـول ﷺ، قال: ابحثوا لي عن شيخ يدلني على الديار وعلى القرى وعلى بيوت الصحابـة وبيوت المهاجرين والأنصار.. فوجدوا شيخاً كبيراً، فقال للشيخ: فقط البيـت؛ فأتـى الشيخ الكبير: هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت زيد بن ثابت.. هذا

بيت أبي بن كعب.. هذا بيت مصعب.. هذا بيت عمر.. مضت تلك الليلة ولم يعطوه الأجرة، نسوا، وفي اليوم الثاني أتى الشيخ يعرض بشعر؛ لكي يفهم الخليفة، فلما وصلوا إلى بيت شاعر قال: هذا بيت الأحوص يا أمير المؤمنين الذي يقول:

يـا بـيـتَ عـاتـكـةَ الـتِـي أتـغـزّلُ حَـذَرَ الـعِـدا وبـه الـفـؤادُ مـوكَّلُ

إنِّـي لأمـنـحُـك الـصـدودَ وإنَّـنِـي -قسماً إليكِ- معَ الصدودِ لأمْيَلُ

فسكـت أبو جعفر وعاد إلى الـوزراء في المجلس، فقال: أكملوا لي القصيدة؛ لأن هـذا الشيخ لم يأتِ بهذه الأبيات إلا لغرضـ، وأنا قد أخبرته ألا يذكر إلا اسم البيت فقط، لماذا يأتي ببيت؟

فأكملوا القصيدة، وإذا في آخرها:

وأراكَ تفعلُ مـا تـقـولُ وبعضُهم مـذقُ الـكـلامِ يـقـولُ مـا لا يفعلُ

قال: أما أعطيتمـوه الأجرة؟ قالوا: لا، قال: إذاً هو يقصد هذا، أعطوه حقه، فهو استشهد بشعر الأحوص في مدحه رجلاً.

كلامه معسول لكنه لا ينفذ، يقول: أبشروا بما يسركم، أبشروا بالشبب، وليس عنده شبب ولا خير، لا ينفذ شيئاً، فعرف أبو جعفر.

وكان مـن أبخل الناس، اسمه أبـو الدوانيق، أتى بمغنّ في الطريق إلى طريق الحـج قال: أنشد لـي نشيداً، فأنشده يومـاً كاملاً، فأعطاه درهمـاً، قال: سبحان الله! والله إن الوليد بن يزيد أنشدته هذه الأبيات، فأعطاني مئة ألف درهم، وأنت تعطيني درهماً! فقال: رد المال الذي عندك من الوليد؛ لأن الوليد سرقها من بيت مـال المسلمين وأنت سرقتهـا منه، قال الوزراء: فما زلنا به حتى عفا عنه؛ لكي لا يرتد المال الأول الذي أخذه من الوليد بن يزيد.

وزار أحد المحدثين أحد الأمراء، فقال:

مَنْ زارَ بابَك لَمْ تبرحْ جوارِحُه ... تروِي أحاديثَ ما أوليتَ مِنْ مِنَنِ

فالعينُ عنْ قرّة والكفُّ عَنْ صِلَةٍ ... والقلبُ عَنْ جابرٍ والسَّمعُ عَنْ حسنِ

علـى نظام المحدّثيـن.. يقول: (**مَـنْ زارَ بابَك لم تبرحْ جوارِحُـه**): لأن هذا محدّث. (**تروِي أحاديثَ ما أوليتَ مِنْ مِنَنِ**): من خير وعطايا.

(**فالعين عن قرة**) يقال: عين قريرة وقرة عين. وقرة بن شريك هذا محدّث، يقول: نروي عن قرة. (**والكفُّ عَنْ صِلَةٍ**) يقول: توصل صلة وتعطينا هدايا. وصلة هو صلة بن أشيم العابد الزاهد.

(**والقلبُ عَنْ جابرٍ**): جابـر بن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يعنـي أنك تجبـر قلوبنا. (**والسمعُ عَنْ حسنٍ**): من أحسن ما نسمع، وهو يقصد الحسن البصري المحدث العالم الكبير.

وزار أيضاً رجلٌ الأمير تميم، فقال فيه:

أصحُّ وأعلَى ما سمعْناه مِنْ ندًى ... مِـنَ الأثـرِ المعروفِ منذُ قديمِ

أحاديثَ ترويها السيولُ عَنِ الحَيَا ... عنِ الغيثِ عَنْ كفِّ الأميـرِ تميمِ

انظر إلى السرد: عن.. عن.. عن.. لأن المحدّثين يقولون: عن فلان.. عن فلان.. عن مالك عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعند اللقاء يستحسن أن تنشد شعراً، حتى إذا لقيت إنساناً أن تقول له بعض الأبيات إذا كان ذا صدارة ووجاهة، فهذا من أحسن ما يقدم، كما قال عمر: «نعم الرجل يقدم بين يدي حاجته شيئاً من الشعر» وقد كان السلف يفعلون ذلك.

التقى الزمخشري العلامة المعتزلـي الكبير صاحب الكشاف وابن الشجري النحوي اللغوي، ما كان يعرف أحدهما الآخر، قال ابن الشجري: أنت الزمخشري؟ قال: نعم، قال: لا إله إلا الله!

كانَتْ محادثةُ الرُّكبانِ تخبرُنا عَنْ جعفرِ بْنِ فلاحٍ أروعَ الخبرِ

حتَّى التقَيْنا فلاَ واللهِ ما سمعَتْ أُذنِي بأحسنَ ممَّا قَدْ رأى بصرِي

قـال الزمخشري: أنت ابن الشجـري؟ قال: نعم. قال: لا إله إلا الله، أنت كما قال أبو الطيب المتنبي:

وأستعظمُ الأخبـارَ قبـلَ لقائِه فلمَّا التقَينا صغّرَ الخُبرُ الخَبر

نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين متحابين فيما بينهم، ويتزاورون في الله.



الرأي قبل الشجاعة

يقول أبو الطيب المتنبي:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ
هـوَ أولٌ وهـيَ المحلَّ الثَّانِي
فإذا هُمَا اجتمعَا لنفسٍ حرّةٍ
بلغَا منَ العلياءِ أيَّ مكانِ
ولربَّما طعنَ الفتىَ أقرانُـه
بالرأيِ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

هـذه القصيدة بديعـة؛ لأنه بدأهـا بحكمة، وهـذه الحكمة موقع عليها مـن العلماء والحكماء، فإنـه يقـول: إن الرأي يقدم علـى الشجاعة فإنك

obeikandi.com

تـدرك بالـرأي السديد ما لا تـدرك بالشجاعة؛ لأن الشجاعـة يصحبها التهور أو الطيشـ أو نحو ذلك أحيانـاً، أما الرأي السديد فإنه تأتـي بعده الأمور على خير، فقدم صاحـب الرأي على صاحب الشجاعة. لكن إن اجتمع الرأي والشجاعة تكن للنفس مروءة وشهامة وبلغت من العلياء مبلغاً عظيماً.

وهذا مما يشكر له، هذا الإبداع وهذه الحكمة التي قالها، والحقيقة أن الرأي موهبة من الله سبحانه وتعالى يهبه من يشاء، فتجد رأي بعض الناس يعادل ألفاً، وأسـدُّ الناس وأكثرهـم رأياً وأغزرهم حلمـاً وحكمة هم الأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام، ومـع ذلك كانوا يشاورون، فكان سيد الخلـق ﷺ يشاور أصحابه، ففي بدر لما نزل ﷺ ذاك المنزل قال له الحباب بن المنذر الأنصاري: «أهو يا رسول الله، رأي أراك الله إيـاه أم هـو الـرأي والحـرب والمكيدة؟ قـال ﷺ: هو الرأي والحـرب والمكيدة» أي: يقبـل الشورى، فأشار على رسـول الله ﷺ أن ينزل عند آخر الآبار؛ حتى يجعل الماء خلف ظهره ويجعل حصاراً عن الماء على المشركين وحصـل ذلك؛ فالرسول ﷺ شاورهـم؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] فـلا يستغني الإنسان مهما كان له مـن الرأي السديد ومن الخبرة والتجربـة أن يشـاور الرجال؛ فإن منهـم أهل الآراء، وما أحسـن من تلقيح عقول الرجال بالمشورة؟

يقول أبو تمام:

ولَو كانتِ الأرزاقُ تأتِي علَى الحِجَا ... هلكنَ إذاً مِـنْ جهلِهِنّ البهائِمُ

إن ميزة الرجال والناس هي العقول، وهذا هو الصحيح، وميزها الله سبحانه وتعالـى عن البهائـم، فلو كان لا يرزق إلا عاقل، فلن يـرزق الله البهائم، لكن الله رزقها سبحانه وتعالى، يعطي العاقل وغير العاقل، ويقول أبو تمام يعزي:

أتصبرُ للبلوَى رجـاءً وحسبةً ... فتؤجرُ أم تسلُو سلوَّ البهائمِ

يقول: إنك إذا لم تصبر وقت الصدمة ووقت الحادثة حتى تؤجر فسوف يمر بك وقت تسلو مثلما تسلو البهائم؛ فإنك تجد بعض الناس لا يصبر فيفوته الأجر وبعد أوقات وسنوات وأعوام تجده يسلو مثلما تسلو البهائم.

فالرأي هذا موهبة، وقد تميز به أناس في التاريخ العربي، حتى وصل إلى درجة الدهاء، وإذا ما كان هناك سداد ومراقبة الضمير وخوف من الله صار خبثاً وصار مكراً، والإسلام ينهى عن المكر وينهى عن الخبث.

ومن دهاة العرب الذين ذكرهم التاريخ: عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة.

قالوا: المغيرة بن شعبة لكبارها، وعمرو بن العاص لسريعها (للمفاجآت)، وزياد بن أبيه للكبار والصغار، ومعاوية للأناة، والعجيب أن الأربعة اجتمعوا مع معاوية، فلذلك صراحة كانوا جبهة من الدهاء ومن الرأي وذهبوا إلى ربهم سبحانه وتعالى.

حتى إن عمرو بن العاص قال لمعاوية: أنا أدهى أم أنت؟ قال: ما أدري ولكن ادنُ مني أكلمك- وهما وحدهما- فدنا منه، فقال له معاوية: أمعنا أحد حتى تقرب مني؟ وهذا من باب المزاح الأدبي الذي يذكر عنهما.

ومن دهاة العرب وأهل الحلم والرأي فيهم قيس بن عاصم المنقري وهو سيد بني تميم قبل الأحنف بن قيس، حتى قال فيه الشاعر:

عليكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاءَ أن يترحَّما

تحيةَ مَنْ أوليتَه منكَ نعمةً ... إذا زارَ عَنْ شططٍ بلادَك سَلّما

وما كانَ قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ ... ولكنَّه بنيانُ قومٍ تهدَّما

فصـار في الحلم والـرأي مضرب المثـل، والأحنف تولى مشيخـة بني تميم وقيادتهم بعد قيس بن عاصم وهو من عشيرته.

وقد وفد قيس بن عاصم على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويروى في بعض كتـب السيـر: أنـه ﷺ قال له: «يـا قيس، إن معـك قريناً تدفن معـه وأنت ميت، ويدفـن معك وهو حي وهو عملك، يا قيس، إن مـع الغنى فقراً، وإن مع العزة ذلة، وإن مع القوة ضعفاً» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وعنـد أبي داود: أنـه لما أسلم أمره ﷺ أن يغتسل، فـي بعض الألفاظ: «**ألقِ عنـك شعـر الكفر واغتسـل**» يعني: احلق رأسـك واغتسل، فغسـل رأسه واغتسل، ويستـدل العلماء بوجوب الغسل إذا أسلم الإنسـان؛ يغتسل لإسلامه بحديث قيس ابن عاصم عند أبي داود هذا.

أمـا الأحنف فقيل له: مـن أين تعلمت الحلم؟ قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصـم، قالوا: كيف؟ قال: كنـا جلوساً معه في مجلس مرة وهو محتبٍ- والاحتباء أن يلـف عليـه قماشاً أو كساء أو نحو ذلك ويجلس رافعـاً رجليه إلى ركبتيه- قال: وكان يقصـ علينا، فدخل أحـد أبنائه، وقال: يا أبتاه-يخاطـب قيس بن عاصم- فـلان قتل أخي، قال: فوالله ما أنهى قصته ولا حـل حبوته، فلما انتهى قال للابن هذا بحلم وبسعة وبعقل: اذهبوا إلى أخيك فغسلوه وكفنوه ثم ائتوني به أصلٍّ عليه، ونعـطِ أمه- يعني: زوجتـه- مئة ناقة دية له، فدفع الدية، وعفـا عن القاتل، وأمر بغسـل هذا الابن. فتعلم الأحنـف، يقول: تعلمت الحلم من هـذه المدرسة التي لا يوجـد مثلها، فهو حليم العـرب، هذا قيس بن عاصم إذا ضـرب الحلم فهو حليم على الإطلاق.

ثم جاء الأحنف بن قيس من دهاة العرب ومن علمائهم ومن أهل الرأي فيهم، حتـى ذكره ابن تيمية في كتاب الفرقان يقـول: إنه كان يصلي في الليل وكان يلذع

أصابعه بالنار، ويقول: ذق قبل أن تذوق، حتى يخوف نفسه من نار جهنم ويبكي، غفر الله له.

وممن اشتهر بالدهاء وجودة الرأي والعقل ابن عباس، عبد الله بن عباس الحافظ العالم حبر الأمة وبحرها وترجمان القرآن، حتى يقول لعلي بن أبي طالب: من جعلت مقابلاً ونديداً لعمرو بن العاص؟ لأن معاوية اختار عمرو بن العاص في يوم الحكمين؟ قال: جعلت أبا موسى الأشعري، قال: لا يا أمير المؤمنين، إن عمراً رجل قارح باز مرس-يعني: داهية- فاقرنّي به، اجعلني قريناً له، والله ما يفتح باباً إلا أغلقته، ولا يغلق باباً إلا فتحته، فعلم أنه من أدهى الناس، مع العلم الذي آتاه سبحانه وتعالى ومع الفصاحة والنباهة، بل إن الموسوعية العلمية تختار ابن عباس لهذا الأمر، حتى إنه لما عمي رضي الله عنه كان يعزيه بعض الناس قال:

إنْ يأخذِ اللهُ مِنْ عينيّ نورَهما ... ففِي فؤادِي وقلبِي مِنْهما نورُ

عقلِي ذكيٌّ وقلبِي غيرُ ذِي عِوَجٍ ... وفِي فمِي صارمٌ كالسيفِ مشهورُ

ومن الدهاة وأهل الذكاء: إياس بن معاوية القاضي، وهو مضرب المثل، وفي سيرته يقول: إني أذكر اليوم الذي ولدت فيه (يوم خرج من بطن أمه). والله أعلم، ويأتي بأخبار عجيبة، وفي القضاء له ذهن وقّاد، فأبو تمام مدح المعتصم، فقال:

إقدامُ عمرٍو فِي سماحةِ حاتمٍ ... فِي حلمِ أحنفَ فِي ذكاءِ إياسِ

يقصد إياس القاضي.

وهو في الذكاء جد عجيب، أتت إليه مجموعة من النساء فقال: إحداهن بكر، والثانية: حامل وحامل بولد، والثالثة ثيب، ودخل عليه رجل فقال: هذا رضع مع كلبة، قالوا: كيف عرفت؟ قال: البكر فيها حياء ولا تمد نظرها فعرفت أنها بكر، والثيب: رأيتها جريئة وتتكلم، وهذه الحامل بولد رأيت في صوتها ضعفاً، والمرأة

إذا حملت بغلام ضعف صوتها، فبحثوا فوجدوها كما قال، وأما هذا فإني رأيته يرتعد وفي كلامه هوج فأظنه رضع من كلبة، فسألوا أمه، فقالت: ذهبت للبادية عند فلانة فانقطع لبنها فوجدوا كلبة وأشرف على الموت فحلبوا له من لبنها فشرب، فأتته اللوثة والهوج من هذا، فهو أول العجب في هذا.

واختصم مرة عنده رجلان، فقال أحدهما: لي مال على فلان، قال ذاك: ما له علي شيء، قال إياس: أين أعطيته المال؟ قال: أعطيته بجانب شجرة كبيرة في الطريق- قريباً من البصرة أو كذا- قال: اذهب إليها لعلك تجد المال قريباً منها والتمس، قال: أيها القاضي، لن أجد، قال: اذهب لعلك تجد المال هناك، فذهب وتغافلوا إياس، وذاك المنكر للمال جالس، وتغافل عنه وأخذ يكتب، ثم رفع طرفه، وقال: أتظن أنه اقترب من الشجرة؟ قال: لا، هي بعيدة، فكتب إقراره وأخذ منه بذلك. وهذا من ذكائه، وله في ذلك قصص عجيبة وغريبة، وهو من سادات القضاء على الإطلاق.

وذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي في الأذكياء وغيره، قال: لما حضرت نزار ابن معد الوفاة، قسم ماله بين بنيه، وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، وقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من المال لربيعة، وهذه الخالة وما أشبهها من المال لإياد، وهذا المجلس لأنمار يجلس فيه. ثم قال لهم: إن أشكل عليكم الأمر في ذلك واختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى بن الأفعى الجرهمي. وإنه لما مات نزار توجهوا إلى الأفعى، وكان ملك نجران، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا أعور، فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبز، وقال أنمار: وهو شرود. فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزور؟ قال نعم. قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، هذه صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا

لـه إنهم ما رأوه، فلزمهـم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟! ثم سـار معهـم، حتى وصلوا نجران ونزلـوا بالأفعى الجرهمي. فقـال الشيخ صاحب البعير: هؤلاء أصابوا بعيري فإنهم وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره أيها الملك، فقال الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمـت أنه أعور. وقال ربيعـة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثـر، فعرفت أنه أفسدها بشـدة وطئـه لازوراره. وقـال إياد: رأيت بعـره مجتمعاً، فعلمت أنـه أبتر، ولو كان ذيالاً لمصع به. وقال أنمار: رأيته رعى الملتف نبته، ثم جاوزه إلى مكان آخر أرق منـه، فعلمت أنه شرود. فقال الأفعى للشيـخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهـم: من هـم؟ فأخبروه، فرحب بهم. ثم قال: أتحتاجـون إلي وأنتم كما أرى؟ فدعـا لهم بطعـام وشراب فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لـم أرَ كاليوم خمراً أجود، لـولا أنهـا على مقبرة. وقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحماً أجود لولا أنه ربي بلبن كلبة! وقـال إيـاد: لم أرَ كاليوم رجلاً أثرى منه لولا أنه ليـس بابن أبيه الذي يدعى إليه! وقال أنمار: لم أرَ كاليوم خبزاً أجود لولا أن التي عجنته حائض!

وكان الأفعـى قد وكل بهم من يستمع كلامهـم، فأعلمه بما سمع منهم فطلب صاحـب شرابـه، وقال له: الخمرة التـي جئت بها ما قصتها؟ قـال هي من كرمة غرستهـا على قبـر أبيك، لم يكن عندنا شراب أطيب مـن شرابها. وقال للراعي: اللحـم مـا أمره؟ قال: من لحم شاة أرضعناها بلبن كلبة، لم يكن في الغنم أسمن منها. فدخل داره، وسأل الأمة التي عجنت العجين، فأخبرته أنها حائض. ثم أتى أمـه وسألها عن أبيه؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملـك، فأمكنت رجلاً نزل بهم من نفسهـا فوطئها، فأتت به. فعجب من أمرهم، وأرسـل لهم من يسألهم عما قالوا؟ فقال مضر: إنما علمت أنها من كرمة غرست على قبر؛ لأن الخمر إذا شربت أزالت الهم، وهذه بخلاف ذلك؛ لأنا لما شربناها دخل علينا الغم. وقال ربيعة: إنما علمت أن اللحم لحم شاة رضعت من لبن كلبة؛

لأن لحـم الضأن وسائر اللحوم، شحمها فوق اللحم إلا الكلاب، فإنها عكس ذلك، فرأيته موافقاً له، فعلمت أنه لحم شاة رضعت من كلبة، فاكتسب اللحم منها هذه الخاصيـة. وقـال إياد: إنما علمـت أن الملك ليس بابن أبيه الـذي يدعى إليه لأنه صنـع لنا طعاماً ولم يأكل معنا، فعرفت ذلك مـن طباعه؛ لأن أباه لم يكن كذلك. وقـال أنمـار: إنما علمت أن الخبز عجنتـه حائض؛ لأن الخبـز إذا فت انتفش في الطعام، وهو بخلاف ذلك فعلمت أنه عجين حائض.

فأخبر الرجل الأفعى بذلك، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم أتاهم فقال لهم: قصوا قصتكم، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم، وما كان من اختلافهم. فقال: ما أشبه القبـة الحمراء من مال فهو لمضر، فصارت له الدنانيروالإبل وهي حمر فسميت مضر الحمراء. ثم قال: وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصـارت له الخيـل وهي دهم فسميت ربيعـة الفرس. ثم قال: ومـا أشبه الخالة، وكانت شمطاء، من مال، فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض. فساروا من عنده على ذلك.

فقصدي أن الرأي والذكاء هذا موهبة؛ حتى يقول المتنبي في القصيدة:

لـولا العـقـولُ لـكـانَ أدنَـى ضيغمٍ أدنَـى إلَـى شـرفٍ مِـنَ الإنسـانِ

يقـول: لو كانت المسألـة بغير العقل لـكان الأسد أشرف، ومعلـوم أن الأسد شجاع ومقدام، لكن لما سلب الله عقله فقد سلب هذا الشرف. الله شرف الإنسان بالعقل، والعقول تختلف، والناس درجات في العقل، فمنهم من يعادل ألفاً كما قال ابن دريد:

والـنَّـاسُ ألـفٌ مـنْـهـم كـواحـدٍ وواحـدٌ كـالألـفِ إنْ أمـرٌ عَـنَـا

ومنهـم مـن لا يسـاوي شيئـاً، ومنهم مـن سلب العقـل أصـلاً؛ ولذلك يقول الحكمـاء: إذا أردت أن تحمـد الله دائمـاً فاحمـده علـى العقـل، زر المارستـان

(مستشفى المجانين) لتحمد الله على العقل، وزر المستشفى لتحمد ربك على العافية، وزر المقبرة لتحمد ربك على الحياة، وزر السجون لتحمد ربك على الحرية، وزر المسجد كل يوم خمس مرات؛ لتعرف ربك.

هذه زيارات إيمانية، وأنت إذا أردت أن تنظر فانظر كيف انصرف أهل العقول بعقولهم بالمعاصي، مثلاً المخدرات، كيف تجد الإنسان سميعاً بصيراً كان بإمكانه أن يكون نافعاً ورجلاً مصلحاً وحامل مبدأ وصاحب فضيلة ثم يسلب عقله تماماً، وكذلك السكران أو من أصيب بالمعاصي ثم ضعف عقله؛ لأن المعاصي تضعف العقول بإجماع العلماء، بخلاف (أولي الألباب) الذين مدحهم الله سبحانه وتعالى بالفهم عنه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام.

فإنما قلت هذا لأدلل لكم أن كلام المتنبي في مكانه، وأنه لا يفضل الشجاع الأهوج على العاقل الرزين صاحب الرأي ولو كان جباناً؛ لأن صاحب الرأي سيحتال لجبنه ويسدد برأيه، أما الشجاع المتهور فإنه أحياناً يخطئ وأحياناً يضر أكثر مما ينفع.

فالمقصود الرأي المسدد لا الرأي الذي فيه مكر؛ لأن بعض الشعراء يمدحون الماكر الذي يمكر بالناس، والخبيث في رأيه الذي يتداهى لأخذ أموالهم ويغلبهم، وهذا في الإسلام محرم، والمطلوب الرأي السديد الذي يوصلك إلى النجاح وإلى الفضيلة وإلى الحق والعدل، لا الرأي الذي يتحول إلى دهاء وإلى خبث وإلى مكر حتى تلدغ به الناس وتحتال عليهم وتسيء إليهم؛ ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: لست بالخب ولا الخب يخدعني؛ أي: لست ماكراً أمكر بالناس، وأيضاً لا أرضى أن يمكر بي أحد، وهذا غاية العقل، فإن الإنسان لا يكون ماكراً خبيثاً ولا يرضى أن يضحك عليه الناس ويلعب عليه الناس ويستهزئ به الناس.

وقد يستخدم الرأي في نصرة الإسلام لمن وجهه، حتى لو كان في دهاء، إذ تجوز الخديعة في الحرب بأعداء الله عز وجل، يقول صلى الله عليه وسلم: «**الحرب خدعة**»؛ لأنها تقوم

علـى ذلك، ما دام الخصـم يخدع بك ويخطط لك، فخطط أنـت له، الجزاء من جنس العمل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [الشورى:٤٠] كما يقول نابغة بني جعد:

سقيناهُمْ كأْساً سقُونا بمثلِها ولكنَّنا كنَّا علَى الموتِ أصبَرا

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠] قـوة الرأي.. قوة المكر.. قوة السلاح.. قوة العلم.. قوة الاقتصاد.

ولمـا تألفت الأحزاب ضد الرسول ﷺ والصحابة في معركة الخندق اجتمع المشركـون من قريش وقبائل العرب ومعهـم اليهود، فأتى نعيم بـن مسعود أحد الدهـاة، فأسلم، وقـال للرسول ﷺ: يا رسـول الله، ائذن لـي أن أنقل كلاماً بين اليهود فأفسد بينهم، يعني: يشق عصاهم، بالدهاء.. بالذهن.. بالرأي السديد.. بالمكر؛ لأنهم أعداء لله ﷻ، فيحاربهم بهذا السلاح، فأذن له ﷺ، وهو لما يعلن إسلامه بعد، فذهب إلى قريش واليهود، يضرب ما بينهما ويشتت شملهم، فذهب أولاً إلـى اليهود في المدينة وقريش آتون من مكة يقاتلون، قال: سوف تأتي قريش يقاتلـون محمداً، فإذا إذا انتصرتم أخذوا الغنائم وذهبوا، وإذا غلبتم ذهبوا إلى مكة سالمين غانمين وأنتم سوف يقع فيكم القتل والأسر وسوف يستبد بكم محمد، وأنتم الذين تدور عليكم الدائرة، قالوا: صدقت، قال: أما تعرفونني ناصحاً- وكان لهم صديقاً- قالوا: أنت ناصح لا نتهمك، قال: ألست بصديق لكم وصاحب؟ قالوا: أنـت الصاحـب والصديق، قالوا: فمـا هو الرأي؟ قال: خذوا مـن قريش خمسين رجـلاً رهينة، قولـوا: فإن انتصرنا أطلقناهم، وإن وقعـت علينا الغلبة فأنتم معنا حتـى تنصرونا؛ لأنا نخشـى أن تأتوا معنا فإذا غُلبنـا تركتمونا ورجعتم إلى مكة، وسوف يستولي علينا المسلمون قتلاً وأسراً، قالوا: نِعْم الرأي الذي أشرت به.

ثـم ذهب ومـا درى اليهود، ووصل إلى كفـار قريش، قـال: ألست صديقكم؟ قالوا: بلى، قال: ألست بصاحبكم؟ قالوا: بلى، قال: أتتهمونني؟ قالوا: ما نتهمك- وهـو أسلم بحمد الله- قال: فإن اليهود سيطلبـون منكم ستين أو خمسين رهينة،

وقد اتفقوا مع محمد يسلمونهم هؤلاء الرهائن يقتلهم، فإذا طلبوا منكم فلا تفعلوا- وهو الذي أشار على أولئك- فاجتمع هؤلاء وهؤلاء، قال اليهود: ما نفعل إلا بخمسين من الرهائن والأسارى، فقال كفار قريش: هذا الذي نصحنا نعيم ابن مسعود، قالوا: ما نفعل وأقسموا ما يفعلون، قال اليهود: هذا الذي حذرنا نعيم ابن مسعود، فاختلفوا فتنازعوا فتشتت شملهم، فهزمهم الله سبحانه وتعالى بهذا الرأي المتين، فشكر له ﷺ هذا الرأي وهذا الدهاء الذي يحتاج إليه المسلمون؛ لأن الغبي كما يقول أبو تمام:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ فِي قومِه ... لكنَّ سيدَ قومِه المُتَغابِي

الغبي لا يكون سيداً ولا ماجداً، لكن من يتغابى وهو داهية. فمن التغابي أن تتغافل عن زلات الناس، امحُ الزلة واتركها تمر، مثلما قال حاتم:

وكلمةُ حاسدٍ منْ غيرِ جرمٍ ... سمعتُ فقلْتُ مرّي فانفذيني

وعابُوها عليَّ ولم تعبني ... ولَمْ يندَ لها أبداً جبيني

يقول الإمام أحمد: التغافل تسعة أعشار حسن الخلق، تسمع الزلة فقل: لا يقصدنا، وجِد له تبريراً، الله أعلم بمراده، لا ترد على كل كلمة وتجازيه على كل سيئة، بل تدفع بالتي هي أحسن، وهذا من جودة الرأي، ومن جودة الرأي الذكاء، ومما نقل عن الشافعي أنه كان آية في الذكاء وجودة الرأي، ومنهم الشعبي العالم الكبير والزهري وغيرهم.

وأبو بكر الباقلاني من العلماء الكبار أرسله الخليفة العباسي إلى ملك الروم، وملك الروم أراد أن يهين أبا بكر الباقلاني، قالوا: هو لا ينحني، وأبو بكر عالم جليل وصاحب شريعة إمام لا ينحني لملك الروم، ومن عادة الوفود إذا أتوا عند ملك الروم أن ينحنوا، وهذا محرم في الشرع، عندنا في الإسلام لا تنحني لأحد

إلا لله، ولا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا لله، فقالوا لملك الروم: أبو بكر الباقلاني إذا جاء لن ينحني لك أمام الناس، قال: سوف أجعله ينحني، فأمرهم أن يقصروا في الباب، بحيث يكون الدخول على قدر الراكع، قال: فإذا دخل غض من رأسه وانحنى ودخل إلينا، ثم جمع الوزراء والمستشارين من علماء النصارى عنده، وأُمر أبو بكر الباقلاني أن يدخل عليه، فلما رأى الباب قصيراً عرف المكيدة، فرجع على الخلف ومشى إلى ظهره ورجع يمشي على الوراء إلى الخلف، ثم التفت فجلس عنده، وكان عند ملك الروم راهب، والرهبان عندهم حرام أن يكون لهم أولاد وذرية، فقال أبو بكر يبدأ معهم النقاش: كيف حال الأبناء؟ كيف حال البنات والأهل؟ قال: أما تستحي أنا يكون لي أبناء وبنات؟ لا بد أن يكون الراهب منقطعاً عن الدنيا.. منقطعاً عن الأبناء.. منقطعاً عن البنات. قال: سبحان الله تنزه نفسك من الأولاد والبنات وتنسبها إلى الله- لأنهم ينسبون عيسى ولداً لله ﷻ - فاحمر وجهه وغضب- لأنه صاده صيدة، يعني: أنت بشر تأنف أن يكون لك ولد وبنت، وتنسب عيسى تقول: ابن الله، قال: ماذا قيل في عائشة زوجة رسولكم ﷺ- يعني: كلام المنافقين- قال: قيل فيها وبرأها الله كما برأ الله مريم وعند مريم ولد- يقول أبو بكر: لو كان بشيء كان عند مريم ولد وقد قالوا فيها وبرأها الله، فمن باب أولى عائشة ما عندها ولد والله سبحانه وتعالى برأها فهي البريئة مثل براءة مريم- فعجب الناس لذكائه؛ ولذلك اختاره الخليفة ليرسله لمثل ذلك.

وأما سرعة البداهة فهي من الذكاء والرأي، مثلما يقول أبو الطيب. ومن أسرع الناس بديهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، سأله رجل: كم بين الأرض والعرش؟ قال: دعوة مستجابة.

يعلمون بأمور ربانية، ما عندهم أميال ولا مقاسات هندسية، دعوة مستجابة؛ لأن النبي ﷺ يقول لمعاذ: «**واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»، وفي بعض الآثار: «**إن الله يقول لدعوة المظلوم: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»، فالدعوة السريعة هي دعوة المظلوم.

قال رجل لعلي بن أبي طالب: كم بين الشرق إلى الغرب؟ قال: مسيرة الشمس يوماً.

قال: ما للناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قال: لأن رعية أبي بكر وعمر أنا وأمثالي، ورعيتي أنت وأمثالك.

قال: أنت أحسن الناس، قال: أنا فوق ما في نفسك ودون ما تقول، فأنت في نفسك أني لست بذاك، فأنا فوق ما في نفسك، وأنت بالغت في القول وأنا دون ذلك.

هو يصنع الكلمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الكلمة المشهودة التي يقول ابن عبد البر: ما قيل مثلها: قيمة كل امرئ ما يحسن.

ومن الدهاة في سرعة البداهة ابن أبي العيناء الذي ألف فيه كتاب: أخبار ابن أبي العيناء للشيخ العبودي؛ فعنده سرعة بديهة للجواب، وكان أعشى وكان مجدر الوجه، فرآه رجل من حساده، فقال: كأن وجهك وجه قرد، قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس:٧٨].

ومرة مرّ بوزير اسمه ابن عبيد الله كان في الدين متساهلاً، ليس بصاحب صلاة ولا دين، فقام يتنفل، قالوا: ما رأيك يا ابن أبي العيناء الوزير يتنفل؛ يصلي الضحى؟ قال: لكل جديد لذة، ذاق طعم الصلاة، فوجد لذة.

والعمري كان رئيس وزراء اليمن وأديباً له كتاب: سفينة الأدب والتاريخ، يقول: كان هناك رجل سريع البديهة من العلماء، فجلسوا يتغدون عند أحد الأعيان في اليمن، وهذا الرجل مشهور عنه أنه يتعامل بالسحت، يتعامل بالربا، ومشهور عنه الكذب، فهم على مأدبته على الغداء عند السفرة عنده وهو لم يجلس معهم، جلس يناظر فيها ويحكي لهم كذباً، يحدثهم قصصاً خرافية، ثم التفت إلى العالم وقال: كيف حالكم يا فلان؟ قال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة:٤٢]، وهذا لفظ القرآن، الله سبحانه وتعالى يقول عن بني إسرائيل: ﴿سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[المائدة:٤٢] يقول: يسمعون الكذب ويعملون به، ويأكلون السحت، فانظر كيف أجابه، يقول: نحن نأكل على مأدبتك السحت ونسمع الكذب، لكن لا يأتي بمثل هذه إلا قليل من الناس، وابن الجوزي أتى في كتاب الأذكياء بنقولات من هذا، ومن أذكى الناس سيد الخلق ﷺ.

وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ كان من الذين يهجون رسول الله ﷺ، وكان يحاربه في الغزوات، وكان ضده، فلما أتى الفتح، والرسول ﷺ يريد فتح مكة يقيم دولة العدل ويلغي دولة الظلم والاستبداد والكفر، فجاء أبو سفيان فأخذ أطفاله يريد الفرار بهم إلى البرية، فلقيه علي بن أبي طالب، قال: إلى أين يا أبا سفيان؟ قال: أذهب بأطفالي، والله لئن وجدني محمد ليقطعني إرباً إرباً، قال: والله ما صدقت، والله إنه أبر الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، انظر إلى ذكاء علي! عد إليه يا أبا سفيان، وأسلم، فإذا أسلمت فسلم عليه بالنبوة أي: على الرسول ﷺ- وقل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[يوسف:٩١]، لأنهم قرابة وأبناء عمومة، ويعلم علي أن الرسول ﷺ سوف يأتي بالآية التي بعدها، جواب يوسف عليه السلام؛ لأن يوسف لما قال له إخوانه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١] ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢]، فجاء أبو سفيان- وحفّظه علي- في الطريق قال أبو سفيان: ما هي الكلمة؟ قال: قل: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١] مع العلم أنه قاتل، وسب رسول الله ﷺ بقصائد، وشارك في إيذائه وشارك في طرده، لكن انظر أحلم الناس عليه الصلاة والسلام، ورسول الله ﷺ جالس، مثلما قال البوصري:

كأنَّه وهوَ فردٌ في جلالتِه ... في عسكرٍ حينَ تلقاهُ وفي حشمِ

وحيد كأن الدنيا معه عليه الصلاة والسلام، عليه من المهابة والجلالة والصدق والكرم والوفاء ما يعلم الله من حسن ومن كرم، فأتى ومن الصحابة من هو واقف، فأتى أبو سفيان وقال: السلام عليك يا رسول الله، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١]، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢] »، وبكى الناس من هذا الموقف، ودخل ﷺ منتصراً وقال لأعدائه: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

إنْ كانَ أحببتُ بعدَ اللهِ مثلَك في ... بدوٍ وحضرٍ وفي عربٍ وفي عجمِ

فَلا اشتفَى ناظرِي منْ منظرٍ حسنٍ ... ولَا تفوّهَ بالقولِ السَّديدِ فمِي

اللهم سددنا، وآتنا قولاً رشداً.



obeikandl.com

شعر الشكوى

يقول أبو الطيب المتنبي:

رمانِي الدَّهرُ بالأرزاءِ حتَّى

فؤادِي فِي غشاءٍ مِنْ نِبَالِ

نسب الرمي إلى الدهر والدهر إنما هو ظرف لمقدورات الله ﷻ ومقدراتـه جل في علاه، والله سبحانـه وتعالى هو الفاعل، وهـو سبحانه وتعالى المقدر، وهـو الذي يقضي لا الدهر، لكن هذا من تجاوز الشعراء فإنهم ينسبون الحوادث إلى الدهر والأيام والزمان والليالي، والذي يتصرف فيها هو الله سبحانه وتعالى، حتـى في الحديث الصحيح

obeikandi.com

في البخاري قال: «**يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك**» يعني: يسب الدهر، ومن سب الدهر فإنما يعود السب على من أحدث الحوادث أو من قدر الحوادث وهو الله سبحانه.

يقول: من كثرة ما أتاني من سهام الدهر والأيام والمصائب أصبح فؤادي وقلبي في غشاء من كثرة السهام التي وقعت علي.

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرَتِ النِّصالُ علَى النِّصالِ

لكثرتها يتكسر بعضها على بعض.

فعشتُ ولا أبالِي بالرَّزايَا لأنِّي ما انتفعتُ بأنْ أبالِي

يقول: ما دمت باليت فما نفع عدم مبالاتي؟ واهتممت من هذه الأمور فما نفع اهتمامي ولا حزني، فلن أحزن ولن أهتم ما دام ذلك لم ينفع، وهي قصيدة من قصائده البديعة التي مطلعها:

نعدُّ المشرفيَّةَ والعوالِي وتقتلُنا المنونُ بلا قِتَالِ

يعني: نجهز السيوف والرماح ونعلقها حتى ندفع الأعداء ونرد الخصوم لكن الموت يدخل علينا فلا يرده سيف ولا رمح ولا صاروخ ولا دبابة، يقتحم علينا بيوتنا.

ونرتبطُ السوابِقَ مقرباتٍ فمَا ينجينَ مِنْ خببِ اللَّيالِي

يقول: الخيول نربطها قريبة منا؛ لكي نكرّ بها ونفرّ ونصول ونجول فما ينجيننا من مصائب الليالي، تأتينا الليالي مسرعة لنا والخيول ما تنجينا منها.

ومن أبدع أبيات هذه القصيدة قوله يمدح سيف الدولة:

وإنْ تفقِ الأنامَ وأنتَ منهُمْ فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتىً وحالُكَ واحدٌ فِي كلِّ حالِ

يقـول: تتقلب بك الأمـور، وتتقلب بك الأيام ولكن حالك واحـد، فالأيام سرور وحزن وشدة ورخاء، ولكن أنت في الشدة وفي الرخاء وفي السرور والحزن واحد من الثبات والرسوخ والشجاعة، وقد سار الشعراء على هذا المعنى، يقول شاعر كبير:

تنكّرَ لِي دهـرِي ولَـمْ يـدرِ أنَّنِي ... أعـزُّ وأحـداثُ الـزمـانِ تـهونُ

فباتَ يرينِي الدهرُ كيفَ اعتداؤُه ... وبـتُّ أرِيـه الصَّبـرَ كيفَ يكونُ

وأعـود إلى القـول: إن الدهر لا يتنكر، ولا يقدر شيئـاً ولا يضر ولا ينفع، إنما الذي يضر وينفع ويقدر هو الله وحده سبحانه وتعالى.

يقول: باتت الأيام والمصائب تريني قوتها، وأنا أريها الصبر الذي عندي.

ويقول شاعر آخر:

تستَّرتُ مِنْ دهـرِي بظلِّ جناحِه ... فعينِي تـرَى دهـرِي وليسَ يرانِي

فلَو تسـألُ الأيـامَ عنِّي مـا درَتْ ... وأيـنَ مكانِي مـا عـرفْنَ مكانِي

وهذا من أبدع الأبيات. فكلٌّ يشتكي؛ لأن الحياة طبعت على كدر كما قيل، فهي منغصة ودار نكد ودار هم حتى يقول الشاعر:

كـلُّ مَـنْ لاقـيـتُ يشـكُو دهـرَه ... ليـتَ شعـرِي هـذهِ الـدُّنْيـا لمَـنْ

خلقـت لمن؟ يعنـي: لا أحد مرتاح عليها، المرتاح تكـون له قصة وغصة، ما ملئـت دار حبـرة إلا ملئت عبرة، فـي كل وادٍ بنو سعد، مصائـب وفجائع وأزمات ومشكلات، هذه هي الدار، يقول التهامي:

طبعَتْ علَى كـدرٍ وأنـتَ تريـدُها ... صَـفْـواً مِـنَ الأقـذاءِ والأكـدارِ

ومكـلّـفُ الأيـامِ غيـرَ طبـاعِها ... متطلـبٌ فِـي الـمـاءِ جُـذوةَ نـارِ

فكلهم يسير على هذا المعنى، والواجب على الإنسان أن يفزع إلى الواحد الأحد في هذه، ليخفف عنه، والله سبحانه وتعالى خلاف ما قال الشعراء يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] ويقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] يأتي فرج وسوف تتيسر الأمور وتسهل الأزمات، وبعد الليل نهار، وبعد القحط غيث، وبعد الجوع شبع، وبعد الظمأ ري، سنة ماضية.

هيَ الأيامُ والغِيَرُ ... وأمرُ اللَّهِ يُنتظرُ
أتيأسُ أَنْ ترَى فرجاً ... فأينَ اللهُ والقدرُ

وكما يقول أحد الشعراء الشعبيين:

لا تشتكي يا واحدٍ بات مهموم ... ترى الفرج عند اكتراب الحزامِ
وإن كان عينك خالفت لذة النوم ... أنته تنام وخالقك ما ينامِ

فما دام الله سبحانه على العرش استوى، فإنه يقلب الأمور إن شاء الله من العسر إلى اليسر. وأبو تمام لخص هذه الأيام جميعاً كما في بعض المناسبات يقول:

مرَّتْ سنينٌ بالسعودِ وبالهنَا ... فكأنَّها مِنْ قصرِها أيَّامُ

يقول: في حياتنا مرت بنا سنون، سنوات جميلة من الرغد والراحة والاستقرار والأمن مثل الأيام التي تمر بك وتمر بي. فكأن السنة يوم؛ لأن أيام الخير وأيام الرغد وأيام السكينة قصيرة، ولكن أيام الشقاء وأيام الحبس وأيام المرض وأيام الضنك وأيام المشقة طويلة، قال:

ثمَّ انثنَتْ أيامُ هجرٍ بعدَها ... فكأنَّها مِنْ طولِها أعوامُ

جـاءت أيام شدة وأيام صعوبات كل إنسان لا بد أن يمر بها ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]، شـدة ورخـاء، وجوع وشبـع، وفقر وغنى، ومرض وصحة.. وهكذا. هذه الأيام كأنها أعوام من الهم والنكد.

ثمَّ انقضَتْ تلكَ السِّنين وأهلُها فـكـأنَّـهـا وكـأنَّـهـم أحـــلامُ

وهذه أيام الناس لم يبقَ أحد، الذين عاشوا السرور، الذين عاشوا الراحة، الذين عاشـوا الضنك، الذين عاشوا المرض، كلهم ذهبوا، مـن اغتنى ومن افتقر، من صح ومـن مرض، من وصل ومن هجر، كلهـم ذهبوا، حتى إن من اللطائف الأدبية ما يروى أن هنـاك سجنـاً اسمـه سجن عارم، وعارم هـذا كان مولى لعبـد الرحمن ابن عوف غضب عليه فسجنه في بيت في مكة، فسمي سجن عارم، ثم اشترى البيت ابن الزبير وسجـن فيه محمد ابن الحنفية؛ لأنه لم يبايعـه، فمحمد ابن الحنفية من ولد علي بن أبـي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسجنه، فأتى جيشـ من العراق وأخرجوا محمـداً الرجل الشريف العظيم هذا من السجن، فغضب كثير عزة على ابن الزبير وقال:

تـحـدِّثُ مَـنْ لاقـيـتَ أنَّـك عائـذٌ بلِ العائذُ المظلومُ فِي سجنِ عارمِ

لأن ابن الزبيـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمي نفسه العائذ ببيت الله، يعني: تخندق في الحرم وسمـى نفسـه: العائذ ببيت الله، قال: هـو محمد ابن الحنفيـة المظلوم العائذ لا أنت، فيريد أن يقول: لا تفرح كثيراً أنك والٍ وأنك سجنته.

فمَا هـذهِ الـدُّنْيا جمالٌ لأهلِها ومَا الشرُّ في الدُّنْيا بضربةِ لازمِ

يعني: الشر لن يستمر.

لـكلِّ زمـانٍ دولـةٌ ثـمَّ تنقضِي ويصبحُ مـا لاقيتَه حلمَ حالمِ

كل الدنيا سيصير أحلاماً.

الآن أيـن ابن الزبير؟ أين سجن عـارم؟ أين محمد ابن الحنفية؟ كلها تاريخ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[مريم:٩٨]، والمصائـب أتت الكبار

والصغـار، ومرت بهم على حسب إيمان الإنسان، كما قال ﷺ: «**يبتلى العبد على حسب إيمانه**» وكما قال ﷺ: «**ويبتلى الأمثل فالأمثل**» «**وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم**»، وفي الصحيح: «**من يرد الله خيراً يصب منه**»، فلذلك يقول عروة بن الزبير لما بترت رجله ومات ابنه محمد في يوم واحد:

لعمرُك ما مدَّيتُ كفي لريبةٍ ... ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي

ولا دلَّني فكري ولا نظري لها ... ولا دلَّني سمعي عليهَا وَلَا عقلي

وأعلمُ أنِّي لَمْ تصبْنِي مصيبةٌ ... مِنَ اللهِ إلا قَدْ أصابَتْ فتًى قبلِي

وهذه الأبيات لمعن بن أوس، ولكنه استشهد بها.

فيقول: إن هذه المصائب تمر بالناس جميعاً؛ ولذلك عليك أن تتسلى وتتعزى، فهذه الدار مفجعة والقرار عند الواحد الأحد، وما دمت مؤمناً تحمل الإيمان فهذا الذي يجعلك تفوض الأمر إلى الله، ولذلك تجد الشعراء مثل المتنبي يبتلى بضعف إيمان، فقلما يتوكل على الله: يتشكى من الزمان، ومن تقلب الناس، ومن الغدر، ولو كان صاحب طاعة وعاد إلى كتاب الله ﷻ وسنة الرسول ﷺ لوجد الهناء.

وابن تيمية لما سجن غفر الله له قال: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وسجني خلوة.

وزاروه مرة وهو مريض قالوا: ماذا يوجعك يا أبا العباس ويؤلمك؟ قال:

تموتُ النفوسُ بأوصابِها ... ولم يدرِ عُوّادُها ما بِهَا

وما أنصفَتْ مهجةٌ تشتكِي ... أذاها إلى غيرِ أحبابِهَا

فالشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا أبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء في الطاعون، فقال:

أمـنَ المـنـونِ وريـبِـهـا تـتـوجَّـعُ ... والـدهـرُ ليسَ بمعتبٍ مَـنْ يجزعُ

ومن ضمن الأبيات:

وإذا المـنـيـةُ أنشـبَـتْ أظْـفـارَهـا ... ألـفـيـتَ كـلَّ تـمـيـمـةٍ لا تـنـفـعُ

وتـجـلُّـدِي لـلـشـامـتـيـنَ أريـهـمُ ... أنِّـي لـريـبِ الـدهـرِ لا أتضعضعُ

حـتَّـى كـأنِـي لـلـحـوادثِ مـروةٌ ... بـصـفـا الـمـشـقـرِ كـلَّ يـومٍ تـقـرعُ

أبيـات جميلة، لكنّ فيها شكـوى وتبريحاً، والإنسان أحيانـاً ينفس عن نفسه ببيت، مثلما قال الأول:

ولا بدَّ مِنْ شكوَى إلَى ذِي قرابةٍ ... يواسيكَ أو يسليك أو يتوجَّعُ

فـإذا أحسسـت بإنسان من أهـل الفضل والإحسان والخير فلـك أن تشاجيه وتحدثه دون أن تشكو الله إلى عباده سبحانه وتعالى، يقول المتنبي:

لا تـشـكُـوَنَّ إلـى عـبـدٍ فَـتُـشْـمِـتَـه ... شكوَى الجريحِ إلى الغربانِ والرخمِ

إنسـان مجروح ويذهب عند الغربان التـي تتمنى المجروح، والرخم يتمنى أن تأكل من المجروح، فيقول: إن الناس مثل الغربان والرخم تشكو لهم جراحك وهم يتمنونهـا، اشكُ للواحد الأحد سبحانه وتعالى الذي هـو يعلم السر وأخفى، والذي بيده اللطـف سبحانه، وهو المعافي والمشافي وهو الكافـي، وهذا شأن المؤمنين؛ فلما أُخبر ﷺ بأن الكفار يجمعون له قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، فنقلت هذه فـي أجمل صورة في القـرآن: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمـران:١٧٣] يعنـي: الكفـار، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾[آل عمـران:١٧٣] قـال عـن المؤمنين والرسول ﷺ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٤]، ولهذا أحياناً تأتي الإنسان مصائب، حتى يضطر إلى أن يقبل بأي شيء، ولو كان لا يقبل به في أيام المعافاة والصحة، يقول:

يقضَى علَى المرءِ في أيامِ محنتِه حتَّى يرى حسَناً ما ليسَ بالحسنِ

شيء ليس بحسن لكنك مضطر فترى أنه حسن، مثل قول المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدنيا علَى الحرِّ أنْ يرَى عَـدُوًّا لـه مـا مِـنْ صـداقتِـه بُـدُّ

يقول: إنها تضطرك إلى أن تجامل، تأتي عدواً لكنك مضطر فتجامله حتى تقضي أمورك، ولو ما فعلت ذلك لما حصل من ذلك شيء، وهذه من نكدها، ويقول آخر:

رُبَّ يـومٍ بكيتُ مِنْـه فلمَّا صـرتُ فِـي غيـرِه بكيتُ علَيه

يقول: كنا نبكي من أيام ونقول إنها قاسية وشديدة، وجاءت أيام أغلظ منها وأفظع فبكينا على تلك الأيام، قلنا: يا ليت تلك الأيام ترجع لنا، وبكينا عليها وقلنا: ليتها تعود لنا، وأبو الطيب له قصيدة أخرى فيها تفجع يقول:

صحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزمانا وعناهُمْ مِنْ شأنِه ما عنانَا

وتولَّوا بغصَّةٍ كلُّهم مِنْه وإنْ سرَّ بعضَهم أحيانَا

ونعود للمتنبي في قصيدته التي يقول فيها:

رمانِي الدَّهرُ بالأرْزاءِ حتَّى فؤادِي فِي غشاءٍ مِنْ نِبَالِ

هو يرثي أخت سيف الدولة، ومن ضمن الأبيات يقول:

ولو أنَّ النساءَ كمَنْ فقدْنا لفُضلتِ النساءُ علَى الرِّجالِ

فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلَالِ

فنحـن نسميها شمساً بالتأنيث. وليس الرجل على إطلاقه أفضل من المرأة، فبعض النساء أفضل مـن الرجال، ولو أنهـا أنثى، فالشمس اسمهـا مؤنث، وهي أفضـل من الهلال المذكر، وهذا من نبوغه وعقلـه وعبقريته وذكائه ومن ألمعيته أن يأتي بمثل هذه الأمثال.

ونعـود إلى كلامه فـي القصيدة، ولا بد من أن أقف معـه وقفة، فهو يقول في نفس القصيدة:

وحـالاتُ الـزَّمـانِ عليكَ شتَّى وحـالُـك واحـدٌ فِـي كـلِّ حـالِ

يعنـي سيـف الدولة؛ لأنه فـي فجيعة من مـوت أخته، وتأتيـه مصائب وتأتيه انتصارات وفتوح، ولكنه في الشدة وفي الرخاء واحد ثابت على منهج واحد، وهذه حال المؤمن فهو دائم مستمر في الصيف، في الشتاء، في السلم، في الحرب، في الغنـى، فـي الفقر، فيقول: في ثباتك وفي رسوخك أنـت ثابت دائم، ثم أتى بذلك البيت الفريد:

وإنْ تـفُـقِ الأنَـامَ وأنـتَ مـنهُمْ فـإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الـغَـزالِ

وهـذا المعتمد بن عباد الأمير الملك في الأندلـس كان آية في الجود والكرم والعلـم والفهم وفي الأخيـر غلبه على مملكته يوسف بـن تاشفين المرابطي قائد المرابطيـن، وقاده مقيداً إلى السجن، فمـا رُئيَ أصبر منه ولا أحزم منه، ووضعه فـي سجن أغمات وجاءت بناته يعدنه في العيـد وهو في السجن بعدما سلب ملكه وأخـذن يغزلن للناس بالأجرة، وجئن حافيـات حسيرات جائعات، ويوم رآهن من وراء الباب دمعت عيناه، وسلمن عليه، فقال يخاطب نفسه:

فيمَا مضَى كنتَ بالأعيادِ مسرورًا فـزارَك العيدُ فِي أغماتَ مأسُورًا

يقول: كنت ملكاً ذاك الوقت والدنيا معك. والآن أنت محبوس.

تـرَى بنـاتَك فِـي الأطـمـارِ بـالِيَـةً ... يطأنَ فِي الطينِ ما يملكنَ قِطْميرَا
يطأْنَ فِي الطينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كأنَّـهـا لـم تـطَـأْ مِـسْـكاً وكـافُـورَا

كأنهـن مـا مشين فـي القصر قبـل، القصر الملكـي، والبـلاط الملكي على المسك والكافور؟

ولذلك لا يغتر بهذه الدنيا إلا مخدوع، يمسي الإنسان ثرياً ويصبح فقيراً، ويصبح معافى ويمسي وهو مريض، ويمسي شاباً وتجد فيه قوة وما يأتي الغروب إلا وينقل إلى المقبرة، فلا أمان، الأمان في جنات النعيم، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول له ابنه عبـد الله: متى الراحة - يعني في الدنيا-؟ قـال: إذا وضعت رجلك اليمني في الجنة فقـد ارتحت، أما قبلها فلا، يعني: قبـل أن تتجاوز الصراط لا تظن أن لك راحة، إذا تجاوزت الصراط ودخلت الجنة فتلك الراحة، نسأل الله أن يحقق لنا ذلك وإياكم.

والبرامكـة أيضاً نكبوا، سيقوا في عهد هـارون الرشيد وأخذهم إلى الحبس وقتل جعفر البرمكي وسجن الفضل وسجن يحيى بن خالد وكانوا يسمونهم: عروس الدنيـا، وقبـة الفلك، عندهم من الجـود والعطاء والبذل، وأقبلـت الدنيا عليهم، وكان الأعيـان يقفون لهم، والدنيا تحييهم، والزمان يصفق لهم، ثم غضب عليهم هـارون الرشيد، فأخذهم وبددهم، ووضعهم في الحبس، وقتل بعضهم، حتى جاء أميـر متأخر يحسدهم بعدهم بمئة سنة، وبعض الناس يحسد من قبله، فبعضهم يأتي الآن يحسد المتنبي، وبعض طلبة العلم يحسد ابن تيمية يقول: ليس بصحيح مثلاً القصص التي تروى عن حفظ ابن تيمية، فالناس يبالغون، وأظن الشافعي لا يحفظ هذا العدد، وهو لا يحفظ أركان الصلاة.

وابـن أبـي العيناء هذا الداهيـة الدهياء صاحب سرعـة البداهة أديب وكان مباشـرة يجيب، عنده سرعة بديهـة وجواب حاضر، حتى ألف فيه الشيخ العبودي

الرحالـة كتاب أخبـار ابن أبي العينـاء، فقال هـذا الأمير وهو متأثـر: إن الناس يذكـرون البرامكة، وقد مات البرامكة وقتلوا وذهبوا، لكن كرمهم إلى الآن يذكر، قـال: ليس بصحيح كثـرة ما ينقل عن البرامكة في الكـرم، الناس يكذبون، فقال ابـن أبي العيناء: أيها الأمير، أنت حي ترزق وترجى وتخاف لماذا لا يكذب الناس عليـك ولـو كذبة في الكرم، وهـؤلاء أموات لا يرجون ولا يخافـون والناس يكذبون عليهم فسكت، فكأنما ألقمه حجراً.

فالبرامكة لما سجنوا قيل ليحيى بن خالد: بعد النعيم وبعد العز وبعد السؤدد توضعون في الحبس؟ قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها، وحتى إنهم في الحبس يستشهدون بقول الشاعر:

خرجْنا منَ الدُّنْيا ونحنُ مِنْ أهلِها فلسْنا منَ الأمواتِ فيهَا ولا الأحياءِ

لسنا في الدنيا ولا في الآخرة.

(**إذا جاءَنا السجانُ يوماً لحاجةٍ**) إذا فتح العسكري الجندي فتح الباب.

(**عجبْنا وقُلنَا: جاءَ هذا مِنَ الدُّنْيا**) الدنيا التي يسمونها، جاء عندنا يزورنا.

وهشـام بن عبد الملك الخليفة الأموي يقول: جمعت أيام السعادة في حياتي فمـا وجـدت إلا ثلاثة عشـر يوماً، التي ما جـاء فيها تعكير، بالرغـم من أنه ملك وجاءت الأموال والجيوش والعسكر والوزراء والناس والأمة.

ويقولـون: إن أحد الخلفاء الأندلسيين وأظنه الناصر قال: أريد أن أبقى يوماً ما أسمع خبـراً سيئاً، فدخل في بستان وقال للحرس والحجاب والوزراء والجنود: لا تخبرونـي بشيء، فلما جلس وحده وقرب الظهر وإذا بسهم فيه دم وقع بجانبه، قال: لن أرتاح يوماً واحداً، لا بد من إزعاجات، هذه حال الدنيا.

وذكر ابن كثير: إن ابن مقلة كتب المصحف ثلاث مرات، خط ابن مقلة خط مشهـور في العالم الإسلامي، هذا ماذا فعل؟ سطا على دار لعجوز مسكينة هناك فدعت عليه فقطعت يده، حتى يقول:

(يا حياتِي، بانتْ يمينِي فبينِي)

من قصيدة ذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية.

وأتـى بعـده ابن بقية الوزير فأطعـم المساكين، وحفظ القـرآن، ونشر الخير، وأخذ الناس يدعون له، والخطباء يذكرونه يوم الجمعة، فأخذت الغيرة الملك عضد الدولـة فن خصرو الديلمي، وهـو بطاش قتل أربعة ملوك من قرابته وأتى برؤوسهم يوم عيد الأضحى وركبها فوق بعضها، وجاء يسلم عليه أحد الشعراء، فقال:

صلِّ يَا ذَا العُلا لربِّك وانْحرْ ... كـلُّ ضـدٍّ وشـانـيٍ لـكَ أبْـتَـرْ

أنـتَ أعلَى مِـنْ أن تكونَ أضاحيـ ... ـك قُـرُومًـا مِـنَ الجمـالِ تعفَّرْ

يسلم عليه يوم العيد ويبارك له يوم العيد، وإذا الرؤوس معلقة، هؤلاء الأربعة ملوك وقادة الجيوش رؤوسهم معلقة في المجلس كلهم؛ لكي يري الناس أنه مهيب، وهو من أبطش ومن أجبر من تولى في التاريخ واسمه عضد الدولة مدحه المتنبي بقصيدته اللامعة التي يقول فيها:

فِـداً لـكَ مـنْ يقصرُ عَـنْ مـدَاكَا ... فـمـا مـلـكٌ إذاً إلا فـداكَـا

أروحُ وقَـدْ ختمتُ علَى فـؤادِي ... بـحـبِّـك أَنْ يـحـلَّ بـه سُـواكَا

إذَا اشـتـبـكَتْ دمـوعٌ فِـي خـدودٍ ... تـبـيَّـنَ مَـنْ بـكَـى مِـمَّـنْ تـبـاكَى

هذه القصيدة التي مدح بها عضد الدولة.

فدخـل عليه ذلـك الشاعر وإذا برؤوس الملوك وقـادة الجيش الذين قاتلهم معلقة يوم عيد الأضحى فقال: أنت لا تضحي بالجمال ولا بالبقر ولا بالغنم.

بَلْ قُرُوماً منَ الملوكِ ذوي الـ ـسؤْدُدِ تيجانُهم أمامَك تنثَرْ

في المعركة، يقول: تنثر تيجانهم وتقطع رؤوسهم.

كلَّما خرَّ ساجِداً لكَ رأسٌ منهم قالَ سيفُك: اللهُ أكبَرْ

يقول سيفك: الله أكبر وتنزل رؤوسهم يقطعها، وهذا من أجمل ما قيل في المدائح، ولو أن فيه شراسة وفيه تهييج على الاعتداء ولكن هكذا التاريخ كتب.

فهذا ابن بقية الذي كان مطعماً أخذت الغيرة منه عضد الدولة فافتعل ضده إشكالاً وقتله وصلبه عند باب الطاق وخرج أهل بغداد وإذا هو مصلوب اليدين وصدره مكشوف، فبكى العلماء وتأثر المساكين الذين كان يطعمهم والأيتام والمحاويج وقفوا، وقام أبو الحسن الأنباري؛ لأن أعطياته وطلابه في المسجد كثيرة فمنهم عالم ولغوي وشاعر فوقف عليه وسلم وبكى، وقال:

علوٌّ فِي الحياةِ وفِي الممات بحقٍّ أنتَ إحدَى المُعجزاتِ
كأنَّ الناسَ حولَك حينَ قامُوا وفودُ نداكَ أيَّامَ الصِّلاتِ
كأنَّك واقفٌ فيهِمْ خطِيباً وهُمْ وقفُوا قِيَاماً للصَّلاةِ
مددتَ يديْكَ نحوَهُمُ احتفاءً كمدِّهم إليهِمْ بالهِبَاتِ
ولمَّا ضاقَ بطنُ الأرضِ عَنْ أَنْ يُوَاروا فيهِ تلكَ المَكْرماتِ
أصارُوا الجوَّ قبرَك واستعاضُوا عنِ الأكفانِ ثوبَ السَّافِياتِ
وما لكَ تربةٌ فأقولُ تُسْقَى لأنَّك نصبُ هطلِ الهاطِلاَتِ
عليكَ تحيةُ الرحمنِ تَغْدُو بتبريكِ الغَوادِي الرائِحَاتِ
لعظمِكَ فِي النفوس تبيتُ تُرعى بحرَّاسٍ وحفَّاظٍ ثِقَاتِ

لأنهم وضعوا عسكراً حوله وجنوداً؛ لكيلا ينزله أحد من الجبل.

وتُوقِدُ حولَك النيرانُ ليلاً كذَلِكَ كنتَ أيَّامَ الحَياةِ

مبكية، مفجعة، مفزعة، لا يوجد في الأدب مثل هذه القصيدة، حاول الشعراء أن يعارضوه فما وجدوا لذلك من سبيل.

يقول: ولو أني استطعت القيام بحقه علينا والقيام بالحقوق والواجبات؛

ملأتُ الأرضَ مِنْ نَظمِ القوافِي ونحتُ بِهَا خلافَ النَّائِحَاتِ

وهذه من الوقفات فيمن أصيب، فيمن فجع، فيمن أتته داهية دهياء وهو ابن بقية، وفي الناس كثير ممن أصيبوا، والتاريخ مليء بهذا.

اللهم احقن دماء المسلمين.



obeikandl.com

ليل الشعراء

يقول أبو الطيب المتنبي:

وكَمْ لظلامِ اللَّيلِ عندَكَ مِنْ يدٍ
تحدّثُ أنَّ المانويةَ تكذِبُ

مـا معنى هذا الكلام؟ هـو طبعاً يمدح كافورًا، والمانويـة: مذهب أرضـي كفري يـرى أن النور إله الخير، وأن الظلام (الليل) إله الشر، فيرون أن من يقاتل في الليل لا ينتصر؛ لأنه معه إله الشر، وأنه لا بد أن يقاتل الإنسان في النهار حتى ينتصر، فكافور قاتل فـي الليل فانتصر، فيقول: أنـت الآن ترد على المانوية؛ لأنك انتصرت، وهذا دليل على أن المتنبي كان مطلعاً وكان مثقفاً، وهذه عبقرية طبعاً، قال:

obeikandl.com

(**وكمْ لظلامِ الليلِ عندَك مِنْ يدٍ**): من جميل، (**تحدِّثُ**) هذه اليد، (**أنّ المانويةَ تكذِبُ**) والدليل أنها تكذب أنك انتصرت في الليل، وهذا صحيح أنها كاذبة في زعمها، فالله وحده سبحانه الذي يقدر الخير والشر، والإله الواحد سبحانه هو الذي يستحق العبودية لا إله إلا هو، لكنه تفنن في هذا البيت فكان جميلاً، وهي من قصيدته الرائدة التي قال فيها:

أغالِبُ فيكَ الشوقَ والشوقَ أغلبُ وأعجبُ مِنْ ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ

إلى أن أتى بهذا البيت وذكر فيه الليل. والعرب تذكر الليل على أضرب: فمنهم من يشكو من طول الليل، كما فعل امرؤ القيس في معلقته التي يقول فيها:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخَى سُدُولَه عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتَلِي

فقلتُ له لمَّا تمطَّى بصلبِه وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ:

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصْباحُ منكَ بأمثَلِ

فامرؤ القيس أحسن مَنْ وصف الليل من الشعراء، على أن بعض العلماء يقدم وصف النابغة فيقول: ليلة نابغية، ففي المرتبة الثانية النابغة أو زهير، أما المرتبة الأولى فهي لامرئ القيس في الشعر؛ ويقولون: اليمين البارة هي للنابغة الذبياني واليمين الفاجرة هي لامرئ القيس؛ لأن امرأ القيس يقول:

حلفت لها بالله حلفة فاجرٍ لنامُوا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالي

وأما النابغة الذبياني فإنه حلف يميناً بارة وذكر الله في ذلك فقال:

حلفتُ فلَمْ أترُكْ لنفسِك ريبةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

يقول: ما وراء الله مقصود للحالف، الله أعظم من كل شيء، فجعل العلماء يمين النابغة هي اليمين البارة، وأما يمين امرئ القيس فهي يمين فاجرة.

نعود لليل، ليلة نابغية التي تشبه ليلة النابغة التي يقول فيها:

كِلينِي لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسِيه بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتَّى قلتُ: ليسَ بمنقضٍ ... وليسَ الذِي يرعَى النجومَ بآيبِ

وصدرٍ أراحَ اللَّيلَ عازِب همّه ... تضاعفَ فيهِ الحزنُ مِنْ كلِّ جانبِ

ثم مدح الملوك إلى أن يقول فيها:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم ... بهِنّ فلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائبِ

وعلى البحر والقافية هناك قصيدة لأبي تمام، وقصيدة للمتنبي يقول فيها من ضمن أبياته:

إذا علَوِيٌّ لم يكُنْ مثلَ طاهرٍ ... فما كانَ إلا حجَّةً للنَّواصِبِ

وأما أبو تمام فقصيدته بديعة مدح فيها أميراً من بكر بن وائل، يقول:

لئِنْ فخرَتْ يوماً تميمٌ بقوسِها ... وزادَتْ علَى ما أسَّستْ منْ مناقبِ

فأنتُمْ بذِي قارٍ أمالَتْ سيوفُكم ... عروشَ الذينَ استرهنُوا قوسَ حاجبِ

مناقبُ أقوامٍ إذا قرنُوا بها ... مناقبُ أقوامٍ تكنْ كالمثالبِ

ومعنى الأبيات يقول: أنت أيها الوائلي الأمير، من بكر بن وائل أجدادك انتصروا على فارس في معركة ذي قار، ومعركة ذي قار كانت في العام الثاني للهجرة، حتى إن رسول الله ﷺ دعا لهم ولم يكن معهم ﷺ، وكانوا وثنيين لكنهم عرب، فرسول الله ﷺ، طبعاً غضب لعروبيته ﷺ ولقومه وقال: «**اللهم انصرهم على فارس اليوم**» سأل الله أن ينصرهم على فارس.

وقصة القصيدة: أن تميمًا عطلوا قافلة لكسرى تذهب إلى اليمن، فأخذ منهم خمسين رهينة من تميم، فذهب حاجب بن زرارة وهو من ساداتهم ومعه

قوس لا تساوي درهمين، لكن عنده عزة وعنده مكانة في العرب وفي الناس، وهذه القوس مربوطة بعرق من جلد، فدخل على كسرى، فقال: أبيت اللعن أيها الملك- كلمة تقال للملوك في الجاهلية- أطلق لي الأسارى من بني تميم وهو سيدهم، قال: وما هو الرهن؟ ارهن لنا شيئاً، قال: هذه القوس، فضحك كسرى، وقال: في خمسين من بني تميم تعطيني قوساً، والربيع بن زياد كان عنده وهو عبسي، وقيل: إنه رجل آخر من العرب، قال: أيها الملك، والله لو كسرت هذه القوس ليقتلن من العرب مئة ألف، من عزة حاجب وقوة بني تميم، فأخذ القوس وأطلق الخمسين، فجاءت قافلة أخرى فعطلها بكر بن وائل فأخذ منهم خمسين، فاجتمع بكر بن وائل قالوا: ما عندنا مثل قوس حاجب، ولا عندنا مثل حاجب بن زرارة يشفع لنا عند الملك فماذا نفعل؟ قال هانئ بن قبيصة شيخهم: نقاتلهم مقاتلة، قال: فخرجت قبيلة بكر وقاتلوا فارس فانتصروا عليهم، حتى يقول شاعرهم الأعشى وهو شاعر بكر ابن وائل الذي كان يسكن في منفوحة في الرياض:

لمَّا التقينَا كشفْنا عَنْ جماجِمِنا ... ليعلمُوا أنَّنا بكرٌ فينصرفُوا

قالوُا: البقيةُ والهنديُّ يحصدُهم ... ولا بقيةُ إلا السيفُ فانكشفُوا

لَو أنَّ كلَّ معدٍ كانَ شارَكَنا ... فِي يومِ ذي قارٍ ما أخطاهمُ الشرفُ

لمَّا أمالُوا إلَى النشابِ أيديَهم ... مِلْنا ببيضٍ فكانَ الهامُ تختطفُ

أتوا بالنشاب، بالسهام يضربون بها فهم رماة. فأخرجنا البيض من أغمادها يعني السيوف.

فانتصروا عليهم، فهذا أبو تمام يذكر الأمير الوائلي من بكر في القرن الثالث بعد الإسلام بهذا.

وكذلك يتطاول ليل المحبين أو المشتاقين أو أهل السهر ويطول عليهم الليل، يقول أحدهم:

يـا لـيـلُ الـصـبُّ مـتَـى غـدُه أقـيـامُ الـسـاعـةِ مـوعـدُه

وهذا مما ينقل من نهاة القصائد، وقال أحد العباد:

قـلـتُ لـلـيـلِ: هـل بـجـوفِك سِرٌّ عـامـرٌ بـالـحـديـثِ والأسـرارِ

قـالَ: لـم ألـقَ فِي حياتِي حديثاً كحديثِ الأحبابِ فِي الأسحارِ

مـا هو حديث الأحباب فـي الأسحار؟ جلسة السحر يـوم يتنزل ملك الملوك سبحانـه جل في عـلاه الأحد الصمـد إلى سماء الدنيـا، فيقول: «**هل مـن سائل فأعطيـه؟ هـل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟**» هذه الجلسة أحسـن شيء، لا يعدلها شـيء، وهي التي يجيب الله فيها الدعـوة، كما يقول أحد الشعراء الشعبيين وهو ابن حميد:

وخيـر منها ركعتيـنٍ بالأسحار لا طاب نوم اللي حياته خسارة

فهذه الجلسة ما مثلها جلسة، وهي التي يثاب بها العبد ويفتح عليه حين يقوم يصلي الركعتين.

ومـن العصـر الحديث يقـول أحـد الشعراء يصـف الصحابـة رضوان الله عليهم:

عُبّـادُ لـيـلٍ إذا جـنَّ الـظـلامُ بـهِـمْ كـمْ عـابـدٍ دمـعُـه فِـي الـخـدِّ أجـرَاهُ

وأُسـدُ غـابٍ إذا نـادَى الجهادُ بهِمْ هبُّوا إلَى الموتِ يستَجْدُونَ رؤْياهُ

يـا ربِّ فابعثْ لنا مِنْ مثلِهم نفراً يُـشـيـدُون لـنَـا مـجـداً أضـعـنـاهُ

حتى ذكر ابن القيم من يقول:

فِـي الـلـيـلِ عُـبّـادٌ وعـنـدَ لقائِهِمْ لـعـدوِّهـم مِـنْ أشـجـعِ الـفُـرْسـانِ

وهـذا مثل أصحاب الرسـول عليه الصلاة والسلام، فإنهـم رهبان في الليل فرسان في النهار، رضوان الله عليهم، وهنا قصيدة للمتنبي يقول:

أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجبُ مِنْذاالهجروالوصلُأعجبُ

أمَـا تغلطُ الأيـامُ فـيَّ بـأنْ أرَى عَـدُواً تنـائِي أو حبِيباً تقـربُ

ألا تخطـئ الأيام مرة واحدة فتقـرب لنا حبيبنا وتباعد عدونا، وهذا فيه من التشـاؤم؛ لأن الرجـل لا ينطلق من عبادة ولا ينطلق من خشيـة، هو عنده عبقرية متمـردة ثائرة، فهو دائماً يخاصـم الزمان والمكان، حتى انظـر سبحان الله من الطغيان اللفظي وجموح النفس يقول:

ومَـنْ عـرفَ الأيـامَ معرفتِي بِهَا وبالنَّاسِ روّى رمحَه غيرَ راحمِ

يقول: لو عرفتم الناس مثلما أعرفهم، لرويتم رماحكم من دمائهم.

وهذا خطأ واعتداء معارض للشرع، لكنه تمرد عبقري؛ لأنه يقول: ما أنصفه الناس وما أعطوه حقه.

وقبل هذا البيت يقول:

منَ الحلمِ أنْ تستخدمَ الجهلَ دونَه إذا كثرتْ فِي الحلمِ طرقُ المثالمِ

وأن تـردَ المـاءَ الـذِي نصفُه دمٌ فتسقَى إذا لم يسقَ مَنْ لم يزاحمِ

فمَنْ عـرفَ الأيَّـام معرفتِي بها وبالنَّاسِ روّى رمحَه غيرَ راحمِ

فليسَ بمـرحومٍ إذَا ظفـرُوا بِه ولا فِي القضَا الجارِي علَيهم بآثمِ

يقول: والله لو ظفروا بك ما رحموك.

ومثل هذا نأخذ منه الفيوضـات البيانية والأدبية والفصاحة، ولكننا نحاكمه إلـى الشريعة التي تنهى عن قتل النفس المعصومة وعن سفك الدم وعن الاعتداء على الآخرين، فإنا نحكم بشريعة الله التي أنزلها على رسوله ﷺ.

ومن أبياته في القصيدة:

لحَى اللهُ ذي الدُّنْيا مناخاً لراكبٍ فكلُّ بَعيدِ الهمِّ فيها معذَّبُ

يقول: لا رد الله هذه الدنيا، ولا بارك فيها، كل إنسان ذو همة عالية معذب في هذه الدنيا، وهو صحيح، تجد من يطلب العلم ذا همة عالية يسهر ويتحسر إذا فاته وقت، والعابد إذا أخطأ وكذلك التقي إذا أذنب، وأيضاً من يريد المجد الدنيوي يأتيه دغلات، ويأتيه عثرات، ويأتيه ضربات، ويأتيه كلام من الحساد، ويأتيه تجريح، ويأتيه تهكم.

وهذا من قصيدته التي قالها في كافور، والتي يقول من بيتها الذي قصدنا شرحه في هذا الباب.

وكمْ لظلامِ الليلِ عندَك مِنْ يدٍ تحدِّثُ أنّ المانويةَ تكذِبُ

فالشعراء يذكرون الليالي؛ فأبو نواس يقول:

شكَونا إلَى أحبابِنا طولَ ليلِنا فقالوُا لنا: ما أقصرَ الليلَ عندنَا

لأن ليل المحب تراه يطول، الهاجر.. المشتاق.. المريض.. المهموم.. المكدر.. المحزون يطول ليله. ولما شكونا وقلنا لهم: ليالينا طويلة، قالوا: أما نحن فما أقصر الليل عندنا، ما هو السبب؟

وذاكَ بأنَّ النومَ يغشَى عيونَهم يقيناً ولا يغشَى لنا النومُ أعينا

قال: لأنهم ناموا، فقصر عليهم الليل، ويقول بشار:

لَم يطلْ ليلِي ولكنْ لم أنمْ

يقول: الليل أصلاً ليس بطويل، ولكني لما سهرت صار طويلاً علي.

فتجد الإنسان إذا كان مريضاً طال الليل عليه، خاصة إذا ما كان يجيد فن العبادة، والأذكار، وتلاوة القرآن، حتى إن بعضهم الآن ما يدري ما يفعل في

الفـراغ، فتجده سهـران في لهو وفي عبـث، يقول: متى يصبح الصبـاح، يريد أن يجلس مع أصحابه ومع أحبابه، ولو عرف الكتاب والسنة والعلم والعبادة والسجود لله لقصر الليل عليه.

والمتنبي في نفس القصيدة هذه يقول من ضمنها ومن أبياتها الفريدة الرائعة:

كلُّ امـرئٍ يولِي الجميلَ محبَّبٌ وكـلُّ مـكـانٍ ينـبـتُ الـعـزَّ طيـبُ

يقول: كل إنسان يحسن فهو محبب إلى القلوب، مثلما قال أبو الفتح:

أحسِنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ فطالمَا استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

يـوم تحسن لإنسان تملك قلبه.. تملك مشاعـره.. تملك أحاسيسه.. تستولي علـى نفسه، حتـى يقول سبحانـه وهذا أجـل الـكلام: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ لأنك إذا قلت للناس حسناً أطفأت العداوة، ويقول سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

فيقـول أبو الطيـب: كل من أعطى جميلاً فهو محبب عنـد الناس، لكن الذي يعطـي السوء فهو السيئ، السيئـة تدفع معك في القبر، ولكن الحسنة تجدها عند الله، وسبقـه أبـو بكر رضي الله عنه بأحسن وأروع وأجمل؛ فقد قام رجل يسب أبا بكر قال: والله لأسبنـك سباً يدخل معك قبرك، قـال أبو بكر: «يدخل معك قبرك ولا يدخل قبري»؛ لأن السوء الذي يقدمه الإنسان يدخل معه هو لا مع الآخر، حتى يقول ابن سعـدي شيخ ابـن عثيمين في رسالته فـي الوسائل المفيدة عـن الحياة السعيدة: اعلم أن الكلام الخبيث الذي يوجه لك يضر صاحبه الذي قاله ولا يضرك أبداً.

فـإنّ الـذي يـؤذِيـكَ مِنْـه سماعُه وإنّ الـذي قالُوا خلافَك لم يقلْ

يقول: إن الذي يولي الجميل من الكلمة الطيبة والفعل الجميل والخير وإسداء المعروف والوقفات العظيمة الجليلة مع الناس، فهذا محبب عند الناس.

وله فرائد في الحكم، ما سبق لها، يقول في بيت ثان:

وأظلمُ أهلِ الأرضِ مَنْ باتَ حاسِداً لـمَـنْ بـاتَ فِـي نعـمائِـه يـتقلَّـبُ

انظر الكلام، يقول: أظلم أهل الدنيا الذي يحسد إنساناً هو سبب لنعمته التي هو فيها، يعني: إنسان أسدى لك جميلاً ووقف معك ثم تحسده على ما أعطاه الله، يقول: أصلاً هذا الجميل الذي عندك هو من عنده فكيف تحسده؟! هذا الظلم.

وإنما قلنا هذا؛ لأننا أصلاً بدأنا بمسألة الليل؛ لأن البيت الأول هو:

وكمْ لظلامِ الليلِ عندَك مِنْ يدٍ تـحـدّثُ أنَّ الـمـانـويـةَ تـكـذِبُ

وفي سنن أبي داود يقول عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى في الليل» ولذلك يستحسن السفر بالليل، وهذا مجرب، يعني فضلاً من الله ﷻ كأن الأرض تخف على المسافر، النهار تبعد فيه المسافات، وفيه حرارة الشمس، لكن بالليل -بإذن الواحد الأحد- يكون السفر ميسراً، وهذا مجرب عند العقلاء، قال: «عليكم بالدلجة» الدلجة: هي السير في الليل، وقيل: هي آخر الليل، «فإن الأرض تطوى بالليل».

والله وصف عباده في الليل، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] فليلهم أحسن ليل: يقومون.. يذكرون الله.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤] فهؤلاء هم الأولياء ولو لم تصلّ إلا ركعتين، لكن تعلن الولاية له سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧] بعض المفسرين يقول: قليلاً يعني: أنهم يصلون قليلاً من الليل، وقال بعضهم: بل كانوا ينامون قليلاً ويصلون كثيراً، على اختلاف في التفسير، والآن الليالي تتعاقب على الناس، يقول العرب: الليالي أكثر من الأيام؛ لأنها هي المشهورات، لذلك تقدم الليالي على الأيام، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١-٢] فقدم الليالي على الأيام؛ لأن ليلة اليوم تتقدم عليه.

علي بن جبلة العكوك هذا الشاعر المشهور، قوي في شعره وبديع، شعره كله نخب كما يقول الذهبي، قتله المأمون؛ لأنه مدح أبا دلف بقصيدة من سبعين بيتاً، هي سبعون بيتًا تخلع القلب إذا سمعتها، فلما مدح علي بن جبلة أبا دلف الأمير الكريم هذا، قال له أبو دلف: احتكم في ثلاث: إما أن تأخذ على كل بيت مئة ألف درهم- مثل مليون الآن-، أو أقاسمك حكم الإمارة الذي عندي، أو تحتكم أنت، قال: أعطني على كل بيت ألفاً، فأعطاه بالأكياس والقطم، لكن من يسمعها يفور دمه، أتى عنده قال:

دعْ جَدا قحطانَ أو مضرٍ ... فِي يمانِيه وفِي مضرِه
وامتدِحْ مِنْ وائلٍ رجلاً ... حجرُ الأيَّامِ فِي حجرِه
المنايَا فِي شدائدِه ... والعطايَا فِي شَبَا ظفرِه

إلى أن يقول:

إنَّما الدُّنْيا أبُو دلفٍ ... بينَ باديه ومحتضرِه
فَإذَا ولَّى أبُو دلفٍ ... ولَّتِ الدُّنْيا علَى أثرِه
كلُّ مَنْ فِي الأرضِ مِنْ عربٍ ... بينَ بادِيه إلى حضرِه
مستعيرٌ منكَ مكرمةً ... يكتسِيها يومَ مفتخرِه

يقول: من يفتخر من العرب كلهم لا يفتخر إلا بك، ومن يريد شيئاً من المجد يجد شيئاً من مجدك، ونسي أن خليفة المسلمين ذاك المأمون العباسي، هذا أمير يراجع ذاك، ثم قال: تعالوا به، فأتوا به وقيدوه، والمأمون طبعاً أمام الرأي العام لن يقتله بحجة أنه مدح أبا دلف، فقال: أخرجوا لنا أبياتاً من ديوانه؛ الملفات

السابقة، يعني: ابحثوا لنا في الأدراج، قالوا: يا أمير المؤمنين، عنده بيتان طاغية في الشريعة والعلماء سيفتون بسفك دمه، قالوا: ما هما؟ أخرجوهما، قالوا: يقول لأبي دلف في قصيدة سابقة:

أنتَ الذِي تنزلُ الأيامُ منزلهَا وتنقلُ الدهرَ مِنْ حالٍ إلَى حالِ

كذاب عدو الله، الذي ينقل الدهر من حال إلى حال هو الله وحده.

وما قضيتَ بأقلامٍ مرتلةٍ إلا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ

من الذي يقضي الأرزاق والآجال إلا الله، ولو عفا عنه ولو استتابه لكان أحسن، فقتله، فالشاهد أنه يقول:

وأرَى الليالِي ما طوَتْ مِنْ قوّتِي ردَّتْه فِي عظتِي وفِي إفهامِي

يقول: صحيح أننا ضعفنا وضعفت قوتي وبدأت أحدودب وبدأت أهزل، لكن زاد عقلي تجربة، لذلك تجد الشيخ الكبير جسمه ضعيف لكن عقله عقل نير مجرب، عنده حكم، وتجد الشاب أقوى شيء ولكن دماغه هايس، ما فيه شيء، فيه هوى، تجده يندفع مرة، أحياناً تجد في الشباب طيشاً وسفهاً، فهو يقول: الحمد لله، لو ضعفنا في أجسامنا استفدنا من الليالي التجربة؛ ولذلك تجد الشيخ الكبير وهو في الستين والسبعين معه عصا واحدودب، لكن عنده حكمة ونضوجاً، وتجد الشاب يسبق الريح، لكنه يتكلم سريعاً ويفعل سريعاً، وفيه طيش وفيه سفه وفيه اندفاع وفيه حدة إلا من رحم الله، يعني: بعض الشباب يكون أعقل، لكن يقول المتنبي:

وما الحَداثةُ مِنْ حلمٍ بمانعةٍ قد يوجدُ الحلمُ فِي الشبَّانِ والشِّيبِ

وهذا كلام عجيب، يقول: حداثة السن ما تمنع، فلما دخلت الوفود عند عمر بن عبد العزيز تكلم شاب، قال عمر بن عبد العزيز: اجلس أيها الغلام، في المسلمين من هو أولى منك– يعني: أكبر منك- قال: يا أمير المؤمنين،

لـو كان الأمـر بالسن لكان فـي المسلمين من هو أولى منك أنـت، فتبسم عمر بن عبدالعزيـز، وكان عمره في ذاك الوقت ثمانية وثلاثين عامًا وهو أمير المؤمنين، وكل الدول العربية والإسلامية هو أميرها، فتبسم.

وقال بعضهم:

تعلّمْ فليسَ المرءُ يولدُ عالِماً ... وليسَ أخو علمٍ كمَنْ هوَ جاهِلُ

وإنّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفَتْ عليهِ المحافِلُ

يقول أحد الشعراء:

تريدُ عجوزٌ أنْ تعودَ فتيةً ... وقدْ يبسَ الجنبانِ واحدودبَ الظهرُ

يقـول: سنـوات هدمت هـذا الجسم، فهـو صحيح أنـه يتهـدم الجسم، لكن التجربة تكبر والعقل ينمو والحكمة تزداد.

وعلـى ذكر الليالي عند المسلمين، يقول أبو بكر: لي ثلاث ليال: ليلة الغار مع الرسـول عليه الصـلاة والسلام، وليلة الهجرة، وليلة بـدر: ليلة الغار يوم بات مع رسـول الله ﷺ، قال له: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، وليلة الهجرة يوم هاجر مع رسول الله ﷺ مرة على اليمين، ومرة على الشمال، ومرة قبله، وليلة العريش في بدر، هذه ثلاث ليالٍ، ويقول الشريف الرضي:

مشروفةٌ بخلافٍ لو أقُولُ لها: ... يومَ الغديرِ لقالَتْ: ليلةَ الغارِ

ومـن الليالي العظيمة في الإسلام ليلة الأحزاب، وهذه ليلة ما أشد منها على المسلميـن على الإطلاق، تكاتفت الأحزاب مـن المشركين وغطفان وبعض قبائل العـرب واليهود وتحزبـوا كلهم ضد رسول الله عليه الصـلاة والسلام، وحاصروا المسلميـن في المدينة وطوقوا المدينة مـن كل الجهات، فأمر ﷺ بحفر الخندق والمشـورة من سلمـان الفارسي، وضاقـت الدنيا: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١] يا لها من ليلة وعاصفة! وأتى من الهم والغم والكدر، وجاء الصحابة وجاءت ريح شديدة وأتى ﷺ يحفر الخندق مع الصحابة فعرضت لهم صخرة كبيرة، فأخذ ﷺ المعول فبرق بارق في الجو قال: «**أريت قصور كسرى وقيصر وسوف يفتحها الله علي**» قال كبار المؤمنين: صدق الله ورسوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] هذا في سورة الأحزاب، فضرب ﷺ الضربة الثانية فبرق بارق فقال: «**أريت كنز كسرى الأبيضان والأحمران وسوف يفتحهما الله علي**» أما المنافقون فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] قالوا: كلمات، فخيب الله سعيهم، ونصر الله رسوله ﷺ.

الشاهد: قبل أن ينجلي الكرب قال رسول الله ﷺ: «**من يذهب إلى القوم يأتيني بخبرهم؟**» الليل ظلام وبرده قارس، يقول حذيفة رضي الله عنه: «**والله إن الإنسان يمد يده ما يراها**».

قال: «**من يأتيني بخبر القوم؟**» يقول ﷺ، واحد منكم يتبرع، فجلس الأبطال: جوع وتعب وسهر وإعياء وخوف وظلام ما ترى الطريق أصلاً، قال: «**من يأتيني بخبر القوم وله الجنة؟ قال حذيفة: أنا**»، (له الجنة) ضمان من محمد ﷺ، قال: فمشيت مرة أطيح، يعني: يطيح في الأرض يمشي، مرة يسير ومرة يقعد ومرة يحبو ومرة يقوم، ويوم وصل عند المشركين؛ لكي يأخذ الخبر، قال: فجلست بينهم، فقال أبو سفيان قائد المشركين: ليتعرف كل منكم إلى من بجانبه، فإنا لا نأمن من محمد أن يرسل هذه الليلة من يأخذ خبرنا، قال: فبدأت أنا بالذي جنبي قبل أن يبدأ، قلت: من أنت؟ قال: فلان، قال: وسكتّ، ومن أنت؟ قال: فلان، لكي لا يبدأ هو بالسؤال، انظر الذكاء، قال: فرأيتهم فأرسل الله عليهم الريح الذي ذكر في القرآن، قال: والله ما تركت قدراً إلا أطاحت به، وقلعت الخيام، قال سبحانه:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]، فنصرهم الله وحاز حذيفة في تلك الليلة جنات النعيم من وعد محمد عليه الصلاة والسلام.

فهذه ليلة الأحزاب إذا ذكرت هذه من أدهى الليالي، ويقول: عدت وإذا رسول الله ﷺ يصلي في الليل وعليه شملة ﷺ فدخلت وأخبرته فدعا لي، يصلي في الليل ﷺ مع السهر والجوع، فهذه ليلة الأحزاب.

يا ليلةَ الجزعِ هلاَّ عدتِ ثانيةً ... سَقَى زمانَك هطالٌ مِنَ الدِّيَمِ



oberikandl.com

مقابلة مع المتنبي

أبـو الطيب المتنبي الشاعـر المشهور شاعر الحكمة والإبداع والفصاحة اتخذ مكاناً عند أهل العلـم وأهل الفهم وأهـل التجربة وأهل الخطابة، حتى صار هو بحـق الأول عند كثير من النقاد في عالـم الأدب، ونحن ندرس مثل هذه الشخصيات؛ حتـى نستفيـد من أدبهـم، ونستفيد مـن حكمهم فتوظف في خدمـة الرسالة الخالـدة، توظف في الإقنـاع، توظف فـي نشـر الفضيلة؛ لأنـه أحياناً يجمـع لـك كلامـاً كثيـراً في بيـت واحد، ثـم إن المنظـوم يسري فـي الناس، وقد صـح عنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال: «**إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة**»، وكان- بأبي هو وأمي ﷺ- يسمع الشعر ويستنشد حسان، ولما ركب معه أحد بني ثقيف قال ﷺ -كما في صحيح مسلم-: «**هل تحفظ لأمية شعراً**» فأنشده مئة بيت والرسول ﷺ يقول عند كل بيت: «هيه هيه» فنحن نأتي إلى هذا الرجل نقصد حكمه ونقصد إبداعه، فلذلك نسأله وهو يجيبنا.

سؤال: ما هي حقيقة الأمن والخوف؟

يقول هو:

ومَا الخوفُ إلا ما تخوَّفَه الفتَى ومَا الأمنُ إلا ما رآه الفتَى أمْنَا

معنى الكلام: إن الخوف هو الذي تعيشه أنت وتعتقد أنه خوف ولو لم يكن مخوفاً، فإنه يكفي اعتقادك وخوفك من الشيء أنه قد وقع بك الخوف، أحياناً أمور عند بعض الناس لا تخوف، لكنه هو يعيش الخوف، إذاً فهو خائف، بغض النظر عن الأمر الذي يعيشه أمخوف هو أو لا؟ ولذلك بعض الناس تجده في همّ من أشياء يتوقع أنها سوف تقع وهي أصلاً قد لا تقع، فيقول له الناس: أنت ماكث في خوف أصلاً؟ بينما هو خائف، إذاً فهو يعيش الخوف.

وتعيش آمناً مستقراً وأنت في عين العاصفة وأنت في أزمة وأنت في كرب فما دمت آمناً فهذا الأمن، باختصار: ليس الأمن أن تتجرد من كل المزعجات حولك ومن كل كربات قد تكون فيها ولكنك آمن، إذاً فأنت آمن، وليس الخوف أن يكون عندك مشكلة أحياناً أو يكون شيء مخوف، لا، أو ليس عدم الخوف أن يكون عندك مشكلة، هو الشعور الذي تعتقده أنت، الآن كثير من المحزونين تراه محزوناً وعنده أسباب السعادة، فنقول هو ذا محزون، وإذا قلت: هو مسرور لأن عنده مالاً وعنده أبناء وهو صحيح ومعافى، نقول: لا، هو يعيش الحزن، ما الفائدة من هذا؟ فهو في عين العاصفة، والخوف والرجاء، قال بعضهم:

وأحلَى الهوىَ ما شكَّ في الوصلِ ربُّه وفِي الهجرِ فهوالدهرَ يرجُوويتقِي

يقـول: أحسن الهوى أن تشك في الوصل؛ لأنك ما تدري هل تستمر المحبة أو تنقطـع، ترجو وتتقي وتخاف؛ لأنـك إذا أمنت انقطع عنك محبوبك انقطع تماماً، فـلا تتعلق به، سلـوت عنه، وإذا اقترب منـك وتملكته ما تجد عنـدك شوقاً، لكن أحسن شـيء أنه بعيد قريب تخاف من الوصل وترجو اللقاء، فهو دارس لنفسيات الناس يأتي بحكمة.

ولذلـك بنى الله سبحانـه وتعالى الأمر علـى الخوف والرجاء منـه سبحانه وتعالـى فـلا ييأس مـن روح الله إلا القـوم الكافرون، ولا يأمن مكـر الله إلا القوم الخاسرون، فلا تأمن مكره، ولا تيأس من روحه سبحانه وتعالى، فكن بين الرجاء وبين الخوف، وهو أتى بها في حب البشر فكيف بحب رب البشر سبحانه وتعالى.

السـؤال: ما بال الدهر يبقى ويبلى الإنسان؟ الأيـام متجددة والناس يموتون قرنـاً بعد قرن، يذهـب الوجهاء، يذهب الناس جميعاً: الشبـاب والكبار والصغار والرجال والنساء، قال:

إِذَا ما لبستَ الدهرَ مستمتِعاً بهِ تخرّقتَ والملبوسُ لم يتخرَّقِ

أنت لبسـت الأيام تستمتع بها. لبست الدهر والأيـام كأنها لباس عليك، أنت تفنـى ويذوب جسمك، أما الملبوس عليك فباقٍ كما هـو، انظر: أفنت الأيام بإذن الواحـد الأحد الأجيال الأولى والقـرون السابقة ولم يبقَ إلا الليل والنهار، الشمس تطلـع علينا كل يوم، ذهب عـاد وثمود وقرون بين ذلك كثيـراً والملوك والجبابرة والأكاسـرة والأغنياء والأثريـاء والحكماء والشعراء والأدبـاء كلهم ذهبوا، وتطلع الشمس، يقول الصلتان السعدي:

أشـابَ الصغيرَ وأفنَى الكبِير كـرُّ الـغـداةِ ومـرُّ العَشـي

إذا لـيـلـةٌ هـرمـتْ يـومُـهـا ... أتَـــى بـعـدَ ذلـــكَ يـــومٌ فـتِـي
نـــروحُ ونـغـدُو لـحـاجـاتِـنـا ... وحـاجـةُ مَـنْ عـاشَ لا تنقضِي
تـمـوتُ مـعَ الـمـرءِ حـاجـاتُـه ... وتـبـقَـى لـه حـاجـةٌ مـا بـقِـي

سبحان الله! اليوم يبقى نشيطاً، كل يوم تطلع الشمس، كأنه أول يوم والأجيال يموتون والناس يزحفون إلى المقابر.

السؤال: يحاول الإنسان كتم مشاعره فما يستطيع؟ فأحياناً تريد أن تضغط على نفسك ما تظهر السرور في بعض المواقف ولا تظهر الحزن ولا تظهر الفرح، تحاول، لكن مهما حاولت يغلب عليك الأمر، تحاول أحياناً عند الجزع والفراق أن تكتم دموعك، قال هو:

بادٍ هواكَ صبرْتَ أَمْ لَمْ تصبِرَا ... وبكاكَ إذا لم يجرِ دمعُك أو جرَى

يقول: أنت تحاول، لكن ما يستطيع الإنسان كبت مشاعره وعواطفه؛ تظهر في عيونه.. تظهر في خلجاته.. تظهر في التفاتاته.. تظهر في تحركاته.. تظهر في لحظاته.. تظهر في تصرفاته، ما تستطيع، مهما كان، وهذه في قصيدته التي مدح بها ابن العميد الكاتب المشهور التي يقول فيها:

مَنْ مخبرُ الأعرابِ أنِّي بعدَهم ... جالستُ جَالنيوسَ والإسْكَنْدَرا
ودرستُ بطليموسَ دارِس كتبِه ... متبدِّياً متعلِّماً متحضِّرا
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لما نوَّرا

وهي من أحسن قصائده، لكن الشاهد: إنك ما تستطيع أن تكتم مشاعرك، لا بد ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] كما قال سبحانه وتعالى.

السؤال: بعضهم يضع من شأن علماء الإسلام، والرموز والأخيار والأبرار، فقال يرد المتنبي:

مَنْ كانَ فوقَ محلِّ الشمسِ موضعُهُ فليسَ يرفعُه شيءٌ ولا يضعُ

إذا بلغ الإنسان من المنزلة مثل فوق الشمس، فهذا لا يستطع أحد أن يرفعه فوق، فليس هناك أرفع، ولا تستطيع أن تخفضه؛ لأنه وصل وأصبح فوق بساط الشمس.

يقول زهير في أبناء هرم:

لو كانَ يقعدُ فوقَ الشمسِ مِنْ كرمٍ قومٌ بآبائِهِمْ أو مجدِهم قعدُوا

لو كان هناك مقعد يستحقه بعض الناس بكرمه ومجده وسؤدده لجلس أبناء هرم بن سنان هناك، فيقول المتنبي: إذا ارتفع الإنسان وصار ذا مكانة اجتماعية قوية وأسس ذلك بأخلاق نبيلة وسيرة محمودة عطرة وثناء جميل ومواهب ربانية فلا يزيده القدح إلا رفعة ولا يزيده كلام الحساد إلا مجداً، فلا يضعه أحد، ولا يستطيع رفعه؛ لأنه أخذ من المكانة ما لا توصف.

السؤال: ما وصف من أراد العليا؟ ما هي صفاته؟ ما هي بطاقته الشخصية؟ ما هي الأمور التي يقوم بها؟

فيذكر هو أن من صفاته:

كثيرٌ سهادُ العينِ مِنْ غيرِ علَّةٍ يؤرِّقُه فيمَا يشرفُه الفكرُ

يقول: إن النابه الذي يريد عمل الآخرة، حتى المجد الدنيوي تجده كثير السهر، ما تجده يستولي عليه النوم في الليل والنهار، إنما ينام مثل نوم الذئب، فهو دائماً عنده تحرك وتوقد ذهني، يتفكر في المعلومات، يفكر في القراءة، يفكر كيف يصلح بين الناس، يفكر كيف يكون له ثناء حسن، يفكر كيف يكون له ثروة ينفع بها ويتصدق بها، ويصل قرابته، (كثيرٌ سهادُ العينِ) يعني: السهر، (مِنْ غيرِ عِلَّةٍ) ليس بمريض، لكنه سبحان الله كأنه ثعبان في منامه، ليس كبعضهم ينام، وينام عن الصلاة، وينام عن القراءة، وينام عن النفع، وإذا جلس يسمر

جلس ست ساعات وكله ضحك ليل نهار، ولا دمعت عينه، ولا قرأ آية، ولا تدبر موعظة، ولا يفكر في لقاء الواحد الأحد، ولا في صلة الرحم، ولا في نفع العالم، هذا هامد ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١] جثة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١]، وذاك يختلف عنه.

وفد بنو عامر بن صعصعة إلى النعمان بن المنذر، وكان معهم الشاعر المشهور لبيد بن ربيعة، وهو شاب صغير، فلما صلوا إلى هناك ولهم خصم عبسي اسمه ربيعة بن زياد؛ لأن عبسًا قبيلة لا تريد السؤدد لبني عامر بن صعصعة، فقالوا للنعمان بن المنذر: ائذن لوفود العرب إلا وفد عامر بن صعصعة الذي منهم لبيد الشاعر الشاب، فأتى سادتهم ولبيد كان يرعى الإبل؛ لأنه صغير ما يدخل مع الوفد، وكان النعمان بن المنذر قد بسط خياماً في الصحراء في يوم الربيع، فدخلت الوفود إلا وفد عامر بن صعصعة ردهم، قال: ليس لكم قبول عندي؛ لأنه وشى بهم عنده وزير من قبيلة أخرى، فرجعوا مهمومين متأسفين، فقال لبيد: ما لكم؟ قالوا: ردنا من عند الباب، وشى بنا الربيع بن زياد العبسي قال: دعوني، أنا أذهب معكم غداً وأدخل على الملك وأتركه يرحب بكم، قالوا: نحن عجزنا ونحن سادة كبار، وأنت شاب صغير ترعى الإبل، قال: لا، دعوني أنا عندي كلام لو قلته ليدخلنكم النعمان، قالوا: ننتظر لغد إن شاء الله، ننظر هذه الليلة ونعطيك خبراً، فقال سيدهم سيد القبيلة: انظروا له في الليل، إن كان نام في الليل ولا يتحرك، فليس بصاحبنا ولن يذهب معنا، وإن رأيتموه كأنه الثعبان يتقلب على الرمضاء فهو صاحبنا، فأتوا وناموا وجعلوا واحداً يراقبه وهو شاب صغير لا زال غلاماً، فكان يتقلب على جنبه الأيسر ثم إلى الأيمن ثم من الأيمن إلى الأيسر ثم الأيسر كأنه ثعبان في الليل، إلى أن طلع الفجر، فأخبروا سيدهم، قال: والله ما نام وإنه يتقلب تقلباً كأنه ثعبان على الرمضاء في شدة القيظ، قال: هذا صاحبنا، قال: صف لي هذه النبتة؟ نبتة صغيرة؛ لكي ينظر فصاحته، قال:

هذه جسم هزيل، ومطلع ضئيل، ولكن المنظر جميل. بسرعة كلام مثل المواسي، قال: تذهب معنا، فأصلحوا من شأنه ووضعوا له عمامة وألبسوه، شاب صغير لبيد بن ربيعة ولما دخل أول شيء في المهرجان عند النعمان بن المنذر والوزراء ووجوه العرب موجودون، فأدخلوه فلما انتصب قبل النعمان بن المنذر، قال:

أكُلَّ يومٍ لِمَّتِي مقزَّعَةْ ... إنَّ بعيدَ الضيقِ يأتيكَ السِّعَةْ

نحنُ بنُو أمُّ البنينَ الأربعَةْ ... ومنْ خيارِ عامرِ بنِ صعصعَةْ

المطعمونَ الجفنةَ المُدْعدعَةْ ... والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعَةْ

الجفنة الكبيرة، يطعمون. (مدعدعة) يعني: باللحم والثريد، يقول: نحن كرماء. وإذا التقينا بالأعداء وصار الصوت والوليل نضرب الهام والرؤوس، ثم جاء بسبب مقذع في الربيع بن زياد، سب ما يدخل البيوت في الوزير هذا الذي وشى بهم.

فالملك قال: أدخلوا وفد عامر بن صعصعة واطردوا هذا الوزير. والله ما تأكل معي بعدها، والله ما تواطئني، فصار هو شاعرهم وصار خطيبهم بسبب هذه الحادثة.

فقصدي قول المتنبي:

كثيرٌ سهادُ العينِ مِنْ غيرِ علّةٍ ... يؤرقُه فيما يشرِّفُه الفِكْرُ

في الليل يتفكر دائماً في الخطابة، يتفكر كيف يقرأ، يتفكر في المسألة العلمية.

الشافعي نام عند الإمام أحمد إلى الفجر وأخذ يتقلب والإمام أحمد وضع له إناء على مذهب العلماء في قيام الثلث الأخير في السحر وإرسال سهام الدعاء في مناجاة ملك الملوك إذا نزل نزولاً يليق بجلاله سبحانه وتعالى فيقول، في الثلث الأخير: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داعٍ فأجيبه؟»

فالإمـام أحمد مضيف صاحب البيت وضع إبريقـاً وإناء ليتوضأ، ولما جاء الفجر وإذا المـاء بحاله، قال: سبحـان الله! قال: أنت قمت ونمت، أما أنا فما نمت أبداً، لقـد فكرت فـي خمسين مسألة وأنا مستلقٍ على ظهـري وأجبت عنها والحمد لله، فـكان في عبادة وفـي علم وهذا الذي يؤرقه فيما يشرفـه الفكر، يتفكر في معالي الأمور، يتفكر فيما يقربه من الله ويجعل له مكانه.

نعـود إلى المتنبـي ونسأله: هل يهرب مـن الموت؟ الناس قامـوا بالحيل في الهـروب من المـوت، العلاج والـدواء والدعاء بطـول العمر وأخـذوا يهربون من الأزمـات والمشكلات والأوبئة، فنسأل المتنبي: هل يستطيع الإنسان أن يهرب من المـوت؟ والقرآن أجاب أحسن جواب في ذلـك: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، الذي يفر مـن الشيء أين يكون الشيء؟ وراءه خلفـه، قـال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨] يقول: إنه قبلكـم، أنتم تفرون منه وأنتم تلقونه.

قال: (**نعد المشرفية**): السيوف (**والعوالي**) والرماح. (**وتقتلنا المنون بلا قتال**).

يقـول: نحن مستعـدون أصلاً، حتى الأعـداء نستعد لهم بالسيـوف والرماح العوالـي، لكن المشكلة أن الموت يدخل علينا ويقتلنا بلا قتال، فما نستطيع دفعه، يعني: أنت تجهـز الجيش الجرار والحرس والعسكـر والجنود وتتخذ الاحتياطات الأمنيـة وتحـاول أن تدافـع عـن الملـك، ثـم يأتيـك ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] يأتيـك وأنـت تشرب الشـاي، وأنت جالس، وأنت في الطائـرة، وأنت فـي السيارة، وأنت مستلقٍ، فـي أي مكان إذا حانت الوفـاة قطفت الروح، فيقول: (**وتقتلنا المنون بلا قتال**) ما نقاتلها تصرعنا وتأخذنا.

وبعضهـم لا يرضـى إلا بالمحل العالي، بعض الناس همتـه عالية لا يريد في العبـادة إلا أجودها وأحسنهـا وفي العلم أرقاه، وفي العمـل الصالح، وفي الكرم،

وفـي العطية، وفي البذل والتضحية يريد أن يكـون هو المذكور والمصدر والمتوج دائماً لهمته العالية، كما قال:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارِمُ

فأنت بعزيمتك وبهمتك يعطيك الله مثلما تمنيت؛ لأن الذي يريد معالي الأمور همتـه عالية؛ ولذلك لاحظ أنت الذي يريد الصف الأول دائماً تجد أنه يعرف عند النـاس صاحب الصلاة، صاحب الصـف الأول، فيوفقـه الله للنوافل ويفتح عليه سبحانـه وتعالـى في أموره، ويسهل له، تجد الذي يحفـظ كل القرآن، ليس كالذي يحفـظ بعضه، الذي يطلب العلـم والقراءة تجد عنده من الفهـم وتصور الأمور، الـذي يريد أن يعطي لا يأخذ، تجـد الناس يثنون عليه ويعطونه ويبذلون الثناء له، كما بذل ماله لهم، فهذا هو الذي يقصد هنا.

قلنـا: فما رأيك في الحمى؟ هو أصابتـه الحمى ووعكته، والمرض يقدره الله سبحانـه وتعالى على من يشاء من عباده، وفي المرض يتجرد الإنسان من زخرف الحياة ومن زهوها، حتى يقول الشهرزوري لما زار محبوبه، فقال:

مـرِضَـس الـحـبـيـبُ فـزرتُـه فـمـرضـتُ مِـنْ خـوفِـي علَـيه

وأتَـــى الـحـبـيـبُ يـزورُنـي فـشـفـيـتُ مـن نـظـرِي إلَـيـه

يقول: لما مرض وذهبت إليه خفت من المرض، لما رأيته مرضت من خوفي عليه، فأصابني المرض، ولما أتاني ورأيت طلعته البهية تشافيت من المرض الذي كان بي، وهنا يقول المتنبي:

وزائـــرتِـــي كـــأنَّ بـهـا حـيـاءً فـلـيـسَ تـزورُ إلا فِـي الـظـلاَّمِ

يقول: الحمى هذه الزائرة ما تأتي في الغالب إلا في الليل، يقول: سبحان الله تتركني في النهار، فكأنها مستحية ما تزورني إلا في الليل، فإذا أنست في الفراش أتت فوعكتني، يقول:

(**بذلتُ لها المطارِفَ والحشَايا**) يقول: قربت لها الفرش والكنب والبسط الوثيرة.

(**فعافَتْها وباتَتْ فِي عظامِي**) قلت: تفضلي اجلسي. وهذا من تصويره ومن دقته ومن خياله ومن ريشته المعبرة، يقول: إنها تأتي الحمى الزائرة هذه، فأريد أن تجلس وأن تتفضل بالجلوس على المطارف، وعلى الزرابي المبثوثة، وعلى البسط فعافتها وباتت في عظامي، مباشرة في العظام، يقول:

بذلتُ لهَا المطارِفَ والحشَايا ... فعافَتْها وباتَتْ فِي عظامِي

أبنتَ الدهرِ عندِي كلُّ بنتٍ ... فكيفَ وصلْتِ أنتِ منَ الزِّحامِ

يقول: أنت مصيبة يا بنت الدهر، وعندي مصائب كيف استطعت أن تدخلي من كثرة المصائب التي في، تجدين من الزحام طريقاً إلي، فعندي مصيبة الهجر والفقر والغربة والضنا وحسد الحساد والأزمات والمكائد، وأنا قلت له: لو أنه اتصل بالواحد الأحد لكان كفاه، ولذلك إذا كثرت عليك الأمور فارفع اليدين واسأل الواحد الأحد وسوف يكفيك في كل شيء، لا يوجد كفاية إلا معه سبحانه وتعالى، لا عيش إلا معه سبحانه وتعالى، ولا حياة ولا أمن ولا استقرار، ولذلك هؤلاء الشعراء والأئمة ما ننكر أن عندهم عبقرية وعندهم حكمة، لكن عندهم من التمزق والقلق والاضطراب والهم والغم، بخلاف أهل الرضا وأهل الاطمئنان وأهل السكينة وأهل الطمأنينة، مع طاعة الباري سبحانه وتعالى والأنس بقربه جل في علاه.

فمثل شيخ الإسلام ابن تيمية اجتمعت عليه الدنيا تحاربه وضع في السجن، أغلقوا الباب من الحديد والسجان من ورائه فتبسم شيخ الإسلام بصدر رحب وثقة في الله وتوكل عليه وتفويض الأمر إليه سبحانه قال، وهو ينظر إلى السجان وهم يردون الباب، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ [الحديد:١٣] عنده يعني ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣] يقول: تركنا العذاب والمشكلات والشقاء لكم في الدنيا، الرحمة هنا في الزنزانة، الرحمة ما دام أنك مع الواحد

الأحـد، مع ذكره، مع طاعته، مـع عبادته، مع الاتصال بـه، فأنت في أحسن حال وفـي أحسن مقام، ثم قال بقلـب المؤمن الواثق بموعود الله: مـاذا يفعل أعدائي بـي، أنا جنتـي وبستاني في صدري- جنة الذكر والطاعـة والعبادة وحفظ القرآن وصـلاة الليل والرضا بموعود الله سبحانه وتعالى وحـب الخير للناس- أنا جنتي وبستانـي- انظر التصوير الدقيق؛ ولذلـك يعدونها من أجمل المقطوعات الأدبية التـي قالها ابن تيميـة- أنا جنتي وبستاني في صدري أنـى سرت فهي معي، العلم والحكمة والبيان والفقه، حتى يقول الشافعي:

علمِي معِي حيثُما يممتُ يتبعُنِي قلبِي وعـاءٌ لـهُ لا بطنَ صندوقِ

ليس عندي مكتبة محفوظة مثل المكاتب.

إن كنتُ فِي البيتِ كانَ العلمُ فِيه معِي أو كنتُ فِي السوقِ كانَ العلمُ فِي السوقِ

فيقـول ابن تيميـة: أنا جنتي وبستاني فـي صدري، أنى سـرت فهي معي، أنا قتلـي شهـادة. إن قتلوني فأنا شهيـد؛ لأنه يرفع لا إله إلا الله علـم التوحيد، يدعو إلـى الرسالة الخالدة، يدعو إلى المبدأ الحق؛ لتكون كلمة الله هي العليا، أن يكون الديـن كلـه لله، ابـن تيمية لم يطلب منصبـاً ولا حكماً ولا ثـروة ولا داراً ولا قبيلة ولا دافـع لقطعة أرض، وإنما لمنهج الله فـي الأرض؛ ليقيم الحق والإيمان والعدل ورسالة سيد الخلق ﷺ.

أنـا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، وإذا نفوني وطردوني من الوطن وكتبـوا علي بالنفي الإجبـاري، فأنا سوف أسيح في الأرض، أطالع في الكون في كتاب الكون المفتوح.

وفِـي كـلِّ شـيءٍ لَـه آيـةٌ تـدلُّ عـلَـى أنَّـه الـواحِـدُ

أتفكـر في الجبال وفي السمـاء وفي النجوم وفي الحدائق وفي السهول، يقول إيليا أبو ماضي:

وكتابُ الفضاءِ أقرأُ فِيه صُوراً ما قرأتُها فِي كتابِ

سوف أطالع في الكون في حروف القدرة وفي أسطر الوحدانية وفي جمل الصمدانية، والله يكتب ببديع صنعه في الخلق، ويقول للناس: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

قال: وسجني خلوة، قال: وإن سجنوني في الزنزانة فسوف أختلي، أسجد وأتعبد وأتفرغ للطاعة وأذكر الله وأتوب وأتهجد وأصوم وأتلو القرآن بتدبر، وأطلب العلم، وأكتب وأؤلف، هذا ملخص ابن تيمية في حياته، فانظر إليه حتى مرض في السجن وزاره أصدقاؤه، فقالوا: السلام عليكم يا أبا العباس، سلامات ما ترى بأسًا، بارك الله فيك، ولكن عسى لا يوجد خلاف، ماذا تحس به؟ قال بيتين من شعر لشاعر قديم:

تموتُ النُّفوسُ بأَوصابِها ولَم يدرِ عُوّادُها ما بِها

تموت بأمراضها، وما درى الناس بها.

وما أنصفَتْ مهجةٌ تشتكِي أذاهَا إلَى غيرِ أَحْبابِها

يقول: والله ما أنصفنا إن كنا نشكو إليكم ماذا تجني إن اشتكيت إلى إنسان فقير معدم، والإنسان مهما بلغ سؤدده لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الزكام لو ملك الدنيا كلها، قال: ما نشكو إلا إلى ربنا سبحانه وتعالى، فانظر لحياة أحمد بن تيمية، وهو صاحب شريعة، صاحب كتاب وسنة، وأحمد المتنبي عبقري بلا شك وصاحب حكمة، لكنه ممزق يريد الدنيا، يريد الشهرة يريد الإمارة، يريد الحكم، يريد المنصب، يريد البهرج، ولذلك تجد في مدحه طغياناً لافتاً، ويتجاوز في ذمه تجاوزاً مهلكاً، فهذا كلامه في الحمى.

قلنا له: ما رأيك في الفراق؟ فراق الأحبة، البعد عن الأحباب والأصحاب، قال:

لولا مفارقةُ الأحبابِ ماوجدَتْ لها المنايَا إلى أرواحِنا سُبُلاً

انظر المبالغة في الوصف، لو لم نفارق ما كان الموت اهتدى لأرواحنا ولا وجد طريقاً يقصف أرواحنا، فالفراق هو الذي علم الموت الطرق إلى أرواحنا، فعند الفراق نموت، تجد الفراق هذا من أصعب ما يكون، ولذلك له في الفراقيات كلام يقول فيه:

فِراقٌ ومَنْ فارقتُ غيرَ مذمَّمٍ وأَمّ ومَنْ يممْتُ خيرُ ميمَّمِ

ويقول

يا مَنْ يعزُّ علَينا أَنْ نفارِقَهم وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عَدمُ

ويقول الأندلسي ابن خفاجة.

إنَّ يومَ الفراقِ أصعبُ يومٍ ليتنِي متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

قلت: صف لنا نفسك؟ في الوفاء وفي مكارم الخلق وفي التواضع، ما هي الخصلة التي فيك؟ قال:

خلقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلىَ الصِّبا لفارقتُ شيبِي موجعَ القلبِ باكِيَا

يقول: من عادتي أني ألوف وآلف، آلف وأؤلف، عندي وفاء، كل يمدح نفسه، لكن انظر التصوير عنده.

يقول: أنا من عادتي أني ألوف، حتى الصبا الذي يتمناه الإنسان لو شخت أنا وشبت وفارقت الشيب الذي في، وأرجع إلى حياة أحسن لبكيت على الشيب المكروه الممقوت، فكيف لو كنت مفارِقًا شيئًا أسوأ إلى شيء أحسن؟! فأنا في شيبي وقد شاب رأسي لو فارقت هذا الشيب، مع العلم أنه ثقيل الشيب على الناس وعلى المحبين، ورجعت إلى الصبا الذي هو أحسن عمر، وهو عمر الشباب، وعمر القوة، والفتوة؛ بكيت على الشيب؛ لأني ألفت الشيخوخة وألفت سن الهرم، فلذلك يبكي

عليـه، فارقته موجع القلـب باكياً، فأنا ألـوف مع أحبابي إذا فارقتهـم بكيت، أحن لهـم، أحن لأيامهم، أنا وفيٌّ، كل يصف نفسـه، وإلا فهو خرج من عند سيف الدولة وأعطاه، وذهب إلى كافور ومدحه ثم ذمه، مرة يمدح إنساناً ومرة يهجوه.. وهكذا.

قلنا له: بعض الناس يخشع ظاهره فحسب. قال هو:

وإطـراقُ طرفِ العينِ ليسَ بنافعٍ إذا كانَ طرفُ القلبِ ليسَ بمطرقِ

يقـول: إن المقصـود هـو القلب، بعض الناس يظهـر الخشـوع، يظهر عليه سيمـاء الخشوع والتباكي، قلبه في شعاب الدنيا، قلبه يحب الانحراف والشهوات، فيقـول المتنبـي: ترى إطراق العين وهذه الحركات الظاهـرة ما تنفع، إذا ما كان الخشـوع قلبيـاً والإيمان داخلياً فـي القلب وفي النفس، وإلا فبعض الناس يطرق بعينـه، وبعضهم قد يجامل ويبكي، ولكنه لا يتورع عن الحرام، وأكل أموال الناس، وغشـ الناس، وأذية الناس، والظلم، فهذا مـا ينفعه، يقول: فكما أن طرف العين مطـرق فلا بد أن يكون القلب راضياً ساكنـاً خاشعاً مخبتاً بالطاعة؛ لأنه كما قال سيـد الخلـق ﷺ فيما صح عنـه: «**ألا وإن فـي الجسـد مضغـة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» فالقلب محل نظر الرب سبحانـه، فإذا كان القلب مطرقاً خاشعاً منيباً ظهـرت على الجوارح، أما التكلف الظاهـري الذي يفعله بعض المنافقين تجده يتخشع ويتباكى، بينما في قلبه سعار المعصية يريد الانحراف والغش والظلم> فما يجدي.

قلنا: هل للموت من طبيب؟ هل نستطيع أن نأتي بطب يدفع الموت؟

قال:

وقـدْ فـارقَ النـاسُ الأحبـةَ قبلَنا وأعـيَـا دواءُ الـمـوتِ كـلَّ طبيـبِ

يقـول: الأحبة قبلنا مثلما فارقنا حبيبنـا قد فارقوا أحبابهم، كم تعلقوا بهم، وهذا داء الموت أعيا كل طبيب، كم من طبيب أراد أن يكتشف دواء يدفع الموت فما

استطـاع، لا ابن سينا ولا أبو بكر الـرازي ولا جالينيوس ولا بقراط ولا غيرهم من أطبـاء العالم، حاولت الدول، حاولت الشركات والمؤسسات والمنظمات والهيئات الصحية العالمية، فما استطاعوا، لا بد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وقدْ فارقَ الناسُ الأحبةَ قبلَنا وأعيَا دواءُ الموتِ كلَّ طبيبِ

سؤال: ماذا قلت لسيف الدولة لما أصابته الحمى؟

بإمكان الإنسان العادي أن يصل إلى ملك من الملوك أو إلى عالم أو إلى فاضل من الفاضلين أو إلى أحد الأعيان فيقول: لا بأس عليك، وأتيناك وقد حزنا لما مرضت، لكنه يختصر المعاني، أتى إلى سيف الدولة ووجده مريضاً، فقال:

المجدُ عوفِي إذْ عوفيتَ والكرمُ وزالَ عنكَ إلى أعدائِك الألمُ

وما أخصُّك فِي برءٍ بتهنئةٍ إذا سلمتَ فكلُّ الناسِ قَدْ سلمُوا

فهذان البيتان يختصران لك مسافة من الكلام، وكماً هائلاً من الحديث، فهو يجمع لك من الحكمة والرصانة، فيقول: لما تعافيت من الحمى يا سيف الدولة، فقد تعافى المجد، فإن المجد كان مريضاً بمرضك، ولما مرضت مرض المجد.

وكذلك الكرم والجود والبذل والسخاء مرضا لما مرضت؛ لأنه مدحه بالشجاعة ومدحه بالسخاء، فالشجاع تجده إذا أصابه وهن أصاب الشجاعة وهن، وكذلك الرجل الكريم يتأثر الناس الذين يستفيدون منه، فكأنه لتأثره ولمرضه تمرض هذه الصفة التي هي الشجاعة والكرم.

قال: (**وزال عنك إلى أعدائك الألم**) قال: نسأل الله أن ينقل عنك هذا الألم إلى أعدائك الذين ناوؤوك وشنؤوك.

قال: (**وما أخصك في برء بتهنئة**) يقول: أنت إذا برئت وشفيت فلا نهنئك وحدك؛ لأن شفاءك بإذن الله شفاء الناس؛ فإذا سلمت فكل الناس قد سلموا.

وهي أبيات جميلة من قصيدة جميلة.

وأذكـر بالمناسبة أن الشيخ ابـن عثيمين- غفر الله له- لما عولج في أمريكا في مرض موته، ثم رجع كنا في مجلس، فسألني: ما أخبار الشعر؟ وكان المشهد لا يناسب أن تأتي بقصائد وتتفصح للحدث؛ لأن الشيخ كان موجعاً مريضاً، فقلت:

المجدُ عوفِي إذْ عوفيتَ والكرمُ وزالَ عنْكَ إلَـى أعـدائِـك الألـمُ

ومـا أخـصُّـك فِـي بُـرْءٍ بتهنئةٍ إذا سلمتَ فكلُّ الناسِ قَدْ سلمُوا

فقصـدي من هذا: أنك تجـد للمتنبي أحياناً بعض الوقفـات، فلا يحسن إلا هذا الكلام، ولا يحسن إلا أن تقول هذا الحديث.

وأذكـر مـن الوقفات أن ملك النصـارى في طرف أسبانيا فـي البرتغال كان يقاتـل المسلميـن، وكان متجهزاً بجيش كبيـر، فأرسل ليوسف بـن تاشفين قائد المرابطيـن رسالـة يتهـدده فيها، فقلـب ابن تاشفيـن الرسالـة - وكان مجاهداً رجـلاً صالحاً- وإن كان من أخطائه التاريخيـة عدوانه على المعتمد بن عباد في قرطبـة أو فـي إشبيلية، المقصود أنه كتب له تهديداً، وجهز جيشاً يريد غزو بلاد المسلميـن، فقلـب يوسف بن تاشفيـن الرسالة، وكتب في ظهرهـا: (**ولا كتب إلا المشرفية عنده**) المشرفية عنده: يعني: السيوف.

(**ولا رسـل إلا الخميـس العرمـرم**) يقـول: نحـن لن نكتب لـك رسائل، ولن نتفصـح، ولـن نكثر، فما عندنا إلا سيـوف مصلتة مهيأة مؤمنـة سوف تحصدك وتحصد من وراءك.

ولـن نرسل لـك بريداً ورسـولاً يقنعك، وفـد تفاوضي استشـاري بمحادثات دبلوماسيـة، فعندنا خميس عرمرم وهو الجيش، وهذا من أبيات المتنبي. وبالفعل تجهز يوسف بن تاشفين ونزل أسبانيا التي هي الأندلس وحطم النصارى وسحقهم

سحقاً ما بعده سحق، وكان هو من المؤمنين الكبار بالله، ومن المجاهدين الصادقين، أسس دولة الموحدين في مراكش، لكن اعتدى فيما بعد على المعتمد ابن عباد في إشبيلية في كلام طويل، والله سبحانه وتعالى سوف ينصفهم يوم القيامة، ينصف المظلوم ممن ظلمه، نحن لا نقف إلا مع استشهادات الناس.

ومن الاستشهادات أن أحد الزعماء مر بطريق، وكان هناك جزار لا يدري أن هذا الزعيم قد مَر، فرمى أشياء من بقية الذبيحة فوقعت على هذا الزعيم وهو في موكب، فأراد أن يختلع رأس هذا الجزار، فقال أحد مرافقيه من الأدباء: أيها الملك، أو أيها الزعيم، أو أيها الأمير:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ منَ الأذَى حتَّى يراقَ علَى جوانبِه الدّمُ

وهذا البيت أيضاً لأبي الطيب، فقال: عفوت عنه لأجل هذا البيت، وإنما نستشهد بهذا؛ لأنه مطلوب منا في الإسلام من حملة الكلمة الراشدة أن يكونوا بلغاء، ويكونوا فصحاء، وعندهم من التأثير الأدبي ما يقنع السامع، حتى في باب الوعظ؛ لأن باب الوعظ باب شريف يحتاج إلى قافية وإلى آية وإلى حديث وإلى قصة، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[النساء:٦٣] القول البليغ ما يتأتى إلا بفصاحة تقرأ، وبأبيات يستشهد بها وبجملة مفيدة ناصعة وببيان خلاب، وببلاغة متناهية في الحسن، أما أن يلوك الإنسان الكلام لوكاً للناس، ويعجنه عجناً ويتفأفأ ويتمتم فإنه لا يقنع السامع، لا بد أن يكون الإنسان مؤثراً في بيانه؛ ولذلك كان سيد الخلق ﷺ من أفصح الناس فلا يتلعثم ولا يتوقف، وكان يتقن الجملة، من الإقناع، ويهدي أمماً بكلمة واحدة لا كما يقول الزبيري:

ما بِنَا جملةٌ من اللفظِ إلا وابتلَى اللفظُ أمةً مِنْ عفاءِ

سؤال: أمـا ترى أن بعض الناس محظوظ؟ فبعض الناس عندهم حظ، يقول سبحانـه وتعالى في الحـظ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

فيقول هو:

هوَ الجدُ حتَّى تفضُلَ العينُ أختَها وحتَّى يكونَ اليومُ لليومِ سيَّدا

يقـول: حظ من الله سبحانه وتعالى حتى تجـد العينين وهما في رأس واحد، وتجد أن إحداهما أقوى نظراً أو أكثر ملاحة من الأخرى، فيقول: قد يتساوى الناس والأيام، لكن بعضها أفضل من بعض.

وحتـى يكون اليـوم لليوم سيداً: فيوم الجمعة أفضل مـن يوم السبت، فيعطي الله سبحانه وتعالى بعض الناس من الحظ والقبول والحظوة، مع أنهم من أب وأم ويلتقون إلى آدم وحواء وهم بشر، لكنه الحظ من الله.

يقول هذا؛ لأنه يبارك لسيف الدولة في قصيدته التي مطلعها:

لكلِّ امـرئٍ مـنْ دهـرِه مـا تـعوَّدا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدَا

إلى أن يقول:

هو الجدُ حتَّى تفضُل العينُ أختَها وحتَّى يكُون اليـومُ لليومِ سيّدَا

فيقـول: هـذا حظ من الله؛ لأنك لمـا برزت للناس، وتفوقـت عليهم فإن الله أعطـاك هذا الحظ فكنت أنت أكثرهم مقامـاً وأكثرهم قبولاً ورفعة، كما أن عيناً أحياناً تكون أفضل من عين، وهي أختها.

سؤال: كيف يعاقب الحر إذا أخطأ؟ فالناس فيهم رجل شهم وصاحب مروءة، ويعثر أحياناً، يخطئ. وكما يقول الشاعر:

مـنْ ذا الـذِي مـا سـاءَ قـطْ ومَـنْ لـه الـحُـسْـنَـى فـقَـطْ

وأحياناً رجل سفيه طائش كثير الخطأ، كثير الزلات فهل يستويان؟

قال:

ومـا قـتَـل الأحـرارَ كالعفوِ عنهُمُ ومنْ لكَ بالحرِّ الذِي يحفظُ اليَدَا

يقـول: إذا أردت أن تقتـل الإنسـان فلتعفُ عنه، خاصة الحـر؛ لأنه يتأثر من العفـو، ويصبح لك عليه منة، فتجده يستحيي وتجده يـأكل نفسه غبناً وندماً على الإسـاءة التي سلفـت، أما اللئيم فإنـك إذا عفوت عنه يتصـور أن ذلك لقوته هو ولشجاعته وأنك جبان أو أنك خائف منه، ولذلك يقول:

إِذَا أنـتَ أكـرمْـتَ الكـريـمَ ملكتَه وإنْ أنـتَ أكـرمْـتَ اللئيـمَ تـمـرَّدا

وهـذا من بدائعه التي سـار بها الركبان وانتشرت مثلما قـال الشوكاني: قال أحـد ملوك اليمـن لما أتى شاعر له: قـال: أنا أشعر من المتنبـي قال: كذبت، بل المتنبـي أشعـر منك ومـن أبيك وجدك، فإن لـه ثلاث مئة بيت تـدور على ألسنة الملـوك، فضلاً عن غيرهم ومنهـا: (**إذا أنتَ أكرمْـتَ الكريمَ ملكتَـه**) فإن بعض النـاس إذا أكرمته ووجـد إحسانك ويدك البيضاء طوقته وعرف أن المنة لك بعد الله ﷻ، فتجـده يحفـظ الجميل ويحفـظ الإحسان، وكلما مرت بـه إساءات منك أو أتـاه نقص، قال: أنا أذكر أن له مواقف فلن أنسـى مواقفه الجميلة التي مرت، وإحسانه، هل ننسى تلـك الشفاعات وتلك الإكرامات، وتلك المواقف العظيمة، لا يمكن أن ننساها. قال:

إذا أنـتَ أكـرمْـتَ الكـريـمَ ملكتَه وإنْ أنـتَ أكـرمْـتَ اللئيـمَ تـمـرَّدا

فاللئيـم يزداد انحرافاً ويزداد تمـرداً، ويزداد بغياً، يعنـي: ألا تعامل الناس كلهم سواء؛ ولذلك يقول في بيت بعده:

فوضعُ النَّدى في موضعِ السيفِ بالعُلاَ مُضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدَى

يعنـي: إنك في موقف يحتاج منك حزم، ويحتاج منـك شجاعة، فتأتي بحلم وسهولة ولين فلا تصلح، وموقف يحتاج إلى سهولة ولين ورقة فتجعل مكانه الحزم والغلظـة والشجاعة، فلا يصلح، فأحياناً بعضـ المواقف تحتاج إلى صرامة وإلى قـوة وإلى شجاعة فهذا وقتها، ما يقدر ذلك إلا الحكيم، وأحياناً تحتاج الأمور إلى بساطة وإلى لين وإلى عفو وإلى مسامحة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]؛ ولذلـك فإن بعض الناس على ما آتاه الله سبحانه وتعالى مـن قدرات تجده يتغافـل عن الزلات، حتى يقول الإمام أحمد: تسعة أعشار حسن الخلـق في التغافل. إنـك إذا تغافلت مع الزوجة، مع الأخ، مـع الابن، مع القريب، كأنك ما سمعت؛ لكي تصلح الحياة، ولهذا يقول أبو تمام:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ فِي قومِه لكنَّ سيدَ قومِه المُتَغابِي

فتجد عند بعض الناس من الذكاء أنه يتغابى ويتغافل عن أخطاء الآخرين وعن زلاتهم، فالغبي لا يكون سيداً ولا يقود الجموع، لكن هذا الذكي الذي يتغافل ويترفع عن الزلات والأخطاء هو الذي يسود الناس بلا شك، وهذه من بعض بدائعه.

سؤال: ألا ترى كيف يتقلب الزمان بأهله؟

قال:

وصرْنا نرَى أنَّ المتارِكَ محسنٌ وأنَّ خليلاً لا يضرُّ وَصولُ

يقـول: تقلـب بنا الزمـان، وأصبحنا في دهـر نرى الذي يتركنا مـن أذاه قد أحسـن إلينـا، جزاه الله خيراً، لا نريـد أن ينفعنا ولا أن يجـود علينا، ولا أن يقف معنـا ولا أن يشفـع لنا، نريد فقط أن يكف أذاه، فقط لا يؤذينا ولا يتعرض لنا، ولا يشتمنا، ولا يجرح مشاعرنا.

ولذلك ورد في الصحيح عند مسلم من حديث أبي ذر أن الرسول ﷺ لما أوصى أبا ذر قال له: «**فإن لم أجد؟- يعني ما يجد من المعروف ما يسدي- قال: كُفّ أذاك عن الناس فإنها صدقة تتصدق بها على نفسك**» أو كما قال ﷺ، يعني: إنك إذا كففت أذاك عن الناس، فقد تصدقت على نفسك، فما عاد عند الإنسان نفع للآخرين ولا شفاعة ولا إكرام ولا صدقة ولا ضيافة، فليكف يده ولسانه، ويترك الناس من أذاه، يلزم بيته، هذه صدقة، فانظر كيف صاغ المعنى، انظر لهذه العبقرية الملتهبة اللامعة، يقول:

وأنَّ خليلاً لا يضرُّ وَصُولُ

حتى صاحبنا وصديقنا وحبيبنا الذي ما ضرنا فهو وصول، جزاه الله خيراً وصلَنا؛ لأنه ما ضرنا؛ لأن الأصدقاء قليل منهم من يفي.

ونعود فنسأل المتنبي في تجربة أخرى من تجارب الحياة، ونقول له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟ المخطئ هل يشعر بخطئه؟ هل يشعر مثلاً الجاهل أنه جاهل؟ هل يشعر الأحمق أنه أحمق؟ المصيبة أن بعض الناس لا يدري ولا يدري أنه لا يدري كما يقول الخليل بن أحمد: أحط الناس الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

على منهج القرآن: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢] فهم واقعون في الفساد، ولكن لا يشعر أحدهم أنه مفسد، وهذا أشد الناس وأشر الناس، جاهل ولا يدري أنه جاهل؛ لأن الذي يدري يتعلم، فقلنا له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟

قال:

كدَعْواكَ كلٌّ يدَّعِي صحَّةَ العقلِ ... ومنْ ذا الذي يدري بما فيهِ منْ جهلِ

فيقول: مثلما ادعيت أنت فكل يدعي أنه صحيح العقل، فتجد غالب الناس راضياً بوضعه، ويرى أن عنده من الحكمة ومن البصيرة ومن الفتوحات الربانية ويخاف على نفسه من العين وهو لا يحفظ آية الكرسي، ولم يسمع بابن خلدون، ولا يحفظ حديثاً من صحيح البخاري، وإذا قلت له: يا أخي، تعلم، قال: والله عندنا خير الحمد لله، ونحن تعلمنا وسمعنا من المشايخ كثيراً، والدين واضح والحمد لله.

فإذا قلت له: سجود السهو قبل السلام أو بعده؟ قال: الحمد لله نحن نشأنا على خير وعلى دين ولا تدخلونا في مسائل، وإذا قلت له في الكرم قال: الله سبحانه وتعالى يعلم أني لا أحسب للدنيا حساباً، وأن الدراهم عندي مثل التراب. وإذا قلت له: لو تحرص على التواضع، قال: الله يعلم أني مثل النسيم، ويعرف الناس كلهم أن قلبي أبيض، وهو لا يعرف أحداً ولا شيئاً، وقلبه أسود من الليل، فهذه المشكلة؛ لأنه لا يريد أن يتعالج، فلا يستطيع أن يتداوى، فيقول المتنبي:

(**كدعواك كل يدعي صحة العقل**) فأكثر الناس على الدعاوى، حتى تجد من الناس من قد يكون ذا علم، لكنه يزيد في ألقابه، فإذا قلت له: ما شاء الله أنت عندك خير وعلم، قال: أنا أبشرك، فإذا قلت له: أتحفظ الصحيحين؟ قال: بل الستة، أبشرك، لكن لا تخبر أحداً، وقد لا يقيم ثلاثة أحاديث، فالمشكلة الدعاوى.

يقول البوصيري:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات؛ أي: أصحاباً وأدعياء.

يقول أحد العلماء: كل نفس فيها النمرود بن كنعان، لكن منهم من يظهر ومنهم من يكتم، وإنك لو بحثت العالم الآن لوجدت تسعين في المئة منهم كل يدعي فوق ما له، فتجد بعضهم ذا ظلم، لكنه يقول: الله يعلم أني أتحرى في المسائل الدقيقة والجليلة، وهو مظلوم دائماً، هو يقول: يتهمونني ويعلم الله أني بريء من هذا، فهو سبحانه وتعالى يطلع على ما في نيتي، وتجد العالم قال: الحمد لله هذه

المسائـل انتهينا منها، وعرفناها، وقـرأت الحمد لله الكتب، وبدأت أحقق مسائل خفيت على بعض العلماء المتقدمين، سبحان الله! فقد يأتي المتأخر ويدرك ما لا يـدرك المتقدم، يعني أنه أدرك هو ما لم يـدرك مالك والشافعي. وحتى الشعراء إذا جاؤوا فـي المقابلة قال: هذه القصيدة قد ألقيتها وحظيت بالاستحسان، وقد نلت جوائز من جمعية خيرية، ومن مدرسة ابتدائية ليلية لمحو الأمية، فيرى نفسه مقدماً؛ لأن من حوله يلبسون عليه، فهم يسقونه كأس خمر المديح، فأصبح رأسه طاشاً، فأصبح يتكلم بجهل، فيقول:

كدعواكَ كلٌّ يدعِي صحَّةَ العقلِ ومنْ ذا الذِي يدرِي بِمَا فيهِ من جَهْلِ

لكـن من يصوغها إلا أبو الطيب بهذه الألفاظ ويرسلها لك في بيت محفوظ؟ ولذلـك له ألـف سنة الآن، ألف سنة هـذا الشعر وباقٍ في النـاس، حتى عقدوا له مؤتمـرات عالميـة في العالم العربي، منها في المربد لقـاء باسم المتنبي وحضر عبد الله البردوني شاعر اليمن الذي توفي قبل سنوات، وكان المؤتمر عن المتنبي فحضر النقاد والشعراء والعلماء، من كل العالم العربي؛ لأنه شاعر العربية، فجاء البردوني يمدح هذا المتنبي، فقال فيه:

مِـنْ تـلـظِّي لـمـوعِـه كـادَ يعمَى كـادَ مـن شـهـرة اسـمِـه لا يسمَّى

مِنْ تداجِي يا ابنَ الحسينِ أداجِي أوجُـهـاً تـسـتـحـقُّ ركْـلاً ولَـطْـمَـاً

كَمْ إلَـى كَمْ أقـولُ مـا لستُ أعنِي وإلَـى كَمْ أبـنِي على الوهمِ وهْمَا

هـذا هو المتنبي الـذي يمدحونه، فهذه الـدرر هي التي خلدتـه، وإلا فعندنا بعض الشعراء المعاصريـن عنده ثمانية دواوين، كل ديوان مثـل كيس الإسمنت، ما تحفـظ منها بيتاً؛ لأنه يشعر في كل مناسبة، تزوجت بنته فعمل ثلاث قصائد، باعـوا غنمهم فعمل قصيـدة، افتتحت صوامع الغلال فعمـل قصيدة، جاء مخيم صيفـي فعمل قصيـدة في الافتتـاح وأخرى في الختـام، نقلوا الخيمـة فعمل فيه

قصيدة، مدح رئيس المركـز والطباخين والسفرجية، ثم أخرج لنا دواوين، فهذا قد مات هو وشعره.

المتنبـي له ديوان فقـط، ستة آلاف بيت أو خمسـة آلاف ونصف، لكنه طائر فـي الناس، يقول: هو يطير والشعراء يمشون، هذا هو الشعر؛ ولذلك أخذ العلماء والخطبـاء شعره القوي هـذا، أرسلوه على المنابر وأرسلوه عبـر القنوات وأرسلوه عبر الكتب؛ لأنه متفوق عليهم كما يقول:

وما الدهرُ إلا مِنْ رواةِ قصائدِي إذا قلتُ شعرًا أصبحَ الدهرُ منشِدا

حتى الدهر ينشد معي، وهو الذي يقول:

أنا الـذِي نظرَ الأعمَى إلَـى أدبِـي وأسـمعَتْ كلماتِي مَـنْ بِـه صَمَمُ

حتى العمي لا بد أن أريهم أدبي وأطلعهم عليه، وكذلك الذي فيه صمم أدخل المعلومـة في ذهنه من أذنه حتى يسمعها رغم أنفه، هذا هو الإبداع. سؤال: بيننا علماء بين أظهرنا ونرى الناس لا يستفيدون منهم؟

يقول:

وليسَ الـذِي يتبعُ الـوبلَ رائـداً كمَـنْ جـاءَه فِي دارِه رائـدُ الوبلِ

يقـول: ليس من يبحث عن المطـر في واد- كأهل البادية ينظرون إلى الغمام فيلتمسـون مواقـع القطر من وادٍ إلـى وادٍ فتعبوا- ليس حاله مثـل من فوجئ وإذا المطـر عليه في واديه والغيث صـب عليه في منازله ومراتعه فما سافر، قال: هذا مثل من عندهم العلماء بين أظهرهم ولا يستفيدون شيئاً.

قـرأت عن سيرة مالك بن أنس إمـام دار الهجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كان طلابه قد أتـوا من خرسـان وأتوا من الأندلس وأتـوا من المغرب يطلبـون العلم عنده وابنه يطارد حمامة، فقالوا: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: الهادي هو الله سبحانه. الذي

يوفـق هو الله، سبحـان الله تجد عم الرسول ﷺ مثلاً أبا لهب غوى وانحرف عن منهـج الله وهو هاشمي قرشي عم الرسـول عليه الصلاة والسلام، وأما بلال من أرض الحبشة وصهيب من الروم وسلمان من أرض فارس، فهم ينافحون عن الملة ويدافعون بدمائهم وبأنفسهم عن هذه العقيدة الصحيحة الخالدة.

سؤال: ما خلاصة تجربتك مع الناس؟

يأتـي بتجربة طاغية لكنـا لا نوافقه عليها، لكن هذا تصـوره في الحياة وفي الناس، جربهم، لدغ منهم، شوهوا سمعته، تعرضوا له.

قال:

ومـنْ عـرفَ الأيَّـامَ معـرفتِي بِهَا مِنَ الناسِ روّى رمحَه غيرَ راحمِ

يقـول: ليتكم تعرفـون مثلما أعرف، فمن عـرف الأيام والنـاس معرفتي بها وبهم، فلن يرحمهم أبداً، بل يروي رمحه من دمائهم، ويشفي غليله منهم.

فلـيسَ بـمـرحـومٍ إذا ظـفـرُوا به ولا فِي الرَّدَى الجارِي عَلَيهم بآثمِ

يقول: والله لو يظفرون بك فإنهم يقصمون ظهرك، لا تقل: إنهم إخوانك، نحبكم فـي الله، وندعو لكم بظهـر الغيب، ونسأل الله أن يجمعنا بكـم، يقول: لا، هذا فقط لأنهم في منفعة يريدونها منك، لكن يوم يجدون فرصة فإنهم ينقضون عليك.

وهذا ليس بصحيح من حكمه، ففي الناس لئيم وفي الناس غدار وفي الناس مكار، لكن هذا ليس حكماً عاماً، لا والله ففي الناس أوفياء وشرفاء وصلحاء، وفي الناس والله من يقف معك، ويدعو لك وهو صادق في حبه.

لكنه طغى، الرجل هذا عـرف الحياة بهذا المنظر؛ لأنه وجد من الصعوبات ومـن المناوءات ومن المكائد الكثيـر؛ لأن العبقرية دائماً تحـف بالنكبات، تحف

بالمكائد، والرجل بارز، الرجل يستولي الحضور، يخطف الأضواء، له حضور طاغٍ، فهو مشروع فكري ثقافي وجد في تلك الحقبة، فصارت تضرب عليه السهام، يحضر المهرجان مثلاً عند عضد الدولة، فحضر ثمانون شاعراً وهو من ضمنهم، شعراء كبار وعضد الدولة ملك كبير- اقرؤوا ترجمته عند ابن كثير والذهبي- طاغٍ، قتل من قرابته نحو ثلاثة ملوك، وقتل من الملوك الآخرين، حتى ذهبوا في عيد الأضحى، ليسلم عليه الناس والشعراء والأدباء، وإذا هو قد نظم رؤوس الملوك الذين قتلهم، والجماجم علقها، فيقول أحد الشعراء له:

صلِّ يا ذا العُلاَ لربِّك وانْحَرْ ... كلُّ ضدٍّ وشانِئٍ لك أبتَرْ

أنتَ أعلَى منْ أن تكونَ أضاحِيـ ... ـك قروماً من الجِمال تعفَّرْ

يقول: لا تضحي بالجمال ولا البقر ولا الغنم، خلِّ هذه في المجزرة والمسلخ للناس يضحون بها؛ فأنت أكبر من أن تكون أضاحيك قروماً من الجمال تعفر، بل قروماً من الملوك.

كلَّما خرَّ ساجدًا لك رأسٌ ... مِنْهم قالَ سيفُك: اللهُ أكبَرْ

وهذا من أبلغ المدح على الإطلاق الذي قيل في عضد الدولة.

هذا عضد الدولة أقام مهرجاناً في بغداد، مهرجاناً كبيراً حافلاً ودعا له ثمانين شاعراً منهم المتنبي، وحضر الشاعر السلامي الذي يقول لعضد الدولة قبل المتنبي- لأنهم بدؤوا والمتنبي يتأخر؛ لكي يكتسح الحضور ويأخذ الجائزة ويتركهم في خبر كان- قام السلامي قال:

إليكَ طوَى عرضَ البصيرة جاعلاً ... قصارى مناهُ أنْ يلوحَ له القَصرُ

فكنتُ وعزمِي والظلامُ وصارِمِي ... ثلاثةَ أشباهٍ كَما اجتمَعَ النَّسْرُ

وبشرتُ آمالِي بشَخْصٍ هوَ الورَى ... ودارٍ هيَ الدُّنْيا ويومٍ هوَ الدَّهْرُ

فالشخص عضد الدولة والدار بغداد، وهذا من أجمل الأبيات، لكن جاء الصاعقة، فقام المتنبي، فقال:

فدىً لكَ مَنْ يقصرُ عنْ مداكا ... فمَا ملكٌ إذاً إلا فَدَاكا

ولو قلْنا: فدىً لكَ مَنْ يساوِي ... دعونَا بالبقاءِ لمَنْ قَلاَكا

أروحُ وقدْ ختمتُ علَى فؤادِي ... بحبِّك أنْ يحلَّ بهِ سوَاكا

وقدْ حمَّلتَنِي شكراً ثقيلاً ... طويلاً لا أطيقُ لَهُ حِرَاكا

وحاذرْ أَنْ يشقَّ علَى المطَايا ... فلا تمشِي بنَا إلا ابْتَراكا

إذا استشفيتَ من داءٍ بداءٍ ... فأقْتَلُ ما أعلّكَ ما شفَاكا

إذا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ ... تبيّنَ مَنْ بكَى ممَّنْ تباكَى

ومضى بها في قوة وفي أسر وفي إبداع وفي سحر في موج كالجبال حتى أكمل ثمانين بيتاً، فبهت الناس، دهش الناس، أخذ الجائزة على الثمانين، فهو -بلا شك- مبدع في هذا الباب، وسبحان الذي أعطاه الحكم، وأعطاه قوة الأسر، وهذا أمر معلوم.

سؤال: هل تحب الهدية ممن تحب؟ هل تحب الناس من أجل الهدايا والمنافع الشخصية؟

قال:

ومَا أَنا بالباغِي علَى الحبِّ رشوةً ... ضعيفُ هَوى يبغِي عليهِ ثَوَابا

يقول: ما أريد رشوة على الحب، أنا حبي مجرد، أنا لا أحب الناس من أجل الأعطيات، انظر كيف صاغ العبارة، أنا لست ضعيف هوى يريد مصالح من الناس، أحبهم من أجل أن يقفوا معي ويشفعوا لي، من أجل أن يعطوني شيئاً، لا، حبي مجرد صادق للنفس.

وهـو طبعاً ما يحب في الله ولا يبغض في الله عسى الله أن يتجاوز عنا وعنه، لكن هو يقول في الدنيا: أنا حبي شخصي لنفس الإنسان، ولمناقب الإنسان.

لأن ضعيـف الهوى يريـد أن تعطيه وتسدي إليه وتمنحه وتهـدي له، أما قوي المحبـة، فإنـه لا يريد منك مكافـأة، يحبك لما فيك من المعانـي، وهذه قصيدة رائعة، ومع العلم أنه يناقض نفسه في القصيدة التي قالها لكافور:

وفِي النفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سكوتِي بيانٌ عندَها وخِطابُ

هو يريد إمرة، يريد أن يعطيه قرية أو محافظة يتولاها، يقول: عرّضنا وسكتنا، فافهم المطلوب، ففي نفسي شيء مطلوب وأنت ذكي وأنت تعرف الموضوع، دعنا نتفق من الآن، تحرينا وانتظرنا، فأعطني مرادي.

وبهـذا كله لا يخفى على القارئ لديوان المتنبي ما فيه من حكم، وما فيه من إبداع، وغير ذلك.



الشعر والعيون

يقول أبو الطيب المتنبي:

وما انتفاعُ أخِي الدُّنْيا بناظرِه

إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلمُ

يقول: كيف ينتفع الإنسان بعينه أو ببصره إذا كان الظلام والنور عنده سيان، لا يميز بين الحق والباطل، ولا بين الخير والشر، إذاً فكونه يبصر أو كونه أعمى سيان، وهذا من حكمه الفريدة، وقصيدته هذه التي منها هذا البيت هي من أجمل قصائده، حتى يقدمها بعضهم على كل القصائد، ومطلعها:

obeikandl.com

واحـرّ قلبـاهُ مـمَّـنْ قلبُـه شبِـمُ ومَـنْ بجسمِي وحالِي عندَه سقمُ
ما لِي أكتّمُ حباً قد بَرَى جسدِي وتدَّعِي حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

إلى أن يقول فيها:

أنا الـذِي نظرَ الأعمَـى إلَـى أدبِـي وأسـمعَتْ كلماتِي مَـنْ بـهِ صممُ
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنِي والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
سيعلمُ الجمعُ ممنْ ضمَّ مجلسَنا بـأنَّنِي خيرُ مـنْ تسعَى بـهِ قدمُ

وبعد عنه ذلك؛ فما هذا إلا خير البرية رسول الله ﷺ. ثم يقول:

أعـيـذُهـا نـظـراتٍ مـنـكَ صـادقـةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمَنْ شحمُه ورمُ
ومـا انتفاعُ أخِـي الدنيا بناظرِه إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلَمُ

فالناظر هنا البصر والعين.

والعين أكثر من ذكرها الشعراء في قصائدهم وفي أشعارهم وهم يصفونها بأنها الباكية وأنها المتأثرة وأنها التي تظهر سرورالنفس وتظهر جزعها عند لقاء الأحبة أو فراق الأحبة.

والسعد الشيرازي الشاعر الإيراني العالمي المشهور يقول:

بـكَتْ عينِي غـداةَ البينِ دمعاً وأخـرى بالبكا بخلَتْ عَلَينا

يعني: الثانية.

فعاقبتُ الـتِي بالـدمعِ ضنَّتْ بـأنْ أغمضتُها يـومَ التقَينا

والأعور السلمي يقول لما بكى على ابنه، وكانت إحدى عينيه ذاهبة، فقال:

بكيتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ وعينٍ بها ريبٌ مِنَ الحَدَثانِ
عذيرُك يا عينِي الصحيحةُ والبُكا فما لَكِ يا عوراءُ والهملانِ

فهم يصفون العين؛ لأن أكثر ما تفجع فيه العرب بالفراق والبعد والسفر عن الأحباب.

فهذا أبو هلال العسكري يقول:

يا عينُ، صارَ الدمعُ عندَك عادةً تبكينَ فِي فرحٍ وفِي أحْزانِ
طفحَ السرورُ عليَّ حتَّى إنَّنِي مِنْ عِظْمِ ما قدْ سرَّنِي أبكانِي

أحياناً يطفح السرور على الإنسان إلى درجة أنه ما يستطيع أن يعبر إلا بالبكاء، مثل الأم التي يأتي ابنها فجأة من سفر أو مغيبة فتبكي من الفرح.

يقول أنس رضي الله عنه: «ما كنت أظن أن الإنسان يبكي من شدة الفرح، حتى رأيت الأنصار لما تشافى عليه الصلاة والسلام من مرضه قبل مرض الموت وخرج ليصلي بهم ﷺ ووجهه كورقة المصحف، فلما رأوه بكوا من شدة الفرح»، وقال في بعض الروايات: «إنه لما قدم ﷺ من مكة إلى المدينة خرج الأنصار للقائه فبعضهم بكى من شدة الفرح».

ومن شدة الفرح بكى أبي بن كعب لما أخبره عليه الصلاة والسلام أن الله سمى أبي بن كعب في الملأ الأعلى، قال: «وسماني في الملأ الأعلى؟ قال: سماك، فبكى من شدة الفرح رضي الله عنه وأرضاه».

وتفنن الشعراء في ذلك، ومن ذلك بيت جرير المشهور:

إنّ العيونَ التِي فِي طرفِها حورٌ قتلْننا ثمَّ لَمْ يُحيينَ قَتْلانا
يصرعْنَ ذا اللبِّ حتَّى لا حراكَ بِه وهُنَّ أضْعفُ خلقِ اللهِ إنْسَانا

وهذه من أجمل قصائده، ومطلعها:

بانَ الخليطُ ولو طُوِّعَتْ ما بانَا وقطّعُوا مِنْ حبالِ الوصلِ أَقْرانَا

كادَ الهوى يومَ سلمانينِ يقتلُني وكادَ يقتلُنِي يوماً ببَيْدانَا

لا بارِكَ اللهُ فِي الدُّنْيا إذا انقطعَتْ أسبابُ دُنْياك مِنْ أسبابِ دُنْيانَا

وهو رقيق الحاسة، هذا جرير الذي يقول: لو تركني الفرزدق- لكن أشغله الفرزدق- لأبكيت العجوز على شبابها.

وهنا نعود للمتنبي في مسألة العيون؛ لأن له في البكائيات كثيراً، حتى إنه يقول في قصيدة له مشهورة:

أرقٌ علَى أرقٍ ومثلِيَ يَأْرقُ وجَوىً يزيدُ وعبرةٌ تترقرَقُ

ويقول في أخرى:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ تبيّنَ مَنْ بكَى ممَّنْ تباكَى

وهو صاحب ذاك البيت الفريد الذي يقول فيه:

وأنَا الذِي جلبَ المَنِيَّةَ طَرْفُه فمنِ المطَالَبُ والقتيلُ القاتِلُ

يقول: تسببت أنا في النظر، فلما نظرت فتنت وتعبت من هذا النظر فكدت أشرف على الموت، فمن أطالب، من يأتيني، أنا الذي قتلت نفسي، القتيل هو القاتل، وهذا من حكمته وبراعته في صوغ الألفاظ؛ فإنه يأتي بأمور حتى يقول عن الدنيا بيتاً، الشوكاني تعجب من هذا البيت في رسائله، وقال: لا إله إلا الله! ما أدق نظره- يعني نظر المتنبي- فإنه يسقط على الحكمة بامتياز، يقول:

كلُّ دمعٍ يسيلُ منهَا علَيها وبفكٍّ اليدينِ منْه تخلَّى

يعني الدنيا، يقول: لا تصدق الواحد إذا بكى من الدنيا أنه يتوجع، فهو لا يبكي منها متوجعاً، بل يبكي عليها شفقة وحباً لها.

وإذَا الشـــيخُ قـــالَ آهٍ فَمَا مـلَّ مُـقـامـاً وإنَّـمـا العيشَ مَلاَّ

يقـول: لا تظـن الشيـخ الكبير السن إذا قـال: آه، قد ملّ، هو ما مـلّ، يريد الحياة متشبثـاً فيهـا، لكـن العيش هو الـذي ملَّه، هذا في بعض كلام الشراح، أبـداً الإنسان متشبـث بالحيـاة، وكما صح عنه عليـه الصلاة والسـلام: «يهرم ابـن آدم ويشب فيه شيئان: الحرص على المال، والحرص على الحياة» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه من فلسفة أبي الطيب. وعلى ذكر العيون والسهر يقول أبو نواس:

شَكَونا إلَـى أحبابِنا طول ليلِنا فقالُوا لَنا: ما أقصرَ الليلَ عندَنا

يقـول: إنا سهرنا نحن فـي فراقهم وفي بعدهم، ولكنهم علـى عكسنا فالليل عندهم قصير. حتى يقول المتنبي:

سهرتُ بعدَ رحيلِي وحشةً لكمُ ثم استمرَّ مريرِي وارعوَى الوسَنُ

يقول: سهرنا الليالي، ثم نسينا، ثم جاء النوم، ثم رقدنا، ثم نمنا، فأبو نواس يقول:

شَكَونا إلَـى أحبابِنا طولَ ليلِنا فقالُوا لَنا: ما أقصرَ الليلَ عندَنا

لأن أولئك ينامون ونحن لا ننام.

وذاكَ بـأنَّ الـنومَ يغشَى عيونَهم يَقِيناً ولا يغشَى لَنا النومُ أَعْيُنا

وهذه من أجمل الأبيات.

ويقول خالد بن يزيد، وقيل: إنه يزيد بن معاوية وكان شاعراً يقول الشعر:

لا أسـألُ اللهَ تـغْـيـيـراً لـمَـا فعلَتْ نامَتْ وقد أسهرَتْ عينيَّ عَيناهَا

فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدُها والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألْقاهَا

وعلى ذكر الليل وليلى وهذا من الجناس، فقد استخدمه شاعر في ليلى حبيبته، فهو مقرون الليل بليلى قال:

ليلِي وليلَى نفىَ نومِي اختلافُهما ... فِي الطُّولِ والطَّوْلِ طوبَى لِي لواعتدَلا

يجودُ بالطُّولِ ليلِي كلَّما بخلتْ ... بالطَّوْلِ ليلَى وإن جادَتْ بِه بَخِلا

وهذا تلاعب بالألفاظ، وهذه من الأبيات المرقصة المنعشة المدهشة، ولا يستطيع أن يقولها إلا كبار الشعراء.

ويستحسن البكاء الذي ليس فيه جزع عند الوفاة- وفاة الحبيب- حتى إن سيد الخلق ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم قال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم، لمحزونون**» فجمع ﷺ بين الإيمان بالقضاء والقدر والرضا والصبر والرحمة.

ويقول أبو تمام لما قتل محمد بن حميد الطوسي، بطل قتل في معركة مع الروم، وهو من القادة العسكريين لكبار للمعتصم يقول:

كذَا فليجلِ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ ... فليسَ لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذرُ

توفيتُ الآمالُ بعدَ محمدٍ ... وأصبَح فِي شغلٍ عن السَّفَرِ السفرُ

تردَّى ثيابَ الموتِ حمراً فما أتَى ... لها الليلُ إلا وهيَ من سندسٍ خُضْرُ

ثوَى طاهرَ الأردانِ لم تبقَ بقعةٌ ... غداةَ ثوَى إلا اشتهَتْ أنَّها قَبرُ

والقصيدة المليحة هي من أحسن المراثي، وإنما الشاهد: (**فليس لعين لم يفض ماؤها عذر**) لأننا نتكلم عن العيون، حتى يقول عبد الله الصغير الأمير الأندلسي لما ضيع الملك، اشتغل باللعب واللهو فضاع ملكه في الأندلس، كان أميراً فذهب ملكه، فأتت أمه تقول له:

ابـكِ مثـل النساء مجداً مضاعـاً لم تحافظ عليه مثل الرجـال، ونقلها بعض الأدباء، فقال:

ابـكِ مثـلَ النِّسـاءِ ملكاً مُضَاعاً لِـمْ تحـافِظْ عليـهِ مثـلَ الـرِّجالِ

وكل الشعراء في الغالب يذكرون الحنين والبكاء، مثلما يقول امرؤ القيس:

قِفا نبْكِ مِن ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بينَ الدخولِ فحوملِ

فكلهم يتعاورون هذا المعنى ويتبادلونه بينهم، ولكن بكاء الندم على التقصير فـي جنـب الله أجمل من ذلك؛ أجمل مـن الهوى والشجا والغـرام والوصل، فهذا منتهٍ، حتى يقول لسان الدين بن الخطيب الأديب الأعجوبة الأندلسي:

جزَى اللهُ عنِّي زاجرَ الشيبِ خيرَ ما جزَى ناصِحاً فـازَتْ يداه بخيرِه

سلكتُ طريقَ الحبِّ حتَّى إذا انتهَى تعـودتُ حـبَّ اللهِ عَـنْ حـبِّ غيـرِه

فهؤلاء يدركون المجد، حتى إن أحد الشعراء الكبار أحالك إلى ما هو أحسن لمن يكون الحب الأحسن والأرقى؟ ولمن تسكب الدموع؟ فقال:

إذا كانَ حبُّ الهائمينَ من الورَى بليلَى وسلمَى يسلبُ اللبَّ والعقْلاَ

فماذَا عسَى أن يصنعَ الهائمُ الذِي سرى قلبُه شَوقاً إلى العالمِ الأعلَى

يقـول: هؤلاء يبكون من أجل الدنيا وهي شيء منتهٍ متصرم، فكيف بمن بكى أو أحـب وصعد قلبه وعرج بروحه إلـى الملأ الأعلى إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه الـذي يُحـب سبحانه، وحبه الباقـي وحبه الذي ينفع الإنسان فـي الآخرة، ولذلك ينبغـي أن تصـرف الدموع له سبحانـه، والحب لـه سبحانه، أما هـذه فأغراض منتهيـة: النسـاء.. الثروة.. الجاه.. المـال.. الشهرة، كلها منتهيـة، أين من ساد وشـاد؟! أين من ملك وسفـك؟! أين من علا وغلا؟! أين مـن صعد وسعد؟! كلهم انتهوا، أصبحوا: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

ولذلك يقول أبو العتاهية في البكاء:

بكيتُ علىَ الشبابِ بدمْعِ عينِي فما أغنَى البكاءُ ولا النَّحيبُ

يعني: كان شاباً ثم فجأة وإذا هو قد شاب.

ألا ليتَ الشَّبابَ يعُودُ يوماً فأخبِرَه بما فعلَ المشيبُ

وهناك شاعر من الشام ذكر في أبيات له أن امرأة جميلة ذهبت إحدى عينيها، فقال:

لها عينٌ أصابَتْ كلَّ عينٍ وعَيْن قَدْ أصابَتْها العيونُ

يقولون: لو اكتفى بهذا البيت لكان أشعر الناس، بيت أحسن من الديوان كله.

أصابتها عين في العين الثانية.

وعلى ذكر الخلاصة من الشيء والزبدة منه:

قالوا: خذِ العين من كل فقلت لهم: فِي العينِ فضل ولكن ناظر العين

ذاك النون الذي في العين أنك تأخذ الخلاصة وتأخذ الموجز وتأخذ الزبدة من كل شيء.

وعلى ذكر العيون، فقد كان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه يرسل عسسه في الليل، ممنوع في منتصف الليل أن يدور أحد؛ لأن معنى ذلك لمن يدور في منتصف الليل أن عنده شبهة أو ريبة، خاصة في القرون الأولى؛ لأنه لم يكن هناك مثل الكهرباء ولا أسواق مفتوحة، فالناس يغلقون محلاتهم ويغلقون دكاكينهم ويعودون إلى بيوتهم، فأمر العسس إذا وجدوا أحداً يدور بعد منتصف الليل أن يسلموه إلى بيت الخلافة، وإذا بثلاثة شباب، فألقى العسس القبض عليهم ورفعوهم، فقال عمر بن عبد العزيز: أدخلوهم علي، ودخلوا عليه، قال: أنت ابن

مـن؟ قـال: أنا ابن فلان الذي كان واليـاً لعبد الملك بن مـروان، يعني: الخليفة، فمـا أعاره اهتماماً، سيان أمر الدنيا عند عمر بن عبد العزيز، فأتى الثاني فقال: وأنت؟ قال: أنا ابن فلان بن موسى بن نصير القائد المشهور، قال: وأنت للثالث؟ وكان شابـاً ذكياً أديباً وهذا ابن قتـادة بن النعمان وقتادة بن النعمان صحابي، أو جـده صحابي حضر مع رسـول الله ﷺ في معركة أحد وقاتـل مع رسول الله ﷺ فضربـه أحد المشركين بالسيـف فسقطت عينه وتدلَّت بعـرق وأصبحت كالعنبة فـي خـده، فأتى وعينه معلقة في خده بعرق، فردها النبي ﷺ وقال: (باسم الله) فردهـا مكانها بيده الشريفـة المباركة ﷺ، فأصبحت أجمل مـن الأخرى. فقال هذا الشاب:

أنا ابنُ الذي سالَتْ علَى الخدِّ عينُه ... فرُدّتْ بكفٍّ المصطفىَ أحسنَ الردِّ

فصـارَتْ إلَـى حسـنٍ كـأولِ مـرّةٍ ... فيا حسنَها عيناً ويا حسنَ مَن ردِّ

قال: فسالت عينا عمر بن عبد العزيز متأثراً باكياً، وقال مستشهداً:

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ مِـنْ لبنٍ ... شِـيبًـا بـمـاءٍ فـعـادَا بـعـدُ أَبْـوالا

وهذا البيت لأمية بن أبي الصلت قاله يسلم به ويبارك لسيف بن ذي يزن في غمدان في اليمن لما انتصر على الأحابيش قال: الذي يريد المجد فليفعل فعلتك ليـس مثلنـا نحن الواحد منا يكون فـي خيمة من شعر إذا مر غـوث أعطاه قعباناً مـن لبن، يعني: قدحين، يشربها وتعود أبوالاً، أما أنت فإنك أسست كياناً وطردت الأحابيش وحررت بلادك، وفعلت يوم الجلاء للدولة، فبارك له ذلك.

وهـذا البيت عنـد العرب استشهد به في مواطن، فأحـد المحدثين كان قبله ألف محبرة، أي: ألف طالب، مع كل طالب محبرة، ألف محبرة وألف عمامة، يوم جلس، قال:

إنِّي إذا احتوشَتْنِي ألفُ محبرةٍ يـروُون: حدثنِي طوراً وأخبـرنِي
ناديتُ فِي الجمعِ والأقلامُ ماثلةٌ تلكَ المكارمُ لا قعبانُ مِـنْ لبنِ

فأخـذ نصف البيـت، واستشهد به شمسـ الدين الحلبـي الخطيب لما دخل صـلاح الدين الأيوبي بيت المقدس وفتحه ورده إلى المسلمين جزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، قال الخطيب:

تلكَ المكارمُ لا قعبانُ مِـنْ لبنِ وهكذا السيفُ لا سيفُ ابنِ ذِي يزَنِ

لأن ابن ذي يزن كان على ملة الكفر، لكن القائد صلاح الدين الأيوبي الكردي البطـل الفاتح قاد المسلميـن وحرر بيت المقدس من النصـارى آنذاك فاستحق المـدح بذلك. علماً بأن سيف بن ذي يزن توسم في عبد المطلب كما مر معنا: أن من نسله سوف يكون رسول الهدى عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك.

ثم نعود إلى بشار، حيث ذكر العين والأذن يقول:

يا قومِ أذنِي لبعضِ الحيِّ عاشِقةٌ والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحْياناً

لأنه أعمى، حتى إنهم يقولون: إنه أعمى القلب وأعمى البصر؛ يعني: لم يكن ذا بصيـرة في العلوم والإيمـان، ولذلك يشكك في معتقده فيما كتب أمره إلى الله سبحانـه وتعالـى. وغضب عليه الخليفة المهدي وهو يسوق لـه أشعاراً فائقة، وهو من كبار الشعراء على كل حال، فلما ذهب بصره قال ذلك البيت.

وقـد قدّم الله السمـاع في القرآن علـى البصر فقـال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨] فبـدأ بالسمـع قبـل الأبصـار؛ لأن مصدر التلقـي الأكثر هـو السمع، والأضبـط هو السمـع؛ لأن الإنسان قد يكون أعمى فيسمـع، وقد يكون في الظلام فيسمع، أما البصر فإنه قد يطرأ عليه العمى ويطرأ عليه الظلام.

ونعود إلى صاحبنا المتنبي يقول:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِه ... إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلَمُ

فإذا كانت الحقائق مشوشة أمامه فلا يميز بين الهدى والضلال، ولا يميز بين الصلاح والفساد، ولا يختار لنفسه فماذا ترجو منه؟! فمثله كمثل الإنسان الذي في الظلام ولا يميز بين النور والظلام، فلذلك وصف الله أعداءه بأنهم عمي، ولم يستفيدوا من الآلات والجوارح التي أعطاهم، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وما بكى أحد واستخدم عينيه في سكب الدموع وصور ذلك في شعره كما فعل العرب، ومن ذلك ما رواه الترمذي: إن عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وقفت على قبر أخيها عبد الله في مكة في الحجون فبكت وقالت: «مثلي ومثلك يا عبد الله كما قال الأول:

وكنَّا كندمانَي جُذَيمةَ برهةً ... منَ الدهرِ حتَّى قيلَ لنْ يتصدَّعا

وعشْنا بخيرٍ في الحياةِ وقبلَنا ... أصابَ المنايَا رهطَ كسرَى وتُبَّعا

فلمَّا تفرقْنا كأنِّي ومالكاً ... لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معَا

وهذه الأبيات استشهدت بها عائشة، وإلا فهي لمتمم بن نويرة في أخيه مالك، لما قتل ساق هذه الأبيات إلى أن يقول فيها:

فليتَ المنايَا كنّ خلّفنَ مالكاً ... فعشْنا جميعاً أو ذهبْنا بِهَا معَا

فهي مبكية، حتى إنه يقول في قصيدة أخرى: إن الحساد أو اللوام والعذال يقولون:

وقالُوا أتبكِي كلَّ قبرٍ رأيتَه ... لقبرٍ ثوَى بينَ اللوَى فالدَّكادكِ

فقلتُ: فدعنِي فالشَّجا يبعثُ الشَّجا ... يقِيناً فهذَا كلُّه قبرُ مالكِ

يقول: القبور هذه ذكرتني مالكاً.

وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأذكـــرُه لـكـلِّ غـــروبِ شمسِ
ولـولا كـثـرةُ الـبـاكـيـنَ حـولِـي ... عـلَـى إخـوانـهـم لـقـتـلـتُ نفسِي
ومـا يـبـكـيـنَ مـثـلَ أخِـي ولـكِـنْ ... أعـــزّي الـنـفـسَ عَـنْـه بـالـتـأسِّـي

ونعود إلى بكاء العرب على الأطلال وتأثرهم بذلك، فهم دائماً يذكرون ذلك، حتى يقول البوصيري في قصيدته الجميلة، الأعجوبة في مدح رسول الله ﷺ، مع العلم أنه غالى فيها مغالاة لا توافق الشريعة في آخرها، لكن في أولها يقول:

أمِـنْ تـذكُّـرِ جـيـرانٍ بـذِي سلمِ ... مزجتَ دمعاً جرَى منْ مقلةٍ بدمِ
أم هبَّتِ الـريحُ مـن تلقاءِ كاظمةٍ ... وأومضَ البرقُ فِي الظلماءِ منْ إضَمِ
فما لعينيكَ إنْ قلتُ: اكففَا همَتا ... وما لقلبِك إنْ قلتُ: استفق يَهِمِ
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِمٌ ... ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ
لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعَاً عَلَى طَلَلٍ ... ولا أَرِقْـتَ لِـذِكـرِ الـبَـانِ والـعَـلَـمِ
نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأَرَّقَنِي ... والـحُـبُّ يَعْـتَـرِضُ الـلَّـذاتِ بـالألَـمِ
يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ... مِنِّي إليكَ ولو أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ
عَـدَتْـكَ حـالِـي لا سِـرِّي بِمُسْتَتِرٍ ... عَـنِ الـوُشـاةِ وَلا دائِـي بِمُنْحَسِمِ
مَحضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إنَّ المُحِبَّ عَنْ العُذَّالِ في صَمَمِ

وهـذا من أجمل ما يكـون في الأدب، وبدأها بذكر إضَـم وسلمى وذي سلم.. ونحـو ذلك؛ لأن العـرب تحب ذكر الديـار، وإذا أردت أن تهيـج مشاعرك فاذكر الديار في شعرك، حتى يقول أبو تمام:

بالشامِ أهلِي وبغدادُ الهوَى وأنا ... بالرقْمتينِ وبالفُسْطاطِ جيرانِي

وابن الفارض يقول:

مـنْ لقلبٍ حلَّ جرعاءَ الحمىَ ضـاعَ منّـي هـلْ لَـهُ ردٌّ عَلَـيّ
فـاسْـأَلُـوا سـكـانَ وادِي سلمٍ فَـهُـمـا بـيـنَ كَـــدَاء وكُـــدِيّ

حتى إن ابن الخياط يقول على ذكر الديار والأوطان:

خُـذَا مِـنْ صبا نجدٍ أمـاناً لقلبِه فـقَـدْ كـادَ ريَّـاهـا يطـيـرُ بلبِّه
وإيَّـاكُـمَـا ذاكَ الـنـسـيـمُ فـإنَّـه متَى يسرِ كانَ الوجدُ أيسرَ خطبِه

فـكان العرب يتأثرون. وإنمـا أذكر هذا لإعادة ذكر البصـر.. ذكر العيون.. ذكـر الدموع، فإنهم يستحضرونها عند الفراقيات، فيسفكون دماءهم، حتى يقول أبو الطيب:

إنَّ الـمحبَّ مضـرجاً بدموعِه مثلَ القتيلِ مضرجاً بدمائِه

في قصيدته التي يقول فيها:

الـقـلـبُ أعـلـمُ يـا عـذولُ بـدائِـه وأحـــقُّ مـنـكَ بـجـفـنِـه وبـمـائِـه
فومَنْ أحبُّ لأعصينَّك فِي الهوَى قـسـمـاً بِـه وبـحـسـنِـه وبَـهَـائِـه

ولا يجـوز القسـم إلا باللّه. إلى أن يقول في البيت الفريد الذي ذاع في الناس واشتهر:

لا تـعـذِلِ الـمُشـتـاقَ فِـي أشـواقِـه حتَّى يكونَ حشاكَ فِي أَحْشائِه

يقـول: لا تعذل إنساناً مولعاً متأثراً، فأنـت لا تعيش مشاعره ولا تدري ما هي النار التي يصطلي بها قلبه، إذ إنه يقول:

وعـذلْـتُ أهـلَ العشقِ حتَّى ذقتُه فعجبتُ كيفَ يموتُ مَنْ لا يعشقُ
وعـذرتُـهـم وعـرفـتُ ذنـبِـي أنَّـنِـي عـيـرتُـهـم فـلـقـيـتُ مـنْـه مـا لـقُـوا

هـذا مـن تجلياته فـي الأدب ومن عبقرياتـه، العجيب أن هـذا الرجل يأخذ المعنـى فكأنه الذي سبق لـه تماماً لما يكسوه من حسن لفـظ وديباجة ثم يقدمه لـك في تحفة من جماليـات الأدب ومن اختيـار اللفظ في حلل لـم يسمع بمثلها؛ ولذلك فاق الذين قبله، إلى درجة أن يقول الواحدي: لما أتى المتنبي أعرض الناس عـن شعر الشعراء حتـى الجاهليين، فاشتغل العلماء بديوانـه، واستشهدوا به في المجامع، ودار شعره عند الملوك، وسار مع السمر، وحدا به الحداة، فكأنه يعيش هذه التجربة، أو كأنه يتصورها وينظر الغيب من ستر رقيق وهو يقول:

وما الدهرُ إلا مِنْ رواةِ قصائدِي إذا قلتُ شِعراً ردّدَ الدهرُ منشِداً

فهـو يصنع الكلمة ويرسلها، بل هو يرى أنه لا يمكن أن يجارى في هذا الباب، ويطلب من سيف الدولة أن يترك كل الشعراء، وألا يلتفت لأحد؛ لأنهم أصلاً يأخذون منـه ويستفيدون منه، وهو المقدم في الجميـع، والحقيقة أنه تفوق في هذا الباب، سـواء في الرثاء.. في الحب.. في الوصف.. في المديح. ولو أن الذي ميزه الحكمة بـلا شك، حتى إنه أرسل للعالمين قصائد أو أبياتاً من الحكمة يستفيد منها النابه والذكي والعالم، وأذكر آخر ما قرأت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي:

وإنْ لَمْ تمُتْ بالسيفِ يوماً مكرَّماً تمتْ وتـذوقُ الـذلَّ غيـرَ مكـرَّمِ

يعني: إنك إمَا أن تموت ميتة شريفة أو تموت ميتة فيها هوان.



المتنبي والخروج على النص

هذه وقفات مع أبي الطيب المتنبي الأسطورة، نقف معه نناقشه ونحاوره ونحدثه ويحدثنا، ولكننا نعتب عليه، نحن اعترفنا بإبداعه وبعبقريته وبنبوغه وفصاحته، ولكنه إذا تجاوز وتطاول على مقام الشريعة ومقام الدين ومقام الملة، القضاء والقدر، المبالغة المجحفة المتجاوزة أوقفناه بالعلم والدليل عند حده.

ففي قصيدة له يمدح أحد الأمراء يقول:

لو كانَ علمُك بالإلهِ مقسَّماً

فِي النَّاسِ ما بعثَ الإلهُ رسولاَ

يقـول: العلم الذي عندك بالله لو قسمته على البشرية لاستغنت البشرية عن أن يرسل الله لهم سبحانه وتعالى رسولاً من رسله عليهم السلام، وهذا غاية الجور وغايـة العـدوان، فأنى ذلك لبشر مسكيـن ممدوح في قرية أو فـي مدينة صغيرة وهـذا ليس بصحيح؛ فإن الله سبحانه وتعالـى أرسل الرسل لحاجة الناس إليهم، فـإن الناس قبل إرسـال الرسل كانوا في ظلام وفي جهل وفي تخبط وفي انحراف عـن منهـج الله ﷻ، فانظـر إليه ما اكتفـى أن يمدح ممدوحه بالكـرم والشجاعة وسـداد الرأي ونحـو ذلك، بل تجاوز، ولذلك وقف العلمـاء عند هذا البيت والذي بعـده؛ فنحن لا نعرف عن ربنا سبحانـه وتعالى شيئاً إلا ما أخبرنا به رسله عليهم الصلاة والسلام وسيدهم وخاتمهم وخيرهم محمد بن عبد الله ﷺ، ثم يقول:

لو كانَ لفظُك فيهِم ما أنـزَلَ الـ ـقـرآنَ والـتـوراةَ والإنْـجِـيـلا

أعـوذ بـالله يقول لهـذا الممـدوح: لو أنـك نشرت علـى النـاس لفظك هذا والفصاحة، لو أنك وزعتها على العالمين، تصدقت بها على الأقوام وعلى البشر ما كان أنزل الله القرآن على محمد ﷺ والتوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وهذا غاية الخذلان والطغيان والعدوان، فإنه اعتدى في هـذا وجمح وأتى بشيء مذهل، إنسان لا يملك شيئاً إن تكلم وأجاد في دقائق، فلا يستطيـع الإجادة في بقية عمـره، ثم يقول: إنه يقوم لفظه مقـام القرآن والتوراة والإنجيـل يعنـي: باختصار هذه هـي الإساءة، ما أدري كيف سكـت هذا الممدوح وكيـف قبـل الأمور وتركهـا على هذا الظاهـر؟ لأنه ما نقل عـن الممدوحين أنهم غضبـوا أو زجروه أو شيء من ذلك؛ لأن الإنسان أحياناً لاستمالته للمديح يقولون: يسكـر بخمر المديـح، فتجده يقول: لا، هو ما قصد هذا إنما قصده كذا وله معانٍ ومقاصد؛ لأن المدح فيه هو.

وهـذا من قصيدة له يمدح بدر بن عمار بـن إسماعيل الذي قتل الأسد، كان فـي عمّـان وأتى الأسد فجـأة، فاجأ أهـل المدينة ودخل، وبدر بـن عمار هذا من

شجعـان الرجال، كان أميراً هناك في الأردن، معاصـراً للمتنبي، فذهب المتنبي ومدحـه، فالواقعة هذه: جـاء الأسد فدخل فجأة في المدينـة وكان سلاح بدر بن عمـار فـي جهة من قصره والطريق تفصل بين دار هـذا وهذا، فما وجد إلا عصا إلا السـوط، فنزل والناس ينظرون وصعدت النساء والأطفال على سطوح المنازل وبدر هذا من شجاعته خرج يلاقي الأسد بسوطه، فلما نزل أمام الناس تواثب هو والأسـد، فضرب الأسد ضربـات متتابعة على رأسه حتـى أسقطه في الأرض، ثم صعد على رأسه وأخذ يفتك به حتى قتله، فيقول المتنبي يمدحه يقول:

أمـعفِّرَ اللـيثِ الـهزبرِ بسوطِه لمنِ ادخـرتَ الصـارمَ المَصْقُولا

لكنه طغى، فليته بقي على هذا الإبداع الأول.

يقول: أنت بسوطك دمغت الأسد كيف لو كان السيف معك، ادخرته لمن؟ ثم يصف الأسد يقول:

(**يطَـأُ الثَّـرى مترفِّقـاً مِـنْ تيهـهِ**) من كبره، يقـول: الأسد أتـى يطأ الطين والثرى من الكبر والعجب والطغيان وقوة الأسد، طبعاً جموح هو ملك الغابة.

(**فكأنَّـه آسٍ يجسُّ عليلاَ**) كأنه طبيب يجس مريضاً في جسمه وينظر علته، وهـذا من أميز وصف المتنبي ومن بلاغته وفصاحتـه المشرقة في هذه الأبيات، لكنـه يسيئ فيعـود فيتجاوز، فيطغى بـه بيانه إلـى شيء يخالف الشـرع والعقل، يقولـون: إن بدر هـذا انتصر في معركة مع النصارى فقـام الخطيب يوم الجمعة قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران:١٢٣] والآية في بدر أعني الموقعة، وفهمت أنهـا في الأمير الذي اسمه بـدر بن عمار؛ لأنه قاد المعركة فانتصر قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران:١٢٣] وهذا من الإشراقات ومن الخطب الإشارية التي تنفع أحياناً في الموضوع.

يقول المتنبي في بدر في قصيدة أخرى:

يا بدرُ إنَّك والحديثُ شجونُ مَنْ لمْ يكنْ لمثالِه تكوينُ

يقول: ما مثلك أبداً في الناس ولا كون الله مثلك، وهذا تجاوز وطغيان، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل والخلفاء وكثير من الصالحين الأبرار والشهداء الأخيار، لكن هو الطغيان.

ثم يقول في البيت الثاني:

لعظمتَ حتَّى لو تكونُ أمانةٌ ما كانَ مؤتمَناً بها جِبرينُ

يقول: إنك عظمت، حتى لو كنت أمانة ما اؤتمن عليها جبريل عليه السلام، وجبريل ينطق: جبرين، وجبريل (باللام) وجبرائيل، وله أسماء كثيرة، يعني: في تصاريف الكلمة ألفاظ، فهنا أخطأ غاية الخطأ، فإن الله ائتمن جبريل على الوحي، على الشريعة المقدسة المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام واصطفاه، وهو أمين على ذلك وأتى بها ولم ينقص حرفاً، فائتمنه سبحانه وتعالى على أعظم شيء وهي رسالة التوحيد والإيمان والشريعة المحمدية الخالصة والله ائتمنه وهو يرسله إلى رسله عليهم الصلاة والسلام فجبريل أمين وهو روح القدس، وهو له مكانة عند ربه، فأخطأ هذا الرجل، إذ يقول: لو كنت يا بدر، أمانة ما كان ائتمن الله جبريل على هذه الأمانة، فأخطأ المتنبي وأسرف وأساء وتعدى والله الموعد.

ويقول في قصيدة له أخرى في بدر:

ما يرتجَى أحدٌ لمكرمةٍ إلا الإلهُ وأنتَ يا بدرُ

فأتى بالواو المشركة، فالله وحده سبحانه وتعالى هو المرتجى «**وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» فلا يملك الضر ولا النفع ولا أن يصل

ولا يقطع ولا يحيي ولا يميت ولا يعافي ولا يشافي إلا هو وحده سبحانه، وانظر إلى الجموح، حين يقول: (وأنت يا بدر) الله وأنت، حتى قال ﷺ وقد سمع رجلاً يقول ما شاء الله وشئت قال: «**ويحك ويلك أجعلتني لله نداً، بل: ما شاء الله وحده**» فلا يؤتى بالواو المشركة بين الخالق سبحانه القوي، الغني، الماجد، الواجد، الأحد، الفرد، الصمد، وبين العبد الضعيف المذنب المقصر، لا يجمع بين الخالق والمخلوق بواو، فهذا من خطئه، وإلا فإبداعه وفصاحته في جانب، لكن متى تعلم الشرع هو؟ متى جلس في حلقات العلم وفي مجالس الذكر، وتعلم الحديث والعقيدة والشريعة؟ ما تعلم، هو تعلم البيان، نعم، الشعر والقافية وهو صاحب حكمة وقوي في إيراده، ويستفاد منه في بدائع شوارده وفوائده وقلائده، ولكنا نقف معه إذا طغى على شرع الله وتجاوز ما ينبغي ألا يتجاوز فيه، إذا وصل إلى الخطوط الحمراء أوقفه أهل العلم، وقد ألف بعضهم رسائل في هذه الأبيات وردوا عليه، كابن الجوزي وحتى ابن القيم لمح له، وابن كثير في البداية والنهاية، ومنهم من أفرد رسائل يعالج شعره؛ لأنه شغل الناس في حكمته وفي مديحه وفي طغيانه وعدوانه وفي تجاوزه اللفظي وفي تشبيهاته، وفي مشكلاته، هو رجل مثير، ثم قال:

أمَا وحقِّك وهوَ غايةُ مقسمٍ ... للحقُّ أنتَ وما سُواكَ الباطِلُ

انظر يقسم بحقه ولا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى أو بصفة من صفاته جل في علاه، أو بكلامه، فيقول هنا: (وحقك) وهذا أقسم بغير الله سبحانه وتعالى، ثم انظر التجاوز يقول: (وهو غاية مقسم) إذا أقسمنا بك، وأخطأ فالغاية: القسم بالله، وتالله، وايم الله، ووالله، فلا يقسم إلا بالله وهو غاية القسم حتى الجاهلي النابغة الذبياني كان أعقل منه مع العلم أنه في الجاهلية وهذا في الإسلام، المتنبي في آخر القرن الثالث وأول الرابع، والنابغة الذبياني قبل مبعث الرسول ﷺ؛ ولذلك تجد النابغة يقول:

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهَبُ

يقول: والله إني حلفت لك بالله وليس وراء الله مقصد آخر، لا أعظم من الله ولا أكبر من الله، يقول النابغة الذبياني لكي يعتذر منه، فانظر إلى هذا وهو في الإسلام يقول:

أمَا وحقِّك وهوَ غايةُ مقسمٍ للحقُّ أنتَ وما سواكَ الباطلُ

وهذا خطأ، بل الحق هو الله وحده سبحانه، وكذلك قوله حق، ونبيه حق عليه الصلاة والسلام، والأنبياء حق عليهم السلام، واليوم الآخر، والقرآن والجنة والنار، فانظر إليه يقول: سوى هذا الممدوح باطل وهذا تجاوز، ثم جاء إلى سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، فقال:

لحبُّ ابنِ عبدِ اللهِ أولَى فإنّه به يبدأُ الذكرُ الجميلُ ويختمُ

يقول: حبك أولى يا سيف الدولة، فإنا نبدأ بك الكلام ونختم بك في الحديث، فأنت يبدأ به، وقد أخطأ وزل وسقطت به قدمه، كيف يكون سيف الدولة يبدأ به الكلام؟! بل يبدأ باسم الله سبحانه وتعالى، بسم الله الرحمن الرحيم، «وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أجذم» فبالله يبتدأ الكلام ويختتم، وبالصلاة والسلام على رسوله عليه الصلاة والسلام، قال: يبدأ الذكر الجميل ويختم بذكرك أيها الأمير، فقبل أن يخلق سيف الدولة وبعدما مات، كل الذكر يبدأ بالواحد الأحد فهو البداية سبحانه وتعالى، وابدأ بما بدأ الله به سبحانه وتعالى مثل البسملة، وذكره سبحانه وتعالى الحمدلة، الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين ﷺ، ولكن هذا من تجاوزه.

ويقول له في القصيدة نفسها:

فلاَ موتٌ إلاّ مِنْ سنانِك يُتقَى ولا رزقٌ إلا مِنْ يمينِك يُقسَمُ

يقـول: الموت ما يأتي إلا من سنانـك من رمحك، ولا يتقى إلا منه، والرزق لا يأتي إلا من يمينك.

أخطـأ وكذب، بل الرزق يأتي من عنـد الواحد الأحد، فهو الذي رزق الخليقة قبل أن يخلق هذا وأمثاله، قبل أن يخلق الممدوح سيف الدولة والله رزق الكائنات فـي البـر والبحـر والجـن والإنسـن: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦] وأيضاً الموت كتبه سبحانه وتعالى على العالم من قبل أن يخلق هذا، فالله الـذي قدر المـوت والحياة، وهو الذي خلـق الموت والحياة سبحانـه وتعالى، وهو الرازق وحده لا إله إلا هو.

والآن نعود إلى المتنبي ونقف معه في بعض تجاوزاته يقول في الممدوح:

الَّـذِي لـيسَ عَـنْه مغنٍ ولا مِنْـ ـه بـديـلٌ ولا لِـمَـا رامَ حـامِ

يقـول: أنـت أيها الممـدوح، لا غنى عنك ولا أحـد يغنينا عنـك، والله سبحانه وتعالى هو الذي يغني، وهو الذي أغنى وأقنى، لكنه تجاوز؛ ليريد مالاً مقطوعاً، مالاً قليلاً منتهيـاً زائلاً من هذه الدنيا المزخرفة المنتهيـة الزائلة الغدارة الغرارة، ولو كان عنده علم راسخ، وفهم وعمل صالح وورع لما كان تجاوز؛ فمن الذي يرزق من في السمـوات ومن في الأرض إلا الله، وتكفل بـأرزاق الخلائق إلا هو جل في علاه، قال: (ولا مِنْه بديلٌ) يقول: ما لنا عنك بديل، إذاً فمن الذي ينصر ويكفي ويشفي ويعافي، بـل الله سبحانـه وتعالى يغني عن الجميع، حتى يقول أحـد الصالحين: إذا كان الله معـك فمـن تخاف، وإذا كان الله ضـدك فمن ترجو؟ ويقول: مـن وجد الله وجد كل شـيء، ومـن فقد الله فقد كل شيء، فالغنـى معه سبحانه والعـز والمكانة والمغفرة والشـرف، لكن انظر إليه يذهب إلى بشر مذنب مخطئ مقصر ويتجاوز في حده في المديـح، ويقـول: (ولا لِمَا رامَ حامٍ): إذا قصد شيئاً فلا يحميه حامٍ، هو إذا أراد أن ينتقم لا يمنعه مانع، وهذا كله لله سبحانه وتعالى وإنما تجاوز بلا شك.

وفي قصيدة أخرى يقول:

لا تعذلِ المُشتاقَ فِي أشواقِه حتَّى يكونَ حشاكَ فِي أحشائِه

وهو من أجمل الأبيات، لكنه في القصيدة نفسها يقول في أولها:

فومَنْ أحبَّ لأعصينَّك فِي الهوَى قَسَماً بِهِ وبحُسْنِه وبهائِه

يقول هو: أقسم بحب من أحب؛ بمحبوبته إني أعصيك يا لائمي في الهوى، فلا أسمع للومك، قسماً بمحبوبي وقسماً بحسنه وقسماً ببهائه، وقد أخطأ وتجاوز الحق والحد، والقسم بغير الله شرك، وعند أهل العلم من أهل السنة أنه شرك أصغر، فلا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى.

«**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**» وفي حديث صحيح قال عمر: «**فما حلفت بغير الله أو بآبائي ذاكراً أو آثاراً**» فلا يجوز أن يحلف الإنسان لا بالشمس ولا بالقمر ولا بالسماء ولا بالإنسان، إنما يقسم بالله العظيم وحده سبحانه وتعالى، وويل لمن أقسم بغير الواحد الأحد، فالقسم تعظيم، ولا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، لكنه لجهله بالشريعة قال هذا.

وسبحان الله! بعض الناس يصرف عمره - انظر لهذا النابغة العبقري المتنبي - كله ستة وأربعون أو ثمانية وأربعون، صرفه كله في القافية ومطاردة الدنيا، يريد شهرة ويريد ظهوراً ويريد جاهاً دنيوياً منتهياً، ما تعلم من العلم شيئاً، حتى لا يعرف الحديث الصحيح ولا الضعيف، ولا درس الروايات ولا شيئاً من الفقه، وحتى لو تسأله في نواقض الوضوء لما أجاب، فعبقريته ذهبت وجنحت، حتى يطغى في ألفاظ الشرع.

ويقول في مرض سيف الدولة:

وكيفَ تعلُّكَ الدُّنْيا بشيءٍ وأنتَ لعلَّةِ الدُّنْيا طبِيبُ

يقول: كيف تمرضك الدنيا، وأنت الطبيب لكل علة في الدنيا؟ والطبيب حقيقة هو الله؛ كما قيل لأبي بكر وهو مريض: «ألا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب قد رآني، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد» ولذلك قال بعض الصالحين:

كيفَ أشكُو إلى طبيبِي ما بِي والذِي قدْ أصابنِي منْ طبيبِي

فهذا لا يطلق، إنه وصف لله ﷻ، ليس من أسمائه، لكن من أفعاله سبحانه وتعالى إنه يداوي وإنه يعالج، وهو يقول هنا: (**وكيف تعلك الدنيا بشيء**) الدنيا لا تستطيع أن تمرضك؛ لأنك أنت الطبيب العالم الذي تعالج من كل علة من الدنيا، وهذا هو التجاوز، حتى إن ابن سينا كان يعالج من مرض القولون، ابن سينا الطبيب المشهور أبو علي هذا الرئيس، كان داهية من دهاة الناس ومن أذكيائهم، لكن على غبش في تصوره في بعض المسائل، وقد رد عليه الغزالي وغيره من العلماء، فهنا يقول ابن سينا لعجبه بنفسه: أنا لو مرض الجن بالقولونج لعالجتهم، كان يعالج الملوك من مرض القولون، فابتلاه الله بمرض القولون- نفس الطبيب أبي علي- فراح يتناول العلاج والعقاقير والأدوية وأخذ يتقلب ظهراً لبطن ويميناً ليسار ويصيح صياحاً، قالوا: فأين طبك وعلاجك ودواؤك؟ قال: الطبيب الأعظم أمرض الطبيب الأصغر، فمات.

فالواحد الأحد هو الذي يشفي ويعافي هو سبحانه وتعالى، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠] فلا يشفي إلا الله سبحانه وتعالى، «**لا شفاء إلا شفاؤك**» كما صح عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

ثم يقول في أبيات أخرى للممدوح:

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشِعةً لَه تفارِقُه هلكَى وتلقَاه سُجَّدا

يقول: إنها تخشع لك الملوك. ولا يخشع الناس إلا للواحد الأحد سبحانه

وتعالى، ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه:١١١]، ويقول: إنها تفارقك هلكى، أنت تقاتلها فتهلك فيها هلاكاً، وإذا لقيتك سجدت لك، والسجود لا يكون إلا لله وحده، ففي حديث يقول عليه الصلاة والسلام، حديث حسن: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» لعظم حقه عليها، ونهي الناس أن يسجدوا إلا لله وحده سبحانه، حتى إن المتنبي من تجاوزه في ألفاظه يقول:

أبدُو فيسجدُ مَنْ بالسوءِ يذكرُنِي فلا أعاتِبُه صَفْحاً وإهوَانا

يقول: إذا رآني الناس الحساد سجدوا، وهم لا يسجدون حقيقة، ولا سجد له أحد، لكنه الطغيان اللفظي وجموح النفس، وحب الصدارة الدنيوية، والشهرة في الأرض المنقطعة، ولذلك أين ذهب؟ حياته الآن منتهية، مات الزاهد ومات العابد والمتكبر والفقير، مثلما يقول الكاتب الأمريكي إستيفون كوفي: إني زرت المقبرة فوجدت قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر العامل البسيط، ولاعب الكرة المشهور بقبر الخامل. فتعجبت من هذه المسرحية التي تسمى الدنيا، فأين ذهب الآن؟ هو يحاسب بألفاظه عند الواحد الأحد، لماذا قلت كذا؟ ولماذا تجاوزت؟ ولماذا تعديت؟

ثم يعود إلى تجاوزات أخرى في بعض الأبيات، فيقول لابن العميد:

عربيٌّ لسانُه فلسفيٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُه

قيل: إن القصيدة في ابن العميد، وقال بعض الشراح: بل هي في عضد الدولة فنخصرو، وابن العميد الكاتب قد مدحه المتنبي بقصائد، ومنها:

بادٍ هواكَ صبرْتَ أم لَمْ تصبِرا وبكاكَ إذْ لم يجْرِ دمعُك أو جرَى

إلى أن يقول في القصيدة:

مَـنْ مخبرُ الأعْـرَابَ أنِّـي بعدَهم ... جالستُ جالينوسَ والأسْكندَرا
وقـرأتُ بطليموسَ دارسَ كتبِه ... متـبـدّيـاً متـعـلّـماً متـحضّـرا
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنـتَ الـقـولَ لـمَّـا نـوّرا

فلـو أنه استمر على هـذا الإبداع وهذه الفصاحة والعبقريـة لكنا سكتنا عنه وسكت عنه علماء الشريعة، لكنه يتجاوز، ولذلك لما ذهب لعضد الدولة يقول:

مغاني الشِّعْبِ طيباً فِي المغانِي ... بمنزلةِ الربيعِ منَ الزَّمانِ
ولـكـنَّ الـفـتَـى الـعـربـيَّ فِـيـهـا ... غـريـبُ الـوجـهِ والـيـدِ واللسانِ
فما يُسمَى كفِنْخصرُو مسمّى ... ولا يكنَى كـفـنـخِـصْـرُو كَـانِ

وعضـد الدولة اسمه فنخصرو، فهنـا يقول: عربي لسانه، يقول: فصيح على اللغة العربية، فلسفي رأيه؛ لأنهم يعجبون بالفلسفة من عهد المأمون مثلما يعجب بهـا بعضـ المثقفين الآن ولو ما في رأسه حبـة ولا كلمة ولا فائدة ولا شيء، فيريد فقـط أن يحبـك لك الـكلام ويزوقه. يقول أحدهـم: إنها تنطلق مـن أطر وتنبثق في بوتقـة، ونلتقي على أرضيـة مشتركة؛ لنخاطب الأيدولوجيـة بخطاب مركزي إستراتيجـي. وتبحـث عنه وإذا هو لا يعـرف شيئاً، فالفلاسفة فـي عهد المأمون كانـوا يعجبون بتزويـق الألفاظ، حتى يقول شيـخ الإسلام ابن تيميـة: إني بحثت عـن بضاعتهم فوجدت بضاعة الفلاسفة كلحم جمـل غث على رأس جبل لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، وهذا جزء من حديث أم زرع الذي في صحيح البخاري وروته عائشة عن الرسول ﷺ: «**فأنا كأبي زرع لك**» عليه الصلاة والسلام.

الشاهـد: يقول ابـن تيمية: إن الفلاسفة -يعنـي المنحرفين عن منهج الله- لهـم حظ من قولـه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، وأهل الحديث لهم حظ من قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]، فهم يمدحون بالفلسفة.

ويقـول: (**فارسية أعياده**) والأعيـاد الفارسية محرمة في الإسلام، فإن فيها مـن التقرب إلى آلهتهـم وإلى النار، نـار المجوس، وفيها عيـد النيروز المخالف لديـن الله ﷻ، فيمدحـه ويقول: الحمـد لله أن أعيـادك فارسية، لكنـه لا يعرف الحـلال والحرام طبعاً، لكنا نقـف لننبه الجيل؛ لأنه قد يقـرأ ديوانه أحد الإخوة فيغتـر ويقول: لعل الأعياد الفارسية جميلة وما دام المتنبي زكاها فإن لها أهمية، فنقول: المتنبي ليس بعالم شريعة، ولا يفتي في هذه المسائل.

ثم يقول:

لنَا مذهبُ العبَّادِ فِي تركِ غيرِه ... وإتيانُه نبغِي الرغائبَ بالزهدِ

رَجَونا الذِي يرجونَ فِي كلِّ جنةٍ ... بأرجانَ حتَّى ما يَئِسنا مِنَ الخلدِ

يقـول: إننـا نذهب مذهب الزهـاد الذين تركوا الدنيا ومالـوا إلى ما عند الله ﷻ، فنحـن مثل الزهاد لكننا تركنـا كل الدنيا وملنا إلى هذا الرجل الملك الذي قصدناه، قيل: إنه يقصد عضد الدولة وقيل: بل ابن العميد، لكنني أرجح عضد الدولة.

(رجونـا الـذي يرجون في كل جنـة) يعني: نحن نرجو من هـذا الملك مثلما يرجـو الزهاد والعبـاد في الجنة، نحن نرجو من هذا ونطلـب من هذا ونطمع من عنـد هذا ومـا عنـده ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦] عنده الفقر والله، كل الذي فوق التراب تراب، حتى هو قال في أبياته التي فيها:

أعـزُّ مكانٍ فِي الدُّنا سرجُ سابحٍ ... وخيـرُ جليسٍ فِي الـزَّمـانِ كتابُ

يقول لسيف الدولة:

فليتَك تحلُو والحيـاةُ مريـرةٌ ... وليتك ترضى والأنـام غضاب

إِذا صحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكـلُّ الـذِي فـوقَ الـترابِ تـرابُ

الزعمـاء، الأغنياء، الأثرياء، العلماء، المفكـرون، التجار، تراب يمشي على تـراب، ثم يتحـول التراب إلى تـراب، ثم يدخل التـراب إلى أصله تراباً، ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

يقول: نحن نرجوك مثلما يرجون زهاد الدنيا، كم يساوي العمر هذا؟ أن تذهب عقيدتك وشريعتك ودينك وإيمانك من أجل الدنيا، ثم لو أعطاك كنوز الدنيا.

وأرجان: بلد.

يقول: (**حتى ما يئسنا من الخلد**) يقول: لما دخلنا أرجان هذه نريد أن نخلد فيهـا مثلما يريد أهل الجنة أن يخلدوا في الجنـة، وهو يقول في أرجان هذه وكان وادي شعب بوان في الشمال جميلاً وأخضر يقول:

مـلاعـبُ جِـنَّـةٍ لـو سَـار فِـيها سـلـيـمـانُ لـسَـارَ بـتَـرجـمـانِ

وهذا من أبياته الخاطئة يقول: لو كان سليمان موجوداً وهو الذي يكلم الطير والوحش لما استطاع، ولاحتاج إلى من يترجم له، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى يقـول على لسانه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، كان سليمان عليه السلام يكلم الحمامة، يكلـم النملة، يكلم القمري، تأتي الغزال توقفه وتكلمه ويكلمها، سبحان الذي أعطاه هذا الملك يقول: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥]، ولذلك لا يفرح بالملك بعده، أين سليمان؟ أين قصوره؟ أين الإنس؟ أين الجـن؟ أين تلـك المملكة التي عبرت فـي التاريخ أكبر مملكة فـي الدنيا؟ ولذلك أخطأ المتنبي وتجاوز حين يقول:

مـلاعـبُ جِـنَّـةٍ لـو سَـار فِـيها سـلـيـمـانُ لـسَـارَ بـتَـرجـمـانِ

يقول: الجن يتلاعبون فـي هذه الغابة من سوادها ومن شجرها ومن التفاف حدائقهـا، حتى إن فيها من الحيوانات والطيور، لدرجة أن سليمان يحتاج إلى من يترجم له. وهذا خطأ؛ فسليمان عليه السلام لا يحتاج إلى من يترجم له؛ لأن الله علمه منطق الطير. نسأل الله أن يحفظ ألسنتنا من الزلل وقلوبنا من الرياء.

obeikandl.com

عمر الفتى الثاني

يقول أبو الطيب المتنبي:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ

مَا قَاتَـهُ وَفُضُـولُ الْعَيْشِ أَشْـغَالُ

وهذا أتى به فـي قصيدته البديعة التي يقول في مطلعها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ

فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وفيها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدُ حَتى مَا لِمُفْتَخِرٍ

فِي الْحَمْـدِ حَـاءٌ وَلا مِيـمٌ وَدَالُ

ثم ختمها بتلك الأبيات الشائقة الرائقة البديعة التي يقول فيها:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

وقبلها:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يَشِقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

ومن ضمن القصيدة:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

ومعنى البيت أن الذكر الحسن للإنسان بعد موته عُمُر ثانٍ يُضاف إلى عمره الأول، وحاجة الإنسان ما قاته، أي: إن الإنسان يكفيه في الحياة القوت؛ فإن القوت يقوم بأمورك ويكفيك إذا كنت من المقتصدين الذين يفهمون تبسيط الحياة ويفهمون القناعة ويريدون العيشة الساكنة الهنيئة.

وفضول العيش أشغال: أكثر الأمور التي يتزود بها الناس ويسمونها الرفاهية أو الزيادة على الحاجة، إنما هي أشغال تُشغل الذهن ولا معنى لها كما يقول أبو العتاهية، إذ يرى السعادة في الكفاف ويرى أنها في الهدوء، ولذلك يقول:

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ ... تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَهْ

وَكُوزُ مَاءٍ بَارِدٍ ... تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَهْ

وَمِصْحَفٌ تَدْرُسُهُ ... مُسْتَنِداً لِسَارِيَهْ

خَيْرٌ مِنَ السُّكْنَى بِظِلِّ ... لاَتِ الْقُصُورِ الْعَالِيَهْ

أي: مع المعصية والمخالفة.

مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ ... تُصْلَى بِنَارٍ حَامِيَهْ

فهو هنا يدعوك إلى أن تحسن من سيرتك، حتى يكون لك ذكر آخر وسيرة حسنة، كما يقول ابن دريد، حين لخَّص حياة الإنسان إلى أن يُصبح حديثاً بعد

وفاته، ولا يبقى منه شيء في الحياة، من جسمه وبصره وعيونه فلا يبقى إلا حديث، يقول ﷻ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]. وإبراهيم عليه السلام سأل الله ﷻ مسألة وهي من أحسن ما يُسأل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]. قال المفسرون: هو الثناء الحسن. أي: اجعل لي يا رب العالمين، ألسنة تثني عليَّ وتسلم علي وتذكرني بالخير، فما دام أنه «في الليل والنهار وعلى إخوانه المرسلين» فانظر كيف طلب الثناء الحسن للباقي؛ لأن الثناء الحسن هو تاريخ ومجد؛ لأن الناس شهداء الله في أرضه، فإن شهدوا لإنسان من أهل الخير بخير فهو من أهل الخير وإن شهدوا عليه بشر، فهو من أهل الشر والسوء، كما صح عند البخاري وغيره: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ ثَانِيَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، قَالَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ**». فسئل فقال: «**الأُولَى أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَالثَّانِيَةُ أَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ؛ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**».

ولكن سعى كثير من الناس بجوده وشجاعته؛ حتى يكسب ذكراً، حتى يقول في صحيح مسلم عدي بن حاتم رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ أَبِي كَانَ يُقْرِي الضَّيْفَ وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئًا فَأَصَابَهُ**».

فهو طلب الذكر والسمعة في الناس، فأعطاه الله ﷻ، وأما الدليل على أن حاتمًا يريد الصيت والسمعة، لا أنه يفعل هذا الجود يريد الثواب، فقوله:

أَمَاوِيَّ، إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فهو يريد بجوده أن يُذكر في الناس ويريد أن يتحدث الناس بجوده، فأعطاه الله ما تمنى في الدنيا؛ لأنه طلب وقصد ذلك، وإنما الأعمال بالنيات، فلذلك تجد

أشهر الناس بالكرم حاتم الطائي، يضرب به الناس المثل في الكرم قديماً وحديثاً، فهو طلب هذا الشيء فحصل له، فقال ﷺ: «**إِنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئًا فَأَصَابَهُ**». وهو المقصود من حاتم في قوله:

أَمَاوِيَّ، إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فهو يريد الأحاديث والذكر، ولهذا يقول في أبيات عجيبة في الحماسة لأبي تمام:

أَمَا وَالَّذِي لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ... لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى

وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبِيضَ وَهْيَ رَمِيمُ ... مَخَافَةَ يَوْمًا أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ

فطلب شيئاً فحصل عليه، والله ﷻ يجزي في الآخرة من أراد وجهه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]. لكن من أراد ما عند الله جمع الله له بين الثناء الحسن والأجر العظيم عنده ﷻ.

وابن بقية الوزير لما قُتِل ورثاه أبو الحسن الأنباري؛ قُتِل وصلِبَ في بغداد وسُمِّرَت يداه فقيل فيه قصيدة باقية لا تُنْسى أبداً، وهي من أجل المراثي، يقول أبو الحسن الأنباري فيه:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا ... وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلاتِ

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيبًا ... وَهُمْ وَقَفُوا قِيَامًا لِلصَّلاةِ

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمُ إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

إلى آخر ما قال. فهي من أجل الثناء الحسن الذي يؤرَّخ.

وأحد الشعراء مر بقبر سلْم بن سعيد بن قتيبة بن مسلم- جَدُّه قتيبة بن مسلم، وكان كريماً جواداً- وقد أحسن إليه في الحياة الدنيا، فأراد أن ينصفه، فقال:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلا مَغْرِبٌ إلاَّ وَلَهُ فِيهِ مَادِحُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ ... عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَاصِحُ
وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَكَانَ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّفَائِحُ
سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغُضْ ... فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ- وَإِنْ جَلَّ- جَازِعٌ ... وَلا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
فَإِنْ حَسُنَتْ فِيكَ الْمَرَاثِي وَذِكْرُهَا ... لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ الْمَدَائِحُ

إن من أراد الثناء الحسن والمدح الجميل فعليه أن يفعل فعلاً جميلاً، ولا يقصد مدح الناس، إنما يقصد رب الناس ويقصد الثواب من الله فيؤتيه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ويسوق له الثناء الحسن ويجعل له ذكراً جميلاً ومكانة وقبولاً، أما من يطلب الدنيا فلا يحصل له الثواب وقد يحصل له الذكر المنقطع في الدنيا، كما حصل لحاتم ونحوه، وبالمناسبة فإن عبد الله بن جدعان كانت له جفنة كبيرة يُطعم فيها يحملها أربعة من العمال فيملؤها بُراً وعسلاً وتمراً، أتى ﷺ وهو شاب وأبو جهل معه يتسابقون إلى هذه المأدبة، فزاحم أبو جهل الرسول ﷺ وكان سنهما متقارباً - أكرم الله الرسول محمداً ﷺ - فازدحما فتصارعا أمام الناس، فطرح رسول الله ﷺ أبا جهل وطرحه على ركبته ووطَّاه أرضاً، فلما جاء أبو جهل في بدر قُطِع رأسه فاختلفوا في جثته، إذ أصبح بلا رأس، فقال ﷺ: «**الْتَمِسُوا فَإِنَّ فِي رُكْبَتِهِ آثَارَ جَرْحٍ قَدْ صَرَعْتُهُ عَلَى مَائِدَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جدْعَانَ وَنَحْنُ شَبَابٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ**». فكشفوا الثوب فوجدوا آثار الجرح الكبير أسفل من آثار الشباب، فوجدوا جثته فساقوه وسحبوه كالعيْرِ، حتى أنزلوه في بئر بدر في القليب، فهذه من قصة عبد الله بن جدعان التي حضرها سيد الخلق ﷺ، فكانت مأدبة عبد الله بن جدعان التي كان حضورها مع من حضر أشرف خلق الله ﷺ، ولكنه كانت لطلب المديح الدنيوي، فالذكر الحسن هو ملك بلا شك وهو حياة كما يقول أبو الطيب:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وبإمكانك أن تعلق هذا البيت الحكمة فائدة لك توظفه في سمعة حسنة، وفي قناعة وفي اكتفاء برزق حلال طيب يكفيك.

وعلى ذكر هذا الثناء الذي يشير إليه أبو الطيب المتنبي يرى الحكماء والعلماء أن المال ينتهي وأن المال يبقى، وأن أعراض الدنيا تفنى وأن السيرة الحميدة هي الباقية، ولذلك كم من مسؤول ومن وزير عُزِلَ وما عُزِلَت فضائله، بل بقيت في الناس تذهب وتأتي، وكم من إنسان يتولى من مسؤول ووزير ونحوه وهو على رأس منصبه وليس له ذكر حسن ولا سيرة عطرة، إذاً تعود المسألة إلى مسألة الذكر الجميل والسيرة الحسنة، فلا يكتب تاريخ الإنسان إلا هو، وإن تاريخاً يكتبه غيرك عنك تاريخ مغلوط، يقول برناردشو: إذا رأيت مؤرخاً يكتب عن إنسان فاعرف أن الحقيقة غائبة. لأنه لا يعرف إلا أنت، ولن يتصدق عليك أحد بعد موتك بمحاسن، فالناس والمؤرخون لا يجعلون البخيل جواداً ولا الجبان شجاعاً ولا الفاجر عابداً، فأنت في حياتك هذه العابرة المنصرمة القصيرة، عليك أن تبني مجداً من البر والإيمان والخلق والتواضع والإحسان، فتجده عند الله عزوجل.

كان عمر رضي الله عنه جالساً فأتى أبناء هرم بن سنان- وهرم بن سنان من مشايخ غطفان- وقد تُوُفِّي أبوهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانُ رضي الله عنه وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟**». قالوا: مدحنا وأعطيناه. أي: مدح آباءنا. وزهير بن أبي سلمى كان شاعراً وكان يقول: لن أُسَلِّم على هرم؛ لأنني كلما سلمت عليه وقلت: عم صباحاً؛ أقسم هرم أن يعطيني جائزة، فخجلت من كثرة العطاء. فكان يقول: عِمُوا صَبَاحَاً إِلاَّ هَرِم وَخَيْرُكُمُ مَن اسْتَثْنَيْتُ.

يقول: إلا هرم؛ لأنه كلما صبَّح عليه زهير يعطيه جائزة أو هدية، فاستحيا من كثرة الهدايا. فعموا صباحاً: هذه تحية الجاهلية قبل الإسلام تحية أهل الظلام والشرك، ولذلك يقول امرؤ القيس:

ألا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَـلْ يَعِمَنْ إلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمُ
وَهَلْ يَعِمَنْ من كَانَ فِي الرَّبعِ الْخَالِي قَلِيلُ الْهُمُومِ لا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وهـي اللاميـة، وليست هي مـن المعلقات، لكـن بعض العلمـاء يقدمها على المعلقة؛ لأن فيها حكماً وفيها لموعاً أكثر وسطوعاً، والمعلقة مطلعها:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِوَى بَيْنَ الدّخُولِ فَحَوْمَلِ

الشاهـد قـال عمر رضي الله عنه: «**مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانٌ** رضي الله عنه **وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟**». قالـوا: مدحنا وأعطينـاه. قال عمر رضي الله عنه: «**ذَهَبَ- وَاللهِ- مَا أَعْطَيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أَعْطَاكُمُ**». فـإن ما أعطوه من فضـة أو ذهب أو ثياب أو طعـام انتهى وبقي الثناء الحسن، فنحن الآن نحفظ كلام زهير في هرم، حتى يقول:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ لا يَنْزَعُ اللهُ مِنْهُمْ ما لَه حُسِدُوا

أبوهـم سنان، أي: أبو هرم. محسَّدُون: محسـودون من الناس. وفي الحسود يقول أبو تمام:

اعْذُرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ إنَّ الْعُلا حَسَنٌ فِي مِثْلِ ما حَسَدُوا

يقول: ما أحسن الحسد عليك؛ لأنك عندك نعمة!

ابن الوزير محمد بن إبراهيم صاحب (العواصم والقواصم) أعلم علماء اليمن على الإطلاق، حتى يقول الشوكاني: لو جُمِعَ علماء اليمن في ذاتٍ واحدة ما أتوا مثل ابن الوزير، وكتابه (العواصم والقواسم) طُبِع في تسعة مجلدات، وليس المقصود

كتاب (العواصم والقواسم) كتاب العربي الأندلسي، هذا لمحمد بن إبراهيم الوزير العلامة المجتهد النظار المحدث المفسر الفقيه، وهو في القرن الثامن، وشكا من ظلم حساده لما لمع وبسط -كما يقول أحد الكتاب: إذا رأيت الحساد ينالونك، وسهام النقد تتوجه إليك والناس يرمونك بالطوب فاعلم أنك قد وصلت إلى بلاط المجد وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة لاستقبالك. فهذا محمد بن الوزير شكا من ظلم حسَّاده، يقول أحد العلماء وكتب له فقال:

وَشَكَوْتَ مِنْ ظُلْمِ الْوُشَاةِ وَلَمْ تَجِدْ ... ما زِلْتَ يا سِبْطَ الْكِرَامِ، مُحَسَّدَاً

ذَا سُؤْدُدٍ إِلاَّ أُصِيبَ بِحُسَّدٍ ... وَالتَّافِهُ الْمِسْكِينُ غَيْرُ مُحَسَّدِ

من يحسد المسكين الجالس على الأرض؟ لا يسقط الضعيف الهزيل الفاشل، ومن يتمنى أنه مكانه؟ إنه يمر صفراً وهل للصفر قيمة؟! ولذلك يقول زهير:

مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزَعُ اللهُ مِنْهُمْ ما له حُسِدُوا

الله يبقي هذه النعمة التي سببت الحسد لهم؛ لأن كل ذي نعمة محسود، فما دامت هذه النعمة تسوق لهم الحسد، فأسأل الله ألا ينزع عنهم هذه النعمة، حتى يقول الأسطورة أبو الطيب المتنبي:

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِيَّ فَما ... أُنْكِرُ أَنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ

انظر إلى هذه القوة والعصف والقصف يكسر الرؤوس، فيقول: الله أرسلني عقوبة لهم، الله ابتلاهم بي، الله أحرق أكبادهم وكسَّر أضلاعهم بي، أنا عقوبة. ويقول:

سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ ... إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وتُنِيلُ

كان يضطرم ويتوجع ويحترق، لكن يثور ويقول: ما عندي بأس، لست متأثراً، أنا صامد. لا بد أن يُلتفت له ولا بد أن يكون هو الرقم الأول، فيقول:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي.

حتى يقول ابن الفارض:

وَإِذَا الْحُسْنُ بَدَا فَاسْجُدْ لَهُ.

ولا يُسجد إلا لله وحده ﷻ ولكنها تجاوزات الشعراء.

فَسُجُودُ الشُّكْرِ فَرْضٌ يَا أُخَيْ.

حتى إن نزار قباني يقول في دمشق:

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْق فَأَهْلُهَا ... عَبَدُوا الْجَمَالَ وَذَوَّبُوهُ وَذَابُوا

ولا يُعبد إلا الله ﷻ، قصيدة جميلة بائية يقول فيها:

الْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَيْنَمَا ... أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدْوَلٌ يَنْسَابُ

الشاهد قوله:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحَاً وَإِهْوَانَا

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي ... أُغْتَابُ سِرَّاً وَيُثْنَى فِيَّ إِعْلانَا

الثناء الحسن من ألسنة المؤمنين؛ لأن ألسنة الخلق أقلام الحق، فمن شهد له المؤمنون بأنه خَيِّر فهو خَيِّر ومن شهدوا عليه بسوء فهو سيئ.

أتى رجل يثني على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يبالغ وهو لا يحب علياً رضي الله عنه لكن أتى يبالغ، فقال رضي الله عنه: «**أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ**». أي: أنت في

نفسك لا تراني في المنزلة الرفيعة وبالغت في القول. قال: ما لِلناس اجتمعوا على أبـي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قـال: «**لأنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَـرَ «أَنَا وَأَمْثَالِي وَرَعِيَّتِـي أَنْـتَ وَأَمْثَالُـكَ**». وهذا من الجوابات الساطعـة، فلا يأتي بهذا الكلام ولا يأتي بهذا الجواب إلا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلله عَزَّوَجَلَّ الثناء والمجد، فله الثناء كله والشكر أوله وآخره وله الحمد أجمعه، ولذلك مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون وحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، فهـو جمع المدح كله ويحب الثناء عَزَّوَجَلَّ حتى نقول في الدعاء: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِـكَ لا نُحْصِـي ثَنَاءً عَلَيْكَ**». كما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالثناء الذي لا نستطيعه هو الثناء الذي أثنى به على نفسه عَزَّوَجَلَّ، فما أثنى على الله مثل ثنائه عَزَّوَجَلَّ في نفسه ولذلـك يحمـد عند النعم وعند وقـوع النقم لأعدائه من الأمـم؛ لأنه محمود على المكروه فلا يحمد على المكروه سواه عَزَّوَجَلَّ، فلما أوقع البأس بأعدائه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. لـو كان غيـر الله من البشر لقال: أنزلنا البأس بآل فلان. والله المستعان فهم يلجؤون لهذا، أو يقولون: انتقمنا من آل فلان. وحسبنا الله ونعم الوكيل، لكنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. فـإن إيقاعه بهم وعذابه للطغاة وأخـذه للفجـرة والجبابرة عدل منه عَزَّوَجَلَّ يوجب علينا أن نحمـده، فهو أهل الثناء والمجد جل في علاه ولذلك يحب المدح.

وعنـد مسلم في الصحيح: «**لا أَحَـدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِـنَ اللهِ**». ولذلك مدح نفسـه، وأتـى الأسود بن سريع في مسند أحمد، قـال: «**يَا رَسُـولَ اللهِ، إِنِّي نَظَمْتُ قَصِيدَةً أُثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. قَالَ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ**». ولذلك فالمتنبي يقول في مخلوق، ولكني أعيدها إلى الله الواحد، الأحد فهو يستحقها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتى مَا لِمُفْتَخِرٍ ... فِـي الْحَمْـدِ حَـاءٌ وَلا مِـيمٌ وَدَالُ

وهذا لا يكون إلا لله ﷻ فإن المدح كله والثناء الحسن والشكر لله وحده ﷻ إذ إنه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. فهو الذي استوجب منا أن نمدحه ونحمده جل في علاه ولذلك مدح كثير من الشعراء الله ﷻ كقول أبي نواس:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

عَلَى كُثُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقلت في قصيدة:

يَا رَبِّ حَمْدَاً لَيْسَ غَيْرُكَ يُحْمَدُ ... يَا مَنْ لَهُ كُلُّ الْخَلائِقِ تَصْمُدُ

أَبْوَابُ كُلِّ مُمَلَّكٍ قَدْ أُوْصِدَتْ ... وَرَأَيْتُ بَابَكَ وَاسِعَاً لا يُوصَدُ

الصَّالِحُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ آمَنُوا ... عَافُوا بِحُبِّكَ نَوْمَهُمْ فَتَهَجَّدُوا

ومنهم من مدحه ﷻ فقال:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ ... وَمِنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمَّلُ خَائِبُ

وَفِيكَ وَإِلاَّ فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ ... وَعَنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فهو أجل من يُمدح ﷻ ولذلك أوصيكم بكثرة ذكره وتسبيحه ومدحه ﷻ، والثناء عليه في المجامع العامة والخاصة وفي الأذكار وفي كل مناسبة.

وأبو الطيب على بلاغته وفصاحته وعبقريته أسرف في مدح الناس، ولو أثنى على الواحد الأحد الذي يستحق المديح لكفاه؛ لأنه يأتي إلى مخلوق مثله يأكل ويمشي في الأسواق، فيقول:

جَـزَى اللهُ الْمَسِيـرَ إِلَـيْـكَ خَيْـراً وَإِنْ تَـرِد الْـمَـطَـايَـا كَـالْـمَـزَادِ

بـل جـزى الله المسيـر إلى رب العبـاد خيراً، وأسـأل الله أن يتولانـا وإياكم بالخير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت،
أستغفرك وأتوب إليك.



obeikandl.com